سيكلوچية الإلهام

تأليف

يوسف ميخائيل أسعد

الناشر

مكتبة غريب

٣٢١ شارع كامل صدقي (الفجالة)

ت: ٩٠٢١٠٧

مقـــدمة

فى حياة كل إنسان لحظات إلهام يمكن أن يتذكرها ، وهى تلك اللحظات التى واتته خلالها أفكار رئيسية موجهة أو حاسمة . والواقع أنه على الرغم من أن تلك اللحظات الإلهامية شخصية جداً وذات صبغة ذاتية بحتة ، فإننا نستطيع أن نزعم أن تناول تلك اللحظات بالدراسة النفسية والفلسفية من الأمور الممكنة . ذلك أن الخبرة الانسانية العامة تشير إلى وجود تلك اللحظات الإلهامية فى حياتنا .

على أننا ذهبنا فى هذا الكتاب إلى زعم مؤداه أن الإلهام هبة أو عطية تمنح للمرء بعد توافر شروط معينة فى شخصيته . فليس بمستطاع الانسان أن يكون ملهما ، ولكن بمستطاعه أن يوفر فى شخصيته الظروف أو الشروط التى قد تجعله ملهما . وقد شبهنا الانسان الملهم بجهاز التليفزيون . فالجهاز السليم لا يستقبل صوراً وكلاماً إلا خلال ساعات الإرسال التليفزيونى . ولكن فى غير تلك الساعات ، فإن الجهاز السليم لا يستقبل شيئاً . أما الجهاز العاطل فإنه لا يستقبل صوراً أو صوتاً حتى خلال ساعات الإرسال .

ومعنى هذا أن الإلهام لا يتوفر إلا للشخصية التى توافرت بها مجموعة من الشروط . والواقع أن تلك الشروط لا ترتبط بالعلم والخبرة . فالإلهام لا يكتسب بالتمرين ، ولكن عملية الابانة عما تلهم به هى التى لا تتوافر لنا إلا بعد أن نكون قد اكتسبنا العلم أو الفن أو الخبرة . فالانسان بالقبائل البدائية ربما كان أكثر قابلية لتلقى الإلهام الموسيقى ، ولكن علمه وفنه ودربته على فنون الأداء الموسيقى كانت فجة ، كما كانت الآلات الموسيقية

التى استطاع من خلالها أن يعزف موسيقاه بسيطة وغير ناضجة . وكذا يمكن أن يقال عن جميع الفنون والعلوم والعلاقات الاجتماعية .

وكان من الطبيعى أن نبدأ كتابنا بتقديم التصورات المتباينة للإلهام ، فقدمنا خمسة معان له هى المعنى الغيبى والمعنى الواقعى والمعنى السيكلوجى والمعنى الفردى والمعنى الاجتماعى . وبعد هذا تناولنا سيكلوجية الإلهام ، وذلك من خلال دراستنا للوراثة والبيئة ، والعوامل البيولوجية فى الإلهام ولدور الذكاء والجنس فيه ، ثم عرضنا للاستغراق الإلهامى .

واسترسلنا بعد ذلك خلال فصول الكتاب ، فعرضنا لاكتشاف القارة المجهولة ولمجالات الإلهام وللمعوقات التى تعترض طريقه ولعلاقة الحضارة بالإلهام ولدور التربية فيه ، كما قدمنا نماذج للإلهام من حياة العباقرة ، وكيف يعد المرء نفسه للإلهام ، ثم لأثر المشكلات والصعاب فى الإلهام .

وفى الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب عرضنا للتأمل والهرب إلى الداخل ، ثم لما أسميناه بالتلاقح الخبرى وعلاقته بالإلهام ، ثم أخيراً للاتحاد الثلاثى بالشخصية .

ولسوف يكتشف القارىء بنفسه من خلال قراءته لهذا الكتاب خمس صفات يجده متصفا بها . الصفة الأولى — هى أن هذا الموضوع بكر لم يمسسه أحد من قبل . فما سبق أن كتب عن الإلهام ليس سوى شذرات هنا وهناك ، ولم يكرس له أحد — على حد علمنا — كتابا قائما بذاته كهذا الكتاب . أما الصفة الثانية — فهى الابانة الذاتية . فهذا العمل نتاج فكر مصرى عربى ذاتى بحت . ولا يعيبه أن يكون كذلك . على أننا عرضنا فى ثناياه لاقتباسات محدودة أثبتناها لأصحابها وسجلنا المصدر الذى استقيناها منه بعد الكلام المقتبس مباشرة . أما الصفة الثالثة — فهى تقسيم الكتاب إلى خمسة عشر فصلا ، وتحت كل فصل خمسة موضوعات . فبين يدى القارىء إذن خمسة وسبعون موضوعا نظن أنها تغطى كل ما يمكن أن يخطر على باله من تساؤلات حول هذا الموضوع .

أما الصفة الرابعة لهذا الكتاب فهى صفة العمومية . فهو — شأنه شأن كثير مما سبق لنا نشره من كتب — يتصف بأنه عام من حيث إنه يتناول مفهوماً يخطر على بال معظم الناس . ولكن العمومية لا تعنى السطحية كما قد يظن . فنحن نعنى بالعمومية الشمولية ، أى أنه يهم قاعدة عريضة جداً من القراء . والصفة الخامسة والأخيرة — وهى متعارضة شكلا مع الصفة السابقة — هى الجدية التى نكتب بها ، وهى التى تستبعد ولا تعجب أولئك الذين يطلبون فيما يتناولونه بالقراءة التسلية والترفيه ، أو قل تحصيل الحاصل . فثمة بعض قراء اليوم ، يطالبون مؤلفى الكتب بأن يكتبوا ماسبق لهم معرفته : فإذا ما وجدوا جديداً فى الكتاب الذى يتناولونه ، أو إذا وجدوا أن قراءتهم له سوف تكلفهم جهداً ، فإنهم يعزفون عنه وينفرون منه ، ويشيحون عن قراءته .

فبراير ١٩٨٣ يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

معنى الالهـــام

المعنى الغيبي :

ذهب كثير من الناس عبر العصور المتعاقبة إلى القول بأن الانسان وإن كان كائناً حياً كسائر الكائنات الحية ، حيث يشترك معها في نواح متعددة ومتباينة ، وحيث يرتبط بالمادة فيأكل ويشرب ويتناسل ، فانه من جهة أخرى متفرد بخصائص لم تتح لها . فالانسان وإن كان حيواناً بمعنى الكلمة ، فهو أيضاً غريب على الأرض بمعنى الكلمة . فهو ليس مجرد حيوان أرقى من سائر الحيوانات الأخرى ، وليس على القمة في ترتيبها فحسب ، بل هو كائن مباين تمام التباين وممتاز عنها تمام الامتياز . فهو الكائن الوحيد الملهم من الخارج ، أي أنه الكائن الوحيد الذي استطاع ويستطيع أن يتصل بالعالم الروحاني ، أو قل إنه الكائن الوحيد الذي تستطيع الكائنات الروحانية أن تجد فيه محطة استقبال لما تريده وتبتغيه . فهو الوسيط الوحيد الذي تستطيع الكائنات الروحانية استنطاقه فينطق بلسانه ما تعنيه هي ، ويعمل بيديه ما تريد هي عمله ، ويحقق على الأرض إرادة تلك الكائنات الروحانية ، سواء كانت الإرادة طيبة في حالة الكائنات الروحانية الخيرة ، أم كانت تلك الإرادة رديئة في حالة الكائنات الروحانية الشريرة .

ومعنى هذا في الواقع أن الانسان بمثابة شاشة تلفزيونية توجه الكائنات الروحانية إرسالها إليها فتظهر أفكارها وعواطفها وانفعالاتها وتصرفاتها عليها ، أو قل أن الانسان بمثابة رادار دقيق يستطيع التقاط المناشط الروحية التي تصدر عن تلك الكائنات الروحانية . ولكن هل جميع الناس قمينون بأن يكونوا بمثابة أجهزة تلفزيونية أو أجهزة رادار تستطيع التقاط الرسائل

التى تصدر عن الكائنات الروحانية ؟ الواقع أن لا . فكما أن هناك أجهزة استقبال تلفزيونية أو رادارية قوية وأخرى رديئة ، وكما أن هناك أجهزة استقبال صالحة للاستعمال وأخرى معطوبة ، كذا فان هناك أناسا قد نيطوا بأجهزة استقبال روحانية صالحة للاستقبال ، بينما هناك أناس آخرون أصاب العطب أجهزة استقبالهم الروحانية .

وتستطيع فى الواقع أن نقف على تباينات بين الغيبيين فى تفسيرهم للإلهام . فهم وإن كانوا يتفقون جميعاً على أن هناك كائنات روحانية من جهة ، وقدرات خارقة جبل عليها بعض الناس من جهة أخرى ، فإنهم ينقسمون إلى مدارس أو شيع يلتئم كل فريق منهم تحت لواء مدرسة منها أو فى نطاق إحدى الشيع . ولكنهم جميعاً يشكلون فئة واحدة كبيرة تقف فى معارضة شديدة وجذرية أمام المنكرين لوجود تلك الكائنات الروحانية أو المنكرين لوجود قدرات خارقة لدى بعض الأفراد .

أما الفريق الأول من فرقاء الغيبيين فهم أولئك الذين يقولون أن تلك الكائنات الروحانية بالإضافة إلى وجودها ، فانها تهتم بأمور البشر ، بل وتهتم بأمور كل فرد من أفراد البشر على حدة ، وتتخذ موقفاً مؤيداً أو مناهضا منها . فهى قد تؤازر المجموعة من الأفراد أو الفرد المعين من الناس وتقف إلى جانبه مذللة أمامه الصعاب ومهيئة له الظروف الطيبة ، كما أنها قد تتخذ موقفاً مضاداً ومثبطاً من المجموعة أو الفرد فتعاكسه وتقف له بالمرصاد وتضرب محاولاته بالفشل .

ومن الغيبيين من يعتقدون أن الإرادة التى تتسلح بها الكائنات الروحانية تكون دائماً أقوى من إرادة بنى الانسان ، بينما يعتقد بعض الغيبيين أن هناك أرواحاً أقوى من بعض الناس ، وبعضها أضعف منهم وبعضها تساويهم فى القوة والتأثير والفاعلية . وبينما يعتقد بعض الغيبيين بأن الكائنات الروحانية جميعا تصدق فى إلهاماتها ، فان بعضهم الآخر يعتقدون أن بعض الأرواح تتصف بالغباء ويكون ما توحي به متسما بالضحالة والسطحية أو حتى التضليل والمراوغة .

ومن الغيبيين من يعتقدون أنه برغم وجود تلك الكائنات الروحانية فانها لا تأبه بالأمور الانسانية ، ويكون استطلاع الحقائق عن طريقها بالطرق المشابهة للطرق العلمية . فما نحصل عليه من إلهام عن طريق تلك الأرواح إنما يكون عن غير رغبة أو إرادة من جانبها . فكما أننا نرى الأشياء بفضل نور الشمس دون أن يكون لدى الشمس رغبة أو إرادة فى مساعدتنا على الرؤية ، كذا فان ما نحظى به من إلهامات عن طريق تلك الكائنات الروحانية يأتينا بالمصادفة وعن غير قصد من جانبها .

أما من حيث الطبيعة الروحانية التى لا يختلف بشأن وجودها الغيبيون فانهم ينقسمون بدورهم بازائها إلى فرقاء متباينة . فهناك أولا فريق منهم يعتقد أفراده أن الناس جميعا حاصلون على الجانب الروحانى فى جبلتهم . فكما أن جميع الناس لديهم أفواه يأكلون بها ، فانهم جميعا حاصلون على هذا الجانب الروحانى لأنه جانب أساسى فى الطبيعة البشرية . بيد أن هذا الجانب قد يدفن فى أعماقهم دفناً بعيد الغور بحيث لا يكاد يبين عن نفسه ، فيظن خطأ أنه غير موجود أصلا لديهم . فليس هذا الجانب الروحى خبرة تكتسب ، بل هو طبيعة تتفتق من الداخل طالما أن الظروف الملائمة متوافرة. فاذا شاهدت شخصا ليس لديه هذه النزعة الإلهامية فلا تظن أنه محروم منها ، بل انظر إليه كما تنظر إلى البذرة التى لم تجد التربة لكى تنبت فيها وتصير نباتا باسقا . ومعنى هذا أن هذا الجانب الروحانى الإلهامى قد يوجد فى حالة ترعرع وازدهار ، كما أنه قد يوجد فى حالة ضمور واختباء : ولكنه فى جميع الحالات موجود — بل وموجود بالتساوى — لدى جميع الناس . فلا فرق فى ذلك بين عالم وجاهل ، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين راشد وطفل ، ولا بين ذكى وأبله أو معتوه . فالناس سواسية مهما اختلفت بيئاتهم أو ظروفهم أو أديانهم أو خبراتهم أو حضاراتهم .

وفى مقابل هذا الفريق الذى يعتقد فى سواسية التوزيع بين الناس نجد فريقا آخر من الغيبيين يعتقدون أن ثمة صفوة من الناس تتمتع بموهبة الاتصال بالكائنات الروحانية والأخذ عنها سواء بارادتها أم بطريقة عفوية

غير مقصودة . فهناك أناس قد اختيروا حتى قبل أن يولدوا لكى يفعموا بتلك المواهب الإلهامية . وعلى رأس هؤلاء الأنبياء والقديسون . فهم ولدوا بخصائص روحانية فريدة ، ولم يكن للتربية التى تلقوها أى تأثير فى تقوية أو إضعاف تلك الخصائص . فهى بمثابة عبقرية روحانية تعطى وتوهب مسبقا فيولدون أناسا روحانيين تحيط بهم هالة معينة ، ويبدو فى أقوالهم وتصرفاتهم منذ طفولتهم الباكرة ما ينم على ما أفعموا به من مواهب روحانية إلهامية . وحتى أولئك الذين ولدوا ولديهم تلك المواهب الإلهامية الروحانية يتباينون فيما بينهم تباينا بعيد المدى مع التفافهم جميعاً حول محور واحد روحانى قد اختصهم بما لم يختص به غيرهم . فثمة من هؤلاء الناس أشخاص شديدو الإلهام بحيث يكونون على اتصال مباشر بالعالم الروحانى : ولعل وجودهم فى هذه الدنيا يكون فى الواقع وجوداً متسماً بارتباط مباشر بذلك العالم الروحانى ، بينما يكون اتصالهم بالناس من حولهم أو تسيير دفة حياتهم الجسمية بما يكفل لهم استمرار الوجود فحسب . وهناك أشخاص أقل موهبة من أولئك العباقرة الروحانيين . فالناس يشبهون النجوم فى السماء . فثمة نجم أزهى ضوءا من نجم آخر مع اشتراك جميع نجوم السماء فى صفة النجمية .

وفى مقابل الفريقين السابقين من الغيبيين فاننا نجد فريقا ثالثاً منهم أيضاً يذهب مذهبا مباينا ، فيعتقد أفراده أن ثمة شروطا معينة يشترك فيها كل من الطرفين : أعنى الكائنات الروحانية من جهة والناس من جهة أخرى . فلا يكفى أن يكون الواحد من الناس عبقريا فى الناحية الروحانية ، بل ليس شرطا أن يكون موهوباً بتلك العبقرية الروحانية . المهم هو توافر تلك الشروط التى تجمع بين قطب العطاء الروحانى وقطب الأخذ الروحانى . والمسألة هنا شبيهة بالموجب والسالب فى الكهرباء . فلا يكفى وجود الكائنات الروحانية ، ولا يكفى أن يكون لدى المرء استعداد روحانى قوى لتلقى الإلهامات الروحانية ، بل يجب أن تتساوق إرادة الكائنات الروحانية وإرادة صاحب الموهبة الإلهامية لكى يتحقق للمرء

استقبال الإلهامات المتباينة . ولكن هل بيد المرء أن يستحدث تلك الظروف وتوفير تلك الشروط ؟ هنا نجد التباين أيضاً فى الرأى . فثمة من يعتقدون أن تلك الظروف أو الشروط لا تتوافر إلا بالمصادفة والعفوية. ومن هنا فإن الإلهام يواتى أى إنسان إذا ما توافرت الظروف الايجابية من جانب الكائنات الروحانية والظروف السلبية الاستقبالية من جانب المتلقى للالهام . أما الرأى الآخر فانه يذهب إلى أن من الممكن استحداث تلك الظروف المواتية فيقع الإلهام من الكائنات الروحانية بلا مناص .

المعنى الواقعى :

إننا نجد فى مقابل المعنى الغيبى للالهام هذا المعنى الواقعى الذى يتعارض تعارضاً جوهريا مع المعنى الغيبى . فبينما نجد أن أصحاب المعنى الغيبى ينيطون الإلهام بقوى روحية غير منظورة تؤثر فى ذهن الانسان بطريقة أو بأخرى ، فاننا نجد أصحاب هذا المعنى الواقعى ينتحون منحى مغايرا تمام المغايرة . فهم يحلون المحسوس محل الروحانى ، ويجعلون الوقائع المادية التى تؤثر فى حواس المرء هى المؤثر الوحيد فى إحداث الإلهام .

فأصحاب هذا المعنى ماديون فى التفسير وليسوا روحانيين . فهم ينكرون وجود أى كائنات مؤثرة خلافا للكائنات التى تحيط بالمرء والتى يتسنى لها التأثير فى حاسة أو أكثر من حواسه الخمس . فالموجود الوحيد هو الوجود المادى أو ما ينشق عنه من أشكال أو جوانب وجودية . بيد أن هذا المعنى يتسع فى الواقع لوجودين فيزيائيين : الفيزياء الكبيرة Macrophysics والفيزياء الصغيرة Microphysics ونعنى بالفيزياء الكبيرة ما يمكن الوقوف عليه مباشرة باحدى الحواس الخمس أو بما يساعدها من مكبرات عادية . أما الفيزياء الصغيرة فانها تستعصى على المشاهدة أو الادراك الحسى ويكون الوقوف عليها بالمعادلات الرياضية وفى بعض الأحيان بالميكروسكوبات الألكترونية . وخير مثال لذلك النيترونات والألكترونات فى النواة .

والواقع أن القدماء من الماديين لم يكونوا يعترفون أو يعرفون إلا الفيزياء الكبيرة ، فكان إيمانهم مقصوراً على ما يمكن الوقوف عليه بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس وقوفا مباشرا بغير وسيط بين الحاسة والشيء موضوع الإدراك . فالوجود المادى كان لديهم وجوداً ضيق النطاق حيث كان شرط الإدراك المباشر هو الأساس الوحيد للاعتراف بوجود الشيء . فما لم يكن يدرك بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس كان يعتبر خرافة ويجب عزله عن مجال الوجود الموضوعى . ونستطيع أن نقرر فى الواقع أن العلم الحديث — بافساح مجاله للوجود الفيزيائى غير المدرك بالطريق المباشر — إنما يكون قد اقترب خطوات كثيرة من نطاق الروحانيات . فطالما استباح العلم لنفسه أن يفسح مجاله لما ليس بمحسوس فانه يكون فى نفس الوقت قد فتح مجالات افتراضية سوف تتدرج فى نطاقه فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد . ولعله قد بدأ بالفعل فى تناول بعض الأمور الروحانية لا باعتبارها خرافات يجب محاربتها ، بل باعتبارها ظواهر يجب إخضاعها للتجريب العلمى لتقنينها . فمنذ ما لا يزيد عن بضع سنوات قليلة لم يكن أحد علماء النفس يجرؤ على التحدث عن الظواهر النفسية الخارقة والسحر والتنجيم ، إلا باعتبار أنها خرافات ومن افتعال القائلين بها والزاعمين لوجودها . ولكن الملاحظ فى السنوات الأخيرة أن موضوع الخوارق قد بدأ يحتل فصولا بكاملها فى كتب علم النفس الجادة ، وصار فرع علم النفس المعروف باسم الباراسيكلوجيا — أى علم نفس الخوارق — يحتل مكانة مرموقة فى الكثير من الكتب والمراجع السيكلوجية .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه على أصحاب هذا المعنى الواقعى هو : هل تعمل الوقائع الحسية على إلهام الإنسان بفاعلية صادرة عنها كما تفعل الكائنات الروحانية فى زعم أصحاب المعنى الغيبى ؟ إننا بإزاء هذا السؤال نجد إجابتين متباينتين : الإجابة الأولى تقول : نعم ، إن الوقائع الحسية تؤثر بلا شك فى الإنسان وتلهمه بتأثيرها بالأفكار والعواطف والتصرفات .

أما الإجابة الثانية فهى تنكر مثل هذا التأثير إنكاراً تاما ، ويعتقد أصحابها أن الإنسان هو الذى ينبعث فى فكره من دخيلته وأنه لا شأن للأشياء الحسية والوقائع المادية فى إلهامه من قريب أو بعيد بأى شىء،وعلينا إذن أن نفاضل بين هاتين الإجابتين لتحديد موقفنا منهما . فبالنسبة للإجابة الأولى فإننا نخال أن أصحابها يبرهنون على التأثير الإلهامى المباشر للمحسوسات والوقائع الحسية بالبراهين التالية :

أولا : إن الإنسان لا يعدو أن يكون جانبا أو شريحة من هذا الكون المحيط به . ومن أهم خصائص الكون الذى نعيش فيه أنه متفاعل بعضه ببعض ، ومؤثر بعضه فى بعض . ولعل من بين التفاعلات والتأثيرات الإلهام يصدر عن الوقائع المحسوسة فيؤثر بطريقة أو بأخرى فى بعض الناس الذين يمكن اعتبارهم خامات صالحة للتأثر بتلك الإلهامات . فالإلهام هنا يفسر بطريقة ميكانيكية وليس بطريقة انتقائية من جانب الشخص الملهم . والمسألة تتوقف بالنسبة لمدى تأثير إلهام الوقائع الحسية على مدى جودة الخامة البشرية . فالأشخاص الذين يعتبرون خامات جيدة لاستقبال الإلهامات يكونون أكثر من غيرهم قدرة على التقبل الإلهامى والامتداد به فى مجالات متباينة مناسبة . فالبعض منهم ينحو بالإلهام إلى منحى عقلى وبعضهم يتجه به إلى منحى عاطفى ، والبعض الثالث يتجه به وجهة عملية .

ثانياً : وحتى عندما يكون للإنسان دور انتقائى فيما يوجه إليه من إلهامات صادرة عن الوقائع الحسية ، فإنه فى نهاية الأمر لا يعدو أن يكون جزءاً من الطبيعة . وحتى إذا أراد الإنسان أن يميز نفسه عن الوجود العام، فلا مانع من القول بوجود عالمين : العالم الكبير المحيط بالإنسان والعالم الصغير الذى هو الإنسان نفسه بما جبل عليه من إمكانيات عقلية ووجدانية وأدائية .

ثالثاً : يجب ألا ننسى أن الوجود من حول الإنسان يؤثر فيه تأثيرا مستمرا من جهتين : فهو يؤثر فى الكائنات الحية عموما وفى الجنس

البشرى خصوصا . أما الجهة الأخرى التى يؤثر بها الوجود فى الإنسان فهو التأثير منذ الطفولة الباكرة أو قبلها بمعنى أصح — فى أحشاء الأم — ويظل هذا التأثير مستمرا حتى الشيخوخة . ولعلنا نقول إن التأثير الشمولى فى الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان عبر ملايين السنين ، ثم التأثير الفردى فى الواحد من بنى الإنسان منذ أن كان جنينا حتى مماته ، إنما يكون تأثيرا إلهاميا فى جوانب كثيرة منه . وما الذى يمنع من القول بأن ما يتبدى من طفرات فى الكائنات الحية إنما هو فى واقع الأمر إلهام لا شعورى يصدر إلى تلك الكائنات الحية فتستحيل إلى خط تطورى جديد. وكذا الحال بالنسبة لما يبدو من طفرات ذهنية أو من عبقريات تلتمع فجاءة فى حياة بعض الأفراد . إننا نستطيع أن نقول أن هذا يمكن أن يترجم بكونه إلهامات لا شعورية ، وهى إلهامات تتقابل وتتباين مع الإلهامات الشعورية . فبعض ما نلهم به يستحيل إلى واقع بغير أن ندرى بينما نجد أن بعض ما نلهم به يكون عن وعى وإدراك .

أما الإجابة الثانية عن السؤال الذى أثرناه عما إذا كانت الوقائع الحسية تعمل على إلهام الإنسان بفاعلية صادرة عنها كما تفعل الكائنات الروحانية فى زعم أصحاب المعنى الغيبى ، وهى الإجابة التى تنكر ذلك ويقول أصحابها بأن الإنسان هو الذى ينبعث فى فكره عن دخيلته وأنه لا شأن للأشياء الحسية والوقائع المادية فى إلهامه من قريب أو بعيد بأى شىء ، فإنهم يبرهنون على رأيهم بالبراهين التالية كما نخالها ونتخيلها :

أولا : إن مصدر الإلهام هو مصدر داخلى بحت يعتمد على مبدأ تداعى الأفكار حيث لا يكون الإلهام سوى سلسلة يصنعها الملهم بعقله . وقد تكون تلك السلسلة طويلة فيكون الإلهام ممتدا إلى آفاق بعيدة ، كما أنها قد تكون قصيرة ، فيكون الإلهام محدودا . فما يسمى بالإلهام ليس إلا تنظيما عقليا من صنع المرء . وما تأثير الأشياء من حولنا إلا تأثير ثانوى جدا . فنقطة البداية ومحور العملية الإلهامية هما عقل المرء ووجدانه ويداه .

ثانيا : ولقد نقول — أعنى ما يقوله أصحاب هذا الرأى — هو أن الإنسان يقوم بعمليات تجريبية تنبنى على أساس المحاولة والخطأ فى ذهنه أو فى الواقع العملى ، ويستخلص من تلك العمليات نتائج مبهرة تعتبر فى أنظار البعض إلهامات خارقة . ولعل من الأوفق أن يقال إن بعض الناس يفيدون أكثر من غيرهم من عمليات المحاولة والخطأ . وهؤلاء هم الملهمون .

ثالثاً : إن الإنسان يستطيع أن يعيد تنظيم الأشياء . وهناك من لأشخاص من لديهم قدرة هائلة على القيام بالعمليات التنظيمية بحيث يتسنى لهم خلق أنساق لم تكن موجودة . فما يخلقونه من أنساق مبهرة تترجم فى أنظار بعض الناس بأنها إلهامات لدنية .

ولعنا بعد هذا نقول إنه على أية حال فإن أصحاب الإجابتين السابقتين يتفقون جميعا حول حقيقة واحدة هى إنكارهم للمعنى الغيبى للإلهام وليس اختلافهم إلا حول مركز الثقل فى الإلهام الواقعى .

المعنى السيكلوجى :

بينما نجد أن المعنى الغيبى للإلهام يركز على فاعلية الكائنات الروحية وتأثيرها فى عقل المرء ووجدانه وتصرفاته ، وبينما نجد أن المعنى الواقعى للإلهام يركز على الوجود المحيط بالفرد وتأثيره فيه ، فإننا نجد أن المعنى السيكلوجى للإلهام قد انتحى منحى ثالثا مباينا . فهو ينقل مركز الثقل إلى دخيلة الإنسان نفسه باعتبار أن عقل الفرد ووجدانه وإرادته هى بمثابة المصنع أو الدينامو الذى يصنع أو يولد الكهرباء الإلهامية إذا صح التشبيه. فعلينا إذن — ونحن بإزاء هذا المعنى السيكلوجى — أن نركز الذهن على دخيلة المرء وأن نقدم معنى الإلهام من هذه الزاوية الداخلية .

وبادىء ذى بدء نقرر أن مثلث النشاط الذهنى لدى الإنسان ، أعنى العقل والوجدان والإرادة ، يعمل بصفة مستمرة شأنه فى ذلك شأن القلب .

فهو لا يتوقف عن ممارسة نشاطه سواء كنا يقظانين أم نائمين ، وسواء كنا في حالة صحو أم في حالة كسل، أو واقعين تحت تأثير مخدر . بيد أن النشاط الذهني يمكن أن يكون أكثر نشاطا في بعض الحالات عنه في حالات أخرى. ولكن مهما خفت وهج النشاط الذهني في بعض الحالات ، فإن ذلك الخفوت لا يمكن أن يصل إلى درجة التوقف التام عن العمل . ولقد نزعم محق أن بعض حالات النشاط الذهني في أثناء النوم أو تحت تاثير التخدير يكون أقل تقيدا وأكثر تحررا عنه في حالة اليقظة والوعي الكامل . فمن الحقائق المعروفة أن المخ البشري محكوم بقوتين متضادتين : قوة الكف أو المنع ، وقوة الإثارة أو الإنطلاق في النشاط إلى الخارج . وفي حالات النوم أو التخدير فان قوة الكف تضعف وبذا تتاح الفرصة لظهور نشاط قوة الإثارة والانطلاق وتمتعها بالسيادة على ذهن المرء .

ونحن نعتقد أن الإلهام بمثابة شطحة أو خروج عن النمطية الفكرية أو الوجدانية أو النزوعية . ذلك أن الإلهام يتسم أكثر ما يتسم بالجدة وشق خط جديد لم يسبق للمرء أن شقه . فإذا كنت تذهب إلى عملك كل يوم واستيقظت في الصباح وواتتك فكرة النهوض من الفراش والتوجه إلى عملك ، فاننا لا تستطيع أن نعتبر الفكرة التي واتتك في هذه الحالة إلهاما ، بل نعتبرها عادة ذهنية تواتيك كل يوم من أيام العمل بغير تخلف . ولكن إذا واتتك فكرة جديدة تماما لم يسبق لك أن فكرت فيها قبل ذلك كأن تنشيء مزرعة للدواجن على قطعة أرض تشتريها لهذا الغرض بما سبق أن ادخرته من مال وبدأت بالفعل في تنفيذ تلك الفكرة الطارئة فنجحت في مشروعك ، ثم استقلت من وظيفتك للتفرغ لمشروعك الذي اتسع نطاقه وتضخم رأسماله وكثرت مسئولياته ، فاننا نعتبر أن تلك الفكرة التي واتتك ذات يوم فجأة إنما هي فكرة إلهامية .

ولقد نعتبر أن الإلهام بمثابة ماسة نادرة لا يمكن صنعها في مصنع أو التخطيط لتطورها ونموها . فالتلقائية وحدها هي التي تتحكم في صنع — أو بتعبير أدق تكوين — الماسة ، كذلك الحال بالنسبة للالهام . فنحن بارادتنا

وعقلنا الواعى وعواطفنا التى نستشعرها وإرادتنا التى نحركها ونوجهها لا نستطيع أن نلهم أنفسنا بأنفسنا . فالإلهام يواتينا ونحن فى غفلة من أمرنا. وإذا سعينا إليه فانه يسارع إلى الإفلات من قبضتنا إذا جاز أن نمسك بطرف ثيابه . ومن المبالغة أن نقول إننا نستطيع حتى مجرد الاقتراب من الإلهام . إنه يهبط علينا فجأة كما تفعل الأطياق الطائرة التى تهبط فجأة على إحدى البقاع بغير سابق ترقب أو توقع .

ونحن نزعم أن الأفكار والعواطف والإرادات بمثابة كائنات حية تعيش بداخلنا . وهى لا تكتفى بمجرد الحياة ثم يقضى عليها بالموت أو الذبول ، بل هى تتآلف فيما بينها وتتزاوج وتنجب أجيالا جديدة من الأفكار والعواطف والإرادات . على أن الغالبية العظمى مما ينجب نتيجة ذلك التزاوج يكون غثا هشا بل ويكون عرضة للهلاك الوشيك . ولكن من بين تلك الأجيال الجديدة من الأفكار والعواطف والإرادات نجد بعضا نادرا يكون فذا عجيبا.وأكثر من هذا فان أكثر تلك الأفكار والعواطف والإرادات يكون ملحا على أن يظهر ويفرض نفسه على ذهن المرء ويصر على الطفو على سطح السلوك والتبدى فى حياة المرء .

والواقع أن هناك إلهامات كثيرة ترد إلى ذهن المرء ولكنها لا تكون بالقوة والإلحاح اللذين يسمحان لها بالطفو على سطح السلوك والتبدى فى حياة المرء أو ترجمتها إلى واقع سلوكى أو إلى تصرف مؤثر أو دائم . وليس يخاف أن هناك مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر لدى الشخص حتى يتسنى له التقاط الإلهامات التى ترد إليه وإحالتها إلى واقع متجسد بالفعل فى حياته . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلى :

أولا : قوة الإلهام : ذلك أن ثمة عدة إلهامات متباينة أو حتى متعارضة بعضها مع بعض يمكن أن ترد إلى ذهن المرء . والشأن هنا كالشأن بالنسبة للكائنات الحية . فكما أن البقاء للأقوى بالنسبة للكائنات الحية ، كذا فان البقاء واستمرار الوجود لا يقيض للالهامات جميعا ، بل يقيض للالهامات

التى تستطيع الثبات فى معركة البقاء . ومعنى هذا فى الواقع أن هناك معركة طاحنة تدور بين الإلهامات المتباينة فتهلك معظمها ولا يظل على قيد الحياة منها إلا تلك الإلهامات القوية المناضلة التى تستطيع أن تتغلب على سواها . ولا يخفى أن بعض الإلهامات تجد لها إلهامات أخرى تناصرها وتظاهرها وتساعدها فى معركتها من أجل البقاء . فثمة إلهامات منسجمة بعضها مع بعض ، وإلهامات أخرى تناهض بعضها بعضا وتحارب بعضها بعضا .

ثانياً : تسلح المرء بالإمكانيات التى تساعده على رعاية الإلهامات التى ترد إليه : فهناك فى الواقع مضمون الإلهام من جهة ، ووسائل رعايته وإخراجه من حيز الكمون إلى حيز الواقع من جهة أخرى . ولنأخذ مثالا بشخص ترد إلى ذهنه إلهامات تتعلق بقصص رائعة . ولكن ذلك الشخص لا يمارس الكتابة ولا يعرف فنون التعبير القصصى . فهو يلتقط تلك الإلهامات ولكنه يعجز عن رعاية ما يزغ فى ذهنه ولا يستطيع إحالة ما ألهم به إلى قصة مكتوبة . فعلى الرغم من توافر الإلهام لذلك الشخص ، فان عجزه عن التعبير بالكتابة عما يدور بخلده ينأى به عن الإفصاح عن إلهامه القصصى فى أسلوب مقبول أو فنى .

ثالثاً : تآزر الفكر والوجدان والارادة : فليس بكاف أن ترد إلى عقلك بعض الإلهامات لكى يتسنى لك الإفصاح عنها ، بل لا بد من تآزر وتكاتف العقل والوجدان والإرادة معا ، فيتسنى بذلك إحالة الإلهامات إلى واقع وجودى . ذلك أن العقل وحده لا يستطيع أن يعمل . ولعلنا نقول بغير مبالغة إن الوجدان هو الذى يقدم الوقود أو الطاقة للفكرة ، وبعد ذلك يأتى دور الإرادة فيحيل الفكرة المدعمة بالطاقة الوجدانية إلى عمل . والإرادة والفكر وحدهما لا يتسنى لهما إحالة الإلهام إلى وجود فعلى. فكما أن السيارة لا تستطيع أن تتحرك بغير وقود رغم سلامة محركها وباقى أجزائها ووجود السائق الماهر المستعد لقيادتها ، كذا فإنه بغير الوجدان وما يقدمه من طاقة إلى الفكرة ، فان الإلهام يظل عاجزا عن الخروج إلى الواقع الخارجى .

رابعاً : تقديم الطاقة المناسبة لترجمة الإلهام إلى واقع : فكل منشط يضطلع به المرء مهما كان ، سواء وقع فى نطاق الإلهامات أم خارجها ، فانه يحتاج إلى قدر معين من الطاقة يجب أن يتوافر ، بل يجب أن يجهزه المرء للاضطلاع والإنجاز . وبغير توافر تلك الطاقة بالقدر المناسب ، فان الانجاز يستحيل . وعلينا أن ننبه إلى ضرورة أن تكون الطاقة أكبر قليلا مما تحتاج إليه العملية المطلوب إنجازها . وكلما احتاج العمل الإلهامى إلى طاقة إضافية ، فان على المرء أن يجهز الكمية المناسبة لإتمام الإنجاز حتى النهاية . وهناك فى الواقع لدى بعض الناس حنكة أو موهبة طبيعية يقدرون بها المناسب من الطاقة المطلوب تقديمها لكل عملية.

خامساً : توزيع الجهد وتجنب التعب والنهكة : فبعض المناشط الإلهامية تكون بحاجة إلى مدة طويلة للتعبير عنها ، ولإخراجها من حيز الكمون إلى حيز الواقع . فاذا ما واصل المرء العمل بغير أن يوفر لنفسه القدر المناسب من الراحة والاسترخاء ، فانه قد ينهار قبل أن يتسنى له ترجمة الإلهام وإحالته إلى كيان مفعم بالحياة . والواقع أن الراحة بعد بذل الجهد المناسب وتوزيع وقت الراحة توزيعا مناسبا وغير متكلف ، إنما يساعدان المرء على تجديد نشاطه ، وعلى تلقى إلهامات جديدة . وليس بخاف أن الأشخاص المرهقين لا يستطيعون إنجاز ما سبق أن ألهموا به ، أو تلقى إلهامات جديدة .

المعنى الفردى :

يعتقد أصحاب هذا المعنى أن الإلهام نشاط فردى بحت لا يمت للجماعة التى ينخرط الفرد فى إطارها بصلة . فالفرد وليست الجماعة هو الوسط الذى ينصب فيه الإلهام أو ينبثق منه . فسواء كان الإلهام غيبيا أم كان واقعيا أم كان سيكلوجيا ، فإنه على أية حال يتسم بالسمة الفردية البحتة من حيث أصوله ونقط بدايته وإن كان مجال تنفيذه وإتجاه انصبابه هو المجتمع وإليه . فاللاعب على ملعب المجتمع هو الفرد بما يكون قد أفعم به من إلهام.

والملعب — الذى هو المجتمع — متأثر ومتلق ، واللاعب — الذى هو الفرد الملهم — هو المؤثر والمصدر لما ألهم به .

ويبرهن أصحاب النزعة الفردية فى تفسير الإلهام على ما ينتحون إليه بمجموعة من البراهين لعلنا نلخصها فيما يلى :

أولا : طالما أن الإلهام هو خروج عن الخط أو الخطوط التى سبق أن رسمت وطبقت وروعيت فى مجريات الحياة ، أو بتعبير آخر طالما أن الإلهام هو إضافة جديدة لم تكن موجودة بالمجتمع فلابد أن تلك الإضافة أو الإبداعات الجديدة تكون من صنع الأفراد وليست من صنع المجتمع . ولقد نقول إن المجتمع ينحو إلى النمطية ويرفض أن يقاوم الجديد . فمن طبيعته الإبقاء على القديم والضرب وفق الخطوط التى سبق أن رسمت منذ القديم والتى استمر تطبيقها وصارت بمثابة عادات سلوكية وتطبيقية لا حيدة عنها : فمن أين تصدر إذن التجديدات ؟ إنها من الأفراد بالتأكيد . وواضح أن كل جديد يقدمه الفرد مما يثبت أنه عظيم الأثر فى المجتمع إنما يكون إلهاما واتى أولئك الأفراد الملهمين المبدعين .

ثانياً : إن الإلهام كما قلنا بمثابة جوهرة نادرة أو ماسة يستحيل صنعها عن قصد وتبعا لتخطيط مرسوم .

وهذا يعنى فى الواقع أن تلك الندرة التى يتسم بها الإلهام لا يمكن أن توزع على مجتمع بأسره . فهى من حظ بعض الأفراد النادرين فى أى مجتمع وليست من حظ جميع الناس . ولقد نقول بتحرز إن الإلهامات العظيمة لا تتأتى إلا للنادر من الأفراد ، بينما تواتى الإلهامات الصغيرة الكثير من الأفراد ، أو قل إن جميع الناس يمكن أن يحظوا ببعض الإلهامات الصغيرة غير النادرة .

ثالثاً : إن الكثير من الإلهامات التى واتت العباقرة الملهمين لم تكن تحتاج فى تنفيذها وإخراجها إلى الواقع المحسوس إلى أكثر من الفرد الملهم

نفسه : فالشاعر الملهم والمصور الملهم والنحات الملهم والفيلسوف الملهم والعالم الملهم وغيرهم ليسوا بحاجة إلى مساندة أو إلى تعاون من أحد لكى يخرجوا روائعهم من حيز عقولهم وقلوبهم إلى الواقع المنفذ البادى للعيان : وحتى فى الحالات التى يحتاج الأمر فيها إلى مد يد العون إلى ما ألهم به المرء لكى ينفذ ويخرج إلى حيز الواقع الموضوعى ، فإن من يساعدون الشخص الملهم لا يكونون سوى أدوات منفذة لا أكثر . ولنأخذ مثالا بتلاميذ أحد الأنبياء والمبشرين بالدين الذى ألهم به . إنهم لا يكونون سوى أدوات منفذة للإلهام الذى تلقاه النبى من السماء . فهم ليسوا أدوات فاعلة ، بل مجرد أدوات منفذة . فذاتية النبى التى اعتمل فيها الإلهام تستحيل إلى موضوعية بادية للعيان بتلك الأدوات البشرية المتمثلة فى صحبه والمبشرين بالدين الذى إلهم به .

ولعلنا نقسم الناس بعامة فى أى مجتمع من المجتمعات البشرية إلى فئتين : فئة الملهمين من جهة وفئة التابعين لأولئك الملهمين من جهة أخرى . بيد أن الأفراد جميعاً قد أوتوا قدرا ما من الإلهام . فأنت قد تكون ملهما فى موقف ما وتابعا لما ألهم به غيرك فى موقف آخر ، فلقد يلهم شخص ما فى مجتمعك بعمل إختراع ما فى أى جانب من جوانب الحضارة التى تشارك فيها ، فبعد أن يضطلع بتنفيذ إختراعه وبعد أن يعم وينتشر ذلك الاختراع ، فانك تكون واحداً من المستفيدين منه والمستخدمين له ، أو بتعبير آخر فانك تكون تابعاً على نحو ما لذلك الملهم حتى ولو لم تكن تعرفه بالاسم . فاليوم وأنت تشاهد التلفزيون فانك فى الواقع تكون من فئة التابعين للشخص الذى اخترع التلفزيون بغير أن تعرف اسمه أو جنسيته . وكذا الحال بالنسبة للطبيب الذى يفيد من بعض العقاقير التى ألهم بها مخترعو تلك العقاقير فى علاج مرضاه . بيد أن ذلك الطبيب نفسه يكون ملهما فى أثناء تشخيص المرض وفى أثناء عملية الربط بين التشخيص من جهة وبين وصف الدواء من جهة أخرى . وفى هذه الحالة يكون المريض أو ذووه تابعين لما ألهم به ذلك الطبيب . فالمسألة إذن نسبية بازاء تلقى الإلهام وتنفيذه والتبعية للملهم فيما يتعلق بتطبيق الإلهام وما يأمر به .

والواقع أن القائلين بهذا المعنى الفردى للالهام يفسرون الحضارة الإنسانية برمتها فى ضوء هذا الاتجاه الفردى فى تلقى الإلهام . فما يزعمه أصحاب المعنى الاجتماعى الذى سنعرض له فى الموضوع التالى من أن الإلهام هو عملية اجتماعية وأن الفرد من الناس ليس أكثر من مجرد مترجم لما يصدر عن المجتمع من اتجاهات ، وأن الفرد ليس ملهما فى الواقع بل هو مجرد أداة للمجتمع يترجم بها ما يريده ، إنما هو زعم خاطىء فى نظر الفرديين بازاء الإلهام . فهم يفسرون الحضارة كلها بما ينبت ويتبلور ويخرج جاهزا من الفرد إلى أفراد آخرين حوله . فليس للمجتمع أى تأثير إذن بناء على هذه النزعة الفردية فى التأثير ، بل الفرد هو صاحب الفضل الأول والأخير فى الإلهام . وبتعبير آخر تقول إن الفرد هو المؤثر والفاعل ، وأن المجتمع هو المتأثر والمنفعل بما يصدر عن الفرد من إلهام متبلور فى شكل فكرة أو اختراع أو عبارات أو نصائح .

وليس من شك فى أن هناك ما يشبه العداء أو التصادم بين إرادة الإلهام من جهة ، وبين إرادة التنفيذ والتبعية من جهة أخرى . ذلك أن الإلهام الجديد لا بد أن يتعارض على نحو أو آخر مع ما سبق أن ألهم به أشخاص آخرون . وحتى فى حالة التكامل أو التساوق بين إلهامين أو أكثر ، فان مجرد التباين يعنى فى نفس الوقت إسقاط جانب سابق لإقامة جانب جديد . والطبيعة البشرية القطيعية أو الجمعية تحاول دائبة على أن تتشبث بالقديم وأن تقاوم الجديد . فالجديد مخوف وينظر إليه بحذر وارتياب ، بينما القديم يتناول ويمارس بتقبل وارتياح . من هنا فان الملهم لا يكون مجرد فرد مقبول ويحظى بالتجلة والترحيب ، بل هو فى الواقع جسم غريب على المجتمع ، ومن ثم فان إلهامه يلقى المقاومة والازدراء والنبذ . ولكن ما أن ينتصر الملهم فى معركة الضغط الإلهامى على المجتمع ، حتى يصير ما ألهم به وما قدمه إلى المجتمع من صلب التراث الاجتماعى للمجتمع . بيد أننا يجب أن ننبه إلى أن مقاومة المجتمع للإلهامات تكون مقاومة بسيطة بازاء الماديات ، بينما تكون شديدة وعنيفة بازاء المعنويات

والروحيات . فاختراع آلة جديدة لا يلقى سوى مقاومة خفيفة من المجتمع ولكن تقديم أيديولوجية جديدة أو دين جديد يلقى مقاومة عنيفة للغاية من جانب المجتمع . وشاهد ذلك ما سجله التاريخ نفسه بازاء المخترعات الجديدة من جهة والأديان الجديدة من جهة أخرى .

ونستطيع القول بأن أصحاب هذا المعنى الفردى للالهام يعتقدون فى نفس الوقت أن الإنسان الفرد هو الأصل والمركز فى النشاط الإنسانى بعامة وليس الإنسان المجتمع . فاذا كنا نجد أن البعض يقللون من أهمية الفرد قائلين بالعقل الجمعى يدفع بالأفراد ويستخدمهم كأدوات للتعبير عن ذاتيته فاننا نجد على نقيض ذلك ما يذهب إليه أصحاب الاتجاه الفردى فى تفسير الإلهام . فهم يعتقدون أن الفرد عندما يلهم بشىء جديد من أى نوع وفى أى مجال من مجالات الحضارة الإنسانية ، فلابد له من أن يكون قد أزاح عن كاهله تمام الإزاحة تلك الهموم والضغوط الاجتماعية التى يضغط بها المجتمع عليه . وبتعبير آخر يجب على الفرد الملهم أن يكون ذاتاً خالصة مستحوذة على أنحائها بغير إندماج أو ذوبان فى المجتمع . فهم يقولون إن الفرد إذا ما أدمج أو داب فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فان الإلهام يستحيل عليه بل ويهرب منه . ذلك أن طبيعة الإلهام تستعصى على الشخص العادى أو على الشخص الذى لا يسلخ نفسه عن المجتمع أو الذى لا يستطيع إقامة عازل بينه وبين مجتمعه . ولعلنا نسوق هذا المفهوم على نحو آخر فنقول إن الملهم هو فرد يرى الحضارة الإنسانية من بعيد . ونفس هذا الابتعاد عن المجتمع يسمح للفرد بمشاهدة ذلك الواقع الاجتماعى من منظور موضوعى ، أما فى حالة ذوبان الفرد فى المجتمع ، فانه لا يستطيع أن يلهم بشىء جديد وذلك لأنه يكون جزءا من ذلك المجتمع . وبالتالى فان الفرد لا يستطيع أن يكون ملهما (بكسر الهاء) وملهما (بفتحها) فى نفس الوقت . فالفردية المنعزلة أو المتبعدة والمشاهدة للمجتمع من بعيد هى وحدها القمينة بتلقى الإلهامات الجديدة فى كافة مجريات الحياة وتقديمها من ثم ثمرة ناضجة .

المعنى الاجتماعي :

يتلخص المعنى الاجتماعي للالهام فى القول بأن ما يلهم به بعض الأشخاص من الأفكار أو الأعمال إنما يكون فى حقيقة الأمر مجرد تعبير أو ترجمة لما يعتمل فى صلب المجتمع من أفكار أو إرادات . وبتعبير آخر فان الأفراد الملهمين لا يعلون كونهم أبواقا لما يعتمل فى كيان المجتمع من إرادة . فالمجتمع هو الكل ، والفرد الملهم هو واحد من ذلك الكل ، أو هو الجزء أو الجانب المعبر عن الكل . ولقد نقول إن أصحاب هذا المعنى ينيطون المجتمع بمركز الثقل ، بينما ينيطون الفرد الملهم بالجانب الأقل ثقلا أو أهمية . فالأساس هو المجتمع ، والظاهر أو الصدى هو الفرد الملهم . وحتى بالنسبة للزعماء والقادة السياسيين الملهمين ، فانهم فى نظر أصحاب هذا المعنى لا يصدرون فى إلهاماتهم السياسية عن وحى من ذواتهم يصدر عن دخائلهم وينصب إلى الخارج حيث المجتمع ، بل هو فى الواقع يصدر عن المجتمع وينصب إلى داخل الفرد الملهم . فالمجتمع هو الشمعة المضيئة ، والفرد الملهم هو المرآة التى ينعكس على صفحتها ما يصدر عن الشمعة — التى هى المجتمع — من ضوء . فالضوء الذى يصدر عن المرآة ليس سوى انعكاس لما تتلقاه من ضوء ينبعث أساساً من الشمعة .

ويؤكد الاجتماعيون فى تفسير الالهام بأنه لا يصدر عن الفرد الملهم أساساً ، بل يصدر فى واقع الأمر عن المجتمع بالحجج التالية :

أولا : إن المجتمع سابق على الأفراد الملهمين بالتأكيد . وحتى إذا كان المجتمع من حيث هو كيان بيولوجى يتشكل من مجموع الأفراد المكونين له ، ومن ثم فقد يقال إن الأفراد سابقون على المجتمع من الناحية البيولوجية ، فان هذا لا يمكن أن يقال بازاء الأسبقية الثقافية أو الأسبقية الحضارية د فالمجتمع سابق على أفراده من حيث الثقافة والحضارة . وما الإلهام الذى يخيل للفرديين أنه صادر عن صميم الأفراد سوى إلهام ثقافى أو حضارى ، وبالتالى فإن ما يلهمون به مستشف بالتأكيد من

ثقافة المجتمع أو حضارته ، وليس مستشفا من ثقافة الفرد الملهم أو حضارته ، لأن الفرد خلو من الثقافة أو الحضارة الفردية لأن مثل تلك الثقافة أو تلك الحضارة ليس لها وجود مباين أو متفرد يختص به الفرد أو يصدر عنه بداءة .

ثانيا : الأساليب والصيغ التى يعبر بها الفرد الملهم عما ألهم به إنما هى فى الواقع أساليب وصيغ اجتماعية . فالشاعر الملهم لا يعبر عن شعره بأساليب وصيغ فردية يبتكرها ابتكاراً أو يختلقها إختلاقاً ، بل هى أساليب وصيغ لغوية مستمدة برمتها من لغة المجتمع الذى ينتمى إليه الشاعر . ونفس الشيء يقال عن الموسيقار الملهم والنحات أو المصور الملهم وعن المخترع الملهم وغيرهم من أفراد توصف منجزاتهم بأنها تعبير عن إلهام يصفه الفرديون بأنه إلهام فردى،والحقيقة أنه من المجتمع وإليه : ذلك أنه لولا الوسيلة التى هى من طبيعة اجتماعية بحتة ما كان للالهام أى وجود .

ثالثاً : ويؤيد الحجة السابقة حجة أخرى يقول بها أصحاب الدراسات اللغوية والفنية بل وأصحاب العلوم أيضاً . فهم جميعا يؤكدون أن الفصل بين الموضوع وبين وسيلة التعبير عنه إنما هو فصل مفتعل ليس من الحقيقة فى شيء . فالشعر مثلا لا ينفصل فيه الكلام عن المضمون ، وكذا الحال بالنسبة لجميع الفنون والعلوم على تباينها . صحيح أن من الممكن أن نتخيل كلاما موزونا ليس شعرا ، أو أن نتخيل زخرفة لا توصف بأنها من الفن أو من صميمه . ولكن العكس أيضا ليس صحيحا . فلا يوجد شعر غير متلبس بالصورة اللغوية ، وأيضا ليس هناك تصوير فنى بغير استخدام لوسائل التعبير الفنية ، وليس هناك علم بغير استخدام للغة العلم أو بالتجرد من المعادلات الرياضية أو نحوها من أساليب التعبير العلمى . وبتعبير آخر فإن من الممكن أن نجد جثة بلا روح ، ولكننا لا نستطيع أن نتخيل إنسانا آدميا موجودا بيننا نراه ونتعامل معه بغير جسد أو بغير صيغة جسمية نشاهده ونسمعه ونلمسه من خلالها : فالتزاوج بين جوهر

الشيء ووسيلته ليس اقترانا بل هو وجود تمايز فى أنحائه جوانب يوصف جانب أو جوانب منها بأنها جوانب جوهرية ، بينما يوصف جانب أو جوانب أخرى فيه بأنها صورية أو شكلية . فاللغة والمضمون فى الشعر لا يلتصقان بعضها ببعض كما قد يظن البعض ، بل هما كيان واحد متفاعل بعضه ببعض أشد التفـاعل وأوثقه وليس التميز بين المضمون والوسيلة إلا تميزاً نسبياً فحسب : فالمضمون يمكن أن يكون من إحدى الزوايا وسيلة لمضمون آخر أكثر منه جوهرية . وحتى اللغة المستخدمة فى الشعر يمكن أن ينظر إليها من زوايتين : زاوية المضمون وزاوية الشكل . وهكذا دواليك بالنسبة للصيغ والأساليب المستخدمة فى التعبير الفنى أو العلمى . فثمة زاوية يمكن أن ينظر منها إلى تلك الأساليب والصيغ لا باعتبارها أساليب أو صيغ ، بل باعتبار أنها مضامين لها صيغ وأساليب أخرى تستخدم للتعبير عنها ، وحيث إن الأساليب والصيغ هى من طبيعة اجتماعية بحتة ، فان جميع ما يصدر عن الشخص الملهم إنما هو فى حقيقة الأمر من صميم المجتمع ومن نتاجاته وليس من ابتداع الفرد الملهم كما يقول الفرديون فى تفسيرهم للابداع الإلهامى .

ويتضمن المعنى الاجتماعى للالهام عدة جوانب علينا أن نلخصها ونبلورها فيما يلى :

أولا : حاجات المجتمع ككل : فالمجتمع عبارة عن كائن حى كبير يتضمن أعضاء هم أبناؤه . فعندما يحس ذلك المجتمع بحاجات أساسية تعتمل فى أنحائه ، فانه ينبه بعض الأفراد بأن يبتكروا الوسائل المناسبة لسد تلك الحاجات . ولقد يكون أولئك الأفراد بمثابة المخ بالنسبة للجسم . والمخ هو الذى يفكر ويقع على الوسائل المناسبة الكفيلة بسد تلك الحاجات . فالإلهام الذى يعبر عنه الأفراد ليس سوى استجابة لما يعتمل فى أنحاء المجتمع من حاجات . فالمجتمع ينبه أولئك الأفراد الممتازين بما ينبغى عليهم تقديمه لسد حاجاته ، والمجتمع كما قلنا بمثابة كائن حى كبير . وتتمثل حاجات المجتمع الأساسية فى الأخطار المحدقة به من جهة ، وفى خطى التقدم بذلك المجتمع إلى الأمام من جهة أخرى .

ثانياً : الحاجات النفسية لأفراد المجتمع : فالمجتمع لا يهتم فقط بحاجاته الأساسية ككل ، بل هو يهتم أيضا بالحاجات الخاصة بكل فئة من أبنائه وما يعمل على إسعادهم وإرتقائهم . فهو يهتم أيضا بالهام بعض أفراده لتقديم الشعر والموسيقى والفن بعامة والعمل على إسعاد أبنائه والاستمتاع عما يقدمه إليهم من خلال العباقرة من نتاجات فنية وعلمية ، وهى النتاجات التى لا يكون أولئك العباقرة إزاءها سوى مترجمين عما يدور بخلد المجتمع من رغبات ومثل عليا .

ثالثا : يختزن المجتمع آلامه وجوانب الفشل التى تردى فيها عبر العصور . فالاستعمار والعبودية التى يكون المجتمع قد رزح تحت نيرها حقبا طويلة من الزمن وما ساوقها من آلام وإحباطات إنما تظل حية فى لا شعور المجتمع . بيد أن ذلك المجتمع المحبط الذى تثور بدخيلته تلك العوامل والمقومات اللاشعورية المنغصة لا يظل مكتوف اليدين بازائها ، بل هو يوحى إلى بعض أبنائه الذين لديهم استعداد لتقبل الإلهام بأن يبتكروا أشياء ووسائل معينة تخلصه من تلك الهموم التى تثقل كاهله وتشعره بالاغتمام والإحباط . فما يلهم به الأفراد فى مثل تلك الحالات ليس سوى وسيلة تنفيسية يتخلص المجتمع عن طريقها من تلك المنغصات التى ألمت به وأخذت به كل مأخذ واستولت على مقاليده .

رابعاً : إن هناك ما يمكن أن نعتبره نمواً أو تطورا يحظى به المجتمع — أى مجتمع —. ذلك أن المجتمع فى نظر أصحاب هذا المعنى الاجتماعى بمثابة كائن حى كبير كما قلنا . فكيف يتحقق مثل هذا النمو أو التطور؟ إنه يتم عن طريق ما يقدمه الملهمون من أبنائه . فهؤلاء الملهمون يستشعرون الجوانب التى يحتطها النمو أو التطور ، فيقدمون إلهاماتهم الكفيلة باحداث النمو أو التطور المنشود ، فليست الإلهامات إذن تسير بطريقة اعتباطية كما يظن الفرديون ، بل هى فى الواقع تسير وفق خطة نمائية تطورية مرسومة من جانب المجتمع وفق حاجاته النمائية أو التطورية. ومن هنا فاننا لا نستطيع اعتبار الأفراد الملهمين سوى مترجمين عما يعوز

المجتمع من نمو وتطور فيعمدون إلى تقديم الوسائل والمقومات الكفيلة بإحداث ذلك النمو والتطور على خير وجه وأحسنه . وأكثر من هذا فان كل ملهم إنما هو فى الواقع مكمل لما عجز غيره من ملهمين عن تقديمه . فكأن هناك إذن نوعا من التكامل بين الإلهامات المتباينة تفيض للأفراد الملهمين بغير ما زيادة أو نقصان . فمجموع الإلهامات تصدر عن الأفراد بالمجتمع الواحد إنما هى فى الواقع تشكل قواما متكاملا ، أو قل تشكل نبعا كافيا لتحقيق النمو والتطور للمجتمع الذى ينبت فيه الأفراد الملهمون ويحسون الحاجات النمائية والتطورية التى تعتمل فى أوصال المجتمع . ومعنى هذا فى نهاية المطاف أن الأفراد الملهمين ليسوا فرديين فى إلهامهم ، بل هم أبواق تعبيرية يترجم المجتمع بواسطتهم عما يعتمل فى جنباته من حاجات ورغبات ومثل عليا ونمو وتطور لتحقيق استمرار التقدم .

الفصل الثانى

سيكلوجية الالهام

الوراثة والبيئة :

قد ينظر البعض إلى الوراثة بالطريقة التى نظر بها أرسطو إليها وقد اعتبر أن هناك وجودا بالكون , أو بالقوة ، ووجوداً آخر بالفعل أو بالواقع . فنواة البلحة نخلة كاملة فى النواة ، أو هى نخلة بالقوة . وعندما تزرع تلك النواة وتصير نخلة ، فان الوجود الذى كان وجودا بالقوة سرعان ما يصير وجودا بالفعل . ذلك أن النواة التى تمثل الوجود بالقوة صارت نخلة أى وجودا بالفعل ، وعلى أرض الواقع . فبموجب هذه النظرة الأرسطية يمكن أن يقال إن الجنين يشتمل على جميع مقومات الإنسان المكتمل النمو ، أى أن الجنين هو إنسان بالقوة ، كما أن الإنسان الراشد هو إنسان بالفعل .

بيد أننا نخالف عما إتجه إليه أرسطو ، ونقول إن الوراثة لا تتضمن الانسان أو مشتملاته كما يظن المتحمسون للوراثة ، بل إن الوراثة مجرد بداية للوجود وليست الوجود نفسه . فهى تشبه عود الثقاب ساعة اشتعاله. أما الحريق الهائل الذى ينجم عن اشتعال عود الثقاب وقد امتدت النار منه إلى الأشياء التى تقبل الاشتعال فانه لم يكن موجودا بمخيلة رأس عود الثقاب ساعة اشتعالها . وبينما نشبه الوراثة بعود الثقاب فاننا نشبه البيئة بالمواد التى تقبل الاشتعال والتى تلاصق رأس عود الثقاب ساعة اشتعالها. وبذا فاننا نكون قد خففنا من النظرة الشمولية التى ينظر بها المتحمسون للوراثة إلى الإنسان .

وبالنسبة للالهام فان أصحاب الوراثة والمبالغين فى تأثيرها وأهميتها يقولون إن كل ما يبدو على سطح سلوك المرء قد كان مطمورا بدخيلته . فليس لك أن تفعل شيئاً إلا إذا كان موجودا بالقوة منذ اللحظة الأولى لوجودك . وكل ما يمكن قوله فى نظر أصحاب الوراثة هو أن التركيبات المتباينة بين ما ورثته عن والدك وأسلافك لأبيك ، ثم ما ورثته عن والدتك وعن أسلافك لها يمكن أن تزداد فتزداد بالتالى نسبة ما تحصل عليه من طرف عما تحصل عليه من الطرف الآخر . ولكن المسألة لا تتجاوز فى النهاية ما هو مطمور فى كيانك الوراثى سواء من أبيك أو أمك . وبتعبير آخر فان ما تلهم به فى موقف أو آخر إنما كان فى الواقع موجودا فى مقوماتك الوراثية . ولعل الفرق الوحيد فى أنظار أصحاب الوراثة بين شخص وآخر فى جيلين مختلفين أو أكثر إنما هو فرق فى موضوع الإلهام وليس فى طبيعته أو نوعيته .

أما بالنسبة للالهام فى نظرنا فهو مباين لهذه النظرة الشمولية . فما تلهم به فى مجريات الحياة المتباينة إنما يختلف اختلافا بينا تبعا لما حدث من تطور أو تفاعل بينك وبين المقومات البيئية المتباينة التى تفاعلت معها أو وفقا لتشبيهنا بعود الثقاب هو عملية الاشتعال التى استطاعت نار الوراثة إحداثها فيما حولها فاشتعل أوارها وتوهجت بحسب ما قيض لها من قابلية للاشتعال أو من قابلية للتوهج الذهنى . فلست بموجب هذه النظرة التفاعلية أسير مجموعة محدودة من الإرثات التى تظل متحكمة فيك منذ ميلادك حتى نهاية العمر ، بل إن ما تتفاعل معه من مقومات بيئية كثيرة ومتعددة هو الذى يحظى بنصيب الأسد فى كمية ونوعية الإلهامات التى تصل إليك والتى تستطيع الاستحواذ عليها والطفو بها على سطح سلوكك .

وأكثر من هذا فإننا نعتقد أن تفاعلك مع المقومات الخبرية الجديدة إنما هو تفاعل بين آخر مستوى خبرى وصلت إليه مع المؤثر الخبرى الجديد . فعندما تقرأ الآن هذا الكلام المسطر أمامك فإنك لا تقرؤه بما ورثته من استعدادات عقلية وذكاء موروث ، بل تقرؤه بآخر مستوى

ثقافى قيض لك . ولعلك تشاهد فيه أو تستلهم منه أشياء لا يشاهدها أو يستلهمها غيرك بسبب الحصيلة النهائية التى توصل إليها كل منكما . فالإلهام لا يصل إلينا إلا فى ضوء شروط خبرية لابد أن نكون قد حصلنا عليها : ولنأخذ مثالا بواحد مثل أينشتين . إن لحظات الإلهام التى واتته لاكتشاف نظرية النسبية لم تقيض له اعتباطا بل قيضت له بعد أن نضج إلى مستوى خبرى فى الفيزياء لم يقيض لغيره ممن لم تكتمل ثقافتهم العلمية على نفس النحو وبنفس المستوى من النضج . فالالهام هو إذن علاقة بين مستوى خبرى توصل إليه المرء وبين جديد يكتشفه فجأة ويطرأ على ذهنه كالتماع مفاجىء يواتيه . وبغير توافر المستوى الخبرى المعين ، لما كان للالهام إذن وجود حتى ولو كانت الحقائق الإلهامية مرصومة رصا أمامه ، أو منقوشة أمامه ككتاب مفتوح . ذلك أنه مع افتقاد المستوى الخبرى المطلوب للالهام ، فإنه يكون من رابع المستحيلات إحرازه أو استكناه مضمونه أو تبين قسماته والوقوف على ملامحه .

وهنالك ما يمكن أن تسميه بحصيلة الشخصية أو قوامها الثقافى : فالطفل ساعة ولادته لا يكون حائزاً على تلك الحصيلة الخبرية أو على ذلك القوام الذاتى . ولكن ما أن يتفاعل مع المقومات الخبرية الكثيرة حتى يبدأ فى إحراز تلك النواة الخبرية التى تتأتى له نتيجة التفاعلات الخبرية المواتية بعضها مع بعض مرة والمتنافرة بعضها مع بعض مرة أخرى . ذلك أن الخبرات التى يحصل عليها المرء لا تنسجم بعضها مع بعض بصفة مستمرة ، بل هى تنسجم مع البعض وتتنافر مع البعض الآخر . ولكن المحصلة الناجمة عن التآزر والتضارب أو تلك النواة الخبرية كما أسميناها هنا ، تتكون بحيث يصير لها كيان مستقل ومتماسك يستعصى على الذوبان ويقاوم المؤثرات الخبرية الجديدة الطارئة .

والواقع أن وجود تلك النواة الخبرية أو المحصلة الخبرية الكثيفة والمتعذر إذابتها هو الذى يحمل البعض على الذهاب إلى أن الوراثة التى نزلت إلى المرء عبر أسلافه تظل تعمل عملها فى شخصيته . ولعلهم يؤكدون

ما يذهبون إليه مما يلاحظ من تشابه بين الابن وأبيه أو عمه أو خاله . والواقع أن من الممكن أن توجد أوجه شبه شديدة بين نواة خبرية لدى أحد الأشخاص وبين نواة خبرية أخرى لدى شخص آخر بفضل تشابه الظروف الخبرية ومصادر الخبرة التى تلقى عنها كلا الشخصين خبراتهما .

وواضح أن هذا التفسير الذى ننحو إليه للعلاقة بين الوراثة والبيئة يتسم بالتفاؤل . ذلك أن إطلاق مجال الاشتعال الخبرى — إذا صح التعبير — وعدم تقييده بحدود ما سبق أن تلقاه المرء عن أسلافه من مقومات موروثة إنما يفتح المجال على مصاريعه الكثيرة أمام جميع الناس لتلقى الإلهامات المتباينة إذا ما حاولوا التفاعل بأكبر قدر وبصفة مستمرة مع المقومات البيئية المحيطة بهم . فمن الممكن أن يظل الاشتعال الخبرى قائما حتى الشيخوخة وفى أثناء مراحل الحياة المتباينة . وهذه النظرة التفاؤلية تناهض النظرة التشاؤمية التى ينظر بها أصحاب الوراثة إلى الإلهام . فهم يسجنون المرء فى إطار ما تلقاه من إرثات عن أسلافه القريبين والبعيدين . وبالطبع فإننا بنظرتنا المتفائلة تقدم معنى جديداً لما يقوم بين الأفراد من فروق ، فليست الفروق الفردية توجد بين شخص وآخر فيما يلهم به نتيجة للوراثة ، بل نتيجة لذلك التفاعل الاشتعالى بين المقومات الموروثة وبين المقومات الخبرية التى أتيحت له أو التى سعى لحصول عليها .

والواقع أننا بهذا الاتجاه التفاعلى نكون قد قدمنا الفرصة الخصبة أمام جميع الناس لكى يتلقوا إلهامات كثيرة متباينة . ذلك أننا بهذا لا نكون قد حصرنا الإلهام فى نطاق ما تلقاه المرء من مقومات وراثية . فليس للالهام شرط سوى التفاعل الخبرى مهما كانت المقومات الوراثية التى تلقاها المرء بداءة ضئيلة . فالنار التى يقدمها عود الثقاب ضئيلة على كل حال مهما كانت كبيرة نسبيا ومهما اختلفت كما أو شدة من عود ثقاب لآخر . المهم هو تلك المواد القابلة للاشتعال التى تقيض لعود الثقاب لكى يتم الاشتعال والتوهج ولكى تتسع مساحة وحجم النار المشتعلة . فإذا أنت كفلت لنفسك مجالات خبرية متعددة ومستمرة ، فإنك تستطيع بذلك أن توفر لنفسك

فرصة كبيرة سانحة لتلقى إلهامات أكثر وأخصب وشديدة التنوع . أما إذا قصرت خبرتك على نطاق واحد ضيق أو على نطاقات محدودة ، فإن المجال الإلهامى يكون من ثم ضيقا .

على أن من الجدير بالذكر أن التفاعل الخبرى يختلف اختلافا جذريا عن الحفظ فى الذاكرة . فكل ما يظل كما هو فى العقل كما تلقاه المرء لا يكون بالتالى قد خضع للتفاعل الخبرى . فإذا حفظت قصيدة من الشعر وقمت بسردها كما حفظتها ، فإنك لا تكون قد تفاعلت خبريا مع مقاموتها . ولكن إذا تفاعلت مع مقوماتها سواء حفظتها أم لم تحفظها ، فإنك تكون بذلك قد تفاعلت معها . فالتفاعل الخبرى مع القصيدة ليس شرطه حفظ النص الشعرى . إنه شيء آخر خلاف الحفظ . إنه حصيلة خبرية جديدة كأنها الطعام الذى استحال إلى عصارات مهضومة أو كأنه الماء الذى نشأ عن تفاعل غازى الأوكسجين والإيدروجين ، أو كأنه أى مركب كيميائى آخر . ومعنى هذا أنك يمكن أن تجد شخصاً تفاعل مع القصيدة وحفظها فى نفس الوقت ، كما يمكن أن تجد شخصا آخر حفظ القصيدة ولم يتفاعل مع مقوماتها ، وشخصا ثالثاً لم يحفظ القصيدة ولكنه تفاعل مع مقوماتها الشعرية . فنحن نشترط توافره التفاعل الخبرى كما أوضحناه هنا حتى يتسنى تلقى الإلهامات المتباينة حسب نوعية الخبرات التى تلقاها المرء وهضمها أو تفاعل معها .

العوامل البيولوجية فى الإلهام :

على الرغم من أننا قد خففنا من غلواء الوراثة فى الإلهام ، فإننا نجد أن كيمياء الجسم لها بعيد الأثر فى تلقى الإلهام أو استحداثه . ولعلنا جميعا نلاحظ أن أحوالنا الجسمية ذات دخل كبير فى الإلهام . ويتبدى هذا أكثر ما يتبدى فى الحالات التى يكون لدينا فيها نقص فى النوم أو الغذاء أو عندما نكون واقعين تحت تأثير مخدر أو لدى تعاطينا فنجانا من القهوة أو تدخين سيجارة . ولا شك أن ثمة تغيرات كيميائية تقع بالجسم فى جميع هذه الحالات وغيرها .

وبالنسبة للشخص الواحد الذى يمكن أن ينعت بأنه ملهم فإننا نجد أن هناك أوقاتا يكون خلالها أكثر إلهاما من أوقات أخرى . وما تفسير هذا إلا بأن كيمياء الجسم تتغير من وقت لآخر ، وأن المرء فى ظل بعض الحالات يكون — بما كفل له من حالات كيميائية جسمية — أكثر قدرة على تقبل الإلهام . ومن جهة أخرى فإن هناك ما يمكن أن ننعته بالجبلة المزاجية . ولقد دأب الناس منذ القدم على تقسيم الناس إلى فئات مزاجية تختص كل فئة منها بخصائص عقلية معينة . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة تقسيم يونج للناس إلى انبساطيين وانطوائيين ، وقد قسم كل فئة من من هاتين الفئتين الكبيرتين إلى فئات أربع فرعية. فهناك فئة حدسية انبساطية وفئة حدسية انطوائية ، ضمن الفئات الثمانى التى حددها . ويهمنا فى هذا المقام تلك الفئة التى تسمى بفئة الانطوائيين الحدسيين . وتضم هذه الفئة الفنانين والشعراء وجميع أولئك الذين يقعون على الحقائق الذهنية الجديدة التى لم يسبق لأحد أن كشف النقاب عنها عن طريق إلهام داخلى مفاجىء لا نتيجة إعمال العقل التقدى فى الموقف ، بل نتيجة البصيرة الحدسية المفاجئة التى يستطيعون بواسطتها كشف المستور خلافاً للأشخاص العاديين الذين يتذرعون بالعقل أو بالحواس فى سبيل الوقوف على الوجود من حولهم . ونفس الشىء يقال عن الانبساطيين الحدسيين . فهم يقعون على الحقائق الموضوعية وقوعا مفاجئا . فهم يستعينون بالحدس للقفز إلى النتائج بغير استعانة بالمقدمات الضرورية للوصول إليها فى الأحوال العادية .

والواقع أن الحدس يتباين عن الإلهام فى رأينا . فالحدس هو الخطوة الأولى نحو الإلهام . فبالحدس نكتشف الحقائق الأولية . ولكن بالإلهام نكتشف حقائق كبرى لا يستطيع الحدس وقفنا عليها أو تبصيرنا بها . فالحدس يشبه العمليات الحسابية الأولية التى لا تشكل الرياضيات العليا ، ولكنها الأساس الذى لا مناص عنه لتسلق سلم الرياضيات حتى مشارفها العليا . وبتعبير آخر فإنه بغير أن يكون الانسان حاصلا على الشروط

الكيميائية فى جسمه فإنه لا يستطيع أن يصل إلى المرحلة الالهامية . وهذا يتطلب أن يكون المرء واقعاً فى إطار فئة الانطوائيين الحدسيين أو فى فئة الانبساطيين الحدسيين .

ولعل السؤال الذى يواجهنا هنا هو : هل يتاح الالهام لهاتين الفئتين من الناس دون غيرهم من فئات أخرى ؟ وبتعبير آخر : ألا توجد فرصة لتلقى الإلهام إلا لأشخاص معينين دون باقى الناس ؟ إننا نجد فى الواقع أن ما لا يتوافر بالجبلة ، يمكن استحداثه بالتأثير فى كيمياء الجسم على نحو أو آخر . ولا شك أن العلماء يحاولون جهد طاقتهم التأثير فى جبلة الانسان ، وذلك عن طريق ما يطلق عليه اسم « الهندسة الوراثية » التى تعد علماً جديداً فى مجال استحداث تركيبات جسمية جديدة لدى الناس وذلك بالتأثير فى المقومات الوراثية ذاتها قبل تكوين الجنين أو فى أثناء حياة المرء .

ونحن نعتقد أن الأجيال القريبة القادمة سوف تشاهد تحكما فى الجبلة الإنسانية بعد أن صار بمقدور الإنسان أن يتحكم فى العالم المحيط به ، أو قل فى الكواكب البعيدة . ونستطيع القول بأن الناس يبذلون قصارى جهدهم لتحقيق التوازن بين البحوث التى تتعلق بالكون أو الواقع الخارجى وبين البحوث التى تتعلق بذات الإنسان أو بجبلته البشرية . فكلما سار الإنسان شوطا فى البحوث التى تتعلق بالموضوعات الخارجية بالعالم الخارجى ، فإنه يشارع لقطع شوط مماثل ومساو بدخيلته ، أى لسبر أغوار ذاته فى جبلته وجبلة الأجيال التالية . ولقد نقول إن ما يحس به الإنسان الحديث من قلق وتوتر إنما ينجم بصفة رئيسية عن إحساسه بأن البون الذى قطعه فى معرفة أسرار العالم والكون أبعد بكثير من البون الذى قطعه فى سبيل الوقوف على أسرار نفسه . ولكن لا شك أن السنوات القليلة القادمة سوف تشهد تقدما مذهلا فى مجال التغيرات البيولوجية وبخاصة تلك المتعلقة بالوراثة والمقومات الوارثية .

وثمة مجال آخر جديد سوف ينفتح أمام الإنسان ، ونخاله الآن مفتوحا ولكن بغير تخطيط طبي سليم، ألا وهو مجال العقاقير الطبية التي تهيء مزاج الشخص لاستقبال الإلهامات المتباينة . وإنا لنسمع أن بعض الفنانين يتعاطون أنواعا من المخدرات حتى تصفو أمزجتهم وحتى يتسنى لهم التلحين أو الغناء أو التمثيل أو ممارسة غير ذلك من ألوان فنية متباينة . ومن الطبيعي أن تكون تلك المواد المخدرة ضارة بشخصيات وعقول أولئك الفنانين . بيد أن الضرر لا يتأتى عن ذات المواد المستخدمة ، بل يتأتى عن الاستخدام الضار لها . ولكن إذا ما تم إخضاع تلك المواد للطب بحيث تصير ضمن العقاقير المعترف بها من جانب الجهات الطبية ، وبحيث يكون تناولها خاضعاً لتوجيه الطبيب المختص ، فإنها سوف لا تكون عندئذ من الضرر في شيء ، بل ستكون طوع الإنسان ومفيدة له في حياته الإلهامية .

والواقع أن الطب قد بدأ بالفعل في معالجة بعض الحالات العقلية والمزاجية عن العقاقير طريق العقاقير فثمة الأقراص المهدئة والأقراص المنبهة كما أن ثمة أقراصا لتقوية الذاكرة. فلماذا لا تستحدث إذن أقراص مثيرة للالهام أو مهيئة لمزاج المرء للالهام ؟ ولعلنا نقول إن الطب يسير وراء الوصفات الشعبية . فهو يستلهم الخبرات الشعبية التي دأب الناس على الإيمان بها ثم يحاول كشف النقاب عن الوجيه فيها ، فيستبعد العناصر الضارة أو طرائق الاستخدام الرديئة ويحل محلها عناصر مفيدة وطرائق استخدام جيدة : فإذا كنا نجد اليوم أن بعض الفنانين يتعاطون المخدرات ويجدون في تعاطيها ما يهيئهم للالهام ، فإن الطب بعلمائه يجب أن يتدخل فيعكف أولئك العلماء على البحث في الفوائد والمضار بغير وجل أو تهيب ، وذلك بقصد التوصل إلى المفيد والضار ، والناجع وغير الناجع وطرائق الاستخدام الطبية السليمة لما يكشف عنه البحث من عناصر مفيدة في تلك المواد . وليس هذا بالأمر المستغرب أو الفكرة المرفوضة من أساسها . فإننا نجد أن الطب بالفعل يستخدم المخدرات في العمليات الجراحية ولكن بعد أن

تستحيل تلك العناصر المخدرة إلى مواد طبية مقننة . فالتقنين إذن هو الأساس . وطالما أن الإشراف الطبى وإيلاج تلك المواد فى المعامل الطبية قد صار هو القاعدة المعمول بها ، فلا جناح بالتأنى فى مثل ذلك الاستخدام. المهم هو مراعاة الفائدة وإبعاد الضرر سواء على المدى القصير أم على المدى البعيد .

ومن يدرى ماذا تحمله المستقبل بالنسبة للالهام فى علاقاته بالإنسان باعتبار أنه كائن بيولوجى ؟ ربما تكشف الدراسات الفسيولوجية المتعلقة بالمخ — وهو الجهاز المعقد الذى لم يتم كشف النقاب عن كثير من أسراره بعد — عن أن بالمخ مراكز معينة للالهام ، وأن تلك المراكز تقوى عن طريق وسائل معينة كأن تكون أشعة كهربية دقيقة توجه إليها فتنشطها أو تغذيها ، أو كأن ينظف حولها بنوع دقيق من الجراحات أو كأن يقوم الأطباء بإضعاف مراكز أخرى مجاورة لأنها تضايق أو تعاكس تلك المراكز الإلهامية . ولقد تكشف الدراسات والبحوث الطبية عن مواد معينة إذا ما حقن بها المرء فإن تلك المراكز الإلهامية بالمخ سوف تقوى وتنتعش . الواقع أن المخ ما يزال غامضا بدليل أن الطب لم يكشف النقاب بعد عن الوظيفة الاتصالية الروحية التى تضطلع بها بعض أمخاخ الناس بعضهم ببعض فيما يعرف بالتخاطر عبر مسافات شاسعة ، وكذا الظواهر الخارقة الأخرى كمخاطبة الأرواح أو مشاهدة أشباح لها وجود حقيقى لأنها تترك أثرها على أشياء معينة كأن تكون بصمات على شمع فى درجة حرارة معينة دفيئة، أو نحو ذلك من براهين قاطعة على الوجود الموضوعى لتلك الأشباح .

ومن المؤكد أيضاً أن للغدد الصماء وبخاصة الغدة النخامية Pituitaty gland أهمية خاصة فى هذا المضمار الإلهامى . ونستطيع القول بأن الدراسات الهورمونية سوف تحمل الكثير مما سوف يكون له بالمخ الأثر فى حياة المرء الإلهامية . ونأسف إذ نقرر أن القدر الأكبر من الدراسات حول الغدد وما تفرزه من هورمونات إنما ينصب على الحالات المرضية . ولكن

المستقبل سوف يحمل معه دراسات تتعلق بمن هم فوق مستوى السوية ، أعنى العباقرة والملهمين وأثر بعض الهورمونات فى إلهامهم .

الذكاء والإلهام :

الذكاء هو القدرة على إقامة علاقات بين الأشياء الموجودة بالموقف أو بتلك التى ليست موجودة به . المهم أن الذكاء يتركز بصفة جوهرية على إقامة العلاقات . وحتى بالنسبة للذكاء العملى أو الذكاء الاجتماعى فإننا نجد أن القدرة على إقامة العلاقات بين المقومات المتباينة واستحداث أنساق جديدة فيما بينها يترجم ما حبى به المرء من ذكاء . وبالنسبة للالهام فى علاقته بالذكاء فإننا نجد أن الشخص الأكثر ذكاء يكون بالتالى أكثر قدرة على تلقى الإلهامات المتباينة .

على أن الذكاء وحده ليس المسبب للالهام أو محدثه . إننا نستطيع القول بأن الذكاء هو الخامة العقلية — أو قل بتعبير أدق — هو إحدى الخامتين الأساسيتين اللتين يصنع منهما الإلهام ، أو تصنع منهما الخلفية المناسبة للالهام . ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نقول إن كل شخص على مستوى عال من الذكاء يكون ملهما . فثمة فى الواقع قفزات أو طفرات تبدو فى حياة الملهم الذهنية . وهذا هو ما نسميه بالإلهام . فالإلهام ليس تدرجا مستمراً عن طريق الاستمرار فى إقامة علاقات أكثر دقة وتعقداً بين المقومات المتباينة — سواء كانت بالموقف أو خارجه ، بل إن الإلهام هو قفز من أقصى ما توصل إليه المرء إلى مستوى جديد يترك وراءه فجوات يغطيها المرء بتلك القفزات الناجمة عن الإلهام .

ومعنى هذا أننا لا نجعل الذكاء هو العامل المؤثر الوحيد فى الإلهام ، بل وأكثر من هذا فإننا لا نجعل للذكاء سوى مكانة ثانوية أو قل إن عمل الذكاء هو المساعدة فحسب على تلقى الإلهامات .

ونحن نستطيع فى الواقع أن نقف على أنواع متباينة من الذكاء . فهناك إلى جانب الذكاء العقلى المنطقى ذكاء وجدانى يتعلق بإقامة صلات

وعلاقات بين الانفعالات والوجدانات والعواطف المتباينة . فكل منا ينفعل وكل منا تعتمل فى دخيلته وجدانات متباينة ، وكل منا لديه عواطف متباينة تدور حول محاور أو موضوعات متمايزة . ولكن لسنا جميعاً بنفس القدرة على إقامة علاقات دقيقة مناسبة للمواقف المتباينة بين تلك الانفعالات والوجدانات والعواطف . فثمة تباين من شخص لآخر فيما يتعلق بالقدرة على إقامة تلك العلاقات . ولنا أن نقول إن هناك مواقف الهامية بالنسبة لترتيب أو توظيف تلك الانفعالات والوجدانات والعواطف . ولعلنا نقول إن هناك عباقرة ملهمين يستحدثون علاقات بينها لا يمكن أن تتوافر للأشخاص العاديين ، أو حتى لأولئك الذين أوتوا ذكاء وجدانياً مرتفعاً . فمثل تلك المواقف الإلهامية فيما يتعلق بالحياة الوجدانية وما تتضمنه من علاقات دقيقة إنما تكون بمثابة قفزات إلهامية تواتى أولئك العباقرة الملهمين . ويتبدى الإلهام الوجدانى عما يؤثر به أولئك العباقرة فيمن حولهم من أشخاص بشكل مذهل لا يمكن أن يتأتى لسواهم . ولعلنا نلمس هذا الذى نقصده فى الأنبياء الذين يؤثرون بموقف واحد أو بكلمات قليلة معينة فى نفوس المحيطين بهم فيأسرونهم فى نطاق الدين الذى يدعون إليه . ولعلنا نلمسه أيضاً فيما يمكن أن يتحملوه برضا وحبور وسعادة فائقة من تعذيب أو امتهان أو جوع أو عطش . ولكنهم يجعلون من البؤس سعادة ومن الجوع شبعا ومن العطش ريا ومن الآلام لذائذ لا توصف .

وإلى جانب الذكاء الوجدانى ، فإننا نجد نوعا ثالثاً من الذكاء هو الذكاء التعبيرى الذى يضم الحركات والإشارات والإيماءات والكلمات والعبارات وموسيقى الكلام . على أننا نميز بين التعبير المعتمد على التقليد وبين التعبير المعتمد على إقامة علاقات جديدة بين ما يمكن استخدامه من حركات أو عبارات . فالمقلد شخص قد يكون خلوا من الذكاء الخارق . أما المبدع فإنه شخص أوتى قدراً معيناً من الذكاء حسبما يتسنى له من إبداع . فالشخص الذى يستحدث إشارات جديدة فى إيصال

مايقصده إلى من يتحدث إليهم ، وكذا الشخص الذى يستحدث استخدامات جديدة للغة الكلام أو لغة الكتابة لم تكن قائمة أو موجودة أو مستخدمة من قبل ، إنما يكون على جانب كبير من الذكاء . ولكن هناك إلى جانب التفسير بالذكاء التفسير بالإلهام ، وذلك فى الحالات التى يصل فيها التعبير إلى درجة الإعجاز . فلقد نقول إن أحد الشعراء بينما يكون ذكيا فى بعض قصائده ، فإنه يكون قد ألهم فى بعض قصائده النادرة . فعلى الرغم من أن الشاعر هوهو لم يتغير ، وعلى الرغم من أنه لم يستزد فى تحصيله الثقافى أو اللغوى ، فإن عبقريته الإلهامية تبدو فى تلك القصائد النادرة التى تعتبر فلتة أو قفزة إلهامية تخالف عما تألفه فى مستوى ذلك الشاعر الشعرى . فالإلهام الأدبى هنا لا يكون نتيجة ذكاء تعبيرى ، بل يكون نتيجة إلهام أدبى .

أما النوع الرابع من الذكاء فهو الذكاء الموسيقى . وهذا النوع من الذكاء ينصب على إقامة علاقات دقيقة بين النغمات المتباينة . ولعلنا نقول إنه عند نقطة معينة فإننا نلاحظ أن الموسيقار قد قفز بطفرة شاهقة أعلى بكثير مما يفيض له عادة فى التلحين . ولعلنا نلاحظ هذا فى إبداع بعض الملحنين من موسيقيينا . وفى رأينا أن أغنية الربيع لفريد الأطراش تعد مثالا لما ألهم به ذلك الموسيقار . إنك عندما تستمع إليها تحس بالقفزة أو بالطفرة التى قفزها فريد بحيث ارتفع عن مستوى ذكائه الموسيقى ارتفاعاً شاهقاً . وقل نفس الشيء بالنسبة لكل ملحن من الملحنين العرب وغيرهم من ملحنين بالشرق والغرب ، وفى الماضى والحاضر . والواقع أن الموسيقار الملهم لا يكون بعقله الواعى وهو يبدع إبداعا إلهامياً ، بل يكون فى أثناء التلحين غائصا إلى عمق أعماقه . فهو لا يكون مجرد شخص يركز ذهنه فى المقومات اللحنية المطروحة أمامه ، بل يكون فى مرتبة أعلى من هذه المرتبة الذكائية . إنه يكون قد بلغ المرتبة الإلهامية :

أما النوع الخامس من الذكاء فهو الذكاء الأدائى . وفى هذا النوع من الذكاء فإن الشخص يقيم علاقات دقيقة بين أشياء أو أجزاء أو أجهزة

أو أدوات أو خامات لكى يستحدث تركيبات جديدة أو أجهزة مستحدثة أو نحو ذلك من ابتكارات مفيدة يقوم الآخرون من بعده بنشرها وإذاعتها وإستخدامها على نطاق واسع . ولنا أن نقول على نفس النحو أن هناك مرتبة ترتفع وتعلو عن مستوى الذكاء العادى لكى تبلغ مرتبة الإلهام . ولعل المخترع أو المكتشف يرتفع فى بعض الحالات الإختراعية أو الاكتشافية إلى مستوى أبعد شأوا بكثير من قدرته العادية التى يمكن استشفافها أو الوقوف عليها فى مخترعاته أو مكتشفاته السابقة . إنه فى إختراع معين يقفز قفزة هائلة أو يطفر طفرة شاسعة لا قبل له بها فى الأوقات العادية . إنه قد يقول لك إنه لم يكن له أن يصل إلى إختراعه أو إلى إكتشافه بذكائه ، بل هو توفيق واتاه فى لحظات إلهامية عجيبة .

ولنا أن نقول إن العلاقة بين الذكاء بأنواعه المتباينة وبين الإلهام ليست مجرد علاقة كمية حيث يزداد الإلهام كما عن الذكاء بل هناك أيضا مفارقة كيفية بين الذكاء والإلهام . فالزيادة الكمية فى الموقف الإلهامى ليست زيادة تدريجية بل هى زيادة طفرية مفاجئة . إنها تشبه الفيضان المفاجىء الذى يدفع بكل شىء أمامه . ولقد نقول أكثر من هذا إن تلك الانهيارات الذهنية تغمر الشخص الملهم وتواتيه عن غير وعى من من جانبه . فهو يكون مسوقا سوقا أمام تيار الإلهام للدرجة أنه يكون عاجزاً عن وقف ذلك التيار الإلهامى أو الحد من شدته أو سرعة تدفقه . فالملهم يكون كالقشة فى مهب الريح . وبتعبير آخر فإن الملهم لا يكون مسيطراً على إلهامه ، بل يكون الإلهام هو المسيطر عليه وقد أخذ بكل مقاليده وأسره أسراً تحت سلطانه . ولعلنا نكتشف فى نفس الوقت أن التدفقات الإلهامية تحمل فى طياتها نوعية جديدة لا يمكن تفسيرها بالذكاء فحسب . ذلك إن الشخص الذكى يكون واقفاً على المضامين الكلية والجزئية بالموقف . أما الملهم فإنه قد لا يستبين المقومات التى ألهم بها استبانة تامة . فهو كما قلنا يكون مدفوعا به فى التيار الإلهامى بحيث لا يستطيع استبانة ما يقدمه إليه الإلهام استبانة تامة : فهو يعمل أو يخترع

أو يقول الشعر أو يلحن بغير أن يدرك إدراكا واعيا ما يعمله . وهذا فى حد ذاته مناف للادراك الذهنى لما يحتمل فى الذهن من أفكار أو علاقات . فكونك فى وقت الإلهام لا تدرك ما تفكر فيه ، فيأتى ما تفكر فيه شيئا معجزاً وباهرا إنما يكون بالتأكيد من نوعية أخرى غير الفكر والاستدلال المنطقى والاستنتاج العقلى . إنه يكون إلهاما من نوع جديد ومن نسيج ذهنى آخر غير النسيج العقلى المعروف . ومعنى هذا كله إذن أن علاقة الذكاء بالإلهام ليست علاقة تدرجية . بل هى علاقة طفرية بالدرجة الأولى وبشكل جوهرى .

الجنس والإلهام :

سبق أن قلنا إن هناك علاقة قوية بين المقومات البيولوجية وبين الإلهام ، وقد ألمعنا فى سياق كلامنا عن هذه العلاقة إلى ما للهورمونات من تأثير ذى بال فى تهيئة المناخ النفسى للالهام . وطالما نتحدث عن الهورمونات ، فإننا لا بد أن نشير إلى ما للهورمونات الجنسية أو الهورمونات التى لها علاقة بالجنس .

لعل من أبسط البسائط أن نقول إن المرء بعد أن يجتاز مرحلة الطفولة وينخرط فى مرحلة المراهقة ، فإنه يكون متأثرا بالجانب الجنسى فى حياته العقلية والوجدانية والاجتماعية ، فتصطبغ حياته بصبغة جديدة ، وتثور لديه ميول جديدة لم تكن ظاهرة بنفس القدر فى طفولته . ومن الطبيعى أن تستمر هذه الميول الجديدة فى حياة المرء فى اطراد متزايد إلى أن تصل إلى أوجها خلال الشباب فى حوالى الخامسة والعشرين .

والواقع أن الجنس يلعب دورا مهما فى حياة المرء الذهنية بوجه عام . فهناك أولا — تقدير الذات . فالإنسان بعد خروجه من إطار الطفولة ثم إنخراطه فى إطار المراهقة وما بعدها يحس بأنه قد صار متدفق النمو والتفتق من الداخل . فبعد أن كان خلال الطفولة فيما يشبه الكمون أو بتعبير أدق بعد أن كان النمو خلال الطفولة وئيدا ، فإنه فى المراهقة ،

والشباب قد صار يتدفق تدفقا ، بل إن تفتحه من الداخل يعتمل حثيثا وبشدة . فالإنسان ينسلخ من واقع ضيق النطاق لكى يندرج فى واقع واسع فسيح . فلماذا لا يحس المراهق والشاب والمراهقة والشابة بأنهم صاروا إلى وضع مرموق ؟ لقد استطال الجسم ونضج وظهرت علامات الرجولة على المراهق والشاب ، وعلامات الأنوثة على المراهقة والشابة وما يتبع ذلك من تغير فى مواقف الآخرين منهم . إن الناس من حولهم صاروا يعملون لقوتهم وتأثيرهم وآرائهم الحساب كل الحساب . ولقد صار المراهقون والشباب من الجنسين يحسون برجحان العقل ، بل إنهم صاروا يحسون بأن فى مقدورهم تحدى أفكار الكبار ومعتقداتهم وما درجوا عليه من عرف وتقاليد وممارسات . فالمناخ النفسى إذن يكون قد تهيأ تماما أمام المراهقين والشباب من الجنسين لتلقى الإلهام .

هناك ثانيا تقدير الجنس الآخر تقديراً قد يصل إلى حد التقديس . فبالنسبة للمراهق والشاب يكون للملامح والقد والحركات والإيماءات والصوت العذب ، بل وكل ما يتعلق بالمرأة حتى ملابسها وما تستعين به من أشياء للزينة التأثير الكبير والعميق فى مشاعرهما . وكذا الحال بالنسبة للمراهقة والشابة من حيث ما تستشعرانه من تقدير عميق لمن اكتملت رجولته من المراهقين والشباب . ولسنا نغالى إذا قلنا إن المراهقة والشباب هما الفترة من الحياة التى يلهج خلالها اللسان بالشعر كما تعتمل فى الذهن أحاسيس نشوانة بالجمال والانسجام والشوق والحنين . وفى هذه الفترة يكون المراهقون والشباب خلالها منكبين على القصص والأفلام التى تدور حول العلاقة الغرامية بين الجنسين وما تلعبه الظروف الاقتصادية من فرقة وحرمان .

هناك ثالثا الإعلاء أو التسامى . فالطاقة الجنسية لدى المراهقين والشباب من الجنسين يمكن أن ترتفع من المستوى البيولوجى إلى المستوى العاطفى وما يلتف حول هذا المستوى العاطفى من وسائل تعبير فنية وأدبية كالرسم والنحت والشعر الرائع والنثر الجميل . والواقع أن التسامى أو

الإعلاء فى حياة المراهقين والشباب يلعب دوراً بعيد المدى فى تهيئة الجو النفسى لهم لتلقى الإلهام . ولسنا نزعم أن مجرد حدوث الإعلاء أو التسامى الوصول إلى مرحلة الإلهام . ذلك أن الإلهام يعنى التفرد وبلوغ مرتبة خاصة لا يستطيع الجميع بلوغها ، بل تستطيع القلة فقط بلوغها . فنحن إذا قلنا إن جميع المراهقين والشباب يحصلون على قدر من الإلهام ، فاننا فى نفس الوقت نقرر أن ذلك القليل يمكن ألا يؤخذ فى الاعتبار . والأمر فى هذه الحالة كالأمر بالنسبة لسقوط المطر . فاذا قلنا إن جميع أقطار العالم تسقط بها أمطار، فاننا نستطيع فى نفس الوقت أن نصرف النظر عن الصحراوات التى يعتبر سقوط الأمطار بها نادرا ، بحيث يمكن التجاوز عن تلك الندرة من المطر التى تسقط عليها ، فنقرر بغير خطأ أن الأمطار لا تسقط على الأراضى الصحراوية . فالإلهام على نفس النحو لا يواتى إلا قلة قليلة من المراهقين والشباب . فالتسامى أو الإعلاء هو مجرد أرض خصبة لوقوع الإلهام ، ولكنه لا يشكل وحده الشرط الوحيد أو اللازب للحدوث .

هناك رابعا — الابدال . والابدال هو إحلال نوع جديد من النشاط لا صلة له اطلاقا بالجنس محل الطاقة الجنسية . فبينما نجد أن الاعلاء أو التسامى هو استحالة من حالة إلى حالة أخرى مع استمرار الارتباط بالجنس كأن يحل الشعر الغزلى محل النشاط الجنسى الفسيولوجى ، فإننا نجد أن الابدال خلو من أى ارتباط بالنشاط الجنسى . من ذلك مثلا أن يستبدل المراهق أو الشاب بالنشاط الجنسى نشاطا رياضيا أو نوعا معينا من الهوايات كجمع طوابع البريد أو إصلاح أجهزة التلفزيون . فالاستحالة هنا هى استحالة من كيف ما إلى كيف آخر مباين للكيف الأول تمام التباين . والواقع أن الإبدال يلعب دورا كبيرا فى تهيئة المرء لتلقى الإلهام : بيد أن مثل هذا الاعداد لا يعنى تلقى الإلهام بالفعل . فلقد سبق أن قررنا أن التهيئة للإلهام تعتبر المرحلة الأولى التى تسبق المرحلة الثانية المتمثلة فى الإلهام . فليس الابدال وحده بكاف لوقوع الإلهام للمرء .

هناك خامسا وأخيرا — الكبت والقمع الجنسيان . ومعنى هذين اللفظين الحيلولة بين المرء وبين الممارسة الجنسية الصريحة كما هو الحال لدى الحيوانات بعامة . بيد أن الكبت يختلف عن القمع فى زاوية الإرادة والقصد من جهة ، وفى زاوية التذكر من جهة أخرى . فالكبت يقع رغما عن المرء كأن تصد امرأة المراهق أو الشاب أو تزجره لدى مغازلته لها . وتتم دورة الكبت عندما ينسى ذلك المراهق أو ذلك الشاب ما أصابه من اهانة . والنسيان هنا ليس نسيانا عقليا ، بل هو نسيان وجدانى انفعالى. صحيح أنه إسقاط لموضوع من الذاكرة ولكنه إسقاط إلى الداخل وليس إسقاطاً إلى الخارج ، بمعنى أنه إخفاء للحادثة المهينة وإبعاد لها عن بؤرة التذكر ، ولكنه ليس امحاء لها . أما القمع فإنه عملية إرادية . فالمراهق أو الشاب يحول بين نفسه وبين المعاشرة الجنسية وهو مسيطر على نفسه ويجبر ذاته على عدم الاتيان بالنشاط الجنسى . ومن جهة أخرى فإن نسيانه أو إغفاله لما قام به من قمع جنسى ليس نسيانا وجدانيا انفعاليا كما هو الحال فى الكبت بل هو نسيان ذهنى كنسيان أى موضوع آخر . فسواء ظل القمع عالقا بالذاكرة أم اختفى وتلاشى ، فإن فعل القمع لا يظل معتملا فى دخيلة القامع وفى ذهنه أو وجدانه . والواقع أن المكبوتات تظل تعتمل فى نفسية المرء بحيث قد تطل من وقت لآخر فى صور متباينة يضمنها الاحتدام الذهنى الوجدانى فيكون المراهق أو الشاب مستعدا لتلقى الإلهامات .

ولعلك تلاحظ فى دراسة الشخصيات التى حظيت بالإلهام أن الغالبية العظمى منها كانت مفعمة بالمكبوتات الجنسية . ذلك أن تلك المكبوتات يمكن أن تدفع بالشخصية إلى أسفل سافلين فترمى بها إلى أحضان الجنون أو إلى ارتكاب الجرائم المختلفة ، أو يمكن أن تدفع بها إلى أعلى عليين فتصير جاهزة لتلقى الإلهامات المتباينة . بيد أن بلوغ المستوى الرفيع من الاستعداد لتلقى الإلهام ليس بكاف لبلوغ المرحلة الإلهامية . فما يفعله الكبت فى بعض الأحيان مع مثل تلك الشخصيات بالدفع بها إلى أعلى عليين ليس

سوى تهيئة المناخ النفسى لتقبل الإلهام . ولسوف نعرض فى الموضوع التالى والأخير من هذا الفصل لما أسميناه بالاستغراق الإلهامى ، أعنى الحالة التى يبلغها البعض ممن توافرت لهم فرص تقبل الإلهام فصاروا مستعدين بعد ذلك لبلوغ مرحلة الإلهام بعد أن تهيأت نفوسهم لتلقى الإلهام .

والواقع أننا إذا كنا قد ركزنا القول على المراهقة والشباب ، فليس معنى هذا أننا نجرد مراحل العمر التالية حتى الشيخوخة من تأثير الجنس . وأكثر من هذا فإننا لا نجرد الطفولة من تأثير الجنس فى أفرادها . فواقع الأمر أن الجنس يلعب دورا بالغ الأهمية فى تهيئة المرء للإلهام فى جميع مراحل الحياة . ولكن مما لا شك فيه أن الجنس فى المراهقة والشباب يتبوأ مكان الصدارة ويصل إلى الأوج بغير منازع فى هاتين المرحلتين من حياة المرء . وهناك قصص عن أطفال وشيوخ تؤكد ما نزعمه هنا من أن الجنس يلعب دورا بالغ الأهمية فى الحياة الإلهامية . ولا غرو فقد قيل إن العبقرى هو شخص تحتل لديه المسائل الجنسية مكانة هامة للغاية ، وأنه شخص يظل فى طور المراهقة حتى الشيخوخة . فهو شخص تعتمل لديه ثورتان دائبتان بغير خفوت أو هدوء : ثورة عقلية وثورة جنسية . وحتى فى الحالات التى يبدو فيها العبقرى منصرفا عن الجنس ، فإن انصرافه لا يكون إلا انصرافا ظاهريا يخفى تحته ثورة جنسية عارمة .

الاستغراق الإلهامى :

قلنا أن هناك عوامل تهيىء المرء لتلقى أو تقبل الإلهام كالذكاء والحدس والجنس والمقومات البيولوجية ، ولكننا لم نجعل لأى من تلك العوامل الكلمة الفاصلة فى الإلهام ، ولم نجعل لأى منها اليد الطولى فيه ، أو لم نجعل أياً منها السبب المباشر أو الوحيد للإلهام . فلقد ميزنا بين المؤثر الذى يهيىء الشخصية للإلهام وبين ما أسميناه بالاستغراق الإلهامى، أعنى الحالة التى يخرج فيها المرء من حالة الاستعداد لتقبل الإلهام إلى الحالة التى يكون فيها ملهما بالفعل .

وعلينا بادىء ذى بدء أن نحدد معنى الاستغراق الإلهامى حتى يتسنى لنا تبين طبيعته والكيفية التى يصل بها المرء إلى تحقيقه فى ذاته . فنحن نعنى بالاستغراق الإلهامى ما يأتى :

أولا — الارتفاع عن مستوى الذات فيما يمكن أن يقوم به المرء عادة . ففى الاستغراق الإلهامى يحظى المرء بأفكار تحولية خطيرة فى حياته أو فى الواقع من حوله . وهذا معناه أن ثمة انخراطا فى حالة نفسية جديدة ليست هى الحالة التى دأب على الانخراط فيها أو الاحساس بها بدخيلته . والواقع أن بيننا وبين الحقائق الإلهامية ما يشبه الحجاب لدرجة أننا نستطيع القول بأن هناك ما يشبه التباين فيما بين الاستدلال المنطقى القائم على استقراء الوقائع وبين الإلهام . فطالما أننا نقيد أنفسنا بالمنطق الذهنى وبربط المسببات بأسبابها ، فإننا نظل قاصرين عن بلوغ المرحلة الإلهامية . ومعنى هذا أن الاستغراق الإلهامى يتطلب الانخلاع أو الانفكاك من قيود التفكير العلى أو السببى حتى يتسنى الوقوف أمام الحقيقة وجهاً لوجه . ونستطيع أن نشبه التفكير المنطقى بالجاذبية الأرضية . فكما أن تلك الجاذبية تحول بيننا وبين الطيران إلى الكواكب الأخرى فإن التفكير المنطقى المعتمد على السبب والمسبب يحول بيننا أيضاً وبين الاستغراق الإلهامى . ولكن من جهة أخرى فإن التغلب على الجاذبية الأرضية يسمح للإنسان بأن يسبر أغوار الفضاء . وعلى نفس النحو فان تغلب الانسان على التفكير المنطقى السببى هو القمين بأن يرتفع به عن المستوى العادى من القدرة الذهنية إلى المستوى الإلهامى .

ثانياً — الانخراط فى حالة لاشعورية وحالة استقبالية فى نفس الوقت. ذلك أن اللاشعور كما يصوره فرويد وأصحاب التحليل النفسى عادة لا يستقبل شيئا ، بل يصدر ما ترسب فيه من خبرات على هيئة رموز تشير إلى المكبوتات المعتملة به . أما اللاشعور الإلهامى الذى نشير إليه هنا فانه نوع آخر من اللاشعور يتصف بصفة أخرى غير الصفة التى يتسم بها اللاشعور

المرضى . فاللاشعور الإلهامى يتصف أساسا بالصفة الاستقبالية الإلهامية . فثمة إذن نوعان من الغطس إلى دخيلة المرء : غوص إنسحابى إنسحابية تامة حيث يكون الشخص منقطعا تمام الانقطاع ومنسلخا تمام الانسلاخ عن العالم المحيط به ، وغوص إلى الداخل حيث يكون المرء على جانب أكبر من القدرة على مشاهدة الحقائق جلية واضحة . ولعلنا نشبه المرء فى حالة الغوص الثانى بالشخص الذى يشاهد المنطقة التى يسكن فيها على نحو أفضل وبطريقة كلية وشاملة إذا ما استقل طائرة وشاهدها من بعد معقول . فهو يشاهد تلك المنطقة بطريقة موضوعية وقد طرحت أمامه طرحا . فنحن فى أثناء انغماسنا فى الواقع لا نستطيع تبينه . ولكن إذا ما بعدنا عنه بالانسحاب إلى دخائلنا مع استمرار التطلع إلى ذلك الواقع ، فان الفرصة تسنح لنا عندئذ لإدراكه والوقوف على كنهه وتبين ملامحه بطريقة جيدة وعلى نحو أكثر من الوضوح والجلاء .

ثالثاً — إننا نستطيع أن نقف على ثلاث مراحل معرفية يمر بها المرء، على الرغم من أن معظم الناس لا يستطيعون سوى بلوغ المرحلتين الأوليين من تلك المراحل الثلاث . المرحلة الأولى هى المرحلة المعرفية الواقعية ، والمرحلة الثانية هى المرحلة المعرفية الحدسية ، والمرحلة الثالثة هى المرحلة المعرفية الإلهامية . والحديث عن المرحلة المعرفية الموضوعية يعتبر تحصيل حاصل لأن جميع الناس يعرفون الواقع من حولهم بطريق الحواس من جهة وبطريق الربط بين المحسوسات بإقامة علاقات ووشائج فيما بينها من جهة ثانية ، ثم بالاستدلال من جهة ثالثة، سواء بالاستقراء بدءاً بالوقائع الجزئية وانتهاء إلى القوانين أو الأحكام العامة ، أم بالقياس وذلك بتقديم قاعدة أو قانون عام والحكم على جزئية من الجزئيات فى ضوء تلك القاعدة أو ذلك القانون . أما المرحلة المعرفية الثانية — وهى المرحلة الحدسية — فإنها وإن كانت تواتى جميع الناس ، فإن طغيان المرحلة الأولى — أو النوعية الأولى من المعرفة وهى المعرفة الواقعية — يحمل البعض على إنكار وجودها أصلا والتشبث فقط بتلك المعرفة الواقعية واعتبارها النوع الوحيد

من المعرفة . ونحن نستطيع القول إن المعرفة الحدسية لا تقل صلابة وتماسكاً ورسوخاً عن المعرفة الواقعية . ولعل الانسان فى تطوره الذهنى عبر ملايين السنين كان فى بادىء الأمر يعتمد على المعرفة الحدسية قبل أن يتسنى له إعمال عقله والربط بين الأسباب وما يتأتى عنها من نتائج ، أو بتعبير آخر قبل توصله إلى طريقة التفكير العلى أو السببى . لقد كان الانسان البدائى يقفز إلى الحقائق مباشرة بغير ما حاجة إلى المرور بالأسباب والوقوف على سلسلة العلل والمعلولات . فالحدس هو كشف الحقائق مباشرة بغير تسلق الدرجات الذهنية التى توصل إلى تلك الحقائق . ولقد يصعب على الانسان الحديث تفهم إمكان ذلك لأنه بكل بساطة قد فقد تلك القدرة الذهنية لشدة انغماسه فى التفكير السببى . فالانسان الحديث قد فقد أوكاد أن يفقد هذه النوعية من التفكير كما سبق أن فقد القدرة على الرسم والقدرة على الحفظ وذلك لعدم الحاجة إلى الرسم وعدم الحاجة إلى الحفظ. ولقد يصح لنا أن نتنبأ أيضاً بأن إنسان المستقبل سوف يفقد القدرة على الكتابة أيضاً وذلك بعد أن تتوافر آلات الكتابة التى تحمل فى اليد والتى سوف يحل تعلم استخدامها محل تعلم الكتابة بالقلم . فآلة الكتابة واليسر فى استعمالها سوف تفقد إنسان المستقبل مهارة يدوية طالما افتن الناس فى تعليمها لأبنائهم عبر العصور . ولعلنا نلمح إهمال تعليم الخط وأيضاً إهمال التمسك بالخط السليم والضرب عرض الحائط بقواعده مما يشير إلى بدء فقدان الانسان الحديث لتلك المهارة اليدوية . ولسوف تكون المعركة الفاصلة للقضاء على الكتابة بالقلم نهائيا بعد أن تنتشر الآلات الكاتبة أو آلات الكتابة التى سوف يحملها الناس أينما يذهبون كما بدأوا اليوم يحملون فى جيوبهم الآلات الحاسبة ، وهى الآلات التى أفقدتهم القدرة على إجراء العمليات الحسابية البسيطة بأذهانهم . ولسوف تظهر آثارها فى الأجيال القادمة عندما يعمم استخدام تلك الآلات الحاسبة على نطاق واسع بدءاً بالصفوف الأولى بالمرحلة الابتدائية .

وإذا نحن شاهدنا عالم النمل والنحل والطيور وبعض الحيوانات لوجدنا إذن أن المعرفة لديها تعتمد أساسا على هذا النوع من المعرفة الحدسية :

وكلما انضمت الحيوانات إلى عالم الانسان وتم استئناسها ، فإنها تبدأ فى نفس الوقت فى فقد القدرة على المعرفة الحدسية . على أن بعض الناس ما يزالون يعتمدون على المعرفة الحدسية فى تسيير شئون حياتهم بما فى ذلك الأمور الاقتصادية . وهناك أمثلة على ذلك حيث يكون الشخص أميا وعلى السليقة ولكنه ينجح فى ترتيب أموره وتسيير تجارته أو صناعته . وهو لا يعتمد فى ذلك على العقل بل يعتمد على الحدس . ولقد يفسر الناس من حوله ذلك النجاح بالحظ المشرق الباسم ، ولكن الحقيقة أن سر النجاح الذى يفيض لمثل ذلك الشخص ليس الحظ ، بل اتباع طرائق التفكير الحدسى .

أما المرحلة المعرفية الثالثة — وهى المرحلة الإلهامية — فانها وإن كانت تشترك مع المعرفة الحدسية فى قطاع مشترك بينهما — وهو عدم الاعتماد على التفكير الموضوعى المنطقى — فانها تختلف وتتميز بأنها معرفة استقبالية وليست معرفة تفسيرية . فبينما يقتصر الحدس على الإدراك واستشفاف الواقع ، فان الإلهام يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك بالوقوف على المستقبل وإدراك ما سوف يقع وكأنه مكتوب على لوح جلى أمام عينى المرء . ولكأن الملهم يخرج ذلك المستقبل المرئى إلى حيز الواقع . ومن هنا فان المعرفة الإلهامية تتصف بالإيمان المطلق بما يقدم عليه المرء فى ضوء بصر ذهنى وإدراك مسبق . على أن الملهم لا يدرك فحسب ، أو قل إنه لا يصل بذهنه إلى المعرفة ، بل إن المعرفة هى التى تهبط عليه . فهو كالرادار الذى يستقبل بدقة الطائرات القادمة من بعد بعيد . فالطائرة التى تظهر على الرادار هى التى تفرض عليه مشاهدتها وقد جهز فقط بتلك القدرة على التقاط صورتها ، أو ما يرمز لها . فالانسان إذا ما تهيأ نفسيا لاستقبال المعرفة الإلهامية ، فانه يكون قادراً على الاستقبال الإلهامى ولكن ليس بطريقة ميكانيكية . ذلك أن الملهم لا يستقبل إلهاماته بالضرورة وباستمرار ، بل هو ينتظر إلى أن تواتيه بطريقة عفوية بغير تخطيط أو تدبير .

الفصل الثالث

اكتشاف القارة المجهولة

لا حدودية الإلهام :

لقد سبق أن أوضحنا أن الإلهام ليس نشاطا إنسانياً يضطلع به المرء كما يتناول النجار لوحا من الخشب ويصنعه بأن يكسبه شكلا معينا ، وليس عملا إراديا يضطلع به المرء أو يحجم عن الاضطلاع به ، بل هو تأثير من خارج الإنسان فى عقله أو وجدانه أو إرادته أو فى كل ذلك دفعة واحدة . ومعنى هذا أن الإلهام يتحدد بتوافر عاملين أو شرطين أو حالتين : فثمة استعداد المرء لتلقى الإلهام ، وثمة من جهة أخرى تقديم الإلهام إلى ذاك المرء . ولا يكفى توافر الشرط الأول وحده حتى يصيب المرء حظا من الإلهام . فلقد تعد نفسك الإعداد الكامل للإلهام ولكن الإلهام لا يواتيك بالقدر الذى أعددت نفسك له . فالإلهام كعطية من الخارج شىء ، وإعداد نفسك لتلقى تلك العطية شىء آخر . ونحن نعرف شخصيات كثيرة عبر تاريخ الفكر أو الفن تمكنت من الفلسفة أو الأدب أو الفن وقد أعدت نفسها إعدادا طيبا بل وممتازا لتلقى الإلهام فى المجالات التى برزت فيها وسبرت أغوارها . ولكنها مع ذلك لم تكن محظوظة بتلقى الإلهام ، بل وصلت إلى الإجادة فحسب ، دون أن يسعدها الحظ بتلقى الالهامات من الخارج . وعلى العكس من ذلك فإن بعض العباقرة لم يكن حظهم من الدراسة أو من سبر أغوار المجالات التى عشقوها سبرا بعيد المدى ، ولكن حظهم من الإلهام كان كبيرا فاستطاعوا تلقى تلك الإلهامات مما قفز بهم إلى أعلى عليين ، وكان حظهم نادرا بين أقرانهم بفضل تلقيهم الإلهامات من الخارج .

ولقد دأب العرب منذ القديم يقولون بشيطان الشعر يلهم الشاعر بالقصائد التى ينظمها بحيث تأتى على نحو يعجز نفس الشاعر عن مضاهاته أو بلوغ

مرتبته عندما يتركه ذلك الشيطان : ولقد ننظر نحن المعاصرين إلى مسألة شيطان الشعر أو شيطان الفن أو شيطان الموسيقى بكثير من التهكم والسخرية أو لعلنا نتناول تلك المفاهيم تناولا مجازيا ، حيث نظن أن المقصود بالشيطان هنا هو الحالة المزاجية التى كان عليها الشاعر أو الفنان أو الموسيقار أو نحوهم. وليس هذا النحو من التفسير المعاصر بالشىء المستغرب . ذلك أننا نتناول جميع الأمور الغيبية بنظرة واقعية مادية ، ويكاد أحدنا لا يجرؤ على الكشف عن إيمانه بالغيبيات اللهم إلا فيما يتعلق بالأمور الدينية . فيكاد الإنسان المعاصر ينكر القوى الروحانية فى عملها فى حياة الإنسان ويعتقد أن العلم الوضعى هو الكفيل الوحيد لتفسير كل شىء فى مناشط الإنسان وحالاته المتباينة .

ولكن إذا نحن نظرنا بنظرة غيبية إلى الإلهام واعترفنا بوجود كائنات روحانية تستطيع أن تمد يد المساعدة إلى المرء فى المجال الذى أعد نفسه له وقد تمكن منه ، فإننا بالتالى نستطيع أن نقرر حقيقة هامة هى لا محدودية الإلهام . ذلك أن اعترافنا بالعالم الروحانى يحملنا بالتالى على النظر إلى إنتاج الشخص الملهم من زاويتين : الزاوية الشخصية التى تتحدد بحدود ما أوتى به من قدرة ، والزاوية الروحانية التى نعتقد أنها لا نهائية وغير محدودة : بيد أن الفرد الواحد من الملهمين لا يتلقى إلا قبسا مما يمكن أن تهبه تلك الكائنات الروحانية له . فشيطان الشعر يمنح أو يمنع ، وقد يمنح كثيرا وقد يمنح قليلا ، بل إنه قد يمنح كثيرا من العطاء الإلهامى فى أحد المواقف الإلهامية الشعرية ، بينما قد يمنح قليلا أو قدرا متوسطا فى موقف إلهامى شعرى آخر. وما يقال عن شيطان الشعر ينسحب بنفس الصدق بازاء الشياطين الأخرى فى المجالات الإبداعية المتباينة .

ولسنا نقول بدعا أو نلفق نظرية بغير أساس . فلسوف تتضح حقيقة ما نزعمه هنا عندما نعرض لحياة العباقرة وكيف أن الإلهامات الروحانية قد لعبت فى حياة كل منهم دورا كبيرا يعترف هو به فى مذكراته أو فيما قاله لمن حوله أو فيما كتبه وسجله أصدقاء له باخلاص وموضوعية . ونحن

فى الواقع نعرف جيدا أن الكثير ممن يقرأون كلامنا هذا سوف يستخفون به ، أو سوف يسارعون إلى تأكيد بهتانه . على أننا نؤكد بنفس المنطق الذى يضربون فى إثره أن علم نفس الخوارق قد أخذ يخطو حثيثا إلى البحوث والمراجع بل وإلى معامل علم النفس . ذلك أن علماء النفس المحدثين يحاولون جاهدين التحقق من الظواهر الخارقة بمنطق علم النفس الموضوعى الواقعى .

ونحن نعتقد أنه فى ظل المناخ الحضارى الذى نعيش فى ظله — وهو واقع متسم بالمادية والواقعية وإنكار تفسير العبقرية بغير ما جبل عليه العبقرى من إمكانيات واستعدادات نفسية — فاننا سوف نلاحظ ظهور فجر جديد يبشر بالروحانيات فى الحياة الإنسانية بحيث تحتل تلك الروحانيات مكانة هامة فى تفسير العبقرية والإلهام وغيرهما من حالات إنسانية . وليس هذا بالأمر المستبعد . ذلك أن مادية القرن التاسع عشر كانت تنكر مالا يقع عليه الحس مباشرة أو بالواسطة . أما الواقعية الحديثة فى قرننا هذا فإنها لم تعد مادية كتلك المادية المندثرة ، بل صارت تفسر الوجود بالقوة وليس بالامتداد. فالطاقة هى الأساس فى التفسير الحديث وليس الامتداد كما كان يعتقد الماديون القدماء . والواقع أن القول بالقوة أو بالطاقة إنما هو اقتراب لا شك فيمن القول بالروحانيات . فطالما أنك تنكر وجود الامتداد وتعترف بوجود الطاقة ، فإنك تكون بذلك قد حطمت المادية وأحللت محلها شيئا آخر هو ذلك الشيء القريب جدا من مفهوم الروحانى أى غير المادى . ذلك أنك إذا تساءلت عن معنى الروحانى فإنك سوف لا تبعد كثيرا عن مفهوم الطاقة أو القوة . ولعل الخلاف فى مصدر تلك الطاقة أو القوة هو الخلاف الوحيد بين النظرتين : النظرة الأرضية والنظرة العلوية . فبينما تكون القوة أو الطاقة نابعة من العالم المحيط بنا ، فإنها تكون فى حالة النظرة الغيبية نابعة من جهة غيبية غير الجهة الواقعية المحيطة بنا .

وأيا ما يكون الأمر ، فإن الإلهام لا شك حقيقة واقعة لا ريب فيها . ولعل الاختلاف يبدو بين من يتعرضون لتفسيره لا على وجوده أو عدم

وجوده ، بل يبدو فى التفسير بالخارج أو بالداخل . فأولئك الذين يفسرون الإلهام بالداخل يزعمون أن الإنسان هو ملهم نفسه ، بمعنى أنه يثير فى نفسه الإلهامات عما يجعله أمام ناظريه من أشياء جميلة أو مثيرة تعمل على تقديم إيحاءات معينة إليه . فالمنظر الجميل أو المرأة الجميلة أو قراءة شعر أحد الشعراء أو تأمل حقيقة علمية ما يمكن أن تثير لدى المرء إلهاما يحمله على تقديم شيء عبقرى جديدكل الجدة . أما التفسير بالخارج فإن أصحابه يقولون أن الإنسان الملهم يكون كالرادار الذى يستقبل الإلهامات التى تقدمها إليه كائنات روحانية معينة بإرادتها لا بارادته . والعبقرى الملهم يستطيع أن يمتنع عن استقبال الإلهام ،ولكنه لا يستطيع إجبار تلك الكائنات الروحانية على تقديم إلهاماتها إليه . فأنت تستطيع أن تدير جهاز التلفزيون لتستقبل ما ترسله محطة الإرسال التلفزيونى على شاشة جهاز استقبالك . ولكن إذا أدرت جهازكالتلفزيونى فى غير مواعيدالإرسال فإنه لا يعرض أمامناظريك أى شيء .وأكثر منهذا فدى جودة جهازك لا دخل له فى جودة ماتستقبله من برامج . أما إذا كان الجهاز غير جيد فإنه لا يقدم إليك الصور على نحو جيد مما يفسد قيمة ومستوى البرنامج المتلفز . . وعلى نفس النحو فإن الملهم يستقبل ما يقدم إليه من تلك الكائنات الروحانية بغير أن تكون لديه القدرة على تحسين ما تقدمه إليه . فهى صاحبة الكلمة العليا حيث تستطيع أن تعطى ، بينما يكون فى مقدور الملهم أن يصد عن استقبال ما تلهمه به الكائنات الروحانية كما تستطيع أنت إغلاق جهاز إرسالك التليفزيونى .

والواقع أن لا حدودية الإلهام تتبدى فى ناحيتين أساسيتين : الناحية الأولى — نوع الإلهام ، والناحيه الثانية — هى الكيف والمستوى . ولقد نزعم أن المصادر الإلهامية الروحانية.تتباين فيما يمكن أن تقدمه من إلهام . فبالنسبة لواحد مثل بليك ، فإننا نجد أن الأشباح التى كانت تتبدى أمام ناظريه لم تكن على نفس المستوى من الروعة . ولسوف نشاهد فى حياته الفنية التى سوف نعرض لها فى فصل قادم كيف أن شبح البرغوث كان ضمن الأشباح التى تبدت أمامه . ومن الطبيعى أن الشبح المتعلق بتاج الملك

شاول كان أكثر روعة بكثير من شبح البرغوث . وواضح أيضا أن الإلهامات التي كانت تتبدى لبليك كانت أشباحاً منظورة لأنه كان رساما ، ولم تكن الإلهامات التي تقدم إليه إلهامات موسيقية أو علمية مثلا . ولكن عباقرة آخرين في مجالات أخرى كانت تتبدى لهم إلهامات تناسب إمكانياتهم ومواهبهم . ذلك أن الكائنات الروحانية لا تقدم الإلهامات جزافا ، بل تتحرى الدقة فيما تقدمه إلى العباقرة والملهمين .

السعي وراء المجهول :

إننا وإن كنا قد قلنا إن الإلهام يعتمد على ما تقدمه الكائنات الروحانية بشكل أو بآخر إلى المرء الملهم ، وأن كل ما يفعله ذلك الشخص الملهم حتى يتسنى له تلقي الإلهام هو إعداد ذاته نفسيا ، فإننا لا نستطيع أن نغض عن الجهد الذي يبذله الشخص حتى يكون قد أعد نفسه لتقبل الإلهام من خارجيته . فواقع الشخص الملهم ليس واقعا سلبيا تماما . ولعلنا نعود فنعدل من تشبيهنا للملهم بالرادار على أساس أن الرادار سلبي الموقف ، بل إنه آلي العمل ، ولا يتبعث في إعداد ذاته من دخيلته ، بل يعمد المهندسون المختصون إلى إعداده ، فلا يكون عليه سوى التقبل حسب الحالة التي أعد عليها . ولعل النقطة التي نريد تعديلها في تشبيهنا للملهم بالرادار هي أن هناك دوراً إيجابيا أساسيا يقوم به الشخص في سبيل إعداد نفسه لتلقي الإلهام . وهذا الدور الذي نشير إليه ليس دورا منتهيا بل هو دور مستمر أبداً طالما اعتزم المرء على تقبل الإلهام والتشبث به . ويتمثل هذا الدور بصفة رئيسية في السعي وراء المجهول . ولعلنا نلخص هذا الدور المتمثل في السعي وراء المجهول فيما يلي :

أولا : الانفكاك من أسر المألوف والمطروق . ذلك أن الأعمال المرسومة والخطط المعتادة في التفكير والمضمون الحضاري الذي يستظل به المرء يمكن أن تستحوذ على فكر المرء ووجدانه وإرادته ، فيكون تابعاً لما يضغط عليه من الخارج بالمجتمع الذي يحيا في نطاقه . والواقع أن الشخص الملهم هو

أيضا شخص يتعشق الحرية ويهرب من الضغوط التى تكبل فكره ووجدانه وإرادته . ولسنا ننكر أن التخفف أو التخلص من المألوف ليس من المسائل السهلة وأن ذلك بحاجة إلى جهد جهيد وإلى نوع من الثورة الذاتية والتدريب المستمر على الضرب عرض الحائط بتلك الضغوط الاجتماعية والثقافية .

ثانياً : التحرر من النمطية . ذلك أن الإنسان باعتباره كائنا حيوانيا بالإضافة إلى كونه كائناً روحانياً يميل إلى تكرار ما سبق له الاتيان به من أعمال بنفس الطريقة التى مارسها قبلا . فثمة مجموعة من العادات الذهنية تسيطر على الإنسان فيصعب عليه التحرر من وطأتها أو التخفف من ضغوطها . بيد أن الخضوع للعادات الذهنية والتشكل وفق نمطية معينة ، إنما يتعارض تعارضا جوهريا مع التحرر الروحى الذى يطالب به الجانب الروحانى بالشخصية . ومعنى هذا فى الواقع أن بالمرء جانباً حيوانياً ينحو إلى النمطية، وجانبا روحانيا ينحو إلى التحررية . وليس من شك فى أن الملهم يحاول دائما التخفف من ضغوط النمطية واستشراف الحرية الروحية .

ثالثاً : الإحساس بالسأم والنبو عن المألوف لدى الآخرين . فالملهم شخص قليل الاعتزاز أو التمسك بما درج عليه العامة من تقاليد وأوضاع اجتماعية . ذلك أنه كلما كان المرء باذلا الجهد للتكيف الاجتماعى والانسجام مع ما تواضع عليه الناس من حوله ؛ فانه يكون بالتالى قليل التشوف لاستطلاع الجديد والوقوف عليه . من هنا فان الملهم لا يقيم الاعتبار للكثير من التقاليد التى تعمل على تقييد حركته الذهنية أو التى تعمل على استهلاك طاقاته النفسية . إنه يرى أن الجهد المبذول فى تحقيق التوافق الاجتماعى حرى بأن يبذل فى الكشف عن المجهول أو الاستعداد لتقبل الإلهامات . ولذا فإنك تجد الملهمين بمستوياتهم المتباينة لم يكونوا يحفلون بما دأب الناس من حولهم على الاحتفال به وإقامة الاعتبار له . من ذلك عدم اهتمامهم بالزخرف الخارجى كالملبس الفاخر أو جميع المظاهر الخارجية الأخرى التى تشير إلى الأبهة والعظمة والجاه والثروة .

رابعاً : عدم السماح للضغوط الثقافية بأن تسيطر على ذهن المرء . ذلك أن الكثير من المتعلمين والدارسين المتفقهين فى التراث العلمى والفلسفى والأدبى لا يستطيعون التخفف من ضغوط ما استوعبوه من معلومات . فهم يقضون حياتهم الثقافية فى استيعاب ما سبق لغيرهم الكشف عنه وقد أخذوا فى استذلال عقولهم لما قرره غيرهم من قبل . فعابدو أفكار غيرهم لا يمكن أن يتلقوا إلهاماً من الخارج . فهم يحصرون طاقتهم الذهنية فى نطاق ما تم اكتشافه أو قوله ، أو قل إنهم يظلون لاهثين وراء ما سبق لغيرهم أن ألم به دون أن يكون لهم حظ السبق والجرى فى الصفوف الأولى . فمن يسبق ويحتل الصفوف الأولى فى الجرى وراء المجهول يكون له قصب السبق وسبر الغور . أما أولئك اللاهثون فى الصفوف الخلفية ، فما عليهم إلا أن يتلقوا عن المكتشفين الأوائل الذين احتلوا الصف الأول وكان لهم حظ الرؤية الأولى للمجهول . ولعلك تلاحظ أن الفلاسفة والعلماء القدماء كانوا أكثر حظاً فى الكشف عن المجهول من الفلاسفة والعلماء المحدثين . وشاهد ذلك ما ينخرط فيه العلماء حالياً من عمل فى فريق . فلا يعزى الاكتشاف العلمى إلى واحد بالذات ، بل يعزى إلى مجموعة من العلماء بغير تحديد لأسمائهم . فيقال « اكتشف فريق من العلماء كيت وكيت » . وأكثر من هذا فان الضغوط العلمية الحديثة قد وجدت أداة حديثة تضغط من خلالها هى الكومبيوتر أى الحاسبات الألكترونية الحديثة التى لا تركز جهدها على الأرقام وحدها ، بل يتسع عملها لكل ما يتعلق بالنشاط الذهنى . ومعنى هذا أن التوافيق والتباديل التى تضطلع بها تلك الأجهزة الألكترونية قد حلت حاليا محل الإلهام فى الحياة الذهنية للانسان الحديث .

خامساً : التمسك بالطابع الشخصى والتشبث بالعفوية . ولعلنا نميز بين العفوية وبين الارتجالية . فالعفوية هى التعبير بغير تكلف عما يدور بخلد المرء . أما الارتجالية فانها تحمل معنى التخبط أو عدم العناية بما يقال أو يعمل . والواقع أن العفوية هى الصيغة الوحيدة التى يستطيع المرء أن يقدم ذاته من خلالها . فالطابع الشخصى لا يمكن أن يظهر فى القول أو العمل

إلا إذا كان التعبير صادرا عن صميم الشخصية بغير تكلف أو افتعال . وانك لتلاحظ أن الشاعر الواحد قد يكون متكلفا أشد التكلف فى بعض الأبيات فى القصيدة الواحدة ، بينما يكون إنسابيا وصادرا عن صميم شخصيته فى أبيات أخرى . ويقال عن بعض الأدباء المجيدين أنهم لم يكونوا يصححون ما يقومون بكتابته باستثناء وضع بعض اللمسات الخفيفة التى لا تشوه ما ألهموا به . فهم يتلقون الإلهام ويتركون أقلامهم تكتب بغير رقيب أو كابت أو منقح . إنهم كمن يمشى برشاقة بغير أن يكون ملتفتاً إلى طريقة مشيته . فإذا ما التفت الرشيق إلى مشيته ، فإنه يفقد الرشاقة ويبدو التكلف فى حركاته . ومن الواضح أن تلقى الإلهام فى الفكر أو الأداء لا يتأتى مع التكلف ، بل شرطه الأساسى العفوية كما حددنا معناها قبلا .

ونستطيع أن نقرر فى ضوء ما سبق أن الشخص الملهم هو شخص يتعشق المجاهل التى لم يسبق لغيره الوصول إليها فى الفكر والعمل . ولعلنا نحاول أن نوضح الفرق بين تعشق المجهول والسعى فى إثره وبين تلقى الإلهام . إننا نستطيع القول بأن الإلهام بالجديد المبتكر لا يتأتى للمرء إلا بعد أن يكون قد بلغ نقطة معينة من التخلى عن المألوف والتشوف إلى الجديد الغامض ، أو قل إلى ما لم يسبق لقدم إنسان أن وطأته . ولقد نذكر بهذه المناسبة النبى موسى وكيف أنه لم يتلق رسالة السماء فى إحدى المدن أو حتى بين شعبه ، بل تلقى الوحى فى المجاهل وبعيداً عن الناس جميعاً ، أو قل بعيداً حتى عن رواسب التأثير الاجتماعى التى تضغط غالباً على ذهن المرء فلا تسمح له بتلقى الإلهام . فالإلهام يشترط على الملهم شرطاً أساسياً هو « اترك كل شىء واتبعنى » . فما لم يترك المرء حتى همومه واهتماماته ، وما لم يتخلص ويلق عنه الضغوط الاجتماعية بل والضغوط الثقافية ، فإنه لا يستطيع أن يتلقى إلهاماً من أى نوع . فنحن نستطيع أن نقرر بصدق أن المتعلمين كثيرون ولكن الملهمين نادرون . وأنه ليصعب على المثقف الإنخلاع عن ثقافته . فمن الصعب عليه أن يحيل الثقافة من سيد مسيطر ومهيمن عليه إلى عبد طائع وخاضع للجديد الملهم به .

فالسعي وراء المجهول ليس إذن من المسائل السهلة أو الميسورة . ذلك أن قواعد الفكر من جهة وقواعد التعبير عن الفكر من جهة أخرى تشكل أصفاداً تعوق المرء عن التحرر والسعي بدأب نحو المجهول ، وبالتالى إعداد الذات لتلقي الإلهامات . فثمة معادلة صعبة للغاية بين تلقي الثقافة المعاصرة وبين تلقي الإلهام . فلكي تكون مثقفا بثقافة عصرك ، فإن عليك أن تخضع لتلك الثقافة . ولكن لكي تصير ملهما وساعيا وراء المجهول فإن عليك أن تثور على ثقافة عصرك وتضرب بها عرض الحائط أو ما يشبه ذلك . فأنت كالأناء الذى لا يتسع إلا لسائل من سائلين : الأول — سائل الثقافة المعاصرة ، والثانى — سائل الإلهام . ولكن عليك فى نفس الوقت أن تصوغ ما تلهم به فى صياغة مناسبة لثقافة عصرك وبنفس وسائل تعبيره . وبتعبير آخر فإن عليك أن تقدم الكائنات الحية التى تلهم بها على هيئة جثث ثقافية .

التسكع الإلهامى :

لقد سبق أن قلنا أن الإلهام مناف للبرمجة والتخطيط . ذلك أن الإلهام لا يتأتى للمرء إلا عن طريق العفوية . ونحن نميز بين معنى العفوية وبين معنى الارتجالية . ومعنى هذا أن الشخص الذى يرسم خطوط حياته ويضع نفسه تحت رحمة الضغوط الثقافية لا يستطيع بالتالى أن يتلقى الإلهام . فالشخص الملهم شأنه شأن النائم الذى يتلقى الأحلام بغير أن يحاول استجلابها. ولعل النائم إذا استيقظ أو صار فى حالة بين اليقظة والنوم لا يستطيع الاستمرار فى تلقى الحلم ، ولقد نقول إن حال اليقظة يتعارض تعارضا جوهريا مع حال تلقى الأحلام . فنحن لا نستطيع حياكة الأحلام بوعينا، بل هى تحاك وحدها ونحن نغط فى نعاس عميق . وكلما كان نومنا أعمق ، كانت أيضا أحلامنا أكثر تماسكا ووضوحا . وكلما خالطت اليقظة أو الوعى نعاسنا ، فان أحلامنا تصير باهتة غير متعينة وغير محددة المعالم .

والواقع أن الملهم يكون فى حالة أشبه ما تكون بحالة النعاس . وكما أن النعسان يتلقى أحلامه تلقائيا وعفويا وهو يغط فى نومه العميق وقد استسلم

بجماع مشاعره لسلطان النعاس ، كذا فان الملهم يتلقى إلهاماته تلقائيا وعفويا وهو فى حالة عدم انتباه بل وعدم وعى كامل للواقع من حوله . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما كان ينتاب سقراط من حالات لا واعية كانت تدفع به إلى الوقوف بغير حراك فى أى مكان يوجد به ، بحيث لم يكن ليدرك ما كان يدور حوله أو ما كان الناس من حوله يلوكون به من أحاديث . ولقد كان سكان آثينا يعرفون عن سقراط ذلك ، فكانوا يجتمعون حوله ويتطلعون إليه من بعيد ليشاهدوه وهو واقف بغير حراك شارد الذهن .

وليس من شك أن سقراط وأمثاله من مفكرين ملهمين لم يكن ليجيل فكره إيجابيا فى المسائل التى تعرض أمام ذهنه ، بل كان فى الواقع يحيا ما يفكر فيه : ولقد نقول أكثر من هذا إن سقراط ومن على شاكلته يتلقون ويأخذون كما يتلقى النعسان ويأخذ عن عالم الأحلام . وهذا الموقف المتلقى هو الذى نسميه بالتسكع الإلهامى . ففى هذه الحالة التسكعية نجد أن الملهم لا يفكر فى شىء بعينه ، ولا يضع تخطيطا لما يفكر فيه ، ولا يلزم نفسه ببحث شىء بالذات . إنه كمن يخرج إلى الخلاء لاستكشاف أى شىء بغير تحديد ، أو كمن يتوجه إلى السوق وفى جيبه النقود ولكنه لم يضع فى برنامجه أشياء بعينها يرغب فى شرائها أو يعتزم ذلك . إنه فقط يتسكع فى السوق ليشترى ما يروق له بغير تحديد مسبق .

وثمة فى الواقع مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر لدى الشخص الملهم حتى يتسنى أن يتوافر لديه التسكع الإلهامى . والشروط كما نراها تتلخص فيما يلى :

أولا — إعداد الشخص لنفسه إعدادا عاما سواء من حيث المضمون أم من حيث وسيلة التعبير . ولكن الإعداد المنشود لا يعنى الانحباس فى إطار معرفى محدود ، ولا يعنى أيضا الوقوع فى أسر مجموعة محدودة من أساليب التعبير الشفوية أو الكتابية أو الصورية أو النحتية أو النغمية ، بل إن الإعداد المنشود يعنى الاتساع والمرونة فى نفس الوقت . فالمجال المعرفى

يجب أن يكون واسعا ، كما أن وسائل التعبير يجب أن تكون مرنة ومطواعة وخاضعة لإرادة المرء وطوع بنانه . فلكى تتهيأ لك حالة التسكع الإلهامى فلابد أن تكون معرفتك متنوعة من جهة ، وخصبة من جهة ثانية ، ومتجددة من جهة ثالثة ، ومهضومة من جهة رابعة ، ومتفاعلة مع المواقف المتباينة من جهة خامسة : أما وسائل التعبير التى تتذرع بها فيجب أن تكون متباينة من جهة ، ومناسبة لما يدور بخلدك من جهة ثانية ، واقتصادية من حيث الوقت والجهد من جهة ثالثة ، ودقيقة من جهة رابعة ، وبسيطة غير معقدة من جهة خامسة .

ثانيا — التمتع بالراحة الثقافية . فلقد وجد أن الملهمين لا يكونون فى الغالب مجهدين ومتعبين ثقافيا . ونخشى أن نقول إن الشخصية الموسوعية وكذا الشخصية النحوية المعجمية لا تحظيان غالبا بتلقى الإلهامات. ذلك أن المعلومات المكثفة تشكل نوعا من الضغط الثقافى الذى يحول بين المرء وبين الاستعداد لتلقى الإلهام : وكذا يقال عن الكلف الشديد بالنحو والصرف وعلوم البلاغة والنقد : إن مثل ذلك الكلف يصرف جهد المرء وطاقاته إلى صورية التعبير وفنونه مع الحرمان فى نفس الوقت من العفوية التعبيرية أو قل الحرمان من التسكع الإلهامى . ذلك أن الشخص الذى يركز جل اهتمامه فى التراث التعبيرى ، وقد أخضع لسانه أو قلمه أو آلته أو أداة تعبيره لتلك الأصول التى تلقاها عن العصور السابقة ، لا يستطيع فى نفس الوقت أن يطوع وسائل تعبيره التطويع الذى يستلزمه تلقى الإلهام. وهذا يذكرنا فى الواقع بما قرره أحد نقادنا المصريين فى مجال الأدب من أنه بدأ حياته الثقافية فى الشباب كشاعر له إحساسه المرهف وحسه الصادق وتلقائيته غير المتكلفة فى التعبير الشعرى . ولكنه وقد انغمس حتى أذنيه فى النقد ، فإنه وجد نفسه بالتدريج عاجزاً عن الإبداع الفنى . وهو يعزو ذلك التزايل للقدرة الشعرية لديه إلى دراسته للنقد . فلقد اختلفت الزاوية التى صار ينظر منها . فبعد أن كان ينظر من زاوية التعبير العفوى عن دخيلته بغير تحفظ وبغير خشية ، صار ينظر من زاوية أخرى هى زاوية

النقد . لقد يحسب الحساب كل الحساب لكل كلمة ينطق بها ، فيأخذ في تمحيصها . لقد نصب محكمة نقدية الشعراء . فمن الطبيعي أن ينصب محكمة نقدية لنفسه . ولكن هل يتسنى للمرء أن يحاكم نفسه ويتلقى الإلهام الشعرى فى نفس الوقت ؟ إننا نستطيع أن نقرر هذه الحقيقة بطريقة أخرى ، فنقول إن ذلك الناقد أومن لفوا لفه قد فقد موهبة التسكع الإلهامى وقد أخضع نفسه لخطة فى التفكير والتعبير .

ثالثا — التمتع بالشجاعة وعدم التردد فى التعبير عما يلهم به المرء . فالواقع أن الشخص المتسكع إلهاميا يكون كمن حمل بندقيته وخرج إلى الغابة لمطاردة الغزلان واقتناصها . إن أى تردد فى إطلاق الرصاص وقت ظهور الغزال يعنى ضياعه منه إلى الأبد . فسرعة رد الفعل شرط أساسى يجب توافره لدى القناص . وكذا الحال بالنسبة للمتسكع إلهاميا . إنه برغم تسكعه فإن عليه أن يكون على أهبه الاستعداد لاقتناص فرائس الإلهام التى تبزغ فجأة وتختفى فجأة أيضا أمام ناظريه . ذلك أن الإلهام يتأتى للمرء على هيئة ومضات سريعة فى ظهورها وسريعة أيضا فى اختفائها . فما لم يتسلح الملهم بسلاح الشجاعة :وما لم يعمل فوريا وبسرعة وبغير تردد، فإن ما يلهم به يتبخر بسرعة فائقة ولايعود ثانية إلى الأبد . ونستطيع أن نقرر أن الغالبية العظمى من الإلهامات التى تلوح فى أذهان الملهمين تهرب منهم وتروغ قبل أن يتسنى لهم اقتناصها . ولو أن الملهمين كانوا جميعاً شجعانا وكانت لديهم الجرأة التى تساعدهم على سرعة الاقتناص ، لكانوا إذن جميعا قد استطاعوا أن يقدموا إلينا روائع وبدائع أكثر بكثير وأروع بكثير مما استطاع القليلون منهم اقتناصه وتقديمه إلى البشرية . فالقلة القليلة من الملهمين ينجحون فى عملية الاقتناص الإلهامى . فكثير من أولئك الذين يتمتعون بالتسكع الإلهامى لا تواتيهم فى نفس الوقت الشجاعة وسرعة رد الفعل لاقتناص الإلهامات التى تتبدى لهم . وبذا فإن تسكعهم الإلهامى يكون بغير جدوى على الإطلاق . ولعلنا نذكر من تلك القلة القليلة من الملهمين الفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى استطاع أن يقتنص بسرعة ومضاء

وشجاعة ما ألم به . ولا غرو فإن ديكارت كان يتمتع بالشجاعة كما يقرر مؤرخو فكره . ولسوف نعرض لقصة إلهامه فى فصل قادم بهذا الكتاب .

رابعا — التخلص من نقد الذات فى التسكع الإلهامى . ذلك أن نقد الذات ووضع رقيب ذاتى على أداة التعبير كثيراً ما يكون السبب الرئيسى فى فقدان ذلك التسكع الإلهامى ذاته . فطالما أنك تنقد ذاتك وتسأل نفسك مما سوف يقوله الناس عنك ، فانك لا تستطيع بالتالى أن تتلقى أى إلهام . ولعلنا نقرر أن نقد الذات والرقابة على القلم أو على أداة التعبير الفنى أو الأدبى أو العلمى أيا كانت ، يتعارض جذريا مع طبيعة تلقى الإلهام : وأكثر من هذا فاننا نستطيع أن نقرر أن الإحساس بضرورة نقد الذات إنما يعبر فى نفس الوقت عن الخوف وارتعاد الفرائص . من هنا فان شرط التسكع الإلهامى التخفف من الإحساس [بالذات وبالنقد والتربص لما يضطلع به المرء . ولذا فاننا نستطيع أن نقرر أن المدارس والمعاهد والجامعات كثيراً ما تكون مسئولة عن إصابة طلابها بالخوف وقد نصبت من كل واحد منهم وصيا على قلمه ولسانه ، ففقدوا بالتالى القدرة على الاسترخاء وبالتالى فانهم فقدوا القدرة عن التسكع الإلهامى .

خامسا — الإنخراط فى البيئة التى تسمح للمرء بالفعل أن يسترخى ويتسكع إلهاميا . ونستطيع فى الواقع أن نقرر أن صخب المدينة والعلاقات الاجتماعية المستمرة طوال النهار وخلال جزء من الليل والواجبات المنوطة بالمرء وما يجب عليه أداؤه فى عمله أو فى نطاق أسرته لا يسمح له بالاسترخاء وتحقيق التسكع الإلهامى فى حياته . من هنا فاننا نجد أن قلة أو ندرة نادرة من الموظفين يتمتعون بمثل ذلك التسكع الإلهامى . لذا فاننا نقرر أن الدعة والخلو من الارتباطات الاجتماعية الملزمة بمثابة شرط جوهرى لتحقيق حالة التسكع الإلهامى . وأنه لمن الصعب جداً توفير هذا الشرط فى ظل حضارتنا الانسانية المعاصرة .

ترك ما تم اكتشافه وراء الظهر :

ليس من شك فى أن الملهم يفرح ويسر ويستبشر بما يلهم به . ذلك أن الإلهام بمثابة عطية فردية لا تتسنى إلا لقلة نادرة من الناس كما أسلفنا . فبينما نجد أن العلم ميسور للجميع أو لغالبية الناس ، فان الإلهام لا يوهب إلا لأفراد بالذات دون باقى الناس . بيد أن فرح الملهم بما يلهم به ، قد يدفع به إلى التوقف والقناعة بما أسدى إليه . وأكثر من هذا فقد يصيبه الغرور وتأخذ به العزة كل مأخذ .

من هنا فان الجدير بالمرء الذى يبغى استمرار تدفق الإلهام عليه أن يترك ما تم له الكشف عنه بواسطة الإلهام وراء الظهر وأن يبدأ دائما من صفحة جديدة ومن نقطة انطلاق آنية . ذلك أن الشخص عندما يحس بأنه قد تشبع وامتلأ ، فانه يمتنع عن استمرار التلقى . فالواقع أن شعور المرء بأنه أخذ كفايته من الشيء يدفع به بالتالى إلى التوقف عن الاستمرار فى الأخذ والتقبل . ولعلنا نجد أن هذا الموقف يشكل قانونا عاما للوجود بما فى ذلك عالم الجوامد ذاته . فالكوب لا يتقبل سائلا جديداً بعد أن يمتلىء ، والنبات لا يمتص من الماء والعناصر الغذائية بالتربة بعد أن يأخذ كفايته منها . وكذا فان الحيوان لا يقبل على تناول الطعام أو على ممارسة الجنس بعد أن يأخذ كفايته منهما .

على أن حاجات الانسان تتسع لأكثر بكثير من حاجات النبات والحيوان . فثمة الحاجات البيولوجية والحاجات الوجدانية والحاجات العقلية والحاجات الاجتماعية . وما يقال عن التوقف عن الاستمرار فى التقبل بإزاء الحاجات البيولوجية ، ينسحب أيضا بإزاء الحاجات الثلاث الباقية . فحتى بالنسبة للشيء أو الشخص المحبوب ، فإن المرء عندما يشبع من تلقى الحب ، فإنه يجد نفسه وقد توقف عن استمرار التلقى . فالحب كالطعام تماما بتمام . فنحن نأخذ منه القدر الذى يكفينا ثم نتوقف أنفسنا عن استمرار التلقى والأخذ . فكما أننا نأخذ من الطعام ما يكفى لسد الجوع وتوفير

الشبع لنا ، كذا فإننا نأخذ من الحب القدر الذى يشبع قلوبنا ، ثم نكون بعد هذا فى غير حاجة إلى استمرار تقبل الحب عن الآخرين .

وكذا الحال بالنسبة للشبع العقلى . فأكثر الناس نهما للمعرفة وحبا للعلم يجدون أنفسهم بعد وقت يقصر أو يطول وهم منكبون على القراءة وقد شبعوا من المعرفة ، فلا يجدون فى أنفسهم رغبة عند نقطة معينة لمواصلة القراءة أو مواصلة الاستماع أو مواصلة البحث . وبهذه المناسبة نذكر ما قاله توفيق الحكيم للمؤلف ذات مرة من أنه يصوم عن القراءة فترة معينة كل عام حتى لا يصاب بالتخمة الثقافية ، وأنه فى قراءاته اليومية لا يقرأ إلا بالقدر الذى يتمكن من هضمه واستيعاب عصاراته . فهو لا يهتم فى القراءة بالكم بل بالكيف . وأخال أن معظم الملهمين — أو قل جميع الملهمين — يفعلون نفس الشىء وإلا فإنهم يكونون متعالمين ومثقفين فحسب وليسوا من الإلهام فى شىء .

ونفس الشىء يقال عن الحاجات الاجتماعية . فنحن نجوع إلى إقامة العلاقات بالآخرين ، وبعد أن تقوم العلاقات الاجتماعية بيننا وبينهم ، وبعد أن نتصل بالناس ونخالطهم ونتحادث معهم فى موضوعات متباينة ونتطرق إلى اهتمامات متباينة ، فاننا نجد أنفسنا عند لحظة معينة وقد شبعنا بحيث لم تعد بنا حاجة إلى الاتصال بالآخرين ، بل نجد أنفسنا فى حاجة إلى الركون إلى العزلة وقطع العلاقات أو قل بتعبير أدق إلى الصوم عن تلك العلاقات مؤقتا إلى حين شعورنا بالجوع الاجتماعى من جديد .

والواقع أن الملهم شخص يحس بالجوع والشبع بازاء الحاجات الوجدانية والحاجات العقلية والحاجات الاجتماعية . ولكن الخطر الذى يمكن أن يصيب الشخص الملهم هو خطر إصابته بما يمكن أن نسميه بالتخمة الالهامية . ذلك أن الشخص الملهم كثيرا ما يحس بضخامة ما ألهم به ، فيظل نابيا عن تلقى إلهامات جديدة بعد أن تلقى ذلك القدر الذى يحسبه هائلا من الإلهام . فهو يظل دائرا فى دخيلته حول ما ألهم به بغير أن يتسنى له هضمه واستيعابه

وامتصاص عصاراته والخلوص بخلاصاته . ذلك أن ما يلهم به المرء يشكل فى الغالب جسما غريبا عن ذاتيته ، فيظل شاعرا بأن حالة من الشبع أو حتى من التخمة — قد أصابته بحيث لا يستطيع الاستمرار فى تقبل إلهامات جديدة .

ولا شك أن حالة كهذه تعد خطرا على الحالة الإلهامية التى يمكن أن يحظى بها المرء والتى يمكن أن يتمتع بتلقيها بصفة دائمة بغير وقف . فما عسى أن يفعل الملهم إذن حتى يتخلص من الشعور بالشبع الدائم أو بالتخمة الإلهامية ؟ السبيل الوحيد لذلك هو ترك ما تم اكتشافه وراء الظهر . ولكن كيف يتسنى للملهم ذلك ؟ إننا نستطيع أن نقترح بضع خطوات لتحقيق ذلك على النحو التالى :

أولا : التعبير بسرعة واستفاضة عن الإلهام المسدى . ذلك أن التعبير على الإلهام بالطريقة المناسبة يحقق الغاية منه ولا يظل معتملا وجثما على عقل وقلب المرء . ولعل مايجعل الشخص الملهم شاعرا بالشبع الإلهامى أو بالتخمة الإلهامية كونه لا يعبر عما ألهم به بالكامل ، أو لأنه لا يعبر عن إلهامه على الإطلاق ، فيظل فى حالة توقف عن تلقى إلهامات جديدة . إنه يكون كمن يأخذ ولكن معدته لا تتخذ أى خطوة نحو هضم ما تلقته من طعام .والواقع أن بعض الناس يعتقدون أن استمرار الملهم فى حالة من التردد فى التعبير عن إلهاماته التى تلقاها أفضل من التعبير السريع عنها . ونحن لا نرى هذا الرأى . ذلك أن التعبير المباشر والسريع والمستفيض عما يلهم به المرء هو الضامن الوحيد لتقديم الإلهام فى صورته الناصعة الواضحة والأمينة . أما التردد فترة من الزمن قبل التعبير الإلهامى ، فإنه يفقد المرء الملهم الجانب الأكبر من الإلهام ، وربما الجانب الأهم مما ألهم به . ولعلنا نقرر أن الشخص الملهم المعبر تعبيرا فوريا عما يلهم به ، لهو القمين باستمرار السيولة الإلهامية لديه . أما المتردد فى التعبير أو ذلك الذى يأخذ فى التفكير والتدبر فانه كثيرا مايظل على هذه الحال بغير إقدام على التعبير عما ألهم به إلى أن يفسد الإلهام كما يفسد الطعام فى المعدة الكسلانة .

ثانياً : الاعتياد على عدم الانبهار بما يلهم به المرء وتناوله تناولا عاديا بغير أن يؤدى ذلك الموقف إلى الاستخفاف بالإلهام . فثمة فرق جوهرى بين عدم الانبهار وبين الاستخفاف وعدم الاحتفال أو بعدم الاقبال على التعبير وصياغة الإلهام بالصياغة اللائقة به . ولعل الفرق بين هذين الموقفين يشبه إلى حد بعيد الفرق بين العفوية والارتجالية كما سبق أن ألمعنا . فالعفوية لاتعنى الاهمال ولا تعنى أيضا عدم إعداد الذات بأسلحة التعبير المتقنة . فالعفوية تعنى الصدق وتقديم الذات بغير تزييف وبغير تكلف ، بينما يعنى الارتجال عدم العناية بالوسيلة المستخدمة فى التعبير وتقديم القشور لا الجوهر من الأشياء أو الأفكار أو الانفعالات . فالارتجال يوصف دائما بالسطحية وعدم سبر الغور ، بينما توصف العفوية بتقديم لب الشخصية أو إبداء الصدق خالصا من أى زيف أو تزويق أو تصنع . والواقع أن الاعتياد على تقبل الإلهام بغير انبهار يعنى فى نفس الوقت القدرة على تناول عناصر الإلهام تناولا موضوعيا . والشأن هنا كشأن الممثل الذى يقدم العمل الدرامى بهدوء نفس بغير أن يترك لنفسه العنان فى الانفعال فيفقد بذلك القدرة تماماً على تقديم النص المسرحى بسبب انغماسه فى الانفعال فيبكى منتحبا وهو يقدم المشهد التراجيدى أو يضحك منفجرا وهو يقدم المشهد الكوميدى . فالانفعال الذى على الممثل التدرع به يجب أن يكون خاضعا لإمرته لا أن يكون هو خاضعا لإمرة الانفعال . ولعلنا نزعم أن الانبهار الشديد بما يلهم به المرء قد يعوقه عن مواصلة تلقى باقى الإلهام أو الجانب العظيم منه . فاذا عدنا إلى حياة وليم بليك الذى سبق أن أشرنا إليه وقلنا إنه كان يرسم الأشباح التى كان يراها إذن لتأكدنا من أنه لم يكن ينبهر بانفعال أمام مشهد تلك الأشباح وإلا لما كان فى مستطاعه تناول القلم الرصاص والقيام برسمها . فلابد أنه كان هادئا بحيث كان يستطيع أن ينظر إلى تلك الأشباح بنظرة موضوعية بغير انبهار أو خوف أو انفعال .

ثالثاً : إبعاد نتائج التسجيل الإلهامى عن مركز اهتمام المرء . ذلك أنك بعد أن تعبر عما ألهمت به ، فان عليك أن تبعده عن مجال اهتمامك . وهذا

فى الواقع دأب معظم الشعراء والموسيقيين وغيرهم من مبدعين . فهم لا يكادون يتذكرون ما سبق أن ألهموا به تاركين إنتاجهم وراء ظهورهم لكى يتفرغوا للجديد الذى يتوقع أن يلهموا به . ونحن نعرف من المؤلفين من لا يتسنى لهم تذكر جميع عناوين كتبهم التى قضوا الليالى والأيام بل الأشهر والسنوات فى تأليفها .ولعل السبب الرئيسى فى ذلك هو أنهم يرغبون دائما فى التخفف من أثقال ما قاموا بانجازه . وثمة من الملهمين المبدعين أدبيا من يحجبون عن أنظارهم الفصول التى قاموا بتأليفها من الكتاب الذى يشتغلون فيه حتى يهيئوا أنفسهم لتقبل إلهامات جديدة . ذلك أنهم يعتقدون أن بقاء ما تم لهم تأليفه أمام أعينهم يجعلهم فى حالة شبع أو تخمة إلهامية حيث يظل احتفالهم بما سبق أن ألهموا به قائما بغير تقدم خطوات إلهامية جديدة إلى الأمام .

التخلص من العنعنة والبدء من الصفر :

للعنعنة معنيان : معنى لفظى ويقصد به أن تقول « قال فلان عن فلان عن فلان ... إلخ » ، ومعنى معنوى أو مجازى ويقصد به أن تقول ماقاله غيرك ، وذلك بأن تنقل أفكار الغير سواء بالترجمة أم بالتلخيص أم بالاقتباس ، أو تنقل أفكار الغير عن طريق البحث والاستناد فيما تزعم إلى ما سبق أن انتهى إليه غيرك فى بحوث معملية أو فلسفية أو وثائقية. والواقع أنه لاحضارة أو تقدم إذا ما تخلص الناس المثقفون من العنعنة المعنوية أو المجازية وبدأ كل مفكر من الصفر . ولكن من الخطر أيضا على الفكر بعامة والفكر الإلهامى بخاصة أن يقتصر المفكرون على التفكير العنعنى فى كل ما يقومون بقوله أو كتابته . فحضارتنا بحاجة إلى العنعنة من جهة وإلى التفكير الذاتى البحت من جهة أخرى .

ونستطيع أن نقرر فى الواقع أن التفكير الإلهامى لا يستقيم مع العنعنة المجازية بأى حال من الأحوال . فالملهم شخص يتلقى فكرا جديدا يلهم به من الخارج كما قلنا بعد أن يكون قد هيأ نفسه لاستقبال الإلهامات . فإذا

كان الشخص الذى لديه استعداد لتقبل الإلهام ملجما بالعنعنة ، ومقيدا بما سبق أن قرره غيره فى المجال الذى يلهم فيه ، فانه لا يستطيع بالتأكيد أن يتلقى الإلهام الجديد . فشرط أن تتلقى الإلهام الجديد الذى لم يسبق لغيرك أن تلقاه ، أن تكون كصفحة بيضاء خالية من أى كتابة عليها . وحتى إذا كنت مفعما بالمعرفة العنعنية ، فان عليك أن تهب نفسك إجازة ذهنية حتى يتسنى لك استقبال الإلهامات الجديدة . فلقد قررنا قبلا أن الضغوط الثقافية كثيرا ما تشكل شكائم وأصفادا تعوق الحركة الإلهامية التى يمكن أن تتم لولا وجود تلك الشكائم والأصفاد .

وإذا نحن تصفحنا حياة الأدباء والفنانين الملهمين ، فاننا نجد أن تلك الحياة تختط نفس الخطة بالنسبة لهم جميعا . فهى تنقسم إلى ثلاث مراحل أساسية : المرحلة الأولى — مرحلة تعلم الوسائل المعرفية كالقراءة والكتابة والحساب وغير ذلك مما يتذرع به الإنسان لتحصيل المضامين المعرفية . والمرحلة الثانية هى مرحلة تحصيل المضامين المعرفية للوقوف على ما سبق للآخرين من علماء أو أدباء أو فنانين إنتاجه . والمرحلة الثالثة — وهى المرحلة التى لا تفيض إلا للملهمين — فهى مرحلة تلقى الإلهامات الجديدة والقيام على إلباسها أثوابا تعبيرية مناسبة . على أننا يجب أن نقرر هنا أن الوسيلة المعرفية والمضمون المعرفى نسبيان . فلقد ننظر إلى الشىء من زاوية معينة فنجده وسيلة معرفية ، بينما إذا نظرنا إليه هو ذاته من زاوية أخرى فاننا نجده مضمونا معرفيا . فالقطعة الموسيقية أو العمل الفنى التشكيلى ينطبق عليه ما نقرره هنا . فلقد يكون الموسيقار الملهم قد وضع القطعة الموسيقية الرائعة باعتبار أنها وسيلة يروح بها عن نفسه ، وقد تكون القصيدة الملهمة وسيلة لاستمالة الحبيب إذا كانت قصيدة غزلية . ولكن القطعة الموسيقية قد تكون مضمونا عندما يقوم المستمع أو المتذوق بتناولها بنظرة نقدية تقويمية . وكذا يقال عن القصيدة الغزلية . فالدارس للأدب لا يتناولها باعتبارها وسيلة لاستمالة قلب الحبيب ، بل باعتبارها مضمونا أدبيا يوضع موضع الدرس والتقويم .

ولا شك أن الكثير من المثقفين ينكرون على أنفسهم ، وبالتالى على غيرهم التخلى عن العنعنة والبدء من الصفر فيما يتناولونه من موضوعات . فاذا ما تناول الواحد منهم كتابا آمن مؤلفه بالمبدأ الإلهامى وبدأ فيه من أول كلمة وانتهى منه حتى آخر كلمة فيه وهو يعبر عن ذاتيته وعما يمكن أن يلهم به من أفكار أو مشاعر ، فانهم ينظرون إليه باستخفاف لأنه لم يتضمن فى نهايته قائمة بالمراجع العربية والأجنبية ، ولأن المؤلف لم يعرض لآراء السابقين فيما يتعرض له من موضوعات . ولعلهم يتهمون المؤلف بالكسل أو بالعجز عن تناول الكتب والمراجع الأجنبية والعربية ، ولم يقض الوقت الطويل فى حفظ وتلخيص واقتباس الفقرات من هنا وهناك يدبج بها كلامه ، ويسند آراءه لأن القارىء لا يقتنع ولا يؤمن بقيمة العمل الذى لا يستند إلى مساند يقوم عليها . فالكتاب القيم فى رأيهم كالبناء الشاهق الذى لا يقوم إلا إذا كان مستندا إلى أساس قوى ومكين وعميق . والأساس فى زعمهم هو المراجع التى ذكرها ودعم بها آراءه .

ونخشى أن نفضح ما يعتمل فى عقول وقلوب كثير من النقاد والمثقفين الذين ينكرون على كتاب العربية التبرؤ من العنعنة المجازية فيقلمون كتبا تتناول موضوعات نفسية أو اجتماعية بغير أن تدبج بالمراجع . والواقع أنهم يستكثرون على المؤلف المصرى أو السورى أو العراقى أو غير ذلك من مؤلفين عرب أن يعبروا عن ذواتهم فيما يكتبون . ولكن لعلهم يجيزون عدم التذرع بالعنعنة فى مجالات معينة ومحدودة هى الشعر والقصة والكتب الأدبية التى يعبر فيها أصحابها عن المشاعر لا عن الأفكار . ولكن إذا تناول الواحد من أولئك النقاد أو المثقفين كتابا إنجليزيا أو أمريكيا أو فرنسيا أو غير ذلك من كتب أجنبية قام المؤلف فيها بالتعبير عن نفسه بداءة ، فانهم لا ينكرون عليه ذلك ، بل يقدرونه كل التقدير وينوطونه بالعبقرية ويعترفون له بأنه شخص ملهم . ولعلنا نسألهم : هل العبقرية والإلهام لا يتوافران إلا لمن يكتبون بغير اللغة العربية ؟ ولماذا نصادر كل فكر ينبع من عميق الفكر ويصدر عن صميم الذات إذا ما شمر بعض العرب عن سواعدهم وتناولوا القلم والورق

وقد تخلصوا من أثقال الضغوط الثقافية وذهبوا يعبرون بغير عنعنة عما يخالجهم من فكر وعما يواتيهم من إلهامات ؟

إننا نعتقد أن ثمة تعارضا جذريا بين العنعنة المجازية وبين تلقى الإلهام أو حتى كل ما يمكن أن نسميه بالإبداع الأدبى أو الفنى أو العلمى . فالعفوية لا تواتى من يقيد نفسه بشكائم الفكر أو شكائم الفن أو شكائم العلم . ولابد لمن يريد أن يتلقى الإلهام من التخفف من تلك الأثقال التراثية بالمعنى العام للكلمة . ذلك أن كل ما تم الكشف عنه يدخل ضمن التراث حتى ولو كان المكتشف معاصرا ، وحتى إذا كان الاكتشاف حديثا جدا .

بيد أن هذا لا يعنى أن يقطع الملهم صلاته الثقافية بالتراث والعلم ، بل يعنى فقط أن الشخص الملهم يجب أن يباعد بينه وبين الوقوع تحت الضغوط الثقافية التى تحيط به . والواقع أن بعض الأصلاء فى التفكير والتعبير قد اختطوا لأنفسهم خطة تضمن لهم عدم الوقوع أسرى التراث والكشوف التى يضطلع بها الآخرون . وتتلخص تلك الخطة فى عدم اقتران ما يعكفون على كتابته أو التعبير عنه بما يقومون بقراءته . فتجد الواحد من الشعراء المبدعين الملهمين وقد أخذ فى أثناء تأليف أحد دواوينه وهو آخذ فى قراءة أحد الكتب التاريخية أو العلمية . فلا تكون هناك أية صلة أو أى ضغط ينوء به كلكله وهو يبدع فى الشعر . ولكن إذا كان ذلك الشاعر عاكفا على قراءة دواوين أحد الشعراء من أمثال شوقى أو العقاد أو مطران ، فالأغلب أن يقع تحت تأثير قراءاته الشعرية فتصطبغ قصائده بما يقوم بقراءته آنيا . وبذا فانه يحرم إنتاجه من الأصالة .

ولعل هناك قانونا سيكلوجيا عاما تسير وفقه عقولنا . وربما يتلخص هذا القانون فى أن هناك فترة ليست بالقصيرة تحتاج إليها أمخاخنا حتى تكون قد هضمت ما سبق لنا قراءته . فما نقرأه اليوم لا نستفيد من عصارته فى الغد القريب ، بل فى الغد البعيد . من هنا فان خبرات طفولتنا أقوى تأثيرا فيما نكتبه أو فيما نفوه به من خبراتنا فى المراهقة أو الشباب أو الكهولة . وحتى

ما ننساه مما نقوم بقراءته أو مشاهدته ليس سوى القشور التى تستبعدها عقولنا لأنها غير قابلة للهضم والاستيعاب . ولكن ما يترسب فى أذهاننا هو فى الواقع المهم والقمين بالبقاء واستمرار التفاعل مع شخصياتنا . والواقع أن أولئك الأشخاص الذين يحسدهم من حولهم لأن ذاكرتهم تعى التفاصيل والجزئيات ، إنما هم شخصيات لم تحظ بالقدرة الإبداعية ، بل إنهم يستبعدون من دائرة الملهمين تماما . ذلك أن الذاكرة التفصيلية تتعارض مع القدرة على تلقى الإلهامات . ولعل لنا فى تاريخ حياة العباقرة والملهمين ما يؤكد ما نذهب إليه هنا . فأديسون مثلا نسى حتى اسمه فى أحد المواقف ، ولكنه كان مبدعا وعبقريا وملهما . والحفاظ والنقلة قد حرموا فى الواقع من الإبداع لأن شغلهم الشاغل هو حفظ ما قاله غيرهم ونقله إلى الآخرين . فما يحسدهم البعض على ما أوتوا به من ذاكرة تفصيلية ونصية ، إنما هو على حساب موهبة أخرى أجل وأعظم هى موهبة الإبداع والتلقى الإلهامى . ونذكر بما سبق أن قلناه من أن انبهار الشاعر بما سبق أن ألم به من شعر إنما يعد عائقاً يحول بينه وبين تلقى إلهامات جديدة .

الفصل الرابع

مجالات الالهام

المجال الأدبى :

قلنا أن أشد الناس حرصا على العنعنة المجازية وتحمسا لها يعترفون للأدباء بالحرية من القيود العنعنية ولا يطالبونهم بايراد المراجع يلجون بها قصائدهم أو نثرهم الأدبى أو قصصهم .ومعنى هذا أن المجال الأدبى من أكثر المجالات حظا فى الاستقلال عن القيود والشكائم التى توضع فى طريق الممسكين بالأقلام أو المتعرضين للقضايا الإنسانية المتباينة . ولقد قلنا أيضا أن هناك تناسبا عسكيا بين العنعنة وبين الإلهام ، وبالتالى فإن هناك تناسبا مطرد الزيادة بين التحرر من قيود العنعنة وبين الاستعداد لتقبل الإلهام .

ونستطيع أن نعرض لمناحى المجال الأدبى موضحين كيف أن الأديب يمكن أن يحظى بالإلهام فى كل منحى منها . على أننا يجب أن ننبه إلى ما تتسم به جميع المناحى الأدبية من تكامل فيما بينها . ذلك أن كل منحى من تلك المناحى لا يستغنى عن باقى المناحى الأخرى ، بل يتفاعل ويشترك فى قطاع معين معها . والمناحى الأدبية هى :

أولا : الشعر : ومقوماته الأساسية خمسة على النحو التالى : الموسيقى اللفظية ، والمعانى المشبعة بالوجدان ، وتزويج تلك المعانى للموسيقى اللفظية المناسبة ، وتعبير الخبرة الشخصية الفردية عن خبرة جماعية تهم أناسا كثيرين ، وأخيراً المعاصرة ، بمعنى أن يكون الشاعر ابن عصره وابن بيئته وليس ابن عصر سابق أو ابن بيئة مغايرة للبيئة التى يقول فيها الشعر وينشره على الناس من حوله بها .

وبالنسبة للموسيقى اللفظية فإنها ضرورية للشعر مع الاعتراف بإمكان التجديد فى القوالب الموسيقية اللفظية . على أن الموسيقى الشعرية يمكن أن تكون خطرا على الشعر نفسه إذا ما داخلها الافتعال والتصنع ، وإذا ما تغلبت على العناصر أو المقومات الأربعة الأخرى التى ذكرناها . ونستطيع فى الواقع أن نقرر أن الشاعر الملهم يسير فى المراحل الثلاث التى سبق أن عرضنا لها فى الموضوع السابق ، أعنى مرحلة تعلم الوسائل ثم مرحلة تعلم المضمون ثم مرحلة الإبداع الإلهامى . فبالنسبة لمرحلة تعلم الوسائل ، فإن على الشخص الذى يريد تعلم الشعر أن يقف على أصوله الموسيقية وأن يتدرب عليها بالدراسة والفهم والتدرب اليومى . والأمر شبيه هنا بمن يتعلم الآلة الكاتبة . فطالب الآلة الكاتبة يأخذ فى التدرب على جزئياتها ثم على العلاقات القائمة بين تلك الجزئيات حتى ولو كان ما يتدرب عليه وبواسطته كلاما بلا معنى . المهم أن أصابع يديه تتمكن من الكتابة بتمكن تام بغض النظر عن المضمون الذى يقوم الكاتب على الآلة الكاتبة بكتابته .

وهكذا يقال عن طالب الشعر . إنه يجب أن يمر بتلك المرحلة التدريبية التى يجب أن ينصب فيها الاهتمام على الصيغ الموسيقية . وبعد أن يتمكن طالب الشعر من المرحلة الأولى التى يكرسها لتعلم الوسائل ، فإن عليه أن يمر إلى المرحلة الثانية ، ألا وهى مرحلة المضمون . وهنا يكون على طالب الشعر أن يقرأ لشعراء كثيرين وبخاصة الفطاحل منهم . ولا ننسى أن نذكر أيضاً بما يجب على طالب الشعر الوقوف عليه من المضامين المعرفية غير الشعرية كالعلم الطبيعى وعلوم النفس والاجتماع وغيرها .

وبعد أن ينتهى ويستوعب الشاعر هاتين المرحلتين الأساسيتين ، وبعد أن يخضعهما لإمرته لا أن يخضع هو لأثقالهما ، فإنه يستطيع أن يزعم لنفسه أنه قد تهيأ للمرحلة الثالثة — أعنى المرحلة الإلهامية — ولكن علينا أن نذكر أيضاً أن هذه المرحلة الإبداعية لا تفيض لجميع الناس ، بل تفيض للقلة القليلة النادرة . ولكننا فى نفس الوقت نزعم أن أى شاعر

يمكن بعد إجتيازه للمرحلتين الأوليين أن يحظى ولو بشذرات قليلة من الإبداع والإلهام . فالإلهام وإن كان عطية علوية فيها عناصر غير واقعية، أعنى عناصر روحية ، فإن الطريق إليه محدود وهو إجتياز مرحلتى التدرب على الوسائل والإطلاع على المضامين المعرفية . وما على طالب الشعر إلا أن يسعى وليكن ما يكون بعد ذلك . ولكن عليه ألا يقدس المرحلتين الأوليين ويقبع فى نطاقهما بغير إلحاح على الحرية والإمساك بتلابيبها ، ولعلنا نلاحظ مطلب التحرر من قيود ما تعلمناه واقعاً واضحاً وعمليا بإزاء غالبية المهارات التى نجتاز من مرحلتها إلى ما عداها . من ذلك بساطة المشى وركوب الدراجة والرقص والكتابة بالقلم والكتابة على الآلة الكاتبة والعزف على إحدى الآلات الموسيقية. فنحن نتكلف تمام الكلف ونركز ذهننا تمام التركيز فى الفنيات المتعلقة بكل من هذه المهارات بحيث نكون على بينة من كل جزئية من جزئياتها ، ونكون على بصيرة بما نمارسه ويكون أداؤنا لها مصحوبا بشعور واع تمام الوعى بما نقوم به فى أثناء تعلمنا لها ، ولكن بعد أن نتمكن من الممارسة ينسحب الشعور لكى يحل محله هامش الشعور ، ولا نكون على بينة تماما بما نضطلع به . فنحن نمشى الآن على أقدامنا بغير أن نلقى بالا إلى كيف نسير على الأرض منتصبين وبلا خشية من أن نقع كما كان حالنا عندما كنا نتدرب على المشى فى طفولتنا الباكرة . وكذا يقال عن ركوبنا للدراجة أو قيامنا بالرقص أو الكتابة بالقلم أو الكتابة على الآلة الكاتبة أو العزف على إحدى الآلات الموسيقية.فى جميع هذه الممارسات وغيرها نصير مفطومين عن الانتباه إلى ما نقوم به ، وقد صرنا نمارسه بطريقة آلية تماماً ، أو قل إننا نصير مسيطرين ومستعبدين لتلك الفنون بعد أن كنا خاضعين لكل جزئياتها وبعد أن كنا نتحسس طريقنا فى أثنا تعلمنا أو تمكننا منها .

ونستطيع أن نقرر فى الواقع أن الشاعر الأصيل والملهم لا يصدر فى شعره وقد وضع نصب عينيه المقومات الشعرية الخمسة التى ذكرناها فى

صدر كلامنا عن الشعر ، بل إنه يصدر عن نفسه فى تلقائية وعفوية تامتين . ونستطيع أن نقول أن هناك ما يسمى بالمركب الشعرى . والمركب مغاير تمام المغايرة للمزيج . فالمزيج يحتفظ بخصائص مقوماته بينما تصير للمركب خصائص فريدة وكأنه عنصر واحد . فالماء له خصائصه المتمايزة التى لايتمتع بها الغازان المكونان له ، أعنى الأوكسجين والإيدروجين . وقل نفس الشىء بالنسبة للشاعر فيما يقدمه من شعر أصيل ملهم . إنه يقدم مشاعره مجسمة ومركبة فى هيئة كلام منطوق أو مكتوب . فالقصيدة الشعرية بمثابة كائن حى يولد على لسان الشاعر أو قلمه بعد أن يتم الحمل بها فى قلبه وعقله ، وبعد أن تمر بمراحل نمو فى دخيلته . وعندما يتم لها النضج لكى تولد فإنها تنبعث عفويا إلى الخارج عن طريق اللسان أو القلم . وبتعبير آخر فإن القصيدة الملهمة الأصيلة ليست مجرد أبيات شعر متناثرة يقوم الشاعر بالربط فيما بينها ، وبالأولى فإنها ليست كلمات متناثرة ينظمها الشاعر فى بيت أو بيوت شعرية بل هى فى الواقع كل متكامل لا يمكن تجزئته أو الاجتزاء بجانب منه دون باقى الجوانب .

ثانياً : النثر الفنى والقصة : والناثر أو القصاص يمران بنفس ما يمر به الشاعر . فهما يتعلمان أولا فنيات الكتابة ، ثم يقفان على المضامين الخاصة بهما فى أعمال العمالقة والفطاحل والجهابذة من أصحاب النثر الفنى أو القصة . ولكن المرحلة الثالثة — وهى المرحلة الإلهامية — لا تتأتى إلا للقلة النادرة ممن تنشر لهم المطبعة نثرا أو قصصا . ولعلك تلاحظ أن ما يخلد من النثر الفنى ومن القصه ليس كثيرا بقدر كثرة المنشور منهما . فالغالبية العظمى مما يتم نشره ما يفتأ ينزوى فى ركن بعيد عن الضوء . أما الملهم من الشعر النثر الفنى ومن القصص فإنه يزداد تقديرا من جانب الناس ، بل إن الأعمال النثرية والقصصية الممتازة تجد طلبا عليها من خارج اللغة التى كتبت فيها ، فتترجم إلى أكثر من لغة أجنبية واحدة . وحتى إذا لم يلفت العمل النثرى الجيد والقصة الجيدة الانتباه

من جانب المعاصرين ، فإن الأجيال التالية تهتم بها وتأخذ فى إلقاء الضوء عليها والاعتزاز بها وتقديرها .

والواقع أن الإلهام لا يتأتى لأولئك الناثرين أو القصاصين الذين يميلون بطبعهم للتقليد أو التقمص . ذلك أن بعض الناثرين والقصاصين يتقمصون أقلام غيرهم ، فيأتى إنتاجهم متكررا أو زائفاً أو مشوها وقد ارتسمت علامات التقليد والزيف على ملامحه . وعلى العكس من هؤلاء فإنك تجد أن من الناثرين والقصاصين من ينبون عن السير وراء غيرهم . فهم عصاة ثائرون ومارقون عن الطرق التى سبقهم غيرهم إليها . إنهم يبحثون عن المجاهل ليدلفوا إليها . وأكثر من هذا فإن الواحد من هؤلاء المارقين عن الخطوط المطروحة ينبو أيضاً عن أن يسلك طريقا سبق له الضرب فى إثره . فهو يريد الجديد دائما ، ولا يقتنع بما سبق له تناوله أو التفكير فيه . إنه يبحث دائما عن الجديد ومن ثم فإنه يكون مستعدا لتلقى الإلهامات الجديدة من أى مصدر كانت . ولا يكون كلفه بالمضمون الجديد فحسب ، بل يكون أيضاً بالصيغ الجديدة وبالأسلوب الرشيق المستحدث . فأنت تجده دائبا على تقليب الكلمة الواحدة على أوجهها ، بل وتجد أسلوبه خالياً من اللوازم اللغوية بسبب عشقه وتشوقه للجديد المبتكر .

المجال الفنى :

نستطيع فى الواقع أن نقرر أن الدعائم التى يقوم عليها المجال الفنى هى نفسها الدعائم التى يقوم عليها المجال الأدبى . ذلك أن الفنان والأديب يشتركان فى محور واحد هو التعبير الوجدانى عن الذات . فليس هناك أدب وليس هناك فن خلوان من الإحساس الوجدانى يعتمل فى قلب الأديب وقلب الفنان . وبتعبير آخر فإن التميز بينهما لا يقوم إلا على أساس التعبير الخارجى ووسائله . فالفنان يرسم بريشته أو ينحت بإزميله أو يعزف على الآلة الموسيقية بأصبعه ، ولكنه فى جميع هذه الفنون لا يختلف اختلافاً جذرياً عن الشاعر وهو يقرض الشعر أو الناثر

وهو يكتب النثر الفنى أو القصاص وهو يؤلف القصة . فلكأن الأديب فى خلقه الأدبى يرسم لوحة فنية فى كلمات أو ينحت بكلماته تمثالا مسطرا على الورق أو كأنه يعزف على قيثارة أدبه كلاما منطوقا بلسانه أو مدونا بقلمه . ومن جهة أخرى فلكأن المصور يقدم الشعر من خلال ما يرسمه من لوحات ، ولكأن النحات ينطق الجماد معانى شعرية رائعة ، أو لكأن الموسيقار ينطق من خلال موسيقاه شعرا ونثرا وعبارات أدبية رائعة .

وعلى هذا فإن ما قلناه فى الموضوع السالف بإزاء الإلهام يمكن أن ينسحب بنفس القدر من الصدق على هذا الموضوع . ذلك أن الأديب والفنان يشتركان سويا فى قطاع مشترك كبير فيما يتعلق بالقاعدة التى ينطلقان منها ، وليس الاختلاف فيما بينهما إلا بإزاء الوسائل التى يستعينان بها للتعبير عما يخالجهما من أحاسيس . ولكن مع هذا فإن علينا أن نركز الانتباه إلى ما يمتاز به الفنان فى تعبيره الفنى . ولعلنا نبدأ بطرح سؤال هام هو : هل يتمتع الفنان بحرية أكثر فى التعبير عما يتمتع به الأديب ؟ وبتعبير آخر نسأل : هل الوسائل التى يستعين بها الفنان : الريشة فى يد المصور أو الأزميل فى يد النحات أو الأوتار فى يد الموسيقار — أكثر مرونة وأوسع نطاقا فى الإبانه عن الكلمات والعبارات ينطق بها باللسان أو تسطر بالقلم على الورق ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال صعبة ومحيرة . ذلك أن الفنون المتباينة بمثابة لغة عالمية أو حتى لقد تكون لغة تشترك فى فهمها أنواع حيوانية أخرى قريبة من عالم البشر . فلغة التناسق والجمال لغة عامة ، أو قل إنها غريزة جبل عليها الإنسان وغيره من بعض الحيوانات بحيث تعمل عملها وتؤتى ثمارها بغير ما حاجة إلى تعليم أو تلقين . وعلى نقيض هذا نجد أن الشعر والنثر الفنى والقصة وغير ذلك من فنون أدبية بحاجة إلى إعداد بالتعليم حتى يتسنى للمرء أن يتذوقها ويشارك فى الاستمتاع بها . بيد أنه فى مقابل هذه الحجة التى تقف إلى جانب الفنون وترجح كفتها

على كفة البيان الأدبى . فإننا نجد أن المتافحين عن الأدب يقولون بحجة أخرى لصالح الأديب ضد الفنان . فهم يؤكدون أن اللغة الأدبية تجمع بين الإحساس الوجدانى وبين المعنى المفهوم . وهذا ما ينقص العمل الفنى الذى لا يعتمد إلا على شيء واحد أو على فرع واحد من هذين الفرعين ألا وهو الشعور الوجدانى . فبينما نجد أن لغة الأدب تخاطب القلب والعقل جميعاً ، فإن لغة الفن لا تستطيع أن تخاطب العقل، بل هى تخاطب الوجدان فحسب . وحتى عندما تستحيل المشاعر لدى المتذوق الفنى إلى معان فى ذهنه ، فإنها تكون فى الواقع معانى غامضة غير مقننة . فالمعنى الذى يترسب فى ذهنك بعد تأثرك بالقطعة الموسيقية مثلا يختلف كثيرا أو قليلا عن المعنى الذى يخلص إليه غيرك ممن يتأثرون بالاستماع إلى نفس القطعة الموسيقية . ومعنى هذا بالتالى أن الأدب أقوى بيانا وأسلس قيادا من الفن ، وقد تحددت معانيه فى الأذهان خلافا لما يتركه الفن فى العقول من معان مشوشة أو مهوشة أو غامضة إن كان له أن يترك أى معنى بالذهن على الإطلاق .

على أننا نستطيع أن نقرر فى الواقع أن لدى الفنان فرصا للتعبير الفنى الإلهامى أكثر مما يتاح للأديب . ذلك أننا نعتقد أن لغة الفنان الأدائية أكثر مرونة وأكثر قابلية للتطويع من لغة الأديب المنطوقة . فالواقع أن قلة من الأدباء يتسنى لهم القبض على الومضات الوجدانية التى تبرق فجأة ثم تختفى ، بينما يعمد الكثير منهم إلى القبض على الأثر أو على الصورة وليس الأصل . فعندما يكون الأديب فى غمرة التلقى الإلهامى ، فإنه لا يستطيع أن يحيل المقومات الذاتية إلى مقومات موضوعية يطرحها على الورق . وبهذه المناسبة نذكر ما قاله أحد الأدباء الكبار من أن ما يتسنى له تركه على الورق من شعر ، إنما هو فى الواقع جثث لكائنات حية وجدانية كانت حية ومفعمة بالحيوية ونابضة بالحياة فى قلبه . ولكنه ما يكاد يحاول أسرها ونقلها من كيانه الوجدانى إلى كيان آخر وفى صورة أخرى — أو قل حبسها فى قوالب هى القوالب اللفظية — حتى تفقد حيويتها

وحيايها وتستحيل إلى جثث تنم عما كانت عليه فحسب ، ولكنها فاقدة المضمون الوجدانى الملتهب الذى كانت تبدو عليه لحظة توهجها فى قلبه واعتمالها بل وسيطرتها على مشاعره .

ولنا أن نضيف إلى هذا أيضا أن سرعة بزوغ الأحاسيس ليست هى أيضا سرعة التعبير الأدبى ، بمعنى أن الأفكار والمشاعر فى تفاعلها واتحادها فى ذهن الأديب تكون سريعة ولكأن شريط تسجيل ناطق وسريع الإلقاء يدور فى ذهن الأديب . فكيف يتسنى له والحال هذه أن يتلقط ما ينطق به ذلك الشريط فى ذهنه ويلقى به إلى الورق ؟ إن تفاوت سرعة الشريط الذهنى عن سرعة التعبير القلمى يشكل عائقا أمام الأديب فى تعبيره الأدبى . ناهيك عن وجود ذلك الرقيب الثقافى المتربص بما يقوم الأديب بكتابته ، أعنى ذلك الرقيب الذى يحاسبه على صحة اللغة وصحة الإملاء . فبينما يكون الأديب فى غمرة التعبير الكتابى الأدبى ، فإنه يلقى بجانب من اهتمامه إلى ما يكتبه خوف أن يزل قلمه فيخطىء فى النحو أو الصرف أو الإملاء ، فيصير عرضة لنقد النقاد وسخرية القراء .

والواقع أن الفنان معفى من بعض تلك القيود والسدود والعوائق . صحيح أن عليه أن يراعى أصول عمله الفنى . ولكن فرصة الثورة على المألوف والمتعارف عليه فى المجال الفنى أكثر إتاحة بكثير للفنان عنها لدى الأديب . فالقيود الفنية أو ما يسمى بالقواعد الفنية يمكن أن يتم التجاوز عنها ، بل إن أمام الفنان الفرصة الكاملة للاتيان بقواعد شخصية ذاتية إذا كان فى مقدوره أن يأتى بمثل تلك القواعد . ولكن الأديب المسكين إذا ما جرؤ وخرج عن الخطوط المرسومة فالويل له والثبور وعظائم الأمور . وقصة الشعر الحديث ليست ببعيدة . فالثورة ضد الخارجين على أصول الشعر التقليدى قد غطت على الثورة التى نادى بها أصحاب هذا الشعر الحديث . ناهيك عما يمكن أن يوجه إلى دعاة تبسيط اللغة العربية أو إلى من جرءوا بالفعل ونادوا بتطوير الخط العربى أو إلى الداعين إلى الاستعانة بالحروف اللاتينية أو حتى بالأرقام الأفرنجية التى

هى فى أصلها أرقام عربية أخذها الغربيون عن العرب ، بينما أخذنا نحن الأرقام الهندية . . . نقول ناهيك عما يمكن أن يوجه — وقد وجه بالفعل — من نقد لاذع وهجوم إليهم وصل إلى حد اتهامهم فى وطنيتهم فحذروا بأن يكفوا عن هذا السفه والرعونة والتمزق النفسى إلى غير ذلك من أوصاف أنيطت بهم .

كل هذا لا يكاد يواجه الفنان . وحتى عندما ينعى الناعون على الخارجين على التقاليد الفنية ، فإن الفنان يستطيع أن يصم أذنيه عن النقد وأن يسلك طريقه وقد أخذ الناس من حوله يصفقون له ويشجعونه على تقديم الجديد والمبتكر وعدم الإنصات إلى ما يوجهه النقاد من نقد إليه . ومن هنا فإن فرصة الاستغراق الفنى والتعبير الفنى المباشر متاحة أمام الفنان . وواضح أن الفنان يستطيع أن ينقل مشاعره خلال وسيلة التعبير التى اختارها لنفسه بغير خوف من خطأ لغوى يقع فيه أو من زلة إملائية يتردى فيها قلمه . إنه سلطان الموقف يجرى فى المادة أو على الأوتار ما يعن له من مشاعر . وهل هناك ما هو أروع من تعامل الفنان مع فنه مباشرة يضرب من خلاله على أوتار القلوب بغير قيود من لفظ أو معنى . إنه كمن خرج من نطاق الجاذبية الأرضية وانطلق بصاروخ يستكشف المجهول بواسطته بغير أى قيد . والجاذبية المعوقة هى تلك الجاذبية التى يظل الأديب مقيدا بها بواسطة لغة الكلام أو لغة الكتابة يحاول جاهدا مقاومتها والتخلص من جذبها له . فالفنان هو الإنسان الوحيد الذى يستطيع أن يجعل التقاطه الإلهامات الوجدانية مطروحة حية ومفعمة بالحيوية من خلال وسائل تعبيره الفنى . ومن حسن الحظ أن الفنانين المحدثين قد حطموا قيود الواقع ، فانتحوا إلى الرمزية التى تتسم بالسرعة والتخلص فى نفس الوقت من التفاصيل وقيود الواقع . فصار الفنان رمزيا فى تعبيره ، والرمزية هى فى الواقع اللغة الشفرية التى تحاول إيصال الإحساس الوجدانى طفريا وعفويا وتلقائيا إلى مجال التعبير الفنى . فالكثير من المشاعر يمكن أن يجد له مجالا تجسيديا يتجسد

فيه عند الفنان الأصيل الملهم الذى يلتقط إلهاماته فوريا وينقلها بطريقة خاطفة إلى نطاق التعبير الفنى ، وهو الذى يعيش فى عالمه الذاتى متحررا من قيود الواقع .

الخيال العلمى :

دأب الإنسان منذ أن أحس بوجوده على استكشاف العالم من حوله للوقوف على أسراره ، وكان حافزه الأساسى فى ذلك سبر أغوار المجهول وإشباع غزيرة الاستطلاع لديه . فالمعرفة لذاتها كانت مطلب الإنسان منذ القدم . ولعل أن تكون المعرفة لذات المعرفة قد سبقت أو تواكبت مع المعرفة للنفع . والواقع أنه لو أن المعرفة كانت للنفع فحسب لدى الانسان ، لما ظهر العلم فى حياة الإنسانية ولما بذل العلماء الجهود للكشف عن نظريات لا نفع وراءها ولا ضرر . ولا غرو فإن العلم كان غائصا فى أعماق الفلسفة ولم يكن له أن يستقل عنها . فكان الفيلسوف أو العالم مرادفين لمعنى واحد هو الشخص المحب للحكمة . فكانت الحكمة — أعنى المعرفة المجردة عن الهوى أو المعرفة التى ترتفع بالانسان إلى مستوى الآلهة أو المعرفة التى تهب المرء بصيرة تجعله نافذ الفكر فينظم حياته ويعرف حقائق الوجود وحقيقة نفسه — هى الهدف الذى كان يصبو إليه الفيلسوف أو العالم . فواحد مثل فيثاغورس كان يعتقد أن تفكيره الهندسى الرياضى سبيل من السبل التى تنقى النفس وتطهرها وتجعلها قريبة من الآلهة فكان اختراعه للهندسة ، لا كما كان قدماء المصريين يستخدمونها فى تشييد الأهرامات والمعابد ، بل باعتبارها نظريات ذهنية يتم معرفتها لذاتها بغض النظر عن التطبيقات التى يمكن أن تتأتى عن مثل تلك المعرفة .

ومن الملاحظ أن التفكير العلمى فى العصور الحديثة قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالتطبيقات العلمية . ولكن هذا لا يحول دون القول إن الروح العلمية فى أصلها وجوهرها ليست مرتبطة بالتطبيق بل ترتبط بالتفكير

المجرد . فالنظرية أو القاعدة هى الخلاصة التى يخلص بها العالم : ولعله بعد استكشافه للنظريات والقواعد يترك لغيره من تكنولوجين تطبيق تلك النظريات أو القواعد العلمية فى المجالات المتباينة . ذلك أن ربط التفكير العلمى بالتطبيق - وجعل التطبيق هو المطلب الأساسى يقيد التفكير العلمى . ناهيك عن أن الكثير من العلوم لا ترتبط بالتطبيق ارتباطاً مباشرا . فعالم الرياضة البحتة لا يفكر فى تطبيق ما يعرفه أو ما يكتشفه من نظريات . ولكن قد يستفيد المهندس مما يدرسه من نظريات رياضية فى مشاريعه الهندسية .

والواقع أن العلماء الأقدمين حتى مشارف العصور الحديثة كانوا أكبر حظا فى تلقى الالهامات من العلماء المحدثين . ذلك أن العلماء القدامى كانوا فرديين مستقلين فى تفكيرهم ولم يكونوا خاضعين لإشراف غيرهم أو لتوجيههم كما هو حال علماء اليوم . فعالم اليوم لا يعمل وحده غالبا ، بل يعمل فى فريق ، كما أنه لا يعمل بحرية ، بل هو يخضع لتوجيه غيره ولضغوط متباينة كتلك الضغوط التى تفرضها المؤسسة العلمية التى تقدم إليه مرتبه وتوفر له المساعدات. لقد كان العالم قديما كالراهب بالفعل يجرى تجاربه العلمية فى أوقات الفراغ ، وقد كانت أوقاتا طويلة. لقد كانت الشواغل الدنيوية نادرة فى حياة العالم . فلم تكن الحضارة تشتت ذهنه ؛ كما أنه فى الغالب لم يكن مكبلا بمواعيد يلقى فيها المحاضرات بالجامعة كما هو حال عالم اليوم . ولعل أسوأ ما حاق بعلماء اليوم ارتباطهم بالمواعيد واقتحام المجال الفكرى عليهم وهم قد بدأوا فى الاستغراق فى التفكير والتأمل . ذلك أن الفراغ والدعة صنوان للالهام العلمى . أما طاحونة الحياة اليومية الحالية فى ظل المدنية الحديثة فإنها لا تسمح للعالم بالتأمل وتهيئة الذات لتلقى الإلهامات .

لقد كان العالم قديما يجرى وراء ما يجذب انتباهه ويشغل باله من فكر أيا كان . إنه كان كالصياد الذى يطوف بالنهر أو البحر إلى أن يعثر على سمكة كبيرة ظهر طرف ذيلها على سطح الماء فينشر شبكته

فوقها ويقتنصها : ولكن العالم اليوم مقيد بجدول زمني يسير وفقه ، وعليه أن يبحث النقطة أو المشكلة التي يوزعها عليه رئيسه من العلماء أو تطلب إليه المؤسسة التي ترعاه تناول مشكلة بعينها وتقديم تقرير عنها . ولكم من عبقريات علمية قد أهدرت وتبخرت على أيدى المؤسسات العلمية ذاتها . ناهيك عن التطلعات المادية ومستوى المعيشة المرتفع الذى يتوق عالم اليوم إلى تحقيقه . إنه من أجل ذلك يسعى فى الغالب لتوسيع مجال عمله بدلا من تضييقه . لقد تجد الأستاذ الجامعى يلقى محاضرتين اليوم فى إحدى جامعات القاهرة ، وفى الغد يلقى محاضرتين فى أسيوط وبعد غد فى سوهاج . ناهيك عن رسائل الماجستير والدكتوراه التى يشرف عليها والندوات والمؤتمرات التى يدعى لحضورها . فكيف يعكف على ذاته ؟ وكيف له أن يهيىء ذهنه لتلقى الإلهامات العلمية ؟

وعلى الرغم من أن العالم يصب اهتمامه بالدرجة الأولى على الجانب العقلانى من شخصيته ، فإنه لا يستطيع أن يغفل الجانب الوجدانى . فهو لا يفكر بعقله دون وجدانه ، بل هو يفكر بعقله ووجدانه جميعا . ذلك أن العالم لكى يفكر بعمق ، فلابد له أن يحب التفكير وأن يتعشقه ويصب نفسه صبا فيه . فما يبدو فى سلوك العالم هو القشرة العقلية المنطقية الخالية من الوجدان . ولكن ما يدعم تلك القشرة الظاهرة وما يسندها هو ذلك الجزء المطمور ؛ أعنى الجزء الوجدانى . فلا غناء للعالم إذن عن الوجدان يعمل عمله فى ذهنه حتى يتسنى له تقديم التفكير العلمى المتبلور .

من هنا فإننا نستطيع أن نقرر أن الإلهام الذى يمكن أن يتأتى للعالم إنما يتأتى له عن طريق تلك الدعامة الوجدانية التى لا تكاد تظهر فى سلوكه العلمى . فأرشميدس عندما اكتشف قانون الطفو لم يكتشفه عن طريق عقله المنطقى ، بل عن طريق ذهنه الوجدانى . ولعلنا نبلور هذه النقطة بالقول بأن ما يروق لنا من فكر إنما يغلف آلياً بالوجدان ويحتفظ به فى اللاشعور . واللاشعور فى رأينا ليس مخزنا للخبرات غير المواتية

فحسب بل هو أيضا مخزن الخبرات الذهنية التي تعتمل في دخائلنا . ولعل الإلهام الذي يتلقاه العالم يواتيه بطريق اللاشعور ثم يتبلور ويطوف على سطح شعوره . فالكثير من الحلول للمعضلات التي تواجه العالم والتي تستعصي على الحل وهو في وعيه وشعوره ويقظته ، كثيرا ما نجد لها الحل المفاجيء وهو غارق في النوم فيرى ذلك الحل المرتقب في منامه أو وهو في حالة وسط بين النوم واليقظة . ومعنى هذا أن الإلهام لا يخاطب العقل الواعي ، بل يخاطب العقل غير الواعي أو اللاشعور .

وهناك في الواقع مجموعة من العقبات التي تقف حائلا بين العالم وبين الإلهام العلمي نلخصها فيما يلي :

أولا : الضغوط الثقافية : فلقد قلنا قبلا أن كثرة التحصيل والحرص على حشد الكثير من المعلومات وبخاصة التفاصيل العلمية كثيراً ما تقف حائلا بين العالم وبين الإلهام . ويتضح هذا حتى في الحياة اليومية بالنسبة لكثير من الطلاب الذين تستغرقهم التفاصيل دون أن يتمكنوا من الوقوف على الكليات . فلقد تعوق عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة دون مشاهدة العلاقات الأساسية في التمرين الرياضي ، أو قد تعوق التفصيلات العلمية دون الوقوف على المقومات الأساسية في النظرية العلمية . وهكذا يقال عن العالم الذي تعزف به التفاصيل عن الوقوف على الكليات . وحتى إذا قضى العالم معظم الوقت في تحصيل ما تم اكتشافه على أيدي العلماء الآخرين في نفس المجال الذي يشتغل فيه فإن هذا قد يشكل عائقاً بينه وبين الإلهام العلمي . ولذا فإننا نقول أن التعب الثقافي مضاد لتلقي الإلهام . ومن ثم فمن الضروري أن يتمتع العالم بالراحة الثقافية التي لا تصل إلى حد الكسل الثقافي .

ثانيا : الضغوط الاجتماعية والسياسية . فإذا ما تحكمت المؤسسات أو الأحزاب السياسية أو الجهات التنفيذية في عقلية العلماء وفي اهتماماتهم ورسمت لهم الخطوط التي عليهم السير وفقها ، فإن هذا يحول دون تلقي

الإلهامات العلمية ، وذلك لأن الالهام العلمي يتعلق بالمجهول ولا يتعلق بالمعلوم الذى سبق تحديد نطاقه أو رسم حدوده . وهكذا نجد أن الحرية والديموقراطية صنوان أساسيان للاستعداد لتلقى الالهامات العلمية .

ثالثا : ضيق الوقت وعدم توفير الفرصه الكافية للتأمل . ذلك أن المشاغل اليومية والهموم والطموح والرغبة فى الكسب أو الشهرة أو الصبو إلى احتلال المناصب الهامة أو التنافس مع الآخرين من الزملاء أو غير ذلك من اهتمامات يمكن أن تثير القلق ، إنما تعمل جميعاً على طرد الالهامات . فالالهامات تشبه السمك . فأنت لا تستطيع صيد السمك بينما تضرب الماء بالطوب أو تحركه بعصا . والطوب أو العصا هما الهموم أو أسباب القلق ، وهما أيضا العوامل التى تجعل وقت التأمل ضيقا أو غير متوافر على الاطلاق .

ولا شك أن نظامنا المدرسية والامتحانات والتنافس بين التلاميذ والطلاب لمما ينشيء الأجيال الجديدة وهى عاجزة عن التأمل أو عن تهيئة الذات لتقبل الإلهامات . ولذا فان معظم المتعلمين اليوم لا يعرفون معنى الإلهام وقد يندهشون عندما يقرأون هذا الكلام لأنهم لم يجربوا الإلهام ولم يمروا بلحظاته السعيدة .

المجال الفلسفى :

علينا بادىء ذى بدء أن نحدد معنى الفلسفة . ذلك أنه على الرغم من أن كلمة فلسفة تلاك حتى على ألسنة العامة ، وعلى الرغم من كثرة ما نشر من كتب فى الفلسفة ، فان مضمون الفلسفة ما يزال غامضا فى أذهان كثير من الناس ، بل إنك إذا ما سألت المختصين أنفسهم عن مفهوم الفلسفة ، فانك ستجد القليل أو الكثير من التباين فيما يذهب كل منهم إليه ، وقد تباينت المفاهيم حتى وإن كانت تشترك فيما بينها فى قطاعات مشتركة .

ويعجبنا تعريف برتراند رسل للفلسفة بأنها تتناول موضوعات الدين بمنهج العلم . على أن الكثير مما كان يدخل ذات يوم فى نطاق الدين قد

انسلخ عنه مندرجا فى نطاق العلم . فالقمر كان كائنا مقدسا أو إلها فى أنظار الإغريق القدماء . وعندما خرج أنكساغوراس على الناس يقول إن القمر كوكب شبيه بكوكب الأرض ، وأن ما يبدو منه من ضوء إنما هو انعكاس لأشعة الشمس على سطحه ، وأنه مكون من جبال وسهول كالجبال والسهول الموجودة على الأرض . فان أصبع الإتهام بالإلحاد قد وجه إليه. بيد أن كلام هذا الفيلسوف عن القمر إلى جانب كونه لم يكن من الدين فى شىء ، فانه لم يكن أيضا من العلم فى شىء . ذلك أن هذا الرجل لم يكن يستند فى مزاعمه إلى براهين نقلية أو إلى مشاهدات موضوعية . ففى أى نطاق معرفى يندرج إذن كلام أنكساغوراس ؟ يجيب رسل بأنه يندرج فى نطاق الفلسفة .

على أن هذا ينسحب بازاء تاريخ الفلسفة ، ولا ينسحب فى رأينا بازاء الفلسفة المعاصرة والمستقبلية . ومن ثم فلابد من تقديم تعريف جديد للفلسفة كما تبزغ فى عصرنا وفى العصور القادمة . واعتقادنا هو أن فلسفة الحاضر والمستقبل سوف تظل تسبق العلم كما كان حالها عبر العصور الماضية . ولكنها سوف لا تظل تستمد موضوعها من الدين ، بل من قوانين العلوم . فبينما يتناول كل علم جزئياته ويخلص منها بقوانين عامة فى نطاقه ، فإن الفلسفة تجعل من تلك القوانين الخاصة بالعلوم المتباينة مجرد جزئيات لها ، ثم تعمد إلى الخلوص منها بقوانين أعم هى الفلسفة . وبذا تكون الفلسفة هى قوانين القوانين ، أو هى القوانين الشاملة والمستنتجة من جميع المعارف الانسانية . ومن أمثلة ذلك فلسفة التطور . ففيلسوف التطور يفيد مما انتهى إليه عالم الأحياء وعالم الجيولوجيا وعالم الفلك وعالم النفس وعالم الاجتماع وغيرهم من قوانين خاصة بعلومهم .

وطالما أننا نركز على ما ليس بمحسوس بالدرجة الأولى ، وطالما أن الفيلسوف هو الشخص الذى يطالب نفسه بالتجرد من مجال المحسوسات لكى يتفرغ للمجردات ، فانه يكون بذلك قد أتاح لنفسه فرصة تلقى الإلهامات المتباينة . ولقد نجد من الفلاسفة من يستمدون الإلهام من عالم

غيبي علوى كما فعل فيثاغوراس وأفلاطون ، بل والقديس توما الأكويني والقديس أوغسطين فى المسيحية ، والغزالى وابن رشد فى الإسلام ، كما أننا قد نجد فلاسفة آخرين يستمدون إلهاماتهم من عالم عقلى نستطيع أن نطلق عليه عالم العلاقات العلوى ، وهو ذلك العالم الذى يشتمل على علاقات بين المجردات ذاتها . فهنا نجد أن الأفكار المجردة ذاتها تشكل عالما قائما بذاته ، وهو عالم خصب تمام الخصوبة ولانهائى تمام اللانهائية بحيث لا يتسنى لأى من البشر الإلمام بجميع أنحائه . وكل ما يمكن أن يطمع أحد الفلاسفة فى إحرازه هو الحصول على قبس بسيط من ذلك العالم العقلانى اللانهائى . وليس من الضرورى أن يكون الفيلسوف الذى يستلهم هذا العالم العقلانى من الملحدين الذين لا يؤمنون بالعالم الروحانى الغيبي ، بل إنه قد يكون مؤمنا عميق الإيمان بالروحانيات ، ولكنه لا يجعل العـــالم الروحانى مصدراً لإلهاماته ، بل يجعل العالم العقلانى الذى تقوم الأفكار المجردة فيه مقام الروحانيات مصدراً لإلهاماته . فمثل ذلك الفيلسوف العقلانى يعيش فى إطار عالمين : عالم روحانى يختص به نفسه الروحية للتعبد والاعتقاد فى الروحانيات ، وعالم عقلانى يستلهمه فى فكره وفى حياته العقلية . ولقد نقول إن هذا النوع من الفلاسفة يكون لأفراده حياتان : حياة روحية لاصلة لها بعالم التفكير لديه ، وحياة عقلية يعيشها وتنصب إلهاماته فيها من عالم عقلانى هو عالم العلاقات المجردة بين المفاهيم المجردة .

ومن جهة ثالثة ، فاننا نستطيع أن نجد من الفلاسفة من يجعلون الحياة الانسانية ذاتها وما ينشأ فيها من علاقات اجتماعية وعواطف متباينة وصراعات وانتجاعات موضوعا لإلهاماتهم . فهم يجعلون المجتمع نفسه مصدراً لإلهاماتهم . بيد أنهم لا يجعلون المحسوس المباشر مصدراً لإلهاماتهم ، بل يجعلون المجتمع أو العلاقات الاجتماعية المجردة مصدرا لتلك الإلهامات . فالمجتمع لديهم ليس هؤلاء الناس المجتمعين بعينهم فى مكان وزمان معينين ، بل إن المجتمع لديهم هو تلك الصورة الذهنية المجردة ، أو قل إنه هو ذلك التصور الذهنى المجرد أو المطلق المتحرر من قيود المكان والزمان . فهم لا يستلهمون

مجتمعاً متعيناً بذاته ، بل يستلهمون مجتمعاً مجردا ومطلقاً يتصف بالأزلية والأبدية فى نفس الوقت . فالمجتمع فى أذهانهم كائن مطلق له عقله ووجدانه وإرادته ، وهو كائن سابق فى وجوده على وجود الأفراد المكونين له ، بل هو سابق على جميع المجتمعات المتعينة التى نشاهدها وتقع تحت أبصارنا هنا أو هناك فى بلادنا أو بلاد غيرنا . فالمجتمع لديهم كائن عاقل أو هو مصدر العقل والعاطفة والإرادة .

ولعلنا نعزو الإلهام فى المجال الفلسفى إلى ما يختص به الفيلسوف من قدرة فائقة على إقامة العلاقات الدقيقة والمتشابكة وغير المحدودة فيما بين الأفكار والصور الذهنية المتباينة . على أن تلك القدرة العقلية التى يتمتع بها الفيلسوف تكون على مستويين شعوريين : مستوى شعورى أو تحت شعورى ، ومستوى لا شعورى حيث تنشأ العلاقات بين الصور الذهنية فى منأى عن وعى وإدراك الفيلسوف . ذلك أن الصور الذهنية التى تعتمل فى عقل الفيلسوف لا تركد أو تكمن أو تتوقف عن النشاط وقت أن يكون الفيلسوف نائما أو فى غفلة عن واقعه الخارجى ، بل إنها تكون نشيطة ، أكثر ما يكون النشاط فى تلك الحالات التى يكون الفيلسوف فى أثنائها غائصا فى أعماق لا شعوره . ولقد نقول أكثر من هذا إن الفيلسوف — شأنه شأن أى إنسان آخر — يكون فى وعيه ملجما إلى حد ما بما يقيد حركة فكره فى أثناء يقظته وانتباهه . فمن المعروف أن الانسان وهو يقظان يكون خاضعا لما يسمى بالقوة الضابطة أو الكفية بالمخ ، وهى وظيفة يضطلع بها المخ بنشاط فى حالة اليقظة ، ولا يضطلع بها بنفس القدر من القوة فى أثناء النوم أو الغفلة أو عند الوقوع تحت تأثير مخدر .

ونستطيع أن نقرر فى الواقع أن المخ البشرى يشكل بيئة صالحة لتفريخ الأفكار عندما يكون المرء فى حالة من اللاشعور . ففى أثناء النوم تتلاقح الأفكار فيما بينها وتنجب أجيالا جديدة من الأفكار النشيطة التى تتلاقح بدورها مع أترابها . فالأفكار فى عقل الانسان — وفى عقل الفيلسوف بصفة خاصة — أشبه ما تكون بالكائنات الحية التى تتناسل جيلا بعد جيل .

ومن هنا فاننا لا نستطيع القول بأن الوارد إلى مخ الفيلسوف من أفكار أو مدركات مساو لما يصدر عنه . وواقع الأمر أن ما يصدر عن الفيلسوف لايكون سوى تلك الأجيال الجديدة التي تم تفريخها بدخيلة مخه وهنا نجد تفسيرا لابتكارية الفيلسوف العقلية . فلو كان الفيلسوف يصدر ما يتلقاه لما كان مبتكرا على الإطلاق ، بل لكان ما يقدمه إلى الناس من حوله لا يعدو أن يكون تحصيل حاصل ، ولا يعدو نطاق ما سبق له أن تلقاه من مدركات أو أفكار .

على أن الفيلسوف لا يلعب على أى أرض من مجالات التفكير ، بل يلعب على أرض فلسفية فحسب . فهو يقدم إلينا فكرا فلسفياً لا فكرا علمياً أو أدبياً أو قصصيا . إنه يلتزم فى تفكيره بالنوعية الفلسفية من الفكر الإنسانى . وأكثر من هذا فانه يلتزم بتقديم الجديد الذى لم يسبق لغيره أن لاكه وقدمه إلى الناس . فثمة إذن مجموعة من الشروط يلزم الفيلسوف نفسه بها فى تقديم ما يلهم به إلى الناس . ولعلنا نوجز تلك الشروط فيما يلى : أولا — الجدة فى التفكير أو الامتداد على الأقل بما سبق لغيره أن قدمه خطوات إلى الأمام ، أو نقد ما سبق لغيره تقديمه من فلاسفة آخرين . ثانيا — الموضوعية . فالفيلسوف وإن كان يقدم إلهاما توصل ليه بنفسه ومن أعماقه ، فانه يلتزم بالتجرد عن العاطفة وبتقديم أفكار غير مصبوغة بالصبغة الانفعالية . ولعل هذا الشرط هو ما يفصل فيما بين الفكر الفلسفى والفكر الأدبى . ثالثا — الاتساق وعـدم التناقض . فالفيلسوف يتحرى أن تكون فلسفته منسجمة بحيث لا يوجد تناقض و تنافر فيما بين أفكاره المتبادلة ولكن هذا لايحول بين الفيلسوف وبين النمو التطور فيما يعرض له من قضايا فلسفية .

ا لمصدر الروحى :

الواقع نه عندما نذكر كلمة إلهام ، فان تفكير المرء يذهب توا إلى الناحية الروحية من شخصية الإنسان : ذلك أن الإلهام بدأ فى تاريخ

الحضارة الإنسانية مرتبطا أشد ارتباط وأوثقه بالدين . ولعلنا نزعم بحق أن الحضارة الإنسانية برمتها قد بدأت أول الأمر فى ارتباط شديد بالدين والفكر الدينى . ولعل الفلسفة قد بزغت عن الدين ، كما بزغ العلم الطبيعى عن الفلسفة . ولا شك أيضا أن الفنون الإنسانية برمتها قد نشأت أول ما نشأت فى أحضان الدين . وأكثر من هذا فاننا عندما نتحدث عن الإلهام فى المجالات المتباينة التى سبق أن عرضنا لها ، فاننا نقرر فى نفس الوقت أن المجال الروحى فى حياة الإنسان له نصيب الأسد من الإلهام ، بل إنه هو المجال الرئيسى الذى انبثقت عنه جميع المجالات الإلهامية الأخرى .

ولنا أن نقول إن جميع الأفراد — سواء كانوا متدينين أم غير متدينين — إنما يمرون بلحظات إلهامية أساسية فى حياتهم ، أو قل إن تلك اللحظات الإلهامية تفرض نفسها فرضا عليهم . ولعلك تلاحظ فى اعترافات الفلاسفة والأدباء والفنانين وما قاموا بالتعبير عنه فيما يتعلق بالتحولات الفكرية أو الفنية أو الأدبية التى مرت بهم ، أنهم يؤكدون أن ثمة لحظات فى تاريخهم صاروا خلالها فى حالة غير عادية فاستطاعوا أن يقتربوا من الحقيقة اقترابا وثيقا . وتلك الحقيقة التى اكتشفوها فجأة هى حقيقة ذواتهم وما يجب عليهم أن ينهجوا وفقه فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد . ولسنا نجعل من العلماء والفلاسفة والأدباء والفنانين شخصيات منفردة بهذه الميزات ، بل إننا نعتقد أن فى حياة كل الناس بغير استثناء تقريبا لحظات كشف روحى سواء استغلوا تلك اللحظات استغلالا عمليا تطبيقيا فى حياتهم أم لم يستغلوها . ولا شك أن القديسين والمتصوفة وأهل التأمل الروحى والنساك على اختلاف معتقداتهم وأديانهم يتخذون من تلك اللحظات الإلهامية التى يشترك فيها جميع الناس بغير استثناء تقريبا نقط بداية للايغال فى مجال الحياة الروحية التى تتصف بالعمق والخصوبة : فهم لا يقتصرون على ما يلهمون به عفويا وتلقائيا بغير جهد أو اجتهاد ، بل إنهم يغوصون فى أعماق المجاهل الروحية علهم أن يحظوا بالهامات جديدة.

وليس من شك فى أن أهم ما يمكن أن يفعله المتأمل هو توفير المناخ النفسى المناسب لتلقى الإلهامات . ذلك أن الحقائق الإلهامية تحيط بنا من كل جانب ، ولكن شواغل الحياة وهمومها وملذاتها وإغراءاتها وما يعتمل فى نفوسنا من مطامع وآمال مستقبلية دنيوية ، إنما تعمل على عمائنا عن مشاهدة أو إدراك ما يصل إلينا بالفعل من حقائق إلهامية .

وحرى بنا أن نحدد المجال الروحى للإلهام حتى لا يتداخل أو أن يلتبس بمضامين المجالات الأخرى التى سبق أن عرضنا لها . فنحن نحصر مضمون المجال الروحى فيما يتعلق بالشخص نفسه وليس بالأشياء الموضوعية أو بالأشياء التى تخرج عن نطاقه الذاتى . وبتعبير آخر ، فان المجال الروحى للإلهام يهتم بالإجابة عن هذا التساؤل ؟ : كيف أحيا ؟ أو ما الخط الذى ينبغى أن أضرب فى إثره فى الحاضر والمستقبل ؟ فالاهتمام ينصب هنا على الكيفات وليس على الماذات ، إذا صح التعبير . فليس من المهم بالنسبة للبحث فى هذا المجال الإجابة عن السؤال : ماذا أحصل ؟ أو ماذا أقتنى ؟ أو كم أربح ؟ أو ما النتائج المترتبة على انتهاج هذا الطريق أو ذاك ؟ إن الاهتمام هنا ينصب أولا وقبل كل شىء على المبـادىء وليس على النتائج .

وليس المهم فى الواقع أن يكتشف الملهم شيئا جديدا لا يعرفه الناس من المبادىء الأخلاقية أو السلوكية ، بل المهم أن يقع على الشحنة الروحية المتلبسة بالمبدأ السلوكى أو الأخلاقى . فلقد يكون المبدأ الذى يلهم به الشخص معروفا لجميع الناس مثل هذا المبدأ : فلأجعل من نفسى أداة لخدمة المحتاج أو المظلوم . ولكن الشحنة الإلهامية التى تقترن بهذا المبدأ تكون لها كل السيطرة على عقل ووجدان الشخص الملهم بحيث تتبلور حياته كلها حول هذا المبدأ ، فيقضى معظم وقته أو ينفق معظم ماله فيأخذ فى البحث عن المظلومين ليدرأ عنهم الظلم بحيث لا يتوقع من سلوكه هذا سوى تحقيق هذا المبدأ الذى أخذ بزمامه كل مأخذ فى سلوكه الشخصى . وثمة

فى قصص عظماء القديسين والنساك والرهبان والمتصوفة فى الأديان المتباينة شواهد ونماذج تشير إلى هذا . وليس من المستغرب أن يتهم الشخص الملهم من هذا القبيل بالجنون . فمن وجهة نظر كثير من الناس ، بل ومن وجهة نظر الغالبية العظمى من الناس فإن الشخص الذى يهجر المال والجاه لكى يقضى وقته وينفق جل ماله على الفقراء والمظلومين إنما يعد مجنونا أصابته لوثة ذهبت بعقله وأتت على ما كان يتمتع به من صحة نفسية قبل أن يصاب بما أصيب به من جنون .

ولا شك أن اللحظات الإلهامية التى ينتج عنها سيطرة مبدأ إلهامى نفسى سلوكى على زمام الشخصية إنما تترك أثرها أيضاً على علاقات الشخص بغيره من أشخاص كان يتعامل معهم بشكل عادى . بيد أن ما سيطر عليه من إلهام روحى يجعله مغتربا بين أصدقائه بل وبين أفراد أسرته . فمثل هذا الشخص يصير إلى حالة من عدم الاهتمام بما ومن حوله . لقد تجده مثلا وقد صار غير مهتم بمظهره الخارجى أو بما كان يكلف به من أناقة أو هندام . وقد لا يلقى بالا إلى أصول التعامل التى دأب الناس على مراعاتها من حيث إجلال الكبار وأصحاب النفوذ والسلطان . ومن ثم فإنه يتهم بالانخراط فى الخبل والجنون . وواقع الأمر أن مثل ذلك الشخص الملهم روحياً لا يكون سوى شخص انتقل مجال اهتمامه من عدة مبادىء كان يقيم لها كبير وزن إلى مبدأ روحى واحد هو خدمة الفقير والدفاع عن المظلوم . فما كان يحتل الأولوية فى نظره صار لا يحتل أى مكانة فى حياته ، وما كان لا يستحق الاهتمام فى نظره قبل مروره باللحظة الإلهامية ، وقد صار فى أول قائمة اهتماماته الروحية والسلوكية .

وليس من الضرورى فى الواقع أن يكون الإلهام الروحى إلهاماً نسكياً ، بل قد يكون إلهاما روحيا تأمليا . وهنا نستطيع أن نكتشف الارتباط الوثيق بين المجال الأدبى وبين المجال الروحى . فإذا نحن تأملنا كتابات القديسين والمتصوفة ، فإننا نجد أنها تجمع بين الأدب

والروحانية فى نفس الوقت . خذ مثالا لذلك مزامير داود النبى (الزبور) أو سفر نشيد الإنشاد لسليمان الحكيم ، فانك ستجد قطاعا مشتركا بين الأدب والروحانية متمثلا فيهما . فاذا كنت مهتما بالأدب ، فإنك ستجد فيهما أدبا ، وإذا كنت مهتما بالروحانيات فانك ستجد فيهما ما يشبع نهمك الروحى . وينسحب هذا بازاء الكثير من الكتابات التى تركها الملهمون الروحانيون فى شتى لغات العالم . وما يقال عن مشاركة الأدب فى التعبير الروحى ، ينسحب بنفس الصدق بازاء مشاركة الفن من رسم ونحت وموسيقى فى التعبير الروحى . ونستطيع القول بأن هناك لحظات إلهامية روحية أنتجت لدى أصحابها روائع فنية متباينة .

ولقد نجد الإلهام الروحى وقد تمثل فى قضايا اجتماعية . فلقد يهتز وجدان شخص ما بما يجب أن تحظى به الشيخوخة من اهتمام ، فيوطن النفس على إنشاء دور لرعاية الشيوخ . ولا يكون حماس مثل ذلك الشخص بقصد نفع يحصل عليه أو شهرة تجعل الناس يشيرون إليه بالبنان ، بل يكون إيمانه العميق بالفكرة إيمانا روحيا مسيطرا على جماع عقله وقلبه . فالإيمان بالقضية يكون محورا لإلهامه فلا يكون مجرد شخص اقتنع بفكرة ، بل يكون صاحب اكتشاف روحى يدفع به دفعا نحو التذرع بجميع الوسائل التى تعمل على تحقيق رعاية الشيخوخة .لقد يقوم بتأليف كتاب أو أكثر يحض الناس فيه على رعاية الشيخوخة ، وقد ينشىء الجمعيات لهذا الغرض . وقد يسعى إلى المسئولين والقادرين للأخذ بيده فى تحقيق مشروعاته إلى آخر ما يمكن أن يضطلع به من أعمال أو مناشط لتحقيق ما ألهم به .

ولعلنا نعود فنؤكد أن الإلهام الروحى يجعل محور اهتمام الشخصية بمثابة موقد بدخيلة الشخص بحيث تكون جميع تصرفاته وعلاقاته الخارجية مستضيئة بصفة أساسية بما يأمر به الإلهام ويحدده . فاللحظة الإلهامية الروحية لا تكون كباقى لحظات عمر الشخص الملهم ، بل تكون لحظة متميزة ، بل إنها تشكل نقطة تحول فى حياته ، أو قل إنها تشكل خطا جديدا جدة تامة يشقه ويصب جل نشاطه فيه .

الفصل الخامس

معــوقات الالهــام

المعوقات البيولوجية :

سبق أن عرضنا لعلاقة الإلهام بالمقومات البيولوجية . وفى هذا المقام سوف نعرض للمعوقات البيولوجية التى تقف حائلا بين المرء وبين تلقى الإلهامات المتباينة . ونستطيع فى الواقع أن نلخص تلك المعوقات البيولوجية فيما يلى :

أولا — **معوقات وراثية** : فثمة فى تصنيف الناس إلى فئات نجد بعضاً منها أكثر قابلية للحدس ومن ثم للالهام أكثر من بعضها الآخر ؛ وعلى الرغم من أن ثمة محاولات من جانب الإنسان الحديث للتدخل فى المقومات الوراثية بما يعرف بالهندسة الوراثية ، فان البون ما زال واسعاً بين ما يمكن الافادة منه حالياً ، وبين ما يمكن الإفادة منه فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد .

ثانيا — **معوقات تتعلق بالاتزان الهورمونى** : فثمة فى الواقع نسب معينة بين الهورمونات التى تفرزها الغددالصم إذا ما توافرت كانت الفرصة للالهام متوافرة . وعلى العكس من ذلك إذا ما لم تتوافر تلك النسب بين إفراز الهورمونات المتباينة . ولسنا نزعم أن النسب المواتية معروفة حاليا ولكن الآمال معقودة على المستقبل عندما يهتم العلماء بالوقوف على تلك النسب لدى الشخصيات الملهمة وتحديدها علميا بحيث يمكن استحداثها أو العمل على توفيرها لدى من يرغب فى أن يصير شخصية ملهمة .

ثالثا — معوقات تتعلق بالجهاز العصبي المركزي : فالمخ كما قلنا مايزال بمثابة قارة مجهولة برغم الكثير جدامن الدراسات التى أجريت حوله . ولعل الزاوية الجديدة التى ما تزال مفتقرة إلى كثير بحث ودراسة هي تلك الزاوية التى يعتبر المخ بمقتضاها جهاز استقبال وإرسال لا يعترف بالمسافات أو التوصيلات . ولعل السؤال المحير حتى اليوم هو ما إذا كانت هناك تركيبة أو نتاج فوق يتأتى عن المخ فى نشاطه منذ الميلاد حتى لحظة مفارقة الحياة ، بحيث يظل ذلك المركب غير الجسمي يعمل فى مفارقة عن الكيان المخى البيولوجي . فنحن لا نستبعد أن يخرج علينا العلماء بكشوف جديدة مؤداها أن المخ يفرز ما يشبه العصارات غير المحسوسة يصير لها كيان مستقل عنه وتظل تعمل أو تفكر . ولقد يكتشف العلماء وسائل لتقوية مثل ذلك الإفراز بحيث يتمتع به صاحبه فى حياته وهو فى الجسد ، ثم فى وجوده بعد الموت ، أعنى باعتباره كائناً روحانيا مفارقا للجسد .

رابعا — معوقات تتعلق بالجهاز الهضمي : ذلك أن إثقال الجهاز الهضمي بالطعام وتناول بعض أنواع الأطعمة الدسمة يمكن أن يشكل عائقا أمام الإلهام . ولقد اكتشف الملهمون منذ عصور بعيدة العلاقة الوثيقة بين نوع الطعام الذى يتناوله المرء وبين ما يمكن أن يلهم به . فنجد أن فيثاغورس فى اليونان قديما قد وضع قائمة تتضمن الأطعمة المحرمة عليه وعلى تلاميذه لأنها تعوق نشاط الروح . ومن بين تلك الأطعمة البقول . ومن المعروف أن بعض الطوائف المسيحية تحرم أكل اللحم والبيض وشرب اللبن أو استخدام السمن فى الطهى فى فترات الصوم . وهناك أيضا النباتيون الذين يحرمون على أنفسهم تناول اللحوم بأنواعها المتباينة ويقتصرون على أكل البيض وشرب اللبن .

خامسا — معوقات تتعلق بالنوم : فهناك من يزعمون أن كثرة النوم تؤدى إلى الخمول الإلهامي . وعلى نقيض ذلك يؤكدون أن السهر مجلبة للالهام . ولقد نجد فى تاريخ الكثير من الفلاسفة والمفكرين شواهد على ذلك

تؤكد أن عقولهم كانت تفور بالإلهام بعد السهر حتى الفجر . ويقال إن فولتير كان يدمن شرب القهوة بحيث كان خادمه يملأ له فنجانه قهوة كلما انتهى من شربه ، وكان بذلك لا يكاد يجد إلى النعاس سبيلا . ومن الأدباء والمفكرين عندنا فى مصر من لا يبدأون فى الكتابة إلا بعد منتصف الليل ويظلون عاكفين على الكتابة حتى الفجر . وحتى إذا ثبتت العلاقة بين قلة النوم وبين الإلهام فان من المؤكد والمقطوع به أن تقليل النوم يجب أن يكون تدريجيا لمن يريد أن يدرب نفسه على التقليل منه ولا يكون انتقالا فجائيا من كثرة النوم إلى قلته .

سادساً — **معوقات تتعلق باستخدام الحواس الخمس** : فالواقع أن كثرة استخدام الحواس الخمس يشكل عائقا قويا أمام استخدام القدرات الإلهامية لدى المرء . ذلك أن كثرة استخدام الحواس يعنى فى نفس الوقت شدة ارتباط المرء بالعالم المحسوس من حواه . ومن المعلوم أن الإلهام يتعلق بصفة رئيسية بما ليس بمحسوس . فالحسيون — أعنى أولئك الذين يعتمد وجودهم على ما يحسونه من حولهم — لا يتمتعون بالقدرة على تلقى الإلهامات ذات الطبيعة غير الحسية . والواقع أن الشخصيات الملهمة تكون مفطومة إلى حد بعيد عن المحسوسات . فالملهم شخص مقتصد فى استخدام حواسه الخمس . إنه شخص يعتمد أكثر ما يعتمد على مصادر معرفية غير حسية . وليس معنى كلامنا هذا استغناء الملهم عن حواسه ، بل معناه اقتصاده فى استخدام حواسه مع ترجيحه للتأمل والغوص فى دخيلته ، حيث يقف على أسرار الوجود من باطنه وليس من خارجه ، أو قل إنه يتلقى الإلهامات بعد أن يكون قد تمكن من تهيئة جوه النفسى الداخلى للتقبل الإلهامى .

سابعا — **الأمراض الجسمية** : فالكثير من الأمراض يعمل على إعاقة قدرة المرء أو استعداده لتقبل الإلهام . ولكن مع هذا فاننا نجد أن بعض الأمراض توفر فرصة للالهام أو قل تهيىء المناخ النفسى لدى المرء لتقبل الإلهام . فلقد تعمل بعض الأمراض المزمنة التى تقعد بالمرء بعيدا عن الشواغل اليومية والهموم الدنيوية والتى تعمل على التقليل من العلاقات الاجتماعية

على تهيئة الجو المناسب للالهام . ومن الفلاسفة من وجدوا الفرصة مواتية أمامهم لتلقى إلهامات فلسفية رائعة فى أثناء رقادهم فى سرير المرض . فعكفوا على الكتابة وتسجيل ما ألهموا به بعيدا عن صخب الدنيا وبعيدا عن عوامل تشتيت الذهن أو التكالب على اجتلاب الرزق ، وبعيدا أيضا عن الخلافات والمصادمات والمجادلات ومع التحرر فى نفس الوقت من القيود والشكائم التى يعوق بها الآخرون الحركة الذهنية لدى المفكر .

ثامنا — **الاصابات والعاهات** : فالواقع أن ما قد يصاب به البعض من إصابات أو ما يبتلوا به من عاهات يمكن أن يشكل عائقا أمام الإلهام . على أن بعض الناس الملهمين لا يعبأون بما يصيبهم من آلام جسمية أو من تشوهات أو عاهات . فهم قد يجدون من نفور الناس منهم وابتعادهم عنهم فرصة مناسبة لتلقى الإلهامات المتباينة . المهم ألا تكون الإصابة أو العاهة مما يحول دون القدرة على إثبات أو تسجيل الإلهام . ذلك أن من الممكن أن يلهم المرء ولكن الإصابة أو العاهة تحولان بينه وبين القدرة على تسجيل ما يلهم به . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة عبقريا مثل طه حسين الذى لم تحل عاهة العمى بينه وبين تسجيل ماكان يلهم به من إلهامات أدبية رائعة ، وكذا يقال عن أبى العلاء المعرى فى مجال الشعر ، أو عن بيتهوفن الذى أصيب بالصمم ولكن عاهته السمعية لم تكن لتحول بينه وبين تلقى الإلهامات الفنية الموسيقية .

تاسعا — **النقص فى النمو أو توقفه** : فثمة حالات القزامة أو الحالة الكريتينية حيث يعجز المرء عن بلوغ مراحل النمو المتعاقبة التى يمر بها الأسوياء من الأفراد . فمثل هذه الحالات تكون مصحوبة فى نفس الوقت بالعجز عن تلقى الإلهامات . على أنه ينبغى أن نميز بين حالات نقص النمو أو توقفه وبين حالات الوراثة التى يكون فيها الشخص صغير الحجم أو قصيرا أو نحيفا . فثمة حالات وراثية تتصف بالقزامة أو بصغر الحجم ولكنها تكون قزامة عادية وغير مرضية فى نفس الوقت . فقصير القامة يختلف فسيولوجيا عن المصاب بالقزامة المرضية أو بالحالة الكريتينية التى يكون المصاب بها صغيرا

وسميناً ودقيق الملامح وبالتالي يكون مخه صغيراً وضئيلاً لا من حيث الحجم فحسب ، بل ومن حيث قدرته على الاضطلاع بوظائفه المتباينة أيضاً .

عاشراً ـ بالشيخوخة : ففي حالات الشيخوخة تذبل القدرة على تلقي الإلهامات . بيد أن الشيخوخة نسبية . فلقد تجد شخصاً في الأربعين أو حتى في الصبا يكون أكثر شيخوخة من شخص آخر في الستين أو حتى في السبعين . ولكن برغم هذا فان كبر السن بوجه عام لا يكون مصحوباً بالإلهام ، كما أن الطفولة الباكرة لا تكون بدورها مواتية لتلقي الإلهامات. ولعل أن تكون مرحلة الشباب هي أفضل مرحلة يتلقى المرء خلالها ما يمكن أن يتلقاه من إلهامات .

المعوقات النفسية :

لا شك أن الإنسان بمثابة جهاز استقبال لما يصدر إليه من مثيرات . ولكن الناس يختلفون الواحد منهم عن الآخر في مدى القدرة على استقبال حقائق الوجود . فكما أن هناك أشخاصاً يستطيعون مشاهدة أشياء أو سماع أصوات تدق على أعين وآذان غيرهم من أشخاص يوجدون بنفس المكان . كذا فان هناك أشخاصاً لديهم قدرة باهرة على التقاط ما يدق على غيرهم من إلهامات .

ويبدو أن هناك شروطاً فسيولوجية بالمخ يتسنى للمرء إذا ما توافرت لديه أن يتلقى الإلهامات وأن يسبر أغوار الحقائق الخبيئة على الناس العاديين. ولقد حدث أن أحد الشبان سقط من فوق دراجته مرتطماً برأسه على الأرض. وبعد أن أفاق من غشيان ألم به بسبب السقوط والارتطام ، وجد نفسه في حالة نفسية جديدة . لقد أخذ يتذكر أشخاصاً لم تكن له صلة بهم من قبل ، كما أنه أخذ يردد أحداثاً على سمع والديه لم يكن يعرفها سواهما ، وقد وقعت لهم قبل ميلاده ، بل إن بعضها كان قد وقع لأحدهما قبل الزواج وقبل أن يعرف الواحد منهما الآخر .

ولم يقتصر الأمر على وقوف ذلك الشاب على أحداث ماضية لم تمر بخبرته المباشرة ، أو لم تقع حتى فى حياته بل إنه صار يمتد ببصيرته الإلهامية إلى بعدين آخرين هما الكشف عن خبايا وأسرار من يقابلهم من أشخاص دون سابق معرفة بهم ، والتنبؤ بأحداث مستقبلية لم يكن لأحد أن يتنبأ بها أو يتوقعها ، إذ لم تكن هناك شواهد تدل عليها من قريب أو من بعيد .

وعلى الرغم من أن علم النفس الحديث ما يزال يحبو بازاء الظواهر النفسية الخارقة أو غير المألوفة ، فان هناك دراسات أكاديمية ليست قليلة تجرى تجريبيا لتقنين تلك الظواهر والكشف عن خباياها وعن أسبابها ومجالاتها وأبعادها . ولكن ما تزال الطريق طويلة والشقة بعيدة وما يزال هذا المجال بحاجة إلى كثير جهد وإلى غزير عناية حتى يتم الاعتراف به . ذلك أن الغالبية العظمى من المثقفين ، ينكرون وجود الظواهر الخارقة أصلا ، ولا يعترفون إلا بما يحس مباشرة أو بطريق غير مباشرة ، وبما يمكن اخضاعه للنقد والبصيرة العقلية المنطقية .

ولعل من الأخطار التى تحيق بالمعرفة الإنسانية عامة وبالمعرفة الكشفية - الإلهامية خاصة الاصرار على عدم طرق أى سبيل معرفى سوى السبيل الذى تنتهجه العلوم الوضعية أو عدم الأخذ إلا بمنهج واحد فى المعرفة هو ذلك المنهج المسمى بالمنهج العلمى . فالواقع أن الظواهر الروحانية وعلى رأسها الظواهر الإلهامية بحاجة إلى منهج لدراستها مباين تباينا جذريا عن المنهج المتبع فى دراسة الظواهر الطبيعية . ومن هنا فان على علماء النفس أن يضربوا فى طريقين : الأول — جمع الحقائق أو الوقائع الروحانية الإلهامية مع ما يثبت حقيقتها وعدم زيفها أو اختلاقها . والثانى — وضع أو اكتشاف منهج جديد يصلح لدراسة تلك الظواهر الإلهامية ولتقنينها والتقدم بها وتثبيت دعائمها ، بل واستحداثها عن طريق الوقوف على شروط وجودها فسيولوجيا ووجدانيا وعقليا واجتماعيا .

ومن المعوقات النفسية عدم خضوع المرء للتدريبات الروحية التى تصل به إلى التمكن من تلقى الإلهامات المتباينة . ذلك أن الجهاز الروحى بالشخصية

ـ شأنه شأن جميع الأجهزة الأخرى التي توجد بالشخصية سواء كانت أجهزة جسمية أم أجهزة عقلية ـ بحاجة إلى تدريب مستمر وإلى رعاية منتظمة حتى يتسنى قيامها بالعمل على خير وجه . ولعلنا نشبه القدرة على تلقي الإلهامات بالكتابة على الآلة الكاتبة : فالشخص العادى حتى إذا لم يقيض له أي تمرن على الكتابة على الآلة الكاتبة يستطيع أن يكتب ولو بعض الحروف التي يريد كتابتها عليها . ولكن من المؤكد أننا لا نصف ذلك الشخص الذى يكتب على الآلة الكاتبة عن طريق المحاولة والخطأ بأنه صار ماهرا فى هذا الفن . ولكن إذا ما خضع الشخص العادى لتدريب منظم ووفقا لقواعد علمية سليمة فى الكتابة ، فان استخدامه لتلك الآلة يكون بجدارة وسرعة ودقة .

وكذا يقال عن جهاز الإلهام . فهو بحاجة إلى تدريب مستمر وإلى تغذية دائبة . فبغير مثل ذلك التدريب وهذه التغذية فانه لا يستطيع أن ينضج . والواقع أن الإلهام قد يواتى المرء عفويا . ولكن مثل هذه المواتاة لا تكون إلا لماما ولا تكون بمثابة ملكة ذاتية للمرء . ولكن على العكس من هذا فان الشخص الذى يخضع نفسه لمجموعة من التدريبات الروحية الخاصة بتنمية الإلهام والمواهب الروحية يحظى بالتأكيد بتلك الموهبة الروحية وقد صارت خاضعة لمشيئته ، أو قل إن موهبة استقبال الإلهامات تكون لديه موظفة ومستخدمة كأحسن ما يكون التوظيف والاستخدام .

ولعل التدريبات الروحية على تلقى الإلهامات تنقسم إلى قسمين أساسين هما : أولا ـ القسم السلبي ، ونقصد به القسم المتعلق بما ينبغى على المرء أن يتخلص منه. ثانيا ـ القسم الإيجابى ، وهو يتضمن ما ينبغى على المرء التحلى به . وحيث أننا نعرض هنا للمعوقات النفسية التي تحول بين المرء وبين الإلهام ، فان علينا أن نركز الذهن فى القسم الأول وما يتضمنه من أشياء على المرء أن يتخلص منها . وهى تتلخص فيما يلى :

أولا ـ التوتر النفسي : فالشخص المتوتر نفسيا لا يستطيع أن يكون شخصا ملهما . صحيح أن القصص التي تقال عن توتر الفنانين أو الأدباء

أو الفلاسفة الملهمين صحيحة . ولكننا نزعم أن ما يبدو من توتر لدى الفنان أو الأديب أو الفيلسوف الملهم ، إنما هو توتر وقتى يبدو فى علاقة الواحد منهم بالناس إذا ما خرج أو أخرج من إطاره التأملى الإلهامى . ذلك أن الشخص الملهم يحيا فى إطار نفسى خاص به لا يحب أن يقتحمه عليه متتحم أو أن ينغص عليه متطفل حياته الفكرية ، أو أن يعكر صفو مزاجه معكر . فطالما يكون الشخص الملهم وحده بعيدا عن تدخل الآخرين فى شئونه الذهنية وطالما يكون بعيدا عما يشتت انتباهه أو يقلق ذهنه أو يسحبه من الإطار الفكرى الذى ارتضاه لنفسه واختاره بارادته ، فانه لا يكون متوتراً . بل على العكس من ذلك يكون مسترخيا كألطف ما يكون الاسترخاء . ولعل الشخص الملهم يجد صعوبة فى إحراز الاسترخاء النفسى بعد أن يكون قد توتر أو حتى انفعل بسبب صدامه بالآخرين . ذلك أن الشخص الملهم يحس بالاغتراب بين ذويه . فأقرب الناس إليه يكون فى نفس الوقت غريبا عنه وقليل التوافق معه ، ومن ثم فإنه يكون سريع الصدام مع من يتعامل معه أو يختلط به . ولذا فان الناس من حول الشخص الملهم يعتقدون أن التوتر النفسى خصيصة من خصائصه وأنه لابد دائم التوتر . ولقد يذهب البعض منهم إلى القول بأن التوتر النفسى شرط أساسى لتقبل الإلهام .

ثانيا — التشتت الذهنى : فثمة فى الواقع حالتان ذهنيتان أساسيتان ينخرط المرء فى إحداهما : إ الحالة الأولى هى حالة التركيز الذهنى ، أو قل حالة الهدوء النفسى . أما الحالة الثانية فهى حالة التشتت الذهنى . ولعلنا نلاحظ أن إنسان الحضارة قد صار مشدودا إلى الخارج بوسائل تشتيت متباينة . . ولعل من شواهد مثل هذا التشتت ما يعرف بالالتزامات المتعلقة بالوقت . أعنى المواعيد التى على المرء أن يراعيها فى حياته اليومية وفى علاقاته الاجتماعية المتباينة . ولعلنا نؤكد أن إنسان ما قبل الحضارة ، أو قل الإنسان غير الملتزم بالتزامات اجتماعية متباينة ومن ضمنها الالتزام بمراعاة المواعيد فى الحياة يكون أكثر تركيزا وعدم تشتت فى ذهنه . فالاهتمام لدى الملهم يكون بمخيلته وليس بما يدور حوله من أحداث وأشياء وعلاقات ونظم عملية .

انه يكون مستقر النفس وهادىء الوجدان وقد أتيحت له جميع فرص التركيز على الذات والاستقرار النفسى والتأمل الداخلى .

ثالثا — **الارهاق الذهني بالمعلومات** : فانسان اليوم مثقل بالمعارف المتباينة . إنه يتكالب على تكديس المعلومات فى ذهنه . والواقع أن الناس اليوم والمثقفين بصفة خاصة يعتمدون فى ثقافتهم على المعرفة الموضوعية الخارجية وذلك بالانسحاب إلى العالم الخارجى بعيدا عن الذات . والواقع أن الملهمين يعتمدون على التأمل أكثر بكثير من اعتمادهم على التحصيل المعرفى . والتأمل عملية ذاتية بالدرجة الأولى . وحتى عندما يكون التأمل متعلقا بأشياء خارجية . فانه يسمح بهضم ما تم للمرء كسبه من معرفة . ولا ننسى أن التأمل ذو طبيعة وجدانية ذاتية . فبالتأمل نرتب وجداناتنا ونضع كل وجدان فى محله السليم . وبتعبير آخر فان التأمل يرتب نفسية المرء من الداخل ويجعله مستعدا لاستقبال ما يمكن أن يوجه إليه من إلهامات أو ما يمكن أن يدور حوله من أحداث أو وقائع ذات طبيعة روحية . ولقد نقول إن التخفف من تكديس المعلومات يعطى فرصة للمرء لكى يفتق ما جبل عليه من حدس وإلهام .

المعوقات الأخلاقية :

نستطيع القول أن الواحد من الناس هو بالدرجة الأولى مجموعة من العادات التى تجد لها تبريراً ذهنيا أو تفسيراً عليا ، إذ يعمد المرء إلى رد تصرفاته إلى أسباب واقعية خارجية أو موضوعية ، مع أن الواقع أن تلك الأسباب أو العلل الخارجية لا تعدو أن تكون مجرد أسباب ثانوية أو قل إنها تشكل فرصاً مواتية لحدوث أو لظهور العادة . وعلينا ألا ننسى أن العادات التى يمكن أن يتلبس بها سلوك المرء تنقسم إلى خمسة أنواع رئيسية هى العادات الحركية والعادات الوجدانية الانفعالية والعادات العقلية المنطقية والعادات الكلامية ، سواء كان الكلام منطوقا باللسان أم مكتوبا بالقلم أم معبرا عنه بالرسم أو النحت ، وأخيرا العادات الاجتماعية التى تتبدى فى العلاقات

الاجتماعية بين فرد وآخر أو بين مجموعة ومجموعة أخرى ، وهى العلاقات التى يلعب الفرد من كل مجموعة دورا معينا فيها .

فاذا نحن نظرنا إلى مفهوم العادة من هذا المنظور الواسع ، فإننا نستطيع القول إن تصرفات المرء لا تعدو هذه المجالات الخمسة ، أعنى المجال الحركى والمجال الوجدانى الانفعالى والمجال العقلى والمجال الكلامى التعبيرى وأخيرا المجال الاجتماعى . وسواء رددنا جميع تصرفات المرء إلى العادات أم إلى غير ذلك من مقومات تتضمنها الشخصية ، فاننا فى جميع الحالات لا نستطيع أن نسقط العادات التى تأخذ بناصية الشخصية من حسابنا .

ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا أن الشخصية الملهمة هى الشخصية التى اعتادت عادات معينة تساعدها على استقبال الإلهامات المتباينة . ومن هنا فاننا لا نستطيع القول بأن الإلهام متاح لجميع الناس . ذلك أنه ليس متاحا إلا لأولئك الذين اكتسبوا عادات معينة فى المجالات الخمسة التى ذكرناها . فالعادات الخمس هى الركن الركين لأخلاق المرء . فبعد أن تكون قد اكتسبت مجموعة من العادات الأساسية فى تلك المجالات المتباينة ، فان كل ما عكن أن تكتسبه بعد ذلك لا يعدو أن يكون رتوشا للشخصية ، ولا يكون اكتسابا أساسيا يغير من ملامحها الأخلاقية الجوهرية .

ولقد يصح لنا أن نزعم أن هناك عادات حركية إذا ما اكتسبها المرء فانها تشكل عندئذ عائقا بينه وبين تلقى الإلهامات . من ذلك مثلا ما يعرف باللوازم الحركية . واللازمة الحركية هى مركب حركى تصاب به الشخصية ويسيطر على حركاتها بحيث يحول بينها وبين أداء حركات أخرى مناسبة للموقف . بيد أن هذا الكلام يجب ألا نطلقه إطلاقا فنقول إن جميع اللوازم الحركية تشكل عائقا أمام الإلهام . فثمة لوازم حركية خفيفة وغير معوقة لنشاط المرء الذهنى ، وهى تلك اللوازم الحركية التى لا تضايق الشخص ولا يكاد يحس بها فى أثناء إتيانه بها . أما إذا ضايقت اللازمة الحركية الشخص وصار بينه وبين نفسه صراع بسبب محاولته التغلب عليها والتخلص منها ، فانها

عندئذ تكون حائلا بينه وبين تقبل الإلهامات . وأكثر من هذا فاننا نستطيع أن نقول إن بعض الملهمين كانوا متلبسين بلوازم حركية ولكنهم لم يكونوا متضايقين من إتيانها ، بل إنها كانت مستملحة فى أنظار المشاهدين لهم والمتبعين لحركاتهم . وقد كان بعض العباقرة الملهمين يعرفون بتلك اللوازم الحركية لدرجة أنها كانت مثار الدعابة أو حتى مثار الدهشة . من ذلك مثلا ما كان يقال عن أرسطو من أنه لم يكن ليستغرق فى التفكير الإلهامى إلا إذا أخذ يجوب فى المكان الذى يوجد فيه ، بل إنه كان يسير وخلفه تلاميذه فى حقول آثينا ، وكان المشى بالنسبة له ملازماً للتفكير الإلهامى . وقد عرف أرسطو وتلاميذه وأتباعه بالمشائين لهذا السبب .

وعلى نفس النحو نستطيع أن نقول إن اللوازم التى تضايق المفكر الملهم ، سواء كانت لوازم وجدانية إنفعالية أم لوازم عقلية أم لوازم كلامية تعبيرية أم لوازم اجتماعية إنما تشكل عائقا بينه وبين تلقى الالهامات . أما تلك اللوازم التى يجد المفكر الالهامى لذة أو استمتاعا فى أدائها ، فإنها تساعده على تلقى الالهامات . ومن أمثلة اللوازم الضارة التى يصاب به بعض الكتاب أو الخطباء تلك اللوازم الوجدانية التى تفقدهم قدرتهم على التحكم فى انفعالاتهم ، فيفلت منهم الموقف ، أو قل يفلت منهم الالهام . فالسرعة فى إخراج ما يعتمل فى القلب من انفعالات تحول بين المرء وبين تلقى الالهامات . وثمة فى الواقع حالة بينية بين الانخراط فى الانفعال وبين البرود الانفعالى . ولعلنا نزعم أن الشخص الملهم هو ذلك الشخص الذى تقع حالته الانفعالية فى نطاق هذه المرحلة البينية . ولكنه إذا خرج عنها إلى الطرفين المتباعدين ، أعنى الطرف المتسم بالتفجر الانفعالى ، والطرف المتسم بالبرود الانفعالى ، فإنه يكون عندئذ قد باعد بينه وبين القدرة على التلقى الالهامى . والواقع أن هناك لوازم انفعالية يكون الشخص بمقتضاها مندفعا نحو التفجر الانفعالى ، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يكون شخصا ملهما .

وبالنسبة للعادات العقلية ، فإننا نجد أن بعض المفكرين يخضعون لمجموعة من اللوازم العقلية التى تسمى بالأفكار الثابتة . فمثل تلك الأفكار الثابتة تأخذ بناصية المفكر بحيث لا يتيح لنفسه الخروج من إسارها والتحرر من قيودها لكى يتلقى الالهامات الأخرى . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما يعرف بالضغوط الثقافية التى يبتلى بها كثير من المثقفين الذين يدمنون القراءة ويعكفون على شحن أذهانهم بالمعلومات بحيث لا يتيحون لأنفسهم فرصة التفكير المستقل ، وبالتالى فإنهم لا يتيحون لأنفسهم فرصة تلقى الالهامات التى كان يمكن أن تواتيهم لولا ذلك التزاحم الثقافى الذى لا يترك فى أذهانهم أى حيز يحتله الالهام فى حياتهم الذهنية .

وقل نفس الشيء بالنسبة للعادات اللغوية أو بالأحرى بالنسبة لعادات الابانة بجميع أشكالها . فإذا ما سيطرت بعض القوالب أو بعض اللوازم على المرء فى الابانة ، فإنه لا يجد أمامه فرصة لتلقى الالهامات . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما يتصف به الملهمون فى البيان من قدرة على استذلال اللغة لأغراضهم . فهم لا يظلون مقيدين بالقوالب اللغوية ، بل إنهم يعمدون إلى التخلص من تلك القيود . فهم يحسون بقصور أداة التعبير أو أداة الإبانة عن التعبير عما يخالجهم من إلهامات ، ولذا فإنهم كثيرا ما يعمدون إلى الرمزية فى التعبير وإلى اختلاق وسائل مستحدثة فى التعبير ، وبالتالى فإنهم يتيحون لأنفسهم فرصة التعبير عما يلهمون به من أفكار ومشاعر . ولعلك تجد الشخصيات الملهمة وهى تضج بالشكوى من قصور اللغة عن الوفاء بما يريدون التعبير عنه . وثمة أيضا ما يعرف ببطء التعبير سواء كان تعبيرا كلاميا أم تعبيرا مكتوبا ، ذلك أن الالهام يأتى أو يوافى المرء فى سرعة أسرع بكثير من سرعة التعبير الشفوى أو التحريرى . وبذا فان الكثير مما يلهم به المرء يفلت من قبضته ولا يستطيع الامساك به لسرعة تدفقه من جهة ولبطء التعبير اللغوى وقصوره من جهة أخرى عن الامساك بما يوحى به للملهم . ولذا فإن الكلمات

يعبر بها المرء عن الالهامات التي تواتيه لا تعدو أن تكون جثثا للكائنات التي حية عاشت بداخله . أو قل إنها لا تعدو أن تكون صورا لتلك الكائنات الحية وليست هي ذات الكائنات الحية التي عاشت اللحظات بداخله .

وإذا كان هذا هو حال العادات الأربع السابق ذكرها ، فإنه ينسحب بنفس القدر من الصدق بإزاء العادات الاجتماعية المتباينة التي كثيرا ما يتجه إليها الذهن عندما تذكر الأخلاق . فيعتقد كثير من الناس أن الأخلاق تنحصر في نطاق العادات الاجتماعية . والواقع أن هذا مفهوم قاصر . ذلك أن العادات الاجتماعية ليست سوى خمس ما يجب أن نفهمه من لفظ أخلاق . على أن العادات الاجتماعية وما يتلبس به المرء من صيغ يسير وفقها في علاقاته بالناس من حوله وما يقيمه من علاقات بالآخرين وما ينبذه من تلك العلاقات وما يتلبس به من مشاعر وما يصرف فيه وقته من اهتمامات . إنما يشكل جانبا هاما من جوانب الشخصية . ولعلنا نقول إن المشاغل الاجتماعية وارتباط المرء بالآخرين وخضوعه المباشر أو غير المباشر لتأثير الآخرين إنما يشكل عائقا أساسيا من العوائق الأخلاقية أمام الإلهام . فالشخص المرتبط بالآخرين والمتأثر بهم كل التأثر . أو قل الخاضع لما يرغبون في تسييره وفقه من قوالب سلوكية ، إنما هو شخص لا يستطيع تلقي الالهامات . فشرط الملهم أن يكون شخصية متحررة من قيود المجتمع ومن القوالب والصيغ الاجتماعية التي يريد الآخرون صبه فيها . فالالهام لا يواتي من يكيفون أنفسهم للمجتمع ، بل يواتي أولئك الذين يحملون المجتمع على التكيف لهم والتوافق مع إلهاماتهم . وبتعبير آخر فإننا نستطيع القول بأن الشخصية الملهمة هي الشخصية التي ينشأ صراع بينها وبين الوضع القائم في مجال ما من المجالات بحيث ترفض الواقع وتفرض الجديد الملهم به . وهذا ينطبق على الفنان والأديب وغيرهما من أشخاص ملهمين ه ولعلنا نقول إن قيود الواقع الاجتماعي تحول بين المرء وبين الالهام ، وأن التحرر من تلك القيود والطفو فوقها ضروري لتلقي الالهام .

المعوقات الثقافية :

سبق أن قلنا أن التخمة الثقافية وحشد المعلومات بالذهن وعدم السماح بهضم ما تم استيعابه أو حفظه من المعلومات يمكن أن يشكل عائقا خطيرا أمام القدرة على تلقى الالهامات . وقد نبهنا إلى ضرورة توفير فسحة أو حيز بالذهن يمكن أن يتسع للالهامات التى توافى المرء . ولعلنا فيما يلى نعرض لباقى المعوقات الثقافية التى تحول بين المرء وبين تلقى الالهامات .

وحرى بنا أن نبدأ باخضاع الناشئة لطرائق معينة للتفكير . والواقع أن العبودية الذهنية لطريقة معينة للتفكير تتنافى منافاة أكيدة الحرية الذهنية ، ومن ثم فإنها تنافى إمكانية تلقى الإلهامات . صحيح أن الناشىء بحاجة إلى التمرس بطرائق تفكير معينة ، ولكن مثل ذلك التمرس يجب ألا يكون عائقا بازاء السيطرة على الوسيلة . فالوسيلة يجب ألا تصير غاية ويصير المرء عبدا لها ويترك المضمون . ولئن اهتم واحد مثل الفيلسوف الفرنسى ديكارت بالمنهج — أعنى منهج التفكير — فان ديكارت نفسه كان حرا فى فكره ، وكان قد رفض مناهج التفكير التى وضعها غيره له وعلى رأسهم أرسطو . فحرية ديكارت الفكرية تتبدى فى أنه صاغ منهج التفكير لنفسه متحررا من قيود الآخرين يكبلونه بها ويرغمونه على إنتاجها ومراعاتها .

ولعل من أفضل المبادىء الذهنية التى يجدر بالمرء التمسك بها هو مبدأ التحرر المستمر من قيود الطريقة . وحتى إذا كان هذا متعذرا من الناحية العملية التطبيقية ، فانه ممكن من حيث الوجدان والرغبة والاجتهاد . فأنت تجد نفسك رغم أنفك تنهج منهجا معينا فى تفكيرك ، ولكن ثورتك ضد فكرة الخضوع لمنهج ذهنى بالذات شرط لازب لإمكان التحرر الفكرى ولإمكان تلقى الالهامات . فأنت تحاول أن تتحرر حتى وإن استحال عليك أن تنبذ منهجية التفكير تماما . ولا شك أن أضعف

الايمان هو أن تكون أنت واضع منهج التفكير لنفسك وألا تكون عبدا لما يصوغه غيرك لك .

والمؤسف حقا أن الناس من حول المرء — طفلا كان أم مراهقا أم شابا أم راشدا أم شيخا — يقسرونه على انتهاج طريقة معينة فى التفكير وفى تناول الأمور ، بحيث لا يتيحون له أية فسحة أو حيز فى تفكيره لتخير طريقة خاصة به يفكر بها ، أو يسمحون له بأن يخطط لنفسه كيف يفكر وكيف يتناول المسائل والقضايا أو كيف يفسر الأشياء .

ويساعد على انتشار العبودية الفكرية والقضاء على حرية الفكر تعقد الثقافة وتشعب العلوم إلى تخصصات دقيقة . فالمعرفة لم تعد تتسم بالكلية كما كان حالها قديما حيث كان الشخص المثقف يلم بأطراف المعرفة جميعا ، ولا يكون فيلسوفا إلا إذا استوعب جميع المعارف الأساسية لعصره . أما اليوم فان المثقف جدا لا يكون عالما حتى فى أحد فروع العلم الذى تخصص فيه . فالعلم الواحد قد انشعب إلى فروع عديدة ، ولم يعد من الممكن بالنسبة للعالم الواحد أن يلم بأطراف تلك الفروع الدقيقة التى انشعب إليها العلم الذى تخصص وتمكن من فرع دقيق من فروعه . ومن الطبيعى أن يكون لكل فرع من تلك الفروع الدقيقة للعلم الواحد عمداء أو قل أوصياء يمسكون بناصيته ، ولا يسمحون لأحد أن يتلاعب فيما سبق أن حددوه من طرائق أو مناهج لدراسة ذلك الفرع أو ذلك التخصص الدقيق . ولقد يكون لسان حال المهيمنين على كل فرع من فروع العلم الواحد يقول لك إنك إذا أردت أن تتخصص فيما تخصصوا فيه ، فعليك أولا أن تخضع لما رسم لهذا الفرع من مناهج وطرائق فى تناول موضوعاته .

وإذا كان هذا هو حال منهج التفكير فى ظل الثقافة المعقدة والفروع العديدة التى انشعب إليها كل علم من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ،

فانه نفس الحال بازاء مضمون جميع المعارف الإنسانية التي يصبو المرء للمشاركة في إحداها . فعندما ترغب في التخصص في فرع ما من فروع المعرفة الإنسانية ، فانك تجد أمامك كميات مهولة من المادة التي عليك تناولها أو استيعابها أو دراستها أو نقدها . ولعلك تقول لنفسك في بعض الأحيان « إن الموجود أمامي يستحيل الانتهاء من تحصيله ، فما الذي يحفزني أو يشجعني على أن أضيف جديدا إلى ذلك الكم الهائل الموجود بالفعل ؟ . وحتى إذا أضفت فلا يكون بوسعي سوى أن أضيف نتفة معرفية لا تكاد تظهر . فشأني عندما أضيف كشأن من يضيف قطرة ماء إلى محيط عجاج زاخر بمياه لا تقع تحت حصر . فما قيمة تلك القطرة التي تضاف إلى المحيط ؟ وعلى هذا فان الرغبة في إضافة الجديد إلى الموجود فعلا من المعرفة في الفرع الذي تخصصت فيه سرعان ما تفتر فلا تجد لديك أي حافز لتقبل أي إلهام يمكن أن يصل إليك فيما يتعلق بتلك المعرفة التي تشغل بالك وتحظى باهتمامك .

وثمة عقيدة ثقافية مسيطرة على أذهان الغالبية العظمى من المثقفين مؤداها أن المعرفة الممكنة هي تلك المعرفة المستقاة من الواقع المحسوس من جهة ، أو من المخزون الخبرى لدى المرء من جهة أخرى ثانية ، أو بالفكر الرياضي من جهة ثالثة . فهذه المصادر المعرفية الثلاثة هي المصادر الوحيدة التي يمكن أن تنشأ عنها المعرفة الإنسانية . أضف إلى هذا أن العقيدة الثقافية الشائعة تقول إن ما يصل إلى ذهن المرء هو نفسه الذي يصدر عنه ، بمعنى أن الخبرات التي يكتسبها المرء تشكل النهاية العظمى أو الحد الأعلى الذي يمكن أن يقوم المرء بتقديم جانب منه إلى الآخرين من حوله . وبتعبير آخر فان المخ البشرى في رأيهم بمثابة مخزن لا يمكن أن نخرج منه شيئا لم يسبق تخزينه فيه . وهذا بالطبع مخالف تمام المخالفة لما يقول به المؤمنون بالإلهام . فالعقيدة الإلهامية تقول أن المخ — إذا صح تشبيهه بالمخزن — يمكن أن تستخرج منه أشياء لم يسبق أن خزناها به . وبتعبير آخر فان ثمة قفزات أو طفرات

ثقافية إلهامية ، يمكن أن تؤاتى المرء فيقدم أشياء أو مكتشفات لم تكن مخزونة بمخه . ذلك أنها مكتشفات أو إسهامات مخلوقة خلقا . صحيح أن عناصرها الأولية تكون موجودة ولكن صياغتها من جديد قد خلق منها مركبات ذهنية مركبة بحيث تصير ذات خصائص جوهرية جديدة . وقد سبق أن شبهنا تلك المركبات الذهنية بالماء . وقد صارت له خصائص مباينة تماما لخصائص الغازين اللذين يتكون منهما فحسب .

ولكن أنى للمثقفين أن يقتنعوا بهذا الكلام ؟ إن النظرة الحسية إلى المعرفة . وحصر نطاق المعرفة الإنسانية فى نطاق الواقع الحسى ردحا كبيرا من الزمن قد جعل هناك ما يمكن أن نسميه بالإلحاد الثقافى . فالواحد من العلماء يقول لك « إنى أومن بالدين بعيداً عن مجال العلم ، ولكن إذا أنا تدارست العلم فلا شأن لى عندئذ بالعقائد الدينية » وبتعبير آخر فان العالم أو حتى طالب العلم العادى يكون عائشا بعقيدتين : عقيدة دينية غيبية ، وعقيدة علمية إلحادية لا تعترف بالالهام العلمى المعرفى بحال من الأحوال . ولا شك أن مثل تلك الازدواجية المعرفية إنما هى فى نفس الوقت تمثل لازدواج فى الشخصية غير معلن على الملأ .

وثمة مارد حديث من مردة الثقافة هو الإعلام . فالراديو من جهة والتلفزيون من جهة أخرى يشكلان وسيلة حضارية ثقافية تضغط على عقول الناس وتلتهم وقتهم واهتمامهم وتشغل الجانب الأكبر من تأملاتهم وأحلامهم . ولعل ما يتذرع به الاعلامى هو الاستهواء والجذب الوجدانى والضرب على أوتار قلوب المستمعين . فما يتم تقديمه للمستمع أو المشاهد لابد أن يكون جذابا يستهويه ويأخذ بلبه ويستولى على مشاعره بحيث لا يجد شيئا أهم منه فى حياته . فكيف والحال هذه أن يجد الانسان الحديث وقتا يخلو فيه إلى نفسه ويتأمل فى هدوء وراحة بال ، ويترك العنان لأخيلته أو يستعد نفسيا لتقبل ما يمكن أن يلهم به مادة للتفكير أو مادة للأداء والتطبيق؟

ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن وسائل الإعلام من جهة ومعاهد التعليم من جهة أخرى قد أسرت قلوب وعقول الناس فى سجن ثقافى لا يمكن

تخطى حواجزه أو تحطيم قضبانه . وعليك بتصفح حياة معارفك وأصدقائك لتتأكد من أن الإعلام والتعليم لا يتركان فرصة للالهام . ولعلنا نقول إن الانسان المثقف خير ألف مرة فى نظر المجتمع من الانسان الملهم . فالتقنين والتوصيف ووضع مقاييس موضوعية للشخصية المثقفة قد استبعد الالهام من نطاق الثقافة أو قل إنه لا يعترف أصلا بالالهام كحقيقة واقعية . ولعل أغلب المثقفين يستخدمون كلمة إلهام بطريقة فجة فلا تحمل فى أذهانهم مضمونا واقعياً دقيقاً . وحتى بالنسبة للعباقرة الملهمين فان النظرة الشائعة إليهم ، حتى من جانب المثقفين مشوبة بالتوجس والاتهام بالجنون . والواقع أن العبقرى الملهم شخص لا يتم الاعتراف به عادة إلا بعد أن يقدم ثمار إلهامه . أما الالهام نفسه وما يسبق الثمار ، فانه لا يحظى من جانب الناس من حوله إلا بالهزء والسخرية والتشكك فى القوى العقلية أو بالاتهام بالاستهتار والنزق . وليس من سبيل فى الواقع لاقناع المثقفين بضرورة إفساح حيز من حياة كل ناشىء لتنسم نسيم الالهام والاستمتاع بما يضفيه على الشخصية من قدرة على الخلق والابداع .

المعوقات الحضارية :

سبق أن قلنا أن هناك مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر للمرء لكى يتسنى له أن يتلقى ما يلهم به ، أو بتعبير أدق ما يوجه إليه من إلهامات . وقد شبهنا الانسان بجهاز الاستقبال اللاسلكى الذى يختلف من حيث شدة دقته باختلاف تركيبه وباختلاف الظروف التى يعمل فى نطاقها . ولعلنا نقول إن الانسان فيما قبل المدنية كان فى بيئة مواتيه لتلقى الالهامات . ولعلنا نقول إن البيئة الحضارية التى يعيش فى نطاقها إنسان الحضارة قد زيفت طبيعته وجعلت حياته كلها مغلقة عما ليس من الطبيعة فى شىء ، والواقع أن الحياة من حولنا بعيدة كل البعد عن الطبيعة . وحتى ما نظن أحيانا أنه طبيعة لا يكون من الطبيعة من قريب أو بعيد . خذ مثالا لذلك الريف . فعندما يترك

المرء المدينة ويقضى بضعة أيام بالريف فى إحدى القرى ، فانه يحسب أنه قد ترك البيئة المصنوعة وارتمى فى أحضان الطبيعة . والحقيقة أن الريف مشابه للطبيعة ولكنه ليس من الطبيعة البحتة فى شىء . فالزراعة ذاتها صناعة حضارية . ذلك أن الانسان قد اقتلع منذ آماد بعيدة النباتات الطبيعية وصار يصطنع الزراعة مخضعا الحياة النباتية لكثير جدا من التكييف ، بل إنه صار يحيط البذور والنباتات التى تنبت من تلك البذور ببيئة جديدة مصطنعة . وصارت الحياة النباتية وما يحيط بها من وسائل رى وصرف وعزق وحصد وشحن . . . إلخ، حياة مصنوعة وليست حياة طبيعية كما وجدت بادى ذى بدء .

وعلى أية حال فانه كلما بعدنا عن التعقد واقتربنا من البساطة ، فاننا نكون بذلك أقرب إلى حال الطبيعة وكنا بالتالى أكثر قابلية لتلقى الالهامات . ولعلنا نحاول فيما يلى أن نحدد المعوقات الحضارية التى تحول بين المرء وبين تلقى الالهامات . وأول هذه المعوقات تشتيت الانتباه . فالمدينة لا تسمح غالبا لسكانها بالهدوء وبتركيز الذهن ، أو قل إنها لا تسمح لهم بممارسة عادة التأمل الذاتى . ومن المعلوم أن ساكن المدينة مرهق بالأصوات العالية ، كما أن الأشياء المتحركة حوله والمتحركة به وقد احتل مكانه فيها لما يوتر أعصابه من جهة ، ويشتت انتباهه وتركيز ذهنه من جهة أخرى .

أما العائق الثانى فهو عائق اجتماعى . فكما أن الأشياء تتحرك بسرعة وتشتت الانتباه وترهق الأعصاب فى المدينة ، كذا فان العلاقات الاجتماعية من حول ساكن المدينة تلفه فى ثناياها كما تفعل الدوامة بالشخص الذى يسقط فى أحضانها فلا يجد له مفرا من إبتلاعها له وجذبه إلى هاويتها . والعجيب فى العلاقات الاجتماعية بالمدينة أنها على كثرتها واستمرارها فى بعض الأحيان مع نفس الأشخاص ، فانها تتصف بأنها علاقات سطحية ووقتية . فما يكاد الموقف الاجتماعى ينتهى حتى تأخذ العلاقات الاجتماعية التى كان يتضمنها فى الذبول والخفوت . والواقع أن

ساكن المدينة لا يستطيع أن يفكر فى حدود علاقات اجتماعية ثابتة . فالأشخاص المحيطون به لا يخرجون فى تقديره عن كونهم أحداثا كتلك الأحداث التى تقع من حوله فى الأشياء . ويسير جنبا لجنب مع هذا التشتت الاجتماعى ومع الضحالة فى العلاقات الاجتماعية ضعف فى المشاعر وبالتالى ضعف فى القيم الاجتماعية . فساكن المدينة لا يكاد يؤمن بشىء مما يقال له أو مما تحاول وسائل الإعلام ومعاهد التعليم بثها فيه . ذلك أن المتناقضات الاجتماعية كثيرة متعددة . فبينما يصادف ساكن المدينة شخصية مؤمنة ومؤثرة فى وجدانه ، فانه يصادف بعد لحظات شخصية أخرى تعمل بتأثيرها المضاد على محو ما سبق أن رسخته الشخصية الأولى فى الذهن . وحتى بالنسبة للمعلم أو للاعلامى فان الوقت المتاح له للتأثير فى الناس لا يمكن أن يتسم بالطول أو التواتر . وحتى إذا أتيح الوقت الطويل لهما ،وحتى إذا استمر التواتر ،فثمة من الجهة المقابلة شخصيات أخرى مؤثرة بتأثير مضاد تتمتع بالتأثير خلال وقت طويل وتواتر مستمر .

ولا يعزب عن البال أن الحضارة الحديثة قد قربت المسافات من جهة ، كما أنها قربت الأزمان والقرون من جهة أخرى. فنحن نقع تحت تأثير الأحداث التى تقع فى إيران والهند وأمريكا ، بل قل إننا واقعون تحت ضغوط إعلامية من جهات متباينة . فالحدث الذى يقع فى أى بقعة بالعالم سرعان ما ينتقل إلينا مباشرة أو بالواسطة . وهذا لا يقتصر على الأحداث السياسية ، بل ينسحب أيضا بازاء المعتقدات والقيم : ومن حيث ضغط الأزمان ، فاننا نجد أننا متأثرون بالتراث العالمى من جهة أخرى . فليس من السهل أن نتخلص من الضغوط الثقافية التراثية التى نرزح تحتها حتى ولو لم نكن نستشعر ذلك . فكما أننا لا نحس بضغط الغلاف الجوى على رؤوسنا ، كذا فاننا لا نحس أو لا نكاد نحس بضغط التراث القومى والتراث العالمى ، وهو التراكب الثقافى عبر آلاف السنين . ولقد يدهش البعض إذا قلنا إن خبرات القبائل البدائية التى اكتسبوها منذ ملايين السنين ما تزال مغروسة فى

لا شعورنا وقد تلاحمت وتفاعلت مع خبرات الأجيال المتعاقبة . وأكثر من هذا فان المجتمعات البشرية فى تلاحمها بالتعاون أو بالتعارك قد قد اكتسبت خبرات ما تزال تعيش فى وجداننا باللاشعور .

كل هذا يعمل عمله ولا يسمح لنا بالخلو إلى ذواتنا الحقيقية . فنحن لا نكاد نقف على أنفسنا خلواً من الركامات الثقافية والحضارية التى مرت بنا . ولعل ما يملأ جوانب الإنسان الحديث الموسوم بالحضارة من قلق إنما ينم على مخاوف غائصة فى أعماق الشخصية الإنسانية التى ورثت فى أعماقها ما مر من مواقف مرعبة بالإنسانية منذ نشأتها على هذه البسيطة . ولقد نقول بصراحة أن الإنسان فى عصوره الغابرة كان متخففا مما يرزح تحته إنسان الحضارة . لقد كانت الهموم الحضارية بعيدة عن آفاقه النفسية ، وبذا فقد كان قريبا من طبيعته الروحانية . ولقد كان روسو على حق عندما أخذ ينعى على المجتمع الذى أخذ يشوه الشخصية الإنسانية . ولكنا نوسع الزاوية التى كان روسو ينظر منها . فبينما كان روسو يركز النظر إلى المجتمع الراهن من حول الطفل ، فاننا نوسع أفق تلك النظرة وذلك باعتبار المجتمعات المتلاحقة وما عانت منه وما اكتسبته من هموم ومخاوف وإحباطات بمثابة مجتمع واحد ضخم هو المجتمع الانسانى المتشابك والمتلاحم والمتفاعل بعضه مع بعض . إنه المجتمع الشامل عبر حدودى المكان والزمان وقد ظل مجتمعا حيا فينا يعمل بنشاط وضغط كبيرين .

ولقد نزعم أن الخبرات المكبوتة — وهى خبرات غير مواتية تمتد إلى ملايين السنين قبل الزمن الراهن — أشد وطأة علينا من الخبرات الحديثة المباشرة التى نعايشها . ذلك أن تلك الخبرات القديمة المكبوتة قد صارت من سدانا وقد استحالت ضمن غرائزنا . فما الغرائز التى يتصف بها الانسان وبعض الحيوانات الفقرية بل والحيوانات على اختلاف مراتبها سوى خبرات مرت بها الأسلاف للبشرية وللحيوانات على تباين أجناسها . فما مر على أجدادنا القريبين والبعيدين من خبرات لا يجد طريقه إلى الامحاء ، بل يظل حيا بشكل أو بآخر فى أعماقنا .

وليس من شك فى أن السبيل إلى الالهام والتلقى الروحى من الخارج ليس بالقضاء على تلك الركامات بل يكون بعدم إثارتها فينا . فليس من الممكن القضاء على ما رزحنا تحت وطأته ملايين السنين ، وليس من المستطاع تغيير غرائزنا التى قلنا إنها هى بذاتها خبرات منسية ومكبوتة فى لا شعورنا الجمعى وقد تمكنت من طبيعتنا . والممكن الوحيد هو عدم إثارة تلك الغرائز وعقد معاهدة صلح وتعايش بين أنفسنا وبينها . وبتعبير آخر لا سبيل إلى الخلو إلى أنفسنا إلا إذا استطعنا أن نفلت من قبضة تلك المهيجات لما ترسب فينا وصار طبيعة لنا . ولكن هل من الممكن بسهولة عقد مثل تلك المصالحة أو ذلك التراضى بين حقيقة وجودنا وبين ما صارت إليه طبيعتنا بعد أن استدلتها الخبرات المتراكمة عن أسلاف قريبين وبعيدين عنا ؟

لا شك أن الحضارة الحديثة تسارع بمتوالية هندسية فى تكبيل الشخصية الانسانية بقيودها . فنحن خرجنا بالفعل من دائرة طبيعتنا الأصلية وقد انخرطنا فى طبيعة مزيفة تمام الزيف لا تكاد تمت إلينا بصلة . لقد صرنا تروسا صغيرة فى آلة كبيرة بعد أن كنا أحياء نعيش حياتنا فى عصر أو فى عصور ما قبل الحضارة . ولقد وصلت بنا الحال إلى حد أننا صرنا لا نرى أى وجاهة فى المقومات الروحية . إننا صرنا لا نعترف بالروحانيات إلا بالألسنة والأقلام ، ولا يكاد المرء يحس بطبيعته الروحية . والسبب الرئيسى فى هذا هو ذلك المسخ الانسانى الذى استولى على كياننا . فصدى الحضارة وصدى الآلات قد انطبع على طبيعتنا وترك فينا ما يشبه تلك الآلات . وهل للآلات أن تصير ملهمة وذات طبيعة روحانية ؟

فالحضارة إذن قد غلفت الانسانية بعازل يحول بينها وبين استشفاف الحقائق الروحية ، بل قل إن الحضارة قد ربطت طبيعتنا الذهنية بالأسباب الحضارية العلية التى لا تعتمد على البصر الروحى المباشر أو الحدس غير المعتمد على الشواهد .

الفصل السادس

الحضارة والالهام

الجذور الإلهامية للحضارة :

لسنا نشك في أن الحضارة قبل أن تنمو وتتعقد كانت بمثابة نبت صغير غض يعتمد بالدرجة الأولى على المبادرات الفردية وما يسهم به الفرد الرائد من الناس بالفكر بادىء ذى بدء ، ثم بتطبيق ذلك الفكر فى المجالات المناسبة للتطبيق والإفادة منه . ولسنا نشك أيضا أنه كلما تعقدت الحضارة ، وكلما ذهبت شوطا بعيدا فى النمو والترعرع ، فان الفكر الانسانى الفردى يتزاح بعيدا ، أو قل إنه يذوب فى ذلك المركب الحضارى المعقد والهائل بحيث لا يصير ما يسهم به الفرد سوى تدعيم وتنقيح وتصحيح لما سبق أن أرسى من دعائم أساسية ، ولما تم تشييده بالفعل والانتهاء من تحديد ملامحه الرئيسية .

ولعلنا نقول إن الخطوط العريضة التى انتحت إليها مسارات الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ كانت فى الواقع إلهامات حصل عليها أفراد بعينهم دون سائر الناس المحيطين بهم . والواقع أن القليل منا يمكنهم أن يتخيلوا تلك اللحظات الإلهامية التى استمتع بها أفراد بدائيون كانت ثمارها تلك الركائز الحضارية الرئيسية . ولقد يذهب البعض منا وهم يتحدثون عن نشأة الزراعة أو عن استخدام الإنسان البدائى للنار وتطويعها لإرادته بعد أن كانت ظواهر طبيعية تنشأ تلقائيا إلى أن الصدفة وحدها هى التى قادت ذلك الانسان إلى استنبات النبات وإلى إشعال النار بارادته . ولكن الواقع أن الصدفة ليست بكافية للتفسير ، بل إنها لا تصلح للتفسير على الإطلاق . وما يصلح للتفسير هو الإلهام فحسب . فالإنسان الفرد الذى

قام بزراعة أول نبتة ، وكذا حال الانسان الفرد الأول الذى أشعل بإرادته أول شعلة من النار ، إنما انتحى إلى ما انتحى إليه نتيجة ما ألهم به فجأة بعد أن توافرت لديه شروط ذهنية معينة لتلقى الإلهام .

ولسنا نزعم فى الواقع أن الانسان الحضارى اليوم غير قابل لأن يلهم بأشياء جديدة كل الجدة تماما ، ولكن ما نزعمه فحسب هو أن إنسان الحضارة ليس محظوظا بالدرجة التى كان عليها إنسان ما قبل الحضارة أو إنسان الحضارة فى مراحلها التطورية الأولى . فالكثير جدا من المجالات الحضارية قد اكتملت بالفعل ، بل إن الكثير من أبناء الحضارة اليوم لا يجدون أمامهم سوى طريق واحد هو طريق التقليد والضرب فى أثر ما سبق أن استنه لهم غيرهم من أشخاص . وأكثر من هذا فان أجهزة حضارية كثيرة أو قل مؤسسات حضارية كثيرة قد تبلورت وقد شيدت على أساس من تراث متراكب ومعقد أشد التعقد ، بحيث صار لتلك الأجهزة أو المؤسسات كيانات عضوية أو كينونات ذاتية أو قوامات جوهرية أو قوة دافعة مستقلة تمتص بواسطتها جهود الأفراد . فلا يكون أمام الانسان الحديث سوى الخضوع لتلك الأجهزة أو المؤسسات يقوم على خدمتها والخضوع لمشيئتها والتشبع باتجاهاتها وقد سدت أمامه منافذ التفكير الذاتى أو الإلهامات المؤثرة . فما يمكن أن يلهم به لا يجد طريقه إلى الحياة أو التنفيذ فيختنق كوليد لا يجد إلى نور الدنيا سبيلا فيموت لحظة ميلاده .

ومعنى هذا فى الواقع أن الشرط اللازب لتلقى الإلهامات هو الحرية وعدم فرض قيود على الفكر أو العاطفة أو الأداء . وواضح أن الحضارة بعد أن تعقدت وتراكبت ، فانها فرضت قيودا وشكائم متعددة على الفكر والوجدان والأداء . فصار الانسان الحديث يفكر وينعطف ويعمل فى حدود مرسومة له لا سبيل إلى الانفكاك منها أو التخلص من إعاقتها لحركاته أو انتحاءاته . ولسنا نشك فى أن الانسان القديم كان أكثر حظا من الحرية برغم ما يمكن أن يتوهمه الكثيرون من قيود وشكائم وعبودية

واستدلال كان يقسر عليها . صحيح أن الانسان القديم كان معرضا للضغوط بل وللأخطار العديدة التى كانت تصيبه فى جسمه وفى أملاكه وأبنائه وذويه ، ولكن مما لا شك فيه أن الانسان القديم كان حرا فى الفكر والعاطفة والعمل . وبتعبير آخر فان ذلك الانسان القديم لم يكن مجبرا على أن يفكر أو أن يتعطف أو أن يعمل أشياء بعينها . لقد كان مجال الاختيار متسعا أمامه كل الاتساع . ولكن بالنسبة لإنسان الحضارة اليوم ، فانه برغم ما يخدع به نفسه من حرية يتمتع بها فى التفكير والعاطفة والأداء ، فانه فى الواقع ملزم بأن يفكر بطريقة معينة وأن يفرح ويحزن لأشياء بعينها وأن يبدى سروره وحزنه بالطريقة الحضارية التى صارت معقدة . فهناك قيود مفروضة على الانسان الحديث بازاء مظاهر تعبيره الوجدانية . وكذا الحال بالنسبة لما يمكن أن يضطلع به من أعمال أو بالنسبة لما يمكن أن ينهجه فى حياته من تصرفات .

ولنا أن نقول إن الحضارة الانسانية لا تعدو أن تكون ثمارا من إلهامات تلقاها الانسان عبر عصور متباينة . ولنا أن نضيف إلى هذا الزعم القول بأن الإلهامات الحضارية تقل شيئا فشيئا مع استمرار الحضارة فى التعقد . فكلما بعدنا إلى الوراء فى التسلسل الحضارى ، فاننا نجد أن الكمية التى أتيحت للإنسان القديم من الإلهام كانت أكبر بكثير ، بل إن نوعياتها كانت أكثر جوهرية وأثمن قيمة . ومع اعترافنا بأن الانسان الحديث ما يزال يتلقى الإلهامات ، فان الكمية والنوعية التى تتصف بها إلهامات الانسان الحديث أقل وأخفض من إلهامات الانسان القديم .

ومن المؤكد أن الانسان القديم كان قريباً من ذات نفسه خلافا للانسان الحديث الذى صار فكره مركزا فى الخارج وبالكاد يستطيع أن يلتفت إلى قوامه الداخلى . ولقد نقول إن دعوة سقراط أو شعاره « اعرف نفسك » إنما كان بمثابة صيحة احتجاج ضد الحضارة التى أخذت تسحب اهتمام الانسان اليونانى وتنتزعه من دخيلته إلى الخارج حيث الواقع الخارجى .

والواقع أن الانسان اليوم يبدأ من الخارج إلى الداخل . إنه يبدأ بالاهتمام عما يدور حوله ، ولا يجعل من نفسه سوى صورة باهتة لذلك الخارج الدائر حوله . أما الانسان القديم ، فانه كان يجعل الخارج صورة من ذاته . ولعلنا نضرب مثالا بأول شخص استنبت النبات . إن عملية الاستنبات ذاتها قد ارتسمت فى ذهنه قبل أن تكون واقعا بالفعل بالخارج. إنه خلق الاستنبات فى ذهنه قبل أن يخلقه فى الواقع الخارجى . وإذا قال قائل إن فكرة الاستنبات مستشفة مما شاهده الانسان القديم حوله من نبات ينمو أمامه فى التربة ، فاننا نقول له إن هذا واضح بالنسبة لك ، ولكن إذا تخيلت أن الزراعة لم تكن موجودة على الإطلاق وأن ذلك الشخص هو أول شخص استنبت النبات ، فانك تستطيع أن تشبه الاستنبات إذن بتخليق الانسان فى الأنبوبة . فعملية التخليق فى الأنبوبة تعد إلهاماً اعتمل فى ذهن ذلك الشخص الذى سأل نفسه أو تخيل فى ذات نفسه إمكان مثل ذلك التخليق . فالنشاط الذهنى ذاته ليس مستمدا من الخارج وإن كانت العناصر التى تخضع لذلك التصور الذهنى موجودة بالفعل بالواقع الخارجى. فنحن لا نزعم أن الإلهام الحضارى يخلق أشياء من العدم ، بل إننا نزعم فقط أن التفكير الجديد كل الجدة أو أن الوجود المراد تحقيقه بادىء ذى بدء بالواقع الخارجى بتشكيل جديد للعناصر الموجودة بالفعل ، إنما يخلق خلقا بواسطة الإلهام فى ذهن المرء . وهذا ما حدث بالنسبة لأول شخص استنبت أول نبتة فى الواقع الخارجى . فعملية الاستنبات هذه نتيجة لإلهام أكيد . فهى لم تكن موجودة من قبل . وبتعبير آخر فان أول من استنبت النبات قد ألهم بالفكرة . وقل نفس الشىء بالنسبة لأول من ألهب لهيباً وأخضع النار للاشتعال والانطفاء ، وقل أيضا نفس الشىء بالنسبة لأول إنسان فكر فى استئناس حيوان مثل البقرة والحصان والكلب والاستعانة به لخدمته أو لحراسته . وهكذا دواليك بالنسبة لجميع الحالات أو الأسس أو الركائز التى قامت الحضارة على أكتافها .

ولسنا من أنصار الرأى القائل بأن الجبلة البشرية قد تضعضعت أو ضعفت فصارت غير قابلة لتلقى الإلهامات المتباينة ، بل إننا من أنصار

الرأى القائل إن البنية الحضارية ذاتها وقد لفت الانسان فى لفائفها صارت تكبله وتقيد حركته الفكرية . ونخشى أن يؤدى مثل هذا التكبيل إلى فقدان الانسان فى المستقبل البعيد القدرة على تلقى الإلهامات أو إلى عجزه عن توفير الفرصة لنفسه ولأبنائه لتلقى الإلهامات . ولكن مما يشيع بعض الطمأنينة بازاء مستقبل الإنسانية ذلك الاحتجاج الصاخب الذى يعلنه بعض المفكرين باصرار ضد التعقد الحضارى وضد إحالة الانسان الحديث إلى مجرد ترس صغير فى آلة الحضارة الكبيرة . فمثل هذا الاحتجاج سوف يأتى بثماره العظيمة التى سوف تتمثل فى مجموعة من الناس يتشبثون بالطبيعة الإنسانية الأصلية المتسمة بالإلهام ، وهى الطبيعة المهددة بفقدان القدرة على تلقى الإلهامات إذا ما استمر الحال على ما هو عليه اليوم وظل الانسان مترسما لما سبق أن ترسمه غيره له ، وظل ضاربا فى إثر ما سبق أن ضرب فيه غيره من ممارسات . فالمشاركة إذن فى الحضارة مشاركتان : مشاركة إيجابية اضطلع بها الانسان القديم صانع الحضارة وما تزال قلة من الناس يشاركون بها ، ومشاركة سلبية استهلاكية يضطلع بها معظم الناس المتحضرين فى الوقت الحاضر .

الآكلون من فتات الحضارة :

قلنا فى سياق الموضوع السابق إن الغالبية العظمى من الناس المستظلين بظل الحضارة الإنسانية حالياً قد خضعوا لما يقدم إليهم من أفكار وعواطف وممارسات حضارية مسبقة بغير أن يكون لهم دور إيجابى أصيل يستشفونه من إلهامات تساق إليهم وقد أعدوا أنفسهم لاستقبالها . وبتعبير آخر نقول إن الإنسان الحديث قد صار منصهراً فى بوتقة الحضارة لا يستبين ذاتيته ولا يعتدبفرديته أو قل بفردانيته ، فالتبعية الكاملة للقوالب الفكريةوالوجدانية والأدائية المعدة من قبل للمرء قد أوشكت أن تكون القاعدة السلوكيةالعامة . فالحرية الداخلية إذن غير متوافرة أو تكاد أن تكون غير متوافرة للانسان الحديث .

ولعلنا نجد أن التربية منذ نعومة الأظفار قد أخذت تصادر كل ما هو فرداني لدى المرء ، ولكأن لسان حال المربين — بما فى ذلك الوالدان ذاتهما — يقول « ليكن الطفل الذى نربيه كسائر الأطفال الآخرين . أو دعنا نجعل من هذا الطفل صورة مكررة وطبق الأصل من جميع الأطفال الآخرين ».
فالتطابقية أو الأحادية هى الاتجاه السائد على عقول المربين والكبار بعامة .
وحتى بعد أن يندرج المرء فى ركب الكبار ويصير واحدا من فئة المنتجين أو المشتغلين بأى عمل من أعمال الكسب الحضارى ، فان معيار النجاح فى الإنتاج أو العمل يكون بالمطابقة وعدم الخروج عن الخط المرسوم للعمل ، ولكأن الأعمال قد صارت هى الكائنات الحية ، ولكأن البشر صاروا بمثابة الخامة التى يجب العكوف على تصنيعها وصياغتها وفق المواصفات المطلوبة .
ولقد سمعت بأذنى ذات يوم أحد المربين يقول « إن علينا أن نصنع الخامات البشرية فى مصنع هو المدرسة . ذلك أن هذا المصنع — أعنى المدرسة — يترسم مواصفات معينة ينبغى أن تتحقق فى أشخاص التلاميذ » .

ومعنى هذا بطبيعة الحال مسخ الشخصية الإنسانية والخروج بالطبيعة البشرية عن الخط الذى جعلت له بداءة والذى خلقت وفقه : ولسنا فى الواقع ضد التربية وما يمكن أن تؤثر به على طول الخط ، وإلا فاننا قد هدمنا مؤسسة نعتز بها ونشجع استمرارها . ولكن ما نعترض عليه ونقوم ضده هو محو الشخصية الإنسانية وعدم السماح لها بالتعبير عما تتضمنه من مواهب وقدرات مدفونة فى أغوارها . فالضغط الاجتماعى أو التربوى عندما يشتد على الشخصية الإنسانية ، فانها تصير عندئذ بمثابة نسخة مكررة من بين نسخ عديدة ، كما أنها لا تستطيع الإفادة مما جبلت عليه من إمكانيات كان يمكن أن تخرج إلى حيز الواقع لو أنها وجدت الجو المناسب لخروجها وتبلورها فى الواقع .

والواقع أن النظرة الميكانيكية إلى الانسان ، أو بتعبير آخر النظرة إلى الانسان باعتبار أنه كائن يتأثر وينطبع بالمؤثرات التى توجه إليه ، وأن الخبرات البشرية فى جماعها لا تعدو أن تكون جماع الضغوط والتأثيرات

التي وجهت إلى الشخصيات الانسانية عبر العصور المتعاقبة . . نقول إن هذه النظرة إلى الخبرات البشرية التي تجعل الصادر عن الشخصية – أيا كانت – مساويا من حيث الكم والكيف لما ورد إليها ، إنما هي نظرة قاصرة وبعيدة عن الصواب . والصحيح أن نقول إن الشخصية الانسانية المبتكرة أو الملهمة تقدم إلى الخارج أكثر مما تستقبل إلى الداخل . ولسنا نشك أن الكثير جدا من أولئك المتخمين بالمعلومات لم يستطيعوا أن يقدموا جديدا فكانوا بمثابة مخازن ثقافية فحسب . فما استطاعوا تقديمه لم يكن أكثر من جانب مما سبق لهم اختزانه . وعلى العكس من ذلك فاننا نلاحظ في تاريخ الفكر البشري والابداع الفني أن المفكر الأصيل والمبدع الفذ لم يكن قد استقبل نفس المقومات التي قدمها إبداعا في الفكر أو الفن أو الأداء . ولعلنا في هذا المقام نستشهد بما أورده الأستاذ الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه « الفنان والانسان » حول هذه النقطة . يقول سيادته :

« لقد بين لنا بروست كيف أن « العبقرية » بل حتى « الموهبة » العظيمة لا تصدر عن عناصر عقلية ممتازة ، أو عواطف رقيقة تفوق عواطف السواد الأعظم من الناس ، بل هي تصدر عن ملكة خاصة تستطيع تحوير تلك العناصر العقلية والميول العاطفية بحيث تخلق منها شيئا . والواقع أن الفنانين الذين ينتجون أعمالا فنية رائعة ليسوا أولئك الذين يتمتعون بأكبر قسط من الثقافة ، ويعيشون في أكثر الأوساط رقة وامتيازا ، ويظهرون في أحاديثهم أكبر قدر من الاثارة والبراعة ، بل هم أولئك الذين يملكون القدرة على تحويل شخصياتهم إلى « مرآة » حية ، تنعكس عليها حياتهم ، وليست العبرة بنوع « الحياة » التي يعيشها الفنان ، بل العبرة بما لديه من « مقدرة عاكسة » لا بالكيفية الخاصة المميزة للمنظر « المنعكس » .

ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن المرآة أو القوة العاكسة لدى المبتكر أو الموهوب أو العبقري هي مرآة أو قدرة على تقديم الالهامات التي تصل إلى شخصيته من خارج ذاته . ذلك أن ما يقدمه المبتكر لا يعبر عن الكم أو الكيف الحاصل عليه ، بل يعبر عن شيء آخر . فكل ما يناط بالمبتكر

هو ما يكون قد أعد له نفسه من قدرة على استقبال ما يوحى به إليه من خارج ذاتيته .

وإذا نحن استعرضنا ما يضرب فى إثره جميع الناس المستظلين بظل الحضارة بما فى ذلك الصفوة المثقفة منهم ، فاننا نجد أن أبناء الحضارة قد اكتفوا بالفتات دون الغذاء الأصيل ، وأنهم صاروا عالة ومتسولين لما عسى أن يقدم إليهم من فضلة تساقط من مائدة الحضارة .

ونستطيع أن نقول بغير إجحاف أن الانسان الحديث هو كائن استهلاكى لما ورثه من ثقافات . ونحن هنا نستخدم كلمة « ثقافة » بالمعنى العام للكلمة لكى تشمل جميع ما تحمله الحضارة من مقومات ذهنية أو وجدانية أو أدائية أو قيم أو عادات وعرف وقانون وعلاقات اجتماعية ونحوها . ولعل ما يدفع بالانسان الحديث إلى اتخاذ هذا الموقف الاستهلاكى الثقافى هو ضخامة وتكدس الثقافة الانسانية . ولكأن الانسان الحديث يقول لنفسه « لماذا أسعى لأستقبل إلهامات جديدة وها هو ذا أمامى الكثير جدا مما لا أستطيع أن آخذ سوى قشرة أو شريحة صغيرة منه ؟ » ولعل هذا الموقف الاستهلاكى هو ذاته ما يدفع بالكثير من المثقفين إلى الإحجام عن المشاركة بتقديم إسهامات جديدة فى مجالاتهم التى بزوا فيها أقرانهم . فأنت تجد الواحد منهم يقول « ولماذا أضيف جديدا وها هى المكتبات قد امتلأت وتكدست بالمؤلفات ، أوها هى المعارض وقد تكدست بالانتاج الفنى ؟ » ولقد زعم البعض أن كل ما كان يمكن أن يعرف قد عرف ، وأن كل ما كان يمكن أن يقرض من شعر أو يصاغ من نثر فنى قد كتب بالفعل ، وأن الانسان قد بلغ الشأو الأبعد فى الاختراع بحيث لم يعد مجال لمجتهد ، وأن الحضارة الانسانية قد بلغت الذروة التى لا تعلوها ذروة ، وأنه لم يبق أمام الانسان الحديث ، بل ولم يبق أمام أبناء الأجيال القادمة سوى استهلاك ما تكدس وامتلأت به أرفف المكتبات من علم ودور العرض من فنون .

والواقع أن هذه النظرة التشاؤمية إلى مستقبل الحضارة وجعلها مجرد كومة من المنجزات لا يمكن أن يضاف جديد إليها إنما هي نظرة خاطئة . ولكن مع خطئها فانها تشيع كبديهية فى أذهان كثير من الناس . وهكذا نجد أن الناس قد استحالوا إلى مستهلكين لثمار الحضارة ولم يعد الواحد منهم غارسا لنبت جديد أو مضيفا لالهام يتلقاه من خارج ذاته . ولسنا نتهم الحضارة فيما حققته أو أنجزته ، ولا نذهب إلى القول بأن ما تحقق هو زيف أو هو ضياع من الضياع ، بل نكتفى بالقول بأن الثمار الحضارية لا تغنى وحدها عن شجرة الحضارة ذاتها التى تغتذى بالالهامات التى تفيض للمفكرين الملهمين من بنى الانسان .

فكل ما يشغل بال إنسان اليوم هو المشاركة فى الاغتذاء بما جنى من ثمار حضارية ، ولا يشغله ما يمكن أن يضيفه من زرع جديد يثمر بعد وقت يقصر أو يطول . ولنا أن نذكر بالمعانى المتباينة التى سقناها عن الالهام . فأنت تستطيع أن تكون ملهما من جوانب متباينة ، ولكنك فى أى جانب أو اهتمام من الجوانب أو الاهتمامات تكون متقبلا رسالة من خارج ذاتيتك تكون بمثابة مخاطبةخاصة بك أنت وحدك . أما أن تسير مع ركب السائرين فى موكب الآكلين من ثمار الحضارة ، فانك تفقد بذلك ركنا جوهريا من أركان شخصيتك ، وتصير مجرد مقتات من فتات الحضارة .

ونأسف إذ نقرر أن الحضارة الانسانية الراهنة تشجع بغير قصد منها على إزاحة المشاركين إيجابيا فى الحضارة وعلى جعلهم مجرد متفرجين على شاشة التلفزيون أو بالملعب . وبدل أن يمثل أو يرقص أو يغنى ، فإنه يشاهد غيره يمثلون ويرقصون ويغنون . وبدل أن يؤلف أو يخترع أو يجرب ، فانه يقرأ ما ألفه غيره ويطلع على ما اخترعه غيره ويقرأ ويقف على ماقام غيره بتجريبه . والأمر هنا شبيه بما يحدث فى مجال السياسة . فالآخرون ينوبون عنا فى المجالس النيابية ، ويقررون نيابة عنا ما نريد تقريره من أمور .

روح الحضارة وجسمها :

بدأت الحضارة الانسانية أول ما بدأت فكرا وشعورا ووجدانا وإرادة ثم تلبست بعد ذلك بما ترجم إليه الفكر والشعور والوجدان والارادة . وهكذا وجدنا الحضارة بعد أن كانت كيانا معنويا وقد استحالت إلى كيان حسي ، بل استحالت إلى قوام له ذاتيته يسيطر على الفكر والشعور والوجدان والارادة . ولكأن الحضارة بدأت بالمعنوى ثم اتخذت لنفسها الجانب الحسى الذى ما فتىء أن قوى وازدهر بحيث صار أقوى من المعنوى . ولقد نقول إن الحضارة بدأت بالاحساس بتعشق الطبيعة والتلهف على الغامض من الأمور لاستجلائه والوقوف على كنهه . فالحضارة بدأت مشاعر ورغبات فى قلوب الناس قبل أن تصل إلى عقلهم الواعى . وحتى عندما سيطرت على العقل الواعى ، فانها ظلت بمثابة قوة دافعة دافقة تستهدف التعبير عن ذاتها . ولم يكن الانسان فى بواكير حضارته يرغب أو يدرك أن الحضارة التى يقوم بصنعها بيديه سوف تسيطر عليه بحيث تلجم ذاتيته بما فيها من فكر وشعور ووجدان وإرادة . إنه ظل يعتقد وقتئذ أنه سيظل المسيطر على مقاليد المسائل المادية المحسوسة ، وأنه سوف يظل مستغرقا فى أحلام اليقظة الممتعة ، وأنه سوف يجد مادة أكثر لاستمتاعه والارتماء فى أحضان تلك الأحلام .

ولقد ينسى بعض المتناولين للحضارة بالمدارسة هذه الحقيقة فيعتقدون أو يتوهمون أن الحضارة الإنسانية بدأت أول ما بدأت مادية فى أساسها . وأن أولئك الذين تعلقوا بالمعنويات من أمثال فيثاغورس وأفلاطون وسقراط كانوا منحرفين عن الخط المستقيم الحسى الذى سبق لغيرهم أن رسموه لكى تضرب الحضارة فى إثره . والواقع أن الحضارة لم تبدأ مادة محسوسة ، أو لم تبدأ فى عقول الناس مرتبطة بالمفيد يجتلبونه والضار ينأون عنه ، بل بدأت بالكشف عن الحقائق أيا كانت وفى أى مجال مهما كان . ولعلنا نزعم أنه لو أن الانسان كان يبحث عن الفائدة وينأى عن الضرر ، لما كان له إذن أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام فى

مجال المخترعات والعلوم والفلسفات والأدب والفن . ونحن نستطيع أن نقول من الجهة الأخرى أن الفوائد التى ترتبت على المكتشفات الانسانية لم تكن سوى ثمار لتلك الحقائق المكتشفة . أما البواعث الانسانية التى كانت تعتمل وراء الرغبة فى الكشف عن تلك الحقائق فإنها كانت بواعث أقرب ما تكون إلى روح اللعب أو التمرس بالهوايات أو الرغبة فى استجلاء الغامض والكشف عن المستور فى الأشياء .

ولنا أن نقول إن روح الحضارة الانسانية – إن جاز لنا أن نجمع الحضارات الانسانية جميعا فى حضارة واحدة كبيرة – كانت بالدرجة الأولى مغروسة ومعتملة ومتأججة فى عقول وقلوب صفوة من بعض الشعوب أو القبائل البشرية . ونحن لا نزعم أن جميع الناس – أو حتى جميع الشعوب – كان لهم حظ الاشتمال على جانب من روح الحضارة الانسانية . فثمة بعض الشعوب من جهة ، وثمة قلة قليلة من الأفراد فى الشعوب الحضارية من جهة أخرى كان لهم حظ الاستحواذ على روح الحضارة الانسانية . أما المستهلكون أو المستفيدون من ثمار الحضارة ، وهى الثمار المتمثلة فى جسم الحضارة ، فإنهم بمثابة التابعين والعيال على الحضارة الانسانية . فراكب القطار أو الطائرة أو الباخرة ، ومستخدم التليفون أو التليفزيون أو الراديو والدارس لأى فرع من فروع المعرفة أو المشارك فى الحياة السياسية التى تقوم وفق خطوط مرسومة . . وباختصار الغالبية العظمى من أبناء الشعوب المتباينة المتحضر منها وغير المتحضر ، إنما يقعون فى إطار المستهلكين أو المستفيدين من الحضارة الانسانية . وطبيعى أن يتباين هؤلاء المستهلكون لثمار الحضارة عن غارسى أشجار الحضارة الذين يرسمون الخطط الجديدة لغيرهم ويأمرونهم بالسير فيها وقد اختطوها لهم لأول مرة .

وليس من شك فى أن الواحد من منشئى الحضارات الانسانية لا يكون شخصية عادية ، بل لابد له أن يكون ذا مواصفات عقلية ووجدانية معينة تجعله بمثابة عملة نادرة لا تتوافر بين أترابه من البشر .

فمثل ذلك الشخص المساهم فى إرساء أسس جديدة للحضارة الانسانية تضاف إلى الأسس التى سبق إرساؤها لا يكون فى الواقع شخصية عادية ، بل يكون واحدا من العباقرة الملهمين الذين أوتوا قدرات فائقة يتميز بها ولا يشاركه فيها غيره من أبناء جلدته . إنه يكون شخصية ذات قدرة استقبالية إلهامية فذة . ذلك أنه لا يعيد سرد ما سبق أن قيل ، ولا يفكر فى نفس الأشياء التى سبق لغيره أن فكر فيها ، ولا يخترع أشياء سبق لغيره أن قام باختراعها .

ولعلنا نعود فنتساءل : هل روح الحضارة الانسانية قد أصابها الخفوت والذبول والتضاؤل ؟ نقول نعم ولا فى نفس الوقت . نقول نعم إن روح الحضارة قد أخذت فى الضعف إذا ما نظرنا إلى النسبة المئوية من أفراد بنى الانسان الذين ما يزالون يشاركون فى إرساء لبنات جديدة فى أساس الحضارة . فنحن اليوم لا نكاد نشاهد سوى أشخاص يستهلكون أو يشاركون فى أكل ثمار الحضارة الانسانية القائمة ، بينما لا نكاد نعثر على أشخاص يشقون خطوطا أو طرقا حضارية جديدة . ولعلنا نجسر فنقول إن الحضارة الانسانية القائمة اليوم بثمارها الكثيرة قد عملت على تشجيع الغالبية العظمى من الناس على الانخراط فى صفوف المستهلكين لثمار الحضارة دون المشاركة فى غرس بذور حضارية جديدة . ولعلنا نقول أكثر من هذا أن الثمار الحضارية الجاهزة توفر للمنتفعين بها مالا وشهرة بين الناس أكثر بكثير مما يمكن أن يتوافر لمن يقومون بغرس بذور حضارية جديدة . ولنأخذ مثالا بجراح يقوم باجراء عمليـــات دقيقة فيحظى بالمال والشهرة ، ولنأخذ مثالا آخر بأحد الدارسين أو العلماء الذين يعكفون على اكتشاف قطاع أو جزء غامض بالمخ . إن الشخص الأول ينعم بالثمار الحضارية فى مجـــال الطب ويكون عليه أن يستغل تلك الثمار فى التطبيق بازاء العمليات الجراحية التى يضطلع باجرائها . أما الشخص الثانى فان عليه أن يسبر غور المجهول ولعله يصل إلى نتائج ذات قيمة علمية أو لا يصل . وحتى إذا ما توصل

إلى نتيجة باهرة ، فان الأوساط العلمية المتخصصة جدا هى التى تسمع عنه وحدها ، أو قل إن ما يتوصل إليه من نتائج يخضع لامرة المطبقين من الجراحين وغيرهم من الأطباء الممارسين للطب ، بينما يفلت من يدى صاحب الاكتشاف ، ولا يحصل إلا على ذكر خافت بين سطور أحد المراجع الطبية .

وقل نفس الشيء بإزاء جميع المجالات الحضارية . فنحن بالكاد نذكر اسم مخترع المصعد الكهربى ، ولقد نحمد للشركة التى تقوم بتركيب المصعد فى عمارتنا إنجازها للعمل . فمن بذر البذرة الأولى وقام بوضع الفكرة العلمية أو مبدأ اختراع المصعد لا يكاد يذكر . ولكن الذى يستولى على الثمار هو المحمود المشكور . وقل نفس الشيء بالنسبة لجميع المجالات الحضارية المتباينة .

بيد أننا نقول من الجهة الأخرى لا إجابة عن السؤال الذى أثرناه حول قوة روح الحضارة . فثمة فى الواقع ما يدل على أن الحضارة الانسانية ما تزال تتمتع بقوة دافعة ، وأن السبيل إلى الملهمين الحضاريين والمخططين لاتجاهات حضارية جديدة ما يزال مفتوحا على مصراعيه وإن كان عدد المؤمنين بالتجديد الحضارى قلة قليلة فى بعض الشعوب الانسانية. ولعل ما يجعل عدد أولئك المبدعين الملهمين الحضاريين قليلا هو وعورة الطريق أمامهم . ناهيك عن الضغوط الاجتماعية من حول المرء، حيث يقيس معظم الناس قيمة الشخصية بما يمكن أن تحرزه من مال ومجد فى أقرب وقت وبأقل جهد وعلى أوسع نطاق ممكن . ولسنا ننسى ما أصيبت به الشعوب النامية من تلهف على ثمار الحضارة دون روحها ، فاستوردت الحضارات الغربية والشرقية كجثة بلا روح . وهكذا نجد المشاركين فى إرساء لبنات أو أسس الحضارات المستقبلية ليسوا غالبا من بين الشعوب النامية ، بل من بين الشعوب التى ما تزال تعرف الفرق بين ثمار الحضارة وبين البذور الحضارية الجديدة التى تنبت فى المستقبل حضارات جديدة أو جوانب من الحضارات المرجوة .

وليس يخاف أن المشاركة فى ثمار الحضارة قد يخدع المشارك فيها بأنه صاحب تلك الحضارة . فمن حاز سيارة يعتقد أنه قد صار صاحب حضارة مع أنه مجرد مستهلك فقط لثمرة واحدة من ثمار الحضارة ، وأكثر من هذا فثمة ما أسميناه فى مجال آخر بالعنعنة الثقافية . ونقصد بالعنعنة تكرار ما سبق قوله فى البحوث الجامعية التى يحصل أصحابها على درجات علمية راقية بفضلها ، مع أنهم لم يفعلوا أكثر من جميع المعلومات من هنا وهناك ورصها فى مجلد يقدم إلى الهيئة العلمية للحصول على درجة علمية . ولنا أن نزعم أن الكثير جدا من البحوث العلمية والكتب الذائعة لا تعدو أن تكون ضرباً من ضروب العنعنة الثقافية . وكان الحرى بالمفكرين أن يسهموا بشىء جديد وأن يقدموا إضافات علمية جذرية ذات قيمة فى المجالات التى يعرضون لها . ولكن الواقع أن المشاركة فى ثمار الحضارة أيسر من المشاركة فى بذر بذور حضارية جديدة . ونحن مع اعترافنا بأن المشاركة فى أسس الحضارة وشق طرق جديدة ليس من السهولة بمكان ، فإننا نزعم فى نفس الوقت أن الكثير من المفكرين الملهمين يدفنون إلهاماتهم خوف النقد ويتخذون لأنفسهم الطريق السهل وهو المشاركة فى ثمار الثقافة الجاهزة وقد أراحوا أنفسهم من بذر بذور قد تنبت أو قد تضيع بغير جدوى .

هل سيعيد الانسان اكتشاف ذاته ؟

قلنا إن المؤسسات الإجتماعية التى قام الانسان المتحضر بانشائها قد صارت ذات قوام ذاتى بحيث صارت المتحكمة فى عقل الإنسان وشعوره ووجدانه وإرادته . ولكن الواقع أن الانسان كائن ثائر بطبعه ، وهو فى نفس الوقت كائن طلعة نحو الحرية ونحو تحرير ذاته من كل قيد يكبل حركته ومن كل شكيمة تلجم تفتيق ذاتيته وذلك حتى يتخلص من العوائق التى تحول بينه وبين تحقيق ذاتيته .

وعلى الرغم من أن الانسان الحديث قد غاص حتى أذنيه فى لفائف النتاجات الحضارية ، فانه يحس بأن تلك النتاجات الحضارية تبعد به فى

الواقع عن ذاتيته . فالحضارة قد اطرحت عن الانسان الإحساس بالإنية ، فصار مجرد إنعكاس أو مرآة عاكسة لما يشيع بالحضارة من قوامات أو من نتاجات . وأمر الحضارة الحديثة أشبه ما يكون بالجنى الذى أطلقه شخص كان حرا طليقا من قمقم كان ذلك الجنى قد سجن بداخله . فما أن قام ذلك الشخص باطلاقه من سجنه حتى أخذ يستعبده ويستبد به حتى ولو انحنى أمامه وصار تحت إمرته يقدم إليه ما تشتهيه نفسه من أشياء . لقد حرم ذلك المسكين من حريته وقد صار ذليلا ومطيعا لذلك الجنى الذى أطلقه من سجنه بيديه . فالحضارة أشبه ما تكون بذلك الجنى . فبعد أن أطلقها الانسان بيديه من عقالها وأخرجها من قمقمها ، فإنها صارت مستعبدة له وآخذة بناصيته فلا تترك له أى بصيص من الحرية يتنفس من خلالها أو يعبر عن ذاتيته من نافذتها .

ولعل الاحتجاج الذى يستشعره إنسان اليوم والتبرم الذى يأخذ به كل مأخذ هو أول بشائر التحرير من ربقة عبودية الحضارة . ولكن لعل المشكلة التى تعترض طريق التحرير تتبدى فى شدة إمساك الحضارة الإنسانية بخناق إنسان اليوم ، كما تتبدى فى الكثير من الفوائد التى تجلبها له ، بل إن تحرر الانسان من ربقة وعبودية الحضارة معناه فى الواقع التنازل عن الكثير جدا من المكاسب التى حصل عليها ، بل والتخلص من الكثير جدا من العادات الذهنية والوجدانية التى اكتسبها عبر ملايين السنين . وهل بمقدور الانسان أن يتخلص من شكائم الحضارة التى تلذه وترعاه وتحدب عليه كما فعل ذلك الجنى الذى أطلقه ذلك الشخص من قمقمه ؟

هناك فى الواقع طريقان أمام الإنسان للتخلص من ذلك الجنى الحضارى : الطريق الأول هو الطريق التجنبى أو الاجتنابى وبمقتضاه يعزف المرء عن الحضارة ، أو بتعبير أصح عن نتاجات الحضارة ويعود من جديد إلى التشبث بروح الحضارة التى ترتبط بالكيان النفسى الذاتى للإنسان وليس بالنتاجات التى احتلت مكان الأصل وقد انقلبت من كونها وسيلة إلى

كونها غاية ليس بعدها غاية . أما الطريق الثانى — فهو طريق قسرى إجبارى حيث تحدث كارثة كبرى بفعل الانسان أو خارج نطاقه تقضى على النتاجات الحضارية وتعود بالإنسانية إلى عصور ما قبل التاريخ أو قل عصور ما قبل الحضارة . فتبدأ الإنسانية من الصفر كما فعلت بادىء ذى بدء مع أول إحساس أو أول تفكير حضارى خامر الانسان الأول أو الانسان القديم .

ولسنا نرى بالضرورة أن تتلاشى النتاجات الحضارية بكارثة كبرى بحيث يجد الانسان نفسه وقد قضى على ذلك الجنى المتشبث به ، ولكن على العكس من ذلك فاننا نرى أن الطريق الأول ممكن جدا . ولسنا نطمع فى الواقع فى أن نجعل جميع الناس ملهمين ، ولكن كل ما نطمع فيه هو أن ننشر الوعى الإلهامى إلى أقصى حد ممكن بحيث لا يضيع على من لديه استعداد إلهامى الإفادة من مواهبه التى جبل عليها ولا يضيع فى خضم المستهلكين لثمار الحضارة الإنسانية .

المهم هنا هو التأكيد على الإيمان بوجود ما يسمى بالإلهام ، والتأكيد فى نفس الوقت على أن الانسان ليس مجرد آلة تسجيل للخبرات وآلة سرد لنفس الخبرات التى سبق استقبالها . المهم أن يشيع الإيمان بأن الانسان كائن متميز بالقدرة على خلق الأفكار والأشياء الجديدة . وهذا الخلق أو هذه القدرة على الخلق ليست من ذات نفسه ، بل هى مستمدة من خارج إطاره . ومعنى هذا بتعبير آخر أن الانسان كائن ملهم. إنه كائن فيه نفحة إلهية تسمح له بأخذ قبس من القدرة على الخلق . ولكن ما نؤكده هو أن هذه القدرة الإبداعية لدى الانسان هى قدرة ليست فى مكنة الانسان ولا فى قبضته . إنها عطية توهب له خلال لحظات إلهامية معينة . فكل ما يستطيع الشخص القابل لتلقى الإلهامات عمله هو تهيئة ذاته لكى تكون قابلة للاستقبال الإلهامى . وقد سبق أن قلنا إن الإنسان الملهم كمحطة الاستقبال اللاسلكية التى يجب أن تتوافر بها شروط معينة حتى

يتسنى لها التقاط الإشارات اللاسلكية التى ترسلها محطة إرسال لاسلكية قريبة أو بعيدة عنها . والانسان الملهم بمثابة محطة إرسال حساسة تستطيع التقاط الرسائل الإلهامية التى توجه إليه .

فاذا ما تمكن هذا الإيمان من قلوب الناشئة ، وإذا ما آمن المثقفون بهذه الحقيقة ، فانهم عندئذ لا يتركون أنفسهم يرزحون تحت وطأة التلقى الثقافى ، ولا يجعلون من أنفسهم مجرد أوراق يكتب عليها الآخرون ما يشاءون ، بل تكون لهم ذاتيتهم الخاصة بهم ، وبحيث لا يرضون عن جعل أنفسهم مجرد نقلة لما سبق لغيرهم تقريره ، أو مجرد مستخلصين لثمار الحضارة الجاهزة التى تقدم إليهم ، بينما تكون عقول أخرى قد فكرت وقلوب أخرى قد شعرت وشعوب أخرى قد استحوذت واستأثرت بالفكر الإلهامى الأصيل .

والواقع أن الأديرة منذ نشأتها وحتى اليوم تضطلع بهذه الرسالة الإلهامية . ولعل مراكز البحوث العلمية هى بمثابة تطوير أو استشفاف لتلك المؤسسات الدينية ولكن بغير أن تكون مرتدية الزى الدينى . والمهم فى الأديرة — وهو ما يجب توافره فى المراكز العلمية — توفير مناخ مناسب للتأمل وتلقى الإلهام . ولعل من المشكلات الخطيرة التى تجابه معظم المفكرين فى عصرنا هذا هو التشتيت الحضارى . فما أن ينبغ المرء بعض النبوغ حتى يجد نفسه وقد بدأ يستقطب بتشتيتات متباينة . فكم من أستاذ جامعى ذو شباب متدفق قد استهلكت عبقريته المحاضرات والمذكرات التى يعدها للطلاب؟ ناهيك عن الاجتماعات التى عليه حضورها ، والتليفون بالبيت والكلية الذى يلاحقه بلا هوادة . إنه لا يكاد يجد وقتا يعكف فيه على ذاته يتأمل . ونحن هنا نقول « يتأمل » ولا نقول « يقرأ » . فالقراءة وإن كانت ضرورية وسابقة على التأمل ، فانها كثيرا ما تحول بين المرء وبين التأمل ، أو قل إن كثيرا من الدارسين يكتفون بالتحصيل دون التأمل . ولا شك أن التأمل هو الإعداد الذهنى الذى لا مناص منه لتلقى الإلهامات فى الموضوع الذى يتأمل فيه المرء . وهل كان يتسنى

لديكارت أن يكتشف منهجه فى التفكير إلا بفضل لحظات تأمل خلالها وانصرف فيها عن الناس منزويا بعيدا عن الضوضاء وعن العلاقات الاجتماعية وعن تشتيتات الحضارة ؟ وهل كان لديكارت أن يسمى بأبى الفلسفة لو أنه كان قد اقتصر على تحصيل ما بين طيات الكتب لوقته ؟

المطلوب إذن حتى يعيد الانسان اكتشاف ذاته أن يتخلص من الارتباطات المشتتة الكثيرة التى تحيط به ، وأن يوفر لنفسه بعض الوقت أو قل كثيرا من الوقت للتأمل الذاتى ولاستشفاف ما يمكن استشفافه من أمور فى مجال اهتمامه . ولعلنا بغنى عن تكرار ما سبق أن قلناه من أن العظماء لم يقعوا على ما وقعوا عليه من مكتشفات أو أفكار أصيلة وهم فى لجب الحياة وصخبها . فالفراغ ضرورى للإنسان حتى يتهيأ لتلقى الإلهامات الجديدة . وينبغى أن يتوافر الفراغ — ونعنى هنا الفراغ حتى من اللهو ومن التسلية ومن جميع الضغوط الحضارية المتباينة ومن بينها الاذاعة والتلفزيون — حتى يتسنى تهيئة الذهن تهيئة مناسبة لتقبل الإلهامات .

على أن الفراغ الذى نبتغيه ليس من السهولة بمكان . ذلك أن معظم الناس إذا ما فرغوا إلى أنفسهم ، فانهم يكونون فى خلواتهم أكثر ارتباطا بالناس وبمشاغل الحياة مما لو كانوا بين الناس وفى ضجيج وصخب الحياة . فالفراغ الذى نبتغيه ليس فراغ المهموم والمشغول بما حدث ، وليس فراغ من يأخذ فى اجترار الأحداث التى وقعت له أو للآخرين ، بل هو فراغ البال الكامل والحصول على نوع من الصفاء النفسى والخلو من الكدر والاستحواذ على حالة نفسية تتسم بالهدوء وراحة البال . إنه فراغ بمعنى اطراح الواقع من حولنا اطراحا تاما وبلوغ حالة نفسية معينة يصعب وصفها . فهذا النوع من الفراغ هو الأرض الخصبة للتأمل والانكباب على الأفكار . والواقع أن المتمتع بمثل هذا الفراغ الخالى من التوترات النفسية يجد نفسه فى غمرة أفكار ومشاعر ووجدانات وإرادات جديدة تسوقه سوقا وتستولى عليه استيلاء . إنه يصير فى تلك اللحظات بمثابة

أداة خاضعة لما يفرض عليها . ولكأن كائنا روحانيا قد تلبس بالملهم في تلك اللحظات وقد أخذ يلقنه الأشياء التي يبغي تلقينها له .

ولعل أقصى ما نطمع فيه هو أن تتوافر بين ظهرانينا مجموعة من المفكرين الملهمين الذين لا يطمعون في شهرة أو جاه ، وقد نقلوا مركز الثقل إلى دخائلهم لا يشغلهم شاغل ولا تأخذ برقابهم هموم .

الزيغان الحضاري :

سبق أن قلنا إن الحضارة نشأت أول ما نشأت فكرا وشعورا ووجدانا وإرادة في دخيلة الانسان ثم استحالت إلى ثمار خارجية واقعية تتبدى في المؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي صارت بدورها ذات قوام مستقل عن الانسان ، ومن ثم فانها أخذت بخناقه واستولت على تحركاته ، بل إنها عملت على إلجام عقله وشعوره ووجدانه وإرادته . ونحن نعتقد أن إيمان الانسان الحديث الحضاري بأن الثمار الحضارية هي الخليقة بالاعتبار وأن واجب الإنسان أن يسلم مقاليده لتلك الثمار ، إنما هو بمثابة زيغان وانحراف عن روح الحضارة التي خلقت الحضارة نفسها . وأكثر من هذا فاننا نعتقد أن ثمة خيانة قد وقعت من جانب الإنسان ضد نفسه وضد جوهر وجوده عندما أعطى الأولوية لثمار الحضارة بينما جعل الثانوية لروح الحضارة . ومن ثم فان جسم الحضارة يكون قد سيطر على روحها ، بل إن ذلك الجسم يكون قد جرد الحضارة من جوهرها المجدد لأنسجتها ، والموجه لدفتها .

ولقد نتج عن هذا الزيغان الحضاري نتائج وخيمة على الإنسانية . فنحن اليوم لانجد هدفا أو فلسفة لحياة الإنسان الحديث الحضاري . وأكثر من هذا فان الأهداف الحضارية صارت غير محددة . فاذا قيل إن الحضارة تعرف طريقها وهو استثمار الإمكانيات المتاحة إلى أقصى درجة ممكنة ، فاننا نرد بأن مثل ذلك الاستغلال الحضاري للإمكانيات المتاحة قد أفضى إلى ما يشبه حافة الهلاك . ذلك أن الانسان في استغلاله للطبيعة وسيطرته

عليها قد آذاها وأفقرها ولوثها ، وصار بمثابة من يهلك نفسه بشهد سام مبيد للحياة أو مميت لها ببطء . ولعل الانسان برغم ما يزعمه لنفسه من حكمة وحصافة يكون هو الكائن الوحيد الذى لم يستطع الحفاظ على الجنة التى خلقت له . ونحن لا نعنى الجنة التى كان بها ثم سقط منها بعد الخطيئة ، بل نعنى الجنة الأرضية التى ترمز الجنة الأصلية لها . فالأرض عندما كانت بكرا قبل استنزاف الانسان لها كانت تقدم إليه الخير طواعية . ولكن طموح الانسان فى السيطرة والتحكم والاستغلال قد دفع به إلى التفكير فى استذلال الأرض التى يعيش عليها . فأخذ فى إرهاقها بكثرة الزرع وبكثرة التفكير فى تطويرها . فأخذ يغير نظام الطبيعة . فصار يتحكم فى الأنهار بل وفى التربة وذلك عن طريق الكيمياء وغيرها من وسائل ضارة فى حقيقة الأمر .

وبانقضاض الانسان على الطبيعة وتحكمه فيها لم يكن فى وسعه سوى تدنيس الأرض وإصابتها بالتلوث ، ناهيك عما أخذ الانسان فى الإقدام عليه من استخدام للسموم يهلك بها خصومه ، وعلى رأس تلك السموم تلك الأسلحة النووية التى صارت وبالا على الإنسان والحيوان ، بل وصارت وبالا على المناخ نفسه وعلى مستقبل الطبيعة والحياة على الأرض . ولعل طموح الانسان التدنيسى قد خرج به من حيز الكرة الأرضية لكى يصل إلى الكواكب الأخرى ، فأخذ فى تدنيس الفضاء الخارجى . ولقد نقول إن نزول أول إنسان على القمر وعلى سطح الكواكب الأخرى كان إيذانا بتدنيس القمر وتلك الكواكب ، وذلك بما يحمله إليها من أسباب التلوث الذى يفاخر الانسان بأنه اكتشفه .

وحتى عندما يعمد الانسان إلى مقاومة الأمراض والحفاظ على أكبر نسبة من المواليد ليتظموا أناسا يعيشون إلى أكبر سن ممكنة ، فانه نسى أنه بمثل ذلك الحفاظ قد عمد بغير إدراك من جانبه إلى تشجيع الضعفاء والواهنين والاستمرار بهم على سطح الأرض لكى ينجبوا أجيالا أضعف منهم وأوهن. ناهيك عن أن الانسان قد صار بمساعدة الطب والرقاية الطبية مقاوما لمبرد

الطبيعة على حد تعبير مالثوس ، ومن ثم فان التفجر السكانى قد حدث . فاختلت الموازنة الطبيعيه بين موارد الأرض الغذائية وبين سكان الأرض . وها هى إحدى الدولتين العظميين — أعنى روسيا — تشكو اليوم نقصا شديدا فى المحاصيل الزراعية . ناهيك عن المجاعات التى تهدد بقاعا كثيرة بالعالم بسبب فقدان التوازن بين عدد السكان وبين ما يمكن أن تجود به الأرض من محاصيل زراعية .

ومن الزيغان الحضارى — أو قل أول خطوة من خطوات الزيغان الحضارى التى خطاها الانسان — الإيمان المطلق بالمدرك الحسى ، والاعتماد على المدركات الحسية وحدها كأساس وحيد وضرورى للمعرفة دون غيره من وسائط معرفية . ولقد ترتب على الإيمان بالمدرك الحسى إيمان آخر بالعقل المنطقى أو المنطق العلى . فأطلق شعار خطير هو شعار السبب والمسبب ، أو العلة والمعلول ، بمعنى ضرورة إنحصار المعرفة الانسانية فى نطاق الواقع المحسوس . وبذا حرمت الانسانية نفسها من مصادر معرفية أخرى كانت تتمتع بها قبل أن تستولى الثمار الحضارية أو جسم الحضارة على روح الحضارة المنبثة أو المتأججة فى قلب الانسان .

ونستطيع القول إن الروح الأصيلة للحضارة الانسانية قبل زيغانها لم تكن تنحو إلى التجرد العقلى ،ولم يكن الانسان الحكيم هو الانسان الذى يفكر بعقله المنطقى ضاربا صفحا بالوجدان ، بل كان الحكيم هو ذلك الشخص الذى يحيا حياة روحية حقيقية . لم يكن يفكر بعقله دون وجدانه ، ولم يكن تفكيره الوجدانى أو وجدانه المستنير بنور العقل منفصلا عن حياته . لقد كان الانسان الحكيم يحيا فكره ووجدانه وإرادته بغير فصل للواحد منها عن العناصر الباقية من قوامه . وبتعبير آخر فان الانسان الحكيم كان يحيا بشكل كلى لا بشكل مجزأ أو مبعثر كما يعيش اليوم . ولعل المثل الأعلى فى هذا الصدد هو فيثاغورس الذى كان لا يرى انفصالا بين الرياضيات وبين الدين . لقد كانت الأرقام ترمز لديه أو كانت هى بذاتها كيانات وجودية حقيقية . كان العدد واحد مثلا هو الإله . وكانت القرينات

الرياضية وسيلة لديه ولدى تلاميذه لتنقية الروح . وكانت الصلة لديه واضحة بين ما يتناوله الإنسان من طعام وبين تأثير تلك الأطعمة فى القوام الروحى للمرء . ومن ثم فانه كان يحرم تناول بعض أنواع الأطعمة لما لها من أثر سيىء فى أخلاق الإنسان . ومهما يكن حكمنا على أفكار فيثاغوراس ، فاننا لا نستطيع أن ننكر حقيقة هامة واحدة هى الأخذ بمبدأ الكليانية أو التكاملية فى الحياة . فلم يكن ليجتزىء بجانب دون باقى الجوانب من قوام المرء ، بل إن الحياة ذاتها والوجود من حوله لم يكن سوى كائن حى كبير يجب الحفاظ عليه ويجب التعامل معه بما يجب له من الاحترام والتقديس .

وها نحن فى حال الزيغان الحضارى نجد أن الإنسان قد تفسخ وتجزأ ، وصار العقل مباينا للعاطفة ، بل إن البعض يعتبرون الوجدان قطاعا حقيرا بالشخصية يجب القضاء عليه . وأكثر من هذا فثمة فصل بين الواقع المعاش وبين الحياة الفكرية . وبذا حدث انقسام فى حياة الانسان الحضارى بين دخيلته وبين خارجيته . فصار يحيا حياتين وقد فقد ذلك التكامل الذى كان يتمتع به إنسان ما قبل طغيان الحضارة بين جوانب وجوده المتباينة . ومن جهة أخرى فان الإنسان الحضارى فى ظل الزيغان الحضارى قد صار عدواً للوجود من حوله وليس صديقا لذلك الوجود . والواقع أن المفارقة بإزاء هذه النقطة مفارقة خطيرة . فانسان ما قبل الطغيان الحضارى كان يعتبر نفسه ابنا للوجود . والابن البار يجب أن يلقى بنفسه فى أحضان أمه الطيبة ويجب عليه أن يقوم على خدمتها ، بل يجب أن يفنى فيها وأن يشاهد وجوده فى وجودها . أما الإنسان الحضارى فى ظل الزيغان الحضارى فانه يعتبر نفسه سيداً على الأرض وليس ابنا لها ، بل إنه يحاول قهر الأرض وامتصاص آخر نقطة من دمائها . فمثل ذلك الشعور الصوفى الذى كان يتمتع به إنسان ما قبل التسلط الحضارى كان يظل الإنسان بثوب من الحنان ، بل إنه كان يكفل له السعادة . ولعل أول خطيئة اقترفها الإنسان واستحق عليها الطرد من الجنة هى إحساسه بأنه متسلط على الأرض وليس ابنا لها .

ولقد نقول إن أول جريمة اقترفها الإنسان ضد أمه الأرض تتمثل فى قطعه لأول شجرة من الغابة أو ضربه للأرض بأول ضربة فأس .

ويمكن القول بأن الإنسان الحضارى قد فقد بسبب الزيغان الحضارى ما يمكن أن نصفه بفقدان التوازن البيئى والتوازن الإنسانى . فالزيغان الحضارى أفقد البيئة اتزانها وصارت الأرض مزعزعة تحت أقدام الإنسان ، بل إن ثمة ردود فعل أو ثورة سلبية تضطلع بها الطبيعة ضد الإنسان متمثلة فى تمردها عليه بعدم تقديم النتاجات الخصيبة التى دأبت على تقديمها إليه عبر ملايين السنين . أما عن فقدان التوازن الإنسانى فانه يتمثل فى الشقاء والاغتراب اللذين يستشعرهما الإنسان الحديث . لقد صارت شخصية الإنسان الحديث مفككة بل وثائرة بعضها على بعض . وأكثر من هذا فان الانسان الحديث قد فقد الشعور بقيمة الحياة . وهل هناك أخطر من فقدان الانسان الحديث لمعنى الجمال بعد أن مزق الطبيعة وفكك أوصالها ؟ لقد غلف الانسان الحضارى نفسه ببيئة صناعية زائفة فحرم بذلك من حضن أمه الطبيعة الدافىء ، وقد زاغ عن الطريق الخليق بالاتباع . وكيف يتسنى له استلهام تلك الأم التى تمرد عليها ومسخها وأزال ما فيها من جمال ؟

الفصل السابع

التربية والضغوط الثقافية

الأصل الحضارى للتربية :

هناك تفسيران أساسيان حول منشأ التربية بالمجتمعات الإنسانية: التفسير الأول يقول إن التربية نشأت أول ما نشأت من أجل ضمان استمرار الحياة وذلك عن طريق توريث الخبرات النافعة التى تجلب فائدة أو تبعد ضررا . فالكبار يعلمون الصغار الحرف والصناعات ووسائل الدفاع عن النفس والقنص واستخدام الأسلحة أيا كانت فى الحروب أو المعارك أو للأخذ بالثأر بين القبائل أو العشائر المتباينة . أما التفسير الثانى لمنشأ التربية فانه يذهب إلى أن التربية نشأت لا لاجتلاب فائدة أو لدرء ضرر ، وإنما نشأت من أجل دعم شخصيات الناشئة بالخبرات الروحية والعمل على إعداد الذات للنمو النفسى ولتفتيق المواهب الروحية بدخيلة الشخصية ، أعنى تلك المواهب الذهنية التى جبلت عليها .

وهكذا نلاحظ أن التربية قد وجدت تفسيرين متباينين لنشأتها : تفسير مادى نفعى ، وتفسير آخر روحى مطلق لا يرتبط بالمادة ولا بالمنفعة القريبة أو البعيدة . ونستطيع القول أيضا بأن التفسير الأول هو فى الواقع تفسير اجتماعى لمنشأ التربية ، بينما يتصف التفسير الثانى بالفردية ، أو قل إنه يقول إن التربية لا تعتمد — وفق هذا التفسير — على ما يشيع بين أفراد الجماعة من وسائل تفكير أو عمل ، بل هى تنحو إلى الفردية أو قل إلى التفرد . ذلك أن التربية الروحية تختص بكل فرد بحسب المواهب التى جبل عليها . وقل أيضا إنه وفقا للتفسير الأول فان التربية تصدر من الخارج — أى من الواقع الاجتماعى والمادى حول المرء — إلى دخيلته حيث يتدرب على كيفية

الارتباط بذلك الواقع الخارجي وكيف يتعامل معه بنجاح . أما التربية بالمعنى الثانى — أو وفق التفسير الثانى لنشأتها —فهى تربية تصدر من الداخل إلى الخارج ، أعنى من صميم الشخصية إلى تصرفاتها الخارجية . فالمرء — وفقا لهذا التفسير الثانى لمنشأ التربية — لا يتعلم شيئا من الخارج ، بل يتعلم من باطن نفسه ، أو قل إن كل ما يعمله المرء هو إعداد ذاته لما يمكن أن يستقبله من إلهامات لدنية .

ونحن نستطيع القول بأن منشأ التربية بهذا المعنى الثانى — هو الخليق بالذكر فى هذا المقام ، وهو المنشأ الحقيقى للتربية بالمجتمعات الإنسانية . والواقع أن ثمة ظروفا متباينة كثيرة قد ساعدت على نشوء التربية الروحية فى أول عهود الإنسانية من تطورها . ولعلنا نقول إن التربية النفعية —أعنى التربية وفق المعنى الأول الذى ذهبنا إليه آنفا — قد أتت فى سلسلة تطور الحضارة بعد أن سارت التربية الروحية شوطا بعيد المدى . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن التربية المادية النفعية كانت بمثابة الوحش الذى أخذ ينهش فى جسد التربية الروحية الإلهامية . وعلينا أن نبدأ باستعراض الظروف التى ساعدت على نشأة التربية الروحية الإلهامية فى المراحل الأولى من تطور البشرية .

هناك أولا الوفرة الاقتصادية . فلقد كانت الأرض فسيحة لا يشغل الإنسان بمجتمعاته القبلية سوى رقعة صغيرة منها . وكانت المادة الغذائية النباتية وفيرة ، كما كان القنص أيضا سهلا وميسورا بما كان متوافرا للانسان من رشاقة فى الحركة وسرعة فى الانقضاض . على أننا نعتقد أن الإنسان ظل لفترة طويلة من تطوره كائنا نباتيا لا يأكل اللحم . ولقد يكون أكله للحم فى بادىء الأمر قد نشأ نتيجة الغضب أو الانتقام . فأخذ يعتدى على الأناس الآخرين وعلى الحيوانات التى تؤذيه فيهاجم أعداءه وينقض عليهم بأسنانه وأظافره ويأكل من كل فريسة ما يأكل حتى يأتى عليها بقتلها . وبمرور الزمن انفصل أكل اللحم عن القسوة أو الانتقام ، وصار الانسان يجمع بين أكل النبات وبين أكل اللحم . والواقع أن وفرة الغذاء من حول

الانسان قد سمحت له بالبحث عن مجالات أخرى يفرغ فيها طاقته ، فأخذ يمارس التأثير فى الآخرين كما أخذ يبحث عن وسائل ذات فاعلية فى التأثير فانتهى إلى إمكان استشفاف وسائل نفسية غير مادية يمكن أن يؤثر بها ، وبدأ فى نقل ما اكتسبه من تلك الوسائل النفسية إلى بعض أفراد أسرته وبخاصة أولاده ضمانا لنفوذهم وقدرتهم على التأثير وإخضاع الآخرين لهم .

ثانيا — اتساع الرقعة وتنوع الأماكن التى يمكن أن يخلو فيها المرء مع نفسه كيفما يشاء وخلال المدة التى يريدها. لقد يقال إن الانسان فيما قبل الحضارة كان قطيعى السلوك. وهذا صحيح من وغير صحيح من ناحية ناحية أخرى. فهو صحيح بالنسبة للمراحل الأولى من مراحل التجمعات البشرية . ولكن ما أن استقرت الحياة وبدأ شعور الانسان بذاتيته حتى بدأ يفكر فى ذاته بعيدا عن الضغوط الاجتماعية من حوله . ولقد اكتشف لأول مرة فى تاريخ الانسانية أنه يستطيع أن يكون قويا بوسائل أخرى غير الوسائل القسرية المباشرة . وأكثر من هذا فانه يستطيع أن يستلهم قوى خارجية ذات طبيعة روحانية تمده بالقوة والجبروت .

ثالثا — وهذا يسوقنا إلى المناخ أو الظرف الثالث الذى سمح للإنسان بأن يكون ذا كينونة روحانية ، ألا وهو الاعتقاد بأنه كائن غريب عن الأرض ، وأنه ينتمى إلى عالم آخر غير العالم الذى يعيش به . إنه اعتقد تلقائيا بأن ثمة كائنات روحانية تحيط به وتؤثر فيه ويؤثر فيها ، وتتعاون معه أو تناهضه وتتربص به الدوائر . وأكثر من هذا فقد ساد عند الانسان القديم الاعتقاد بالحياتية animism ، أعنى أن لكل شىء روحا حتى ولو كان ذلك الشىء جبلا أو شجرة أو نجما . فالكون بمثابة كائن حى كبير . ولذا انتشرت عبادة الكواكب والجبال والبحار والأشجار والكثير من الكائنات الحية الأخرى . ناهيك عن الاعتقاد فى استمرار تأثير الموتى من الأسلاف فى الحياة الراهنة ، والاعتقاد فى التأثير الروحانى بالسحر أو بالدين فتقضى مصالح وتتعطل مصالح أخرى . فكان بمستطاع البدائى أن يجلب

الخير لنفسه وذويه وأن يحرم خصومه من الخير بالتأثير الروحانى عن طريق السحر وغيره من وسائل روحانية.

ونحن نعتقد أن التربية ظلت ردحا كبيراً من الزمن وهى مرتبطة بالروحانيات . ولكن النهج الذى سلكته الحضارة كان نهجا واقعياً مادياً . وساعد على هذا النهج ما ظهر من نجاح وفائدة ظاهرين نتيجة الضرب فى إثر المنهج العلمى، أو قل تسخير قوى الطبيعة قسرا لصالح الانسان. ولقد سبق أن أظهرنا كيف أن ما حققه الانسان من نجاح وما اجتناه من فائدة إنما كان مرتبطاً بالظاهر فحسب . أما الحقيقة فان الانسان قد ضرب تقدمه وازدهاره فى الصميم بعد أن أخذ فى استنزاف الأرض وبعدأن فقد مقومات حياته الروحية التى هى قوامه الأساسى فى وجوده على الأرض .

والبرهنة على ما نزعمه هنا من أن التربية قد بدأت بالروحانيات ما نلحظه من ذيوع التفكير الروحى والاعتماد على العقائد الدينية فى المجتمعات البعيدة عنا فى سلسلة تطور التاريخ ، بل إننا نلاحظ حتى اليوم أن المجتمعات البدائية والمجتمعات الأقل حضارة — بالمعنى المادى للكلمة — هى مجتمعات أكثر انكبابا على الروحانيات وأكثر استمساكا بالفكر والوجدان والتصرف المتسم بالمسحة الدينية أو السحرية .

وينصف الأنثروبولوجيون غير المتحيزين عندما يقررون بعد دراستهم للقبائل البدائية ولبعض الشعوب غير المتأثرة بالحضارة الغربيه الحديثة، عندما يقررون أن الظواهر الروحانية والأساليب السحرية موجودة بالفعل، وأن تأثير تلك الأساليب تأثير حقيقى ، وأن تلك الشعوب لا تقتصر على مجرد التسليم بوجود السحر والدين ، بل إنها تحيا حياة روحية حقيقية وأنها لا تقف موقف المتفرج من تلك الظواهر الروحية التى يشاهدها معتملة فى أواصل شخصيات الناس من حوله .

والواقع أن من يقولون إن التربية بدأت من أجل الحصول على منافع ودرء مضار فحسب ، إنما يتأثرون فيما يذهبون إليه عما يؤمنون به فى حاضرهم.

فهم يعتقدون أن التربية الراهنة تسعى لتوفير الرخاء للانسان وذلك بتعليمه حرفة أو مهنة ، كما توفر له الحماية والأمن وذلك بتجهيزه بفنون الحرب والدفاع عن النفس . فتفسيرهم لمنشأ التربية بالنفعية إنما هو فى الواقع عثابة إسقاط لما يشيع لديهم من اتجاهات راهنة . فهم يقيسون الماضى فى ضوء الحاضر متناسين الاختلافات والتباينات التى أصابت التربية واتجهت بها وجهة جديدة مباينة للوجهة التى بدأتها .

ونستطيع أن نخلص إلى القول بأن الانسان ظل منذ مراحل تطوره الأولى وهو متشبث بالروحانيات وقد ظلت معتملة فى حياته ، بل إنه كان يحيا وفقها . ولكن الحضارة قد زاغت عن طريق بدأت بالضرب فيه وقد أخذت تفضل المحسوس على الروحانى ، كما فضلت التفسير بالمباشر الواقعى بدلا من غير المباشر الروحانى وانتهت إلى ما انتهت إليه من إنكار لما هو روحانى وجعلت العقل مجرد وظيفة انعكاسية لما يصل إلى المخ من مؤثرات حسية . فالتربيه بدأت روحانية وانتهت مادية محسوسة تتشبث بالمقومات المادية .

الشكل والمضمون فى التربية :

قلنا إن منشأ التربية بالمجتمعات البشرية لم يكن مرتبطا بجلب المنافع ودرء المضار كما يعتقد الكثيرون ، بل كان مرتبطا بالشخصية الانسانية من حيث هى كيان ذو طبيعة خاصة تتسم بالروحانية ، ومن حيث هى قوام ذاتى يشعر بأنه مباين لما حوله ، وأن بمقدور ذلك القوام الذاتى أن يسيطر ويؤثر بطرائق أخرى غير الطرائق المباشرة . فالتربية فى نشأتها كانت تستهدف تفتيق الشخصية من الداخل . وبتعبير آخر فان التربية صارت تستهدف القدرات الروحية الذاتيه كهدف نهائى تسعى لاخراجه من حيز الكمون إلى حيز الواقع الحى .

والتربية فى أى عصر من العصور ومنذ نشأتها الأولى جانبان أساسيان : الشكل والمضمون . أما الشكل فانه يتعلق بالأساليب المستخدمة فى تربية الناشئة . أما المضمون فانه يتعلق بما تتضمنه تلك الأساليب من عناصر أو محتوى أو أنه يتعلق بما يراد التوصل إليه من نتائج .

ولنضرب أمثلة توضح الفرق بين الشكل والمضمون فى التربية . لنقل مثلا إن القبائل البدائية كانت تمرن أطفالها على استخدام الحراب فى القنص أو فى الحروب أو فى الدفاع عن النفس . فطريقة استخدام الحراب تتعلق بالشكل . أما المهارة أو التمكن من ذلك الاستخدام بنبوغ فانه يتعلق بالمضمون . ولقد نقول إن الشكل هنا هو الظاهر من العملية التى تمارس، أما المضمون فانه ما يترسب من خبرات فى دخيلة الناشىء أو المتعلم .

وقل نفس الشىء بالنسبة لجميع الأشياء التى يمكن أن تدخل فى باب التعلم . فكل شىء يمكن أن يتعلمه المرء فى أى مكان وفى أى زمان يتميز بهذين الجانبين الأساسيين ، أعنى الشكل والمضمون . وإذا نحن نظرنا إلى التربية من حيث نوعياتها ، فاننا نجد أن هناك خمسة أنواع أساسية تنقسم التربية إليها . النوع الأول — يتعلق بصنع الأشياء ، وذلك باعطاء الخامات صيغا أو أشكالا جديدة . والنوع الثانى — يتعلق باستخدام الأشياء بطرق معينة ووفق أساليب محددة . والنوع الثالث — خاص بالتأثير فى علاقات معينة بين كائن حى ما وبين بيئته بقصد الحصول على نتائج معينة . ومن ذلك استنبات النبات وتربية الحيوان وتربية الانسان . والنوع الرابع — خاص باستبعاد بعض العناصر المؤثرة بقصد استبعاد النتائج المترتبة على وجودها واعمالها . من ذلك اقتلاع الحشائش الضارة من حول بيئة النبات أو قتل الديدان التى تأكل أوراقه أو قتل الحيوانات المفترسة التى تهدد حياة الانسان . خامساً — إعداد المرء وفق شروط معينة يكون قابلا بعدها لاستقبال الالهامات التى يمكن أن يستشفها من أشياء حوله أو التى يمكن أن توجه إليه من أشخاص آخرين أو من كائنات روحية مجردة .

ولعلنا نجد فى جميع هذه الأنواع الخمسة الجانبين الأساسيين للتربية ، أعنى الشكل والمضمون . ونعود فنؤكد أن الشكل هو الظاهر البادى للعيان من الوسائل المستخدمة . أما المضمون فانه يتمثل فيما يترسب بالشخصية من عناصر أو مقومات تصير من لحم الشخصية وكيانها الأصيل . ويهمنا

فى هذا المقام أن نركز كلامنا على النوع الأخير من التربية ألا وهو النوع الالهامى .

والواقع أن الشكل فى النوع الالهامى من أنواع التربية الخمسة يقف عند حدود إعداد الذات لتلقى الالهام أما المضمون فى هذا النوع من التربية فانه يتمثل فى النتائج المترتبه على اعداد الذات لتلقى الالهامات . ونحن لا نعتقد أن تلقى الالهامات يشكل نتيجة حتمية لاعداد الذات . ذلك أن تلقى الالهام لا يخضع لقانون العلة والمعلول كما هو الحال فى تعلم قيادة السيارة مثلا . ففى هذا النوع الأخير من التعلم أو التدرب ، فاننا نجد أن مجرد توافر الشروط العصبية فى الجهاز العصبى للمرء عن طريق تكرار عمليات بعينها إنما يضمن إتقان القيادة . فمن المعروف أن اكتساب المهارات المتباينة يفسر فى ضوء اكتساب مواصفات عصبية معينة بالجهاز العصبى . بيد أن الفرق بين العلة والمعلول فى المهارات — كمهارة قيادة السيارة مثلا — وبين العلة والمعلول فى الظواهر الطبيعية يبدو فى الفرق بين الامكان وبين الحتم . فغليان الماء فى درجة مائة مئوية تحت الضغط الجوى العادى (أى تحت ضغط ٧٦ سم من الزئبق) هو ظاهرة حتمية بمعنى أن وجود الماء معرضا للنار وفى ظل الضغط الجوى العادى يتم غليانه بغير تخلف فى درجة مائة مئوية . أما قيادتك للسيارة بعد تعلمك لقيادتها فانه يكون شيئا ممكنا وليس شيئا محتوما عليك . فليس مجرد جلوسك فى سيارتك أمام عجلة القيادة وقد تعلمت فن القيادة يعنى حتمية قيادتك لها . ولكن هذا يعنى إمكان قيادتك لها فحسب .

ولعلنا نبدأ بمدارسة الشكل فى التربية الالهامية . إننا نجد أن هذا الشكل يتبدى أكثر ما يتبدى فى القدرة على تجميع شتات النفس والتخلص من عوامل التشتيت وابعادها من حول المرء . ذلك أن من ألد أعداء القابلية لتلقى الالهامات الوقوع تحت تأثير عوامل التشتيت . ونحن لا نقصد هنا عوامل تشتيت الادراك ، بل نقصد عوامل تشتيت انسجام العقل والوجدان بدخيلة المرء . فثمة علاقات متباينة يمكن أن تقوم بين عقل المرء ووجدانه لقد يسيطر الوجدان على العقل . أو قد يسيطر العقل على الوجدان . ومن

جهة ثالثة قد يتواكب العقل والوجدان أو يتحدان في سياق واحد فلا يكون بينهما تباين ، بل ولا يكون أحدهما مسيطراً على الآخر أو مستبداً بحقوقه . وما يهمنا توافره هنا لكي يتسنى أن يكون المرء قابلا لتلقى الالهامات أن يتمتع بهذه الحالة الأخيرة . فانسجام العقل والوجدان لا يتحقق بأى حال لشخص لا يحاول تحقيق الهدوء الداخلي لديه ، وقد ذب عن نفسه عوامل التشتيت وفقدان الاستقرار والتوافق النفسي بين الفكر والوجدان .

ولسنا نشك في أن مثل هذه المصالحة الداخلية بين العقل والوجدان لا يمكن أن تتأتى للمرء إلا إذا هو دأب على البعد عن عوامل الاقلاق وتشتيت الذهن . ولعل من أعدى أعداء الانسجام الداخلي المخاوف والهموم والشكوك والوساوس والترقبات وجميع أنواع التعلق بالأشياء والأشخاص . وباختصار فان من يريد إعداد نفسه لتلقى الالهامات لابد له أن يوفر لنفسه مناخا داخليا معينا . ومن الطبيعي أن نعترف بأن هناك تأثيراً ذا بال للبيئة الخارجية المحيطة بالمرء في بيئته الداخلية . وأكثر من هذا فثمة تأثير بعيد المدى للخبرات السابقة التي اكتسبها المرء منذ نعومة أظفاره ، بل وأكثر من هذا فان العوامل الوراثية لها أيضا تأثيرها في مسار الشخصية ، وفي مدى استعدادها لتهيئة نفسها لتلقى الالهامات .

ومن المؤسف أن إنسان الحضارة لا يكاد يعترف بأهمية التأمل في حياته . فهو يجعل من نفسه مجرد جهاز استقبال لما يصدر إليه من الخارج من مؤثرات . فما على المرء في ظل الحضارة إلا أن يتأثر بما يدور حوله وبما يوجه إليه ، وأن يضطلع بما يطلب إليه أداؤه . وبتعبير موجز فان الإنسان الحديث لا يجعل من نفسه عاملا مؤثراً بل يجعل منها قطباً متأثراً . والواقع أن الإنسان القديم الذى كان يتلقى الالهامات كان دائباً ومواظبا على تأمل دخيلته لقد كان يجعل الداخل مسيطرا على الخارج ، بل إنه كان يستمد خبراته من الخارج لا لكي يخضع لها ، بل لكي يخضعها لإمرته ، ولكي يستوعبها ويمتصها ويحيلها نسيجاً من نسيجه ولحما من لحمه .

وعلى هذا نستطيع القول بأن التربية الالهامية من حيث الشكل الذى تتلبس به هى تربية وادعة هادئة تحرص على عدم إلحاق تغيرات بجوهر المرء والبعد به عن الزيف الحضارى . والواقع أن ما ابتليت به الشخصية الحضارية هو ما تتلبس به من صيغ وأشكال وما تضعه على وجهها من أقنعة . وليس غريبا أن تستمد كلمة شخصية فى اللغات ذات الأصول اللاتينية مثل الأنجليزية ، أعنى كلمة Personality من كلمة لاتينية هى Persona ومعناها القناع الذى كان يرتديه الممثلون على خشبة المسرح لتغيير شخصياتهم الحقيقية وإحلال شخصيات أخرى محلها . وهذا فى الواقع شاهد على أن الشخصية الحضارية فى حياتها اليومية وفى علاقاتها الاجتماعية إنما تتسم بالزيف والبعد عن إنية الشخصية وعن جوهرها .

ولعل التربية الالهامية أن تبدأ بخلع الأقنعة الزائفة عنها وأن ترجع إلى حقيقة وجودها وإلى جوهرها الحقيقى . ولكن هل هذا من السهولة بمكان ؟ الواقع أن لا . ذلك أن الحضارة تبدأ فى تزييف شخصية المرء منذ نعومة أظفاره . فما أن يولد الطفل حتى يتسلمه المربون بدءا بالوالدين بالتزييف وذلك بما يلقنونه من قيم تبعد به كثيرا أو قليلا عن الطبيعة الحقيقية للإنسانية . ولعل الكثير جدا مما يندرج تحت الأعراف والتقاليد والأخلاق لا يعدو أن يكون بالتالى كرقعة فى ثوب مباينة لنسيجه الأصلى . من هنا فان التربية الالهامية تسعى جاهدة لتفتيق الشخصية من دخيلتها بحيث لايكون همها الأول والأخير هو صياغة الشخصية وفق مواصفات معينه مسبقة ، بل يكون همها الأكبر والأول هو إحالة الكامن فى مقوماتها إلى واقع سلوكى . صحيح أن هذه التربية لا تتنكر للخبرات المكتسبة ، ولكنها تحذر من أن تصير الخبرة المكتسبة بمثابة طوفان يغمر الشخصية ويغرقها فى لجة بلا قرار . فاذا ما تحقق للشخصية ذاتيتها ، فانها تكون بعدئذ مستعدة لاحراز مضمون التربية الإلهامية ، أعنى أنها تكون مستعدة بعد ذلك لتلقى الإلهامات المتباينة .

التعليم يقذف بالتربية بعيداً :

ثمة خلط في الواقع كثير في استخدام كلمتي تعليم وتربية . فلقد يظن البعض أن تعليمك لابنك هو تربية له في نفس الوقت . والواقع أن التعليم يشكل دائرة أو نطاقا ، بينما تشكل التربية دائرة أو نطاقاً آخر . صحيح أن هاتين الدائرتين أو القطاعين قد يتداخلان أو حتى يتطابقان ، ولكنهما من الجهة الأخرى قد يتباعدان وينأيان بعضهما عن بعض تمام التباعد والتنائي . ولكي تتضح الصورة أمامنا لابد أن نحدد مفهوم التعليم من جهة ومفهوم التربية من جهة أخرى . نقول إن التعليم يتعلق بالوقوف على ما يقع خارج المرء لمعرفته أو للتدرب عليه . وبهذا التعريف الموجز السريع نقول إن جميع العلوم والمعارف والمهارات تقع في مجال التعليم . فنقول إننا نعلم أبناءنا الكيمياء أو أننا ندربهم على تعلم مهارة الكتابة على الآلة الكاتبة . أما التربية فإنها تفتيق الشخصية من الداخل ، أو بتعبير آخر هي إحالة الممكن من المواهب والقدرات والاستعدادات إلى واقع ، أو هي إخراج أو تنمية بذور الشخصية بحيث تصل إلى أقصى حد ممكن أو متاح لها من النمو . وبتعبير أرسطو فإن التربية هي إحالة ما هو موجود بالقوة إلى ما هو موجود بالفعل . فكما أن البذرة تستحيل إلى شجرة عن طريق تربيتها بإحاطتها بالمؤثرات المناسبة ، كذا فان تربية الشخصية في جوانبها المختلفة أعني الجانب الجسمي والجانب العقلي والجانب الوجداني والجانب التعبيري والجانب الاجتماعي — إنما تتحقق باحاطة الشخصية بالمؤثرات المناسبة لكل جانب من هذه الجوانب الخمسة .

ولقد يعترض معترض على كلامنا هذا بأن تعلم الموسيقى مثلا — والموسيقى من الجوانب الثقافية الموضوعية — إنما هو تربية للوجدان في نفس الوقت . ومعنى هذا أن تعلم الموسيقى هو تربية وجدانية في نفس الوقت . والواقع غير هذا . ذلك أنك ربما تعلم بعض الناس الموسيقى ولكنك لا تكون بذلك قد ربيت فيهم الناحية الفنية الوجدانية . وقد تعلم بعض الناشئة الحساب والجبر وباقي العلوم الرياضية ولكنك مع ذلك لا تكون قد ربيتهم

تربية ذهنية منطقية . ولقد تعمد إلى تدريس الأدب بفروعه المتباينة للتلاميذ والطلاب ولكنك لا تكون بذلك قد أعددت منهم شخصيات مؤدبة ومصقولة أدبيا . وكذا قد نعلم الطلاب الكثير من العلوم الطبيعية ، ولكنك مع ذلك تكون قد افتقدت تربيتهم تربيةواقعية تجريبية .

ومعنى هذا أن تعليم العلم للناس ، أو تدريبهم على المهارات المتباينة لا يضمن بأى حال تربيتهم أو تفتيق مواهبهم وجلو الخبيء أو المطمور فى أغوار شخصياتهم من استعدادات مستخفية .

ومعنى هذا فى الواقع أن تعلم العلوم والتدرب على المهارات قد يصل بالمرء إلى تفتيق مواهبه وإبرازها من حيز الكمون إلى حيز الواقع ، وقد لا يصل به إلى ذلك . وأكثر من هذا فان التعليم بهذا المعنى الذى سقناه أو تعلم العلوم والتدرب على الفنون العملية قد يعزف بالمرء وينبو به عن تفتيق ما بدخيلته من استعدادات . فكم من شخص لديه استعدادات ومواهب أدبية فذة ولكن التعليم ووسائله المدرسية قد أعاقه عن اكتشاف مواهبه المطمورة ، وقد أعماه عما يعتمل بداخله من عبقرية . ويحضرنا هنا ما حدث للعالم أينشتين الذى لم يبد عبقرية ملحوظة فى سنى حياته الأولى . فهو لم يبدأ فى الكلام إلى أن بلغ الثالثة من عمره . وفى المدرسة الثانوية وجد صعوبة شديدة فى التواؤم مع التعليم الذى كان يعتمد على الاستظهار والتدريبات الحسابية وقد كان يتخذ موقفاً ثائراً مما جعل واحداً من مدرسيه ينذره بأنه فاشل فى دراسته لا محالة وأن مستقبله سيكون وخيما وعندما قرر بعد فترة أن يسجل اسمه بالمعهد الفدرالى السويسرى الشهير بزيورخ ، فانه رسب فى امتحان القبول بسبب ضعفه فى علم النبات وعلم الحيوان ، وبسبب ضعفه أيضاً فى اللغات الأجنبية .

ولدينا فى الواقع قصص عديدة تشير إلى أن التعليم بمعنى تكريس أو تشريب الخبرات الموضوعية للناشىء لا يضمن بالضرورة تربيته وإحالة الكامن لديه من مواهب إلى واقع حى فى حياته . وهذا أكبر

شاهد على ما نزعمه هنا من أن التعليم مباين تماما للتربية وإن كان التعليم والتربية يتداخلان أحيانا ويتطابقان أحيانا أخرى . ولقد نخلص إلى ثلاث حالات بإزاء هذه النقطة . الحالة الأولى — أن التعليم والتربية يمكن أن يتطابقا تمام التطابق . وفي هذه الحالة فان تعليمك لطفلك يكون في نفس الوقت تربية له . أما الحالة الثانية ، فهي أن جانباً من التعليم يكون في نفس الوقت داخلا في نطاق التربية . أما الحالة الثالثة فانها انفصال الدائرتين بعضهما عن بعض وعدم تداخلها بعضها في بعض . وهذه الحالة تشير إلى عدم حدوث أي تفاعل بين ما يتم تعليمه للمرء وبين ما يوجد بداخيلته من استعدادات ومواهب وإمكانيات لم يقيض لها التحقق في الواقع الخارجي .

ونستطيع أن نزعم في الواقع أن الحضارة الإنسانية بتعقداتها قد أشاحت تماما أو تقريباً عن التربية وقد ركزت على التعليم أو كادت . فالأطفال في سن معينة يساقون زرافات سوقا لكي يتم تصنيعهم فيما يسمى بالمدارس ودور التعليم وفق مواصفات معينة . ولعل تلك المواصفات تتجلى في المناهج الدراسية التي ترسم في ضوء مفاهيم عامة عن الخصائص البادية للعيان لتلك السن . ولكن من المؤكد أن تلك المواصفات العامة لا تشير من قريب أو من بعيد إلى الخصائص التفردية التي يتسم بها فرد بعينه ولا يتسم بها أي فرد آخر من أفراد المجموعة . ناهيك عن الوسائل التي يمكن أن تصلح في التعامل مع واحد من الأطفال بينما لا تصلح لغيره. وبتعبير آخر فان المدارس والمعاهد والكليات تخاطب مجموعات المتعلمين ولا تخاطب أفراد المتعلمين . وأكثر من هذا فانها تضع نصب عينيها الأشياء الموضوعية التي تسعى لتعليمها لأولئك الناشئة بغض النظر عن الميول والرغبات . فالنظرة الأحادية أو التطابقية هي السائدة بحيث إن من لا يتطابق من الدراسين مع ما يقدم إليهم — أعني المنهج — ورسب في امتحان آخر العام ، فانه يعتبر إذن شخصا متخلفاً لا يستحق التقدير .

وواضح أن التعليم لا يعترف بأى حال بما يسمى بالإلهام . وحتى إذا ما ألهم أحد الطلبة بشيء جديد فان الجديد الذى يقدمه يعتبر بمثابة هرطقة أو بدعة يجدر محاربتها حيث لا يكون هناك مكان لها فى المقرر المعترف به من المسئولين . وهكذا نجد أن التعليم يحارب الإلهام ويقف له بالمرصاد حتى لا يبدو فى حياة الناشئة . فما هو مقرر يدرس . ولعل السؤال الذى يدور على ألسنة الأساتذة باستمرار حتى فى الجامعات هو : من أين أتيت بهذه المعلومات ؟ ذلك أن المطلوب من الطالب أن يعتاد الاستناد إلى مرجع موثوق به . فما يقوله الكبار جداً من العلماء هو الموثوق به . أما الصغار فان مجرد اجترائهم على الخروج على المألوف أو المعترف به يعد خطيئة لا تغتفر . ولعلنا نذكر بقصة جاليليو الذى ذاق الأمرين عندما خرج على تعاليم أرسطو بخصوص الجاذبية الأرضية . فلقد كان أرسطو يقول إن الجسم الأكبر وزنا يصل إلى الأرض قبل الجسم الأقل وزنا إذا ما ألقى بهما فى وقت واحد من ارتفاع ما . فلما تحدى جاليليو هذه النظرية وأسقط جسمين متباينى الوزن من فوق برج بيزا ووصلا إلى الأرض فى وقت واحد ، فان العلماء الذين وقفوا لتسفيه فكرته لم يصدقوا أعينهم وصدقوا ما ورد بكتب أرسطو .

ولعل جان جاك روسو قد أحس عما نحس نحن به هنا ، فأراد أن يعود الإنسان إلى أمه الطبيعة يستلهمها لأنها الخليقة وحدها بالترجمة عما فى نفسه من مواهب مطمورة . وقد زعم بحق أن الحضارة والمؤسسات التعليمية ليست حقيقة بهذه المهمة . فالتعليم السائد بالمدارس والجامعات لا يضمن تربية المرء . وكل ما يمكن أن تفعله تلك المدارس والجامعات بوضعها الراهن هو تزييف شخصيات الناشئة والبعد بهم عما يمكن أن يخالجهم من إلهامات . ولقد سبق أن غبطنا الأولين الذين كان لهم حظ التأمل واكتشاف ذواتهم وتربيتها بغير ضغوط ثقافية وحضارية تعمل حاليا على مسخ الشخصيات والعزوف بها عما جعلت له ، وعما جبلت عليه من إمكانيات واستعدادات .

وبتعبير آخر فان الحضارة الإنسانية بوسائلها التعليمية — ولا تقول وسائلها التربوية — قد حرمت المرء من الحرية فى اختيار الخبرات التى تغذيه . وكيف يتسنى ذلك وقد تعقدت الحضارة وصار الإنسان الحديث غريبا على هذه الأرض ، بل وقد صار غريبا حتى عن نفسه ؟ أليس الاستمساك بالموضوعات الخارجية دون المقومات الذاتية أكبر دليل على ما يعانيه الانسان الحديث من اغتراب ؟ إنه لا يستطيع تذوق مايقدم إليه لأنه لا يتجانس مع ما جبل عليه ، كما أنه أجبر على الابتعاد بل والاستنكار لذاتيته ولما يعتمل بداخله ، فصار خصما للخارج والداخل جميعاً ، وصار غريبا عن خارجه وعن داخله فى نفس الوقت . ومخلوق هذا شأنه يكون بالتأكيد شقيا بائسا . ومن المؤكد أنه يكون كمن عصبت عيناه حتى لا يرى الحقيقة التى تتبدى أول ما تتبدى فى ذاته . ومتى جهل الإنسان ذاته ، فإنه لا يستطيع أن ينميها وينضجها بالالهامات التى تغذى ما أعد له بداءة بالفطرة .

القسر التربوى :

قمنا فى الموضوع السابق بالتميز بين التعليم والتربية . وقد أقمنا الفاصل بينهما على أساس أن التعليم يركز الاهتمام على الموضوعات الخارجية سواء كانت أشياء يتم إدراكها وفهمها أم كانت مهارات يتم التدرب عليها وممارستها بطريقة شبه آلية . أما التربية فانها تهتم بجانب أو أكثر من الجوانب الداخلية بالشخصية . فنحن نصف اكتساب المهارات الموسيقية بأنه تعليم . ذلك أن للموسيقى قواعدها الموضوعية والعامة التى يجب على كل من يرغب فى استيعاب مهاراتها أن يكتسبها بالخضوع لمقرراتها . أما التذوق الفنى فانه يعتمل بدخيلة الشخصية ، ولا يهم إذا كان الموضوع الذى يستعان به لاكتساب التذوق الفنى الجمالى موسيقى أو رسما أو نحتا أو حتى مجرد تأمل الطبيعة والتناغم معها واستشفاف ألحانها المرئية الصامتة أو ألحانها المسموعة فى شقشقة العصافير

أو صفير الرياح أو هدير الأمواج أو مواء القطط أو غير ذلك من أنغام .

ولقد سبق أن ذكرنا أيضاً أن التربية فى أول نشأتها كانت مرتبطة بحاجات الإنسان الحقيقية ، وأنها بدأت من دخيلة المرء وكانت سدا لحاجاته الحقيقية . ولكن ما أن تعقدت الحضارة وتشعبت حتى ظهرت مطالب وخصائص جديدة مستحدثة يراد تحقيقها بالشخصيات الناشئة . وحيث إن الحضارة فى انحرافها وبعدها عن الطبيعة الإنسانية ، وقد استحالت إلى إطار بيئى غريب يجبر بنى الانسان على الانخراط فيه ،وقد صارت بمثابة كائن حى عجيب يقسر الانسان على الانسجام مع متطلباته ، فان التربية التى تريدها الحضارة — أو ذلك الكائن الغريب القاسى — صارت بدورها تربية شاذة ومصطنعة ، بل وصارت مفارقة وبعيدة كل البعد عن مطالب وحاجات الطبيعة الإنسانية .

وهذا مانسميه بالقسر التربوى . فالمجتمع الانسانى الحضارى لايكتفى بتشريب وتعليم الأجيال الجديدة المعارف والعلوم والمهارات الموضوعية بل إنه يعمد إلى صياغة شخصيات الناشئة وفق مواصفات محددة . ولكأن المنشآت التربوية قد صارت مصانع تصنع بها الشخصيات ، ولكأن الطفل بمثابة خامة يراد تصنيعها ، بل — استغفر الله — يراد مسخ ما جبلت عليه وتغيير خصائصها الحقيقية وكسبها لخصائص جديدة مباينة تماما لما جبلت عليه . ولعل المعركة الناشبة والمحتدمة حالياً بين فلاسفة التربية هى معركة بين فريقين متنافرين : فريق منهما يطالب بضرورة صياغة الناشئة صياغة جذرية وفق المطالب الاجتماعية التى يريدها المجتمع ، وفريق آخر ينادى بالتخفيف من غلواء المجتمع ،وذلك باعطاء فرصة كافية لكى يعبر كل فرد عما جبل عليه . وبتعبير آخر فان الفريق الأول هو فريق الكليانيين أو الجمعيين ، والفريق الثانى هو فريق الفرديين . ولعل الدكتاتورية هى المنافح عن الكليانية أو الجمعية فى التربية والسياسة جميعاً ، ولعل

الديموقراطية هي المنافح عن الفردية والتعبير الفردى فى التربية والسياسة أيضاً . ولكن الواقع أن أشد الديموقراطين ديموقراطية يتقهقرون ببطء أو بسرعة أمام التقدم المذهل لحضارة بما تتذرع به من تكنولوجيا وفنون فى صياغة الأفراد والمجموعات الصغيرة والكبيرة . ولا شك أن أشد وطأة وقعت تحتها المجتمعات البشرية المتحضرة هى وطأة آلات الكومبيوتر التى بدأت بوادرها فى الزحف إلى المجالات الانسانية . فوسائل التعليم الحديثة التى تعتمد على التأثير المباشر فى عقل الفرد قد أخذت فى إبعاد الفردية والفروق الفردية بين الأفراد مع ضربهم جميعاً أو ختمهم بخاتم واحد غير متغير . والخوف كل الخوف أن تتمكن الحضارة من التغلب على مشكلة الارثات بحيث يكون فى وسع الممسكين بزمام السلطة تحديد الخصائص المطلوب توافرها فى الناشئة وتحقيقها لا عن طريق الاقناع والاستمالة ، بل عن طريق التحكم فى المقومات البيولوجية وقهر العقبات الإرثية التى ظلت الانسانية خاضعة لها منذ أن وجد الانسان وأحس بوجوده على الأرض ، شأنه فى ذلك شأن باقى الكائنات الحية الأخرى الحيوانية والنباتية .

بيد أن من الجلى أن الحضارة كلما أوغلت فى التقدم فانها تنجح بالتالى فى تغيير طبيعة الأشياء . ولعلنا نستطيع تقسيم تاريخ الحضارة الانسانية إلى مرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى — كان يعمد خلالها الناس إلى محاولة تكييف أنفسهم وتكييف الكائنات الحية الحيوانية والنباتية للظروف البيئية المحيطة . أما المرحلة الثانية — وهى المرحلة التى بدأت حديثاً — فانها تتسم بمحاولات دائبة لتغيير الطبيعة ذاتها . ويتبدى هذا أكثر مايتبدى فى المحاولات الحديثة لقهر الإرثات وإدخال إرثات جديدة لم تكن موجودة من قبل فى تكوين الجنين ، أو حتى لدى الطفل بعد ميلاده .

ولقد يصح لنا إن نقول إن التربية والطب فى سبيلهما إلى التعانق أو قل إلى الاتحاد فيما يتعلق بتصحيح مسار الكائنات الحية وعلى رأسها

الانسان . ولعلنا لا نغالى إذا قلنا ان عرش التربية سوف يهتز لكى يحل محله عرش الطب . فبدل أن تقسر التربية الطفل على أن يسير وفق نموذج سلوكى معد له من قبل ، فان الطب سوف يتكفل بذلك . فما يتحدد من خصائص فى الشخصية سوف يتم تحقيقه فى البنية الإنسانية عن طريق التغيرات الجوهرية فى البنية البيولوجية للإنسان . ولكن مما لا شك فيه أن المربين سوف يضطلعون بتحديد المواصفات التى يراد لها أن تتحقق فى الشخصية الإنسانية .

والواقع أنه مهما افتنت الحضارة فى التغيير والتعديل والقسر والضغط على شخصيات الناشئة ، ومهما تبدى لها ما تفتن فيه وكأنه تقدم نحو تحسين وتطوير الشخصية الإنسانية ، فمما لا شك فيه أن الحضارة بكل ثقلها تعمد فى نهاية المطاف إلى مسخ الشخصية الإنسانية ، بل وتعمل على حرمان الشخصية الإنسانية من مقومات أساسية كانت تتمتع بها إلى ما قبل الطغيان الحضارى الذى عمل عن غير قصد على إفساد الطبيعة ومسخ مكوناتها وكائناتها . ولا شك أن تغيير بنية الشخصية وما يتصف به الإنسان من قدرة على الحدس والإلهام قد حرم الإنسانية من مواهب قيادية كانت تجعل من الإنسان الفرد قائداً لحياته وموجها أساسياً لسلوكه . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الإنسان فى الفترات الأولى من بواكير الحضارة كان يأخذ فى يده زمام المبادرة . فصناع الحضارة أو قل أولئك الذين أرسوا لبناتها الأولى كانوا شخصيات ملهمة . أما وأن الحضارة قد استقلت بعد ذلك بكيانها ، وقد أخذت تلف الناشئة فى لفائفها وتطويهم طيا بين أجنحتها ، فانها قد جعلت الناس بذلك منقادين لما سبق ترسيخه وتحديد ملامحه .

فالقسر التربوى قد عمل إذن على ضياع الجوهر والإمساك بالمظهر . والجوهر هو المواهب الروحية التى كانت تخضع الواقع حول الإنسان لها . أما المظهر فهو تلك النتاجات الحضارية التى يعكف الناشئة على استيعابها . فشتان ما بين عشاق الطبيعة الأولين الذين كانوا يفكرون تفكيرا علميا

مشوبا بالعاطفة والهيام بالطبيعة ، وبين الآخرين فى زماننا الذين تم لهم استعباد أمهم الأرض فصاروا يلحون فى استذلالها والاتيان على إمكانياتها ومحاولة قهرها بصفة دائبة . فالعالم الحديث لا ينظر إلى الموضوعات التى يتناولها بنظرة الراهب فى صومعته ، بل بنظرة الجندى فى معركته أو بنظرة القناص فى الغابة . فبينما يستلهم الراهب المعانى المتباينة بالتأمل ، فان العالم الحديث يقتنص الأشياء اقتناصا ويستولى على الموجودات يعمل فيها أدواته وآلاته حتى ولو أدى هذا إلى الهلاك والدمار .

ولقد نقول إن الذين بنوا الحضارة وأرسوا دعائمها الأولى كانوا ينهجون بمنهج الفن مع الطبيعة . فالفنان يعشق الطبيعة ويعبدها بقلبه وعقله وبجميع طاقاته الوجدانية ثم يستلهمها ويقدم فنه وكأنه ظل للحقيقة التى استشفها ونقل عنها . ولكن بعد أن صار للعلوم قوانينها الوضعية وقد استقلت عن التفكير الصوفى الفلسفى الذى هو فى الواقع المنهج الفنى والأدبى ، فان حرارة الوجدان قد انطفأت ولم يبق فى يد العالم سوى جفاف العقل وتصلب المنطق وخشونة التجريب . وكيف بالله يستطيع المجرب أن يشم رائحة الجمال فى معمله ، أو أن يفعل ذلك عالم الفيزياء فى أرقامه أو عالم الكيمياء فى معادلاته ؟ وكيف يستطيع أن يعثر مفكر اليوم على نبضات قلبه ، وقد صار محكوما بقوانين علمية وقوالب ذهنية لا يريم عنها ؟ لقد فقد الإنسان حريته بعد أن فقد صدر أمه الطبيعة ، وبعد أن خضع لجنى جديد هو ما يسمى بالتكنولوجيا .

وليس بخاف أن التكنولوجيا صارت تزحف على الوسائل التربوية فى البيت والمدرسة على السواء . فما يطلق عليه اسم الوسائل التعليمية أو وسائل الإيضاح ، لم تعد ترتبط باسمها بل صارت تستولى على العمليات التربوية كلها ، أو قل إنها صارت وسائل ومضامين فى نفس الوقت . فالشعار الذى أعلنته التربية حديثا هو تربية القدرة على استخدام الوسائل لا الحصول على المضمون المعرفى أو الخبرى . فالناشىء الذى تحسن تربيته

ليس الشخص الذى يعرف ، بل هو الشخص الذى يعرف كيف يعرف .
ولكأن المهارات قد حلت فى التربية المعاصرة محل ما كان يسميه الأقدمون
بالحكمة . وهل ثمة ما يدعو للحصول على الحكمة أو الفهم وبين أيدينا بنوك
للمعلومات من جهة ، وكومبيوتر نسألة عن أعوص المسائل فيقدم إلينا
الحلول الناجعة من جهة أخرى ؟ وهكذا فقدت التربية مغزاها الحقيقى
واستمسكت بالقشور الفارغة .

الضغوط الثقافية خارج المدرسة :

تعمد الحضارة إلى ملاحقة أبنائها والضغط عليهم والتأثير فيهم واستمرار
العمل على تشكيلهم وإعادة تشكيلهم باستمرار ، وذلك حتى تضمن تكيفهم
إلى أكبر درجة ممكنة لمقتضياتها ومتطلباتها ، وحتى تضمن قدرتهم على سد
مطالبها وإشباع حاجاتها . وإذا كانت الحضارة تفعل ذلك عن طريق دور
التربية المحددة التى تتمثل فى دور الحضانة والمدارس والجامعات ، فانها
تفعل نفس الشيء مع الكبار ، ولكن بغير أن يكون هناك إعلان بنية التأثير
أو الضغط أو التشكيل والتكييف . فالواقع أن للمجتمع البشرى وسائل
تأثيرية سياقية غير مباشرة إلى جانب إحرازه الوسائل التأثيرية المتعينة المباشرة.
فاذا كنا نقول إن المناهج الدراسية بالمدرسة مثلا هى بمثابة صيغة محددة
للتأثير المباشر وشبه المباشر فى شخصيات التلاميذ ، فاننا نجد أن العلاقات
الأسرية ، والحياة العامة فى الشارع والسينما ووسائل المواصلات ، وأيضا
علاقات العمل والترويح ووسائل الإعلام وغيرها ، إنما تشكل صيغا غير
مباشرة فى تشكيل وإعادة تشكيل شخصيات أبناء المجتمع الواحد . ولسنا
نزعم أن هذا النوع من التأثير والتشكيل غير المباشرين أضعف أو أقل
دواما من النوع الأول من التأثير والتشكيل ، بل إننا نزعم أن هذا النوع
غير المباشر من التأثير والتشكيل يمتاز بالاستمرارية والفاعلية ، بل وبالتلقائية
أيضا . ومن هنا فإنه يفضل النوع الأول من حيث بعد المدى والنجوع .

والواقع أن المجتمعات البشرية قد عرفت الضغوط الثقافية التلقائية منذ
أن بزغت على هذه البسيطة . ولقد يزعم البعض أن تلك الضغوط كانت

أفعل وأشمل بالمجتمعات البدائية عنها في المجتمعات المتحضرة ، فيقال مثلا إن البدائيين كانوا يسلكون سلوكا قطيعيا كما تفعل قطعان الماشية ، وأن الانسان كلما تحضر فإنه يصير أكثر إحساسا بفرديته ، ومن ثم فإنه ينفصل عن مجتمعه أو يجد نفسه في حالة من الضدية مع مجتمعه . ونحن في الواقع نخالف عن هذا الرأي ونعتقد أن إنسان القبيلة البدائية وإن سلك سلوكا كتليا قطيعيا في بعض المواقف الجماعية كشن الغارات أو إقامة الاحتفالات حيث الرقص الجماعي ، فإنه كان في غير تلك المواقف أكثر فردية من الانسان الحديث المتحضر . ذلك أن ما كان يسعى الأناسي البدائيون إلى استحداثه من سلوك إنما كان السلوك الظاهري البادي للعيان، بينما يسعى إنسان الحضارة إلى الغوص إلى أعماق الشخصية بالتأثير فيها والاستيلاء على زمامها من الداخل .

ولقد يقال بحق إن إنسان ما قبل الحضارة كان حراً في عقله ووجدانه وفي كثير جداً من مجالات العمل والتصرف والسلوك الظاهري ، بينما صار إنسان الحضارة ملجم الفكر والوجدان ومحدود القدرة على الاتيان بما يرى الاتيان به من سلوك ظاهري : ذلك أن المحرمات تتزايد وتتراكم ولا يجب بعضها بعضا ، بل تتضاف بعضها إلى بعض جيلا بعد جيل . وحتى عندما ترفع شعارات الدعوات إلى التحرر من بعض شكائم المحرمات والفكاك من أغلالها ، فإن تلك الدعوات قلما تجد من يستجيب لها . وحتى إذا هي وجدت المناصرين لها ، فان نصرتهم لا تتعدى الظاهر من السلوك ولا تصل إلى بواطن الشخصية الإنسانية . ولعلنا لا نخطيء إذا قلنا إن أكثر الناس تحللا وتحررا من القيود أو انحلالا وخروجا على القيم الاجتماعية ، لايكونون من حيث واقعهم النفسي أحرارا ، بل يكونون مكبلين بالقيود والأرساف نتيجة ما خضعوا له منذ طفولتهم الباكرة من ضغوط اجتماعية وأخلاقية .

ونستطيع أن نقرر بغير مبالغة أن هناك تناسبا عكسيا بين التحرر الظاهري في السلوك الخارجي وبين التحرر الداخلي في الفكر والوجدان .

فنقص الحرية الخارجية لدى البدائيين كان متواكبا فى نفس الوقت مع إحساس الإنسان البدائى بالحرية الداخلية . وعلى العكس من ذلك بالنسبة للإنسان الحضارى . فبينما نجد أن حظه من الحرية الخارجية البادية للعيان كبير ، فإن حظه من الحرية الداخلية المتعلقة بالفكر والوجدان قليل . وبتعبير آخر نقول إن الفردية الظاهرية التى تبدو فى سلوك إنسان المجتمع المتحضر غالباً تخفى تحتها نزعة أحادية بعيدة المدى تختفى عن الأعين . فانسان الحضارة ملجم من الداخل وقد استطاع المجتمع بامكانياته التأثيرية ولوج مخادع الشخصية كما استطاع سبر أغوارها وإماطة اللثام عن مسارح نشاطها الداخلى ، فأخذ يعرض مسرحياته على تلك المسارح الداخلية وقد أولاها الاهتمام الأكبر . ذلك أنك إذا ما أمسكت بعقود الشخصية الداخلى ، فإنه لا تكون بك حاجة إذن إلى أن تلجأ إلى الالجام الخارجى . فمن الواضح أن الفكر والوجدان هما المفتاحان الوحيدان لمغالق الشخصية . فاذا أنت سيطرت على هذين المفتاحين وامتلكتهما فى حوزتك ، فلا تكون إذن بك حاجة إلى اللجوء إلى القيود الخارجية تفرضها على تلك الشخصية .

ولعل أن من أكثر الأشياء لفتا للانتباه لمن يتأمل ما تفعله الحضارة بأبنائها ، ما تتذرع به من براعة ودهاء فيما تنحو إليه من وسائل للتأثير . فهى لا تتذرع بالعنف أو القسر الظاهرى ، بل هى تتذرع بالاستمالة والترغيب بحيث يتقبل المتأثرون ما يوحى به المجتمع من اتجاهات تريدها . فحضارتنا الحديثة لا تفرض نفسها فرضا ولا تقبل على المرء إقبالا مباشرا ، بل إنها تتخذ من الجذب فلسفة لها ولا تكاد تستعين بالدفع من الخارج . إنها تجعل من نفسها ما يشبه المغناطيس الذى يظل فى مكانه بينما هو يجذب إليه الدبابيس المبعثرة حوله . فالحضارة تلتمس الترغيب والترهيب فى أغلب الحالات حتى تتحكم فى عقول وقلوب الناس ، وهى تعرف جيداً أن القسر الخارجى الظاهر من السلوك لم يعد ملائما لأبناء الأجيال الحديثة كما كان الحال بالنسبة لأبناء الأجيال البدائية فى المجتمعات القديمة الفجة التى لم تكن قد تذرعت ولا حتى عرفت المعانى والمقاصد التى تعرفها الحضارة الحديثة وتعيها جيداً

وتعمل لها الحساب كل الحساب فى تعاملها مع الناشئة والكبار على السواء بالمجتمعات المتحضرة الحديثة .

والواقع أن ظهور علم النفس مع تطور الحضارة ، والبحث فى الدوافع والبواعث والغرائز والميول والاتجاهات والانفعالات والقيم وغيرها لدى الفرد والمجتمع على السواء مع التقدم الحضارى ، لهو الدليل القاطع على أن الحضارة الإنسانية قد نأت عن وسائل التأثير الخارجى المباشرة ، وأخذت نفسها بوسائل التأثير غير المباشرة : وحتى بالنسبة لما يبدو وكأنه تأثير مباشر وخارج صلب الشخصية ، فانك إذا تناولته بالفحص والمدارسة ، ستجده فى نهاية المطاف متلبسا بمقومات التأثير الداخلى . ولعلنا نقول إن التأثير بالحب والكراهية ، أو بالترغيب والترهيب وبما توصل إليه علم النفس من فنون تتعلق بالإمساك بعقود الشخصية الفردية والشخصية الجماعية يشكل النغمة السائدة العامة والمسيطرة فى قوام الحضارة الحديثة . ولعلنا نقول أيضاً إن الحرب الباردة ووسائل الجذب المتباينة هما الوسيلتان الأساسيتان اللتان تتذرع بهما الحضارة فى السيطرة والتسييس بإزاء الأفراد والجماعات الواقعين فى نطاق المجتمع الواحد .

وليس من شك فى أن وسائل الإعلام الحديثة وعلى رأسها التليفزيون تلعب هذا الدور الترغيبى الترهيبى فى عقول أبناء المجتمع الحديث . بيد أن من الواجب أن نقرر أن للإذاعات المتباينة التى تستطيع أن تصل إلى المرء فى أبعد بقعة من بقاع العالم وهو فى مخدعه التأثير الأكبر والأوسع نطاقا من تأثير التليفزيون ولو مؤقتاً إلى أن يقيض لهذا الأخير حظ الانتشار العالمى . فبعد أن يتسنى للأقمار الصناعية النقل المستمر والمواظب واليومى للأحداث على شاشات التليفزيون على مستوى العالم بأسره ، وعندما تمتد ساعات الإرسال التليفزيونية لكى تغطى طوال ساعات النهار ومعظم ساعات اليوم ، فإنه يكون بذلك قد انتصر على الإذاعة انتصاراً حاسماً فى داخل البلاد وخارجها . وعلى أية حال فإننا نستطيع أن نقرر أن التليفزيون يؤثر على

المستوى الداخلي أكثر من تأثيره على المستوى الخارجي ، وعلى العكس فإن الإذاعة تؤثر على المستوى الخارجي الدولي أكثر من تأثيرها على المستوى الداخلي القومي . ونستطيع القول بوجه عام أن تأثير التليفزيون والإذاعة والصحف والمجلات والكتب أبعد أثرا في حياة الانسان الحديث الذي كبل فعلا تكبيلا نفسيا وصار مشدودا ومقيدا بالقوالب والصيغ التي تفرضها تلك الوسائل الإعلامية التي تحدد نوعية الفكر والشعور وما ينتهجه المرء في حياته من أساليب سلوكية . فالحضارة الحديثة تهتم بالكليات لا بالجزئيات . بل هي تهتم بالمبادىء والأصول ولا تلقى كثير بال إلى الفرعيات والتفاصيل. ولعلها تعتقد أن تفاصيل السلوك الخارجي ليست من الأهمية بمكان ، بل هي تهتم بالدرجة الأولى بديناميات السلوك التي تتمثل فيما يفكر فيه المرء وينحو إليه وجدانياً وما يحدد ملامح سلوكه بدءا بدخيلته . بيد أن إنسان الحضارة يستشعر ثقل الوطأة التي ينوء تحتها بسبب ما يثقل المجتمع به عليه . ولقد لا نغالي إذا ما قررنا أن انتشار الجرائم الفردية والجماعية في أرقى المجتمعات الحديثة لهو الترجمة الأمينة لذلك الاحتجاج الذي يوجهه الإنسان الحديث ضد الحضارة .

الفصل الثامن

الالهام فى حياة العباقرة

فى الفلسفة :

لعلنا لا نخطىء إذا ما قمنا باستشفاف ما انطوت عليه حياة واحد من الفلاسفة المبرزين أو قل حياة أبى الفلسفة الحديثة ، أعنى ديكارت ، فنعرض لما حظى به من إلهام أسماه « بنور الفطرة » وهو نفس ما تعنيه نحن لدى استخدامنا للفظ إلهام . لقد أكد ديكارت أن حب الاستطلاع عند بعض الناس قد يسوقهم أحيانا إلى الوقوع فى مآزق لا مخرج منها . فكذلك شأن من ينكبون على الدرس من غير نظام « لن تكون ثمرة جهودهم ومتاعبهم إلا أن يفقدوا « نور الفطرة » وإلا أن يصابوا بعمى البصيرة . ذلك أن الدراسات التى تسير من غير ترتيب ونظام وأن التأملات الغامضة والخواطر المبهمة تحجب أنوار الفطرة وتطمس عيون الذهن . ومن اعتاد أن يسير هكذا فى الظلام ضعف بصره ضعفا يصبح من العسير عليه أن يتحمل الضوء الساطع . وهذا هو ما تؤيده التجربة أيضا ، إذ نرى فى أغلب الأحيان أن من لم يشتغلوا بالدراسات قط يحكمون على ما يعرض لهم أحكاما أصوب وأمتن وأوضح بكثير من أحكام الذين أكثروا التردد على معاهد التعليم »

ويعتقد ديكارت أن المعرفة الخليقة بالاعتبار والتعويل ليست تلك المعرفة المستمدة أو المرتكنة على آراء السلطات ، وليست هى الأفكار المشهورة ، بل هى المعرفة التى تتأتى لنا عن طريقين هما الحدس والاستنباط . والواقع أن من يتأمل كلام ديكارت عن الحدس لا يجده مختلفا اختلافا بعيد المدى عما تعنيه نحن لدى استخدامنا للفظ « إلهام » . « فالحدس عند ديكارت —

كما يقول الدكتور عثمان أمين(١) — هو الرؤية العقلية المباشرة التى يدرك بها الذهن بعض الحقائق التى تذعن لها النفس وتوقن بها يقينا لا سبيل إلى دفعه . فالحدس نظرة عقلية بلغت من الوضوح والتمييز أن زال معها كل شك . وذلك الفعل عقلى ، كما قلنا : فهو لا يتعلق بالحواس ولا بالخيال ، وإنما يختص بالذهن ، بل الذهن الخالص الصافى » . ويقول ديكارت « أقصد بالحدس ، لا شهادة الحواس — وهى متغيرة — ولا الحكم الخداع حكم الخيال ، وانما أقصد به الفكرة المتينة التى تقوم فى ذهن خالص منتبه ، وتصدر عن نور العقل وحده » (قواعد لهداية العقل قاعدة ٣) . فالحدس عند ديكارت عمل عقلى يدرك به الذهن فكرة ما ، من صور أو حكم أو استدلال « بفهمها تماما فى زمن واحد ، لا على التعاقب » . ويقابل ديكارت بين الحدس وبين الاستنباط الذى لا يتم بتمامه فى زمان واحد ، ولكنه يقتضى حركة من حركات الذهن ، إذ يستنتج من شىء شيئا آخر » (قواعد لهداية العقل القاعدة رقم ١١)

فالحقيقة إنما نعرفها بنوع من الغريزة العقلية التى نجدها فينا « من حيث أننا ناس » . هذه الغريزة العقلية « النور الفطرى » أو « الحدس العقلى » . يقول ديكارت « الحقيقة فكرة بلغت من الوضوح الفائق مبلغا جعل من المحال أن نغفلها . . . ولكن لا يستطاع إيراد تعريف منطقى يعين على بيان كنهها . وأحسب أن ذلك هو حال أشياء أخرى هى شديدة البساطة ونعرفها دون تكلف » .

والواقع أن ديكارت كان يحيا فلسفته ، أو قل إن فلسفته لا تعدو أن تكون تعبيراً عن خبرته الذاتية . وشاهد ذلك أنه فى خلال سنة ١٦١٩—١٦٢٠ حين كان ببلدة « نويبرج » على نهر الدانوب ، حدثت له أزمة عقلية فحبس نفسه ، وعكف على التأمل وإمعان الفكر فى خواطر أدت به إلى نظريته

---

(١) ديكارت — تأليف دكتور عثمان أمين — مكتبة الحلبى — القاهرة .

العامة فى المنهج للبحث عن العلوم. ويقول الفيلسوف فى ذلك « كنت حينئذ فى ألمانيا عندما استدعتنى الحروب التى لم تنته فيها بعد . ولما كنت فى عودتى من الاحتفال بتتويج الامبراطور ، ألجأنى برد الشتاء إلى قرية لم أجد فيها شيئا من السمر . ولم يكن لدى لحسن الحظ ما يشغلنى من هموم أو أهواء ، فكنت أحبس نفسى طول اليوم وحدى فى « حجرة دافئة » حيث كنت أفرغ الفراغ كله لحديث نفسى وخواطر فكرى » .

يقول الدكتور عثمان أمين « إن هذا الحديث النفسى الذى يذكره ديكارت فى الفقرة السابقة لم يكن تأملا هادئا فاتراً ، كما يمكن أن يسبق إلى الوهم . ذلك أن إحدى القطع الأدبية التى تركها « باييه » من كراسة اسمها « أولمبيقا » تفيد أن حديث ديكارت واستغراقه فى التأمل قد صحبه فى ذلك اليوم هيجان نفسى غريب . وإننا لنقرأ فى إحداها « ١٠ نوفمبر ١٦١٩ : ما كان أشد ما طارت نفسى حماسة وجيشانا إذ اكتشفت أسس علم بديع » .

وفى هذه الحال من الحمى العقلية استسلم الفيلسوف الشاب للنوم ، فرأى ثلاثة أحلام فسرها فى الغد من غير تردد بأنها رسالة من « روح الحقيقة » التى وعدته بأن تفتح له خزائن العلوم جميعا (بايبه : حياة مسيو ديكارت) وفى الأيام التالية صلى صلاة لله ، ونذر نذرا أن يحج إلى نتردام دولوريت (أقدم الأماكن المقدسة وأحبها لدى الكاثوليك) .

ويواصل الدكتور عثمان أمين حديثه عن تلك الفترة الروحانية التى مر فيها ديكارت بقوله « ولعل ديكارت كان يجتاز فى ذلك الحين فترة تصوف وإشراق وجدانى . فالى جانب هذه الأحلام ، وهذا النذر ، يقال إن الفيلسوف الشاب انضم إلى جماعة « روزكروا » السرية التى كان أسسها « فلد » وكان أعضاؤها ينتمون إلى أحد المذاهب السرية العجيبة ، وكانت مبادئهم تفرض عليهم ممارسة الطب مجانا والسعى لتخفيف آلام الإنسانية من طريق العلوم .

ويذهب بايبه فى تعليقاته على « أولمبيقا » وروايته عن الرؤى الثلاث إلى أن الحلمين الأولين ينبئان ديكارت أن الله قد اختاره واصطفاه ،

ويرى الفيلسوف فى الحلم الثالث كتابين : يرى أولا قاموساً ، ويرى ثانياً ديوانا من الشعر يفيد انضمام الفلسفة إلى الحكمة » .

وهذه النصوص تفيد - فيما يظهر - ثلاثة أشياء : أولا - أن العلوم جميعا ليست إلا علما واحدا ، وان مفتاحا واحدا يفتح جميع كنوزها . ثانيا - أن الدعوة التى تلقاها ديكارت للبحث عن ذلك المفتاح إنما وردت إليه من الله لا من شيطان ماكر . ثالثا - أن الفيلسوف ينبغى أن يبحث عن (المفتاح) فى نفسه ، لأن الحقيقة كامنة فينا كون النار فى الحجر الصوان .

وإذا كان ديكارت فى غد ذلك الاكتشاف ، قد بلغت منه الحمى العقلية والهيجان النفسى (أن مخه كان يشتعل اشتعالا - كما يقول بابيه صاحب سيرته) - فسبب ذلك أنه أحس أن الله قد اختاره هو لإقامة البناء الجديد .

يقول الدكتور عثمان أمين عن اعتكاف ديكارت بعيداً عن الصخب الذى يشتت الذهن ويحول دون الإلهام أن ديكارت (كان مولعا بالهدوء الذى يعينه على التفكير الفلسفى ، وكان أشد ما يخشاه هو أن يعكر عليه أحد فى تفكيره . ولقد قال هو نفسه فى ذلك « حملتنى تلك الرغبة على الابتعاد عن جميع الأماكن التى قد ألاقى فيها بعض من يعرفوننى ، وساقتنى إلى أن أخلو هنا ، فى بلاد وطد فيها طول الحرب نظما ثابتة) .

والواقع أن استشهادنا بحياة ديكارت وارتباط فلسفته التى توصل إليها بالإلهام لا يعنى أن قصة حياة ديكارت فريدة فى نوعها وأن سواه من الفلاسفة السابقين عليه والتالين له لم يكونوا يستملون حياتهم العقلية من باعث إلهامى. إننا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن التفكير الفلسفى لا ينمو فى فراغ ، بل ينمو مع نمو الشخصية ، أعنى عقل الفيلسوف ووجدانه . ولقد نجد الكثير من الجوانب الشخصية لكثير من الفلاسفة غير معروفة ولم يتسن كشف

النقاب عنها ، فلا يعثر الدارس إلا على فلسفة الفيلسوف بغير أن تكون لديه فرصة لمعرفة حياة الفيلسوف وما تقلب عليه من حالات نفسية متباينة . واعتقادنا القاطع هو أن فلسفة أى فيلسوف لا تخلو من جانب إلهامى تستند إليه . وحتى أولئك الفلاسفة الماديين أو الملحدين فإنهم برغم إنكارهم للإلهام، فإن مثل ذلك الإنكار لا يقوم دليلا على عدم إلهامهم وعلى خلو حياتهم الذهنية من مقومات إلهامية .

على أننا لا نحصر الإلهام فى المصدر الدينى وحده ـ كما اتضح من الفصول السابقة ـ فثمة مجالات إلهامية متباينة . المهم أن الإلهام بمثابة كشف لمجهول لا يعتمد على رصيد خبرى سابق لدى الشخص الملهم . فالاعتماد على المقومات الحسية وحدها لا يؤدى الى الكشوف العظيمة أو إلى إقامة صروح فلسفية ضخمة . فلابد للفيلسوف أن يحيا فى عالم مستقل عن هذا العالم المحيط به الزاخر بالعجيج والصخب . فالتأمل الباطنى هو السبيل الوحيد للولوج فى أسرار الوجود مع الاستعانة بالمقومات الخبرية التى تتخذ كدرجات سلم تصل بالمرء الى آفاق عليا جديدة . ولكأن المقومات الخبرية بمثابة عوامل مساعدة فحسب ، وليست عوامل أصلية فى الكشف الفلسفى .

ونحن لا نستطيع إغفال سقراط وفيثاغورس وأفلاطون ومن إليهم من فلاسفة ارتبطت حياتهم بالفكر الإلهامى بصراحة ، أو قل ارتبطت دراسة فلسفتهم بدراسة حياتهم والوقوف على أسرارها . فبئر الحقيقة تحتاج إلى من يغوص فيها لاقتناص بعض جواهرها والكشف عن بعض أسرارها . ولا يكفى أن نقف على حافة تلك البئر لكى نحصل على حقائق أسرارها . فالإلهام إذن عطية إلهية توهب للفيلسوف لوقفه على أسرار فلسفته .

فى التصوير :

يعرض هربرت ريد فى كتابه (تربية الذوق الفنى) الذى قمنا بترجمته الى العربية لحالة المصور وليم بليك الذى كان يستطيع استثارة الصور الذهنية لديه مهما كانت طبيعتها بطريقة إرادية . ويحكى جلكريست أن الموهبة

البصرية كانت خاضعة إلى حد كبير لتحكمه لدرجة أنه بناء على رغبة أحد الأصدقاء ، فإنه كان يستطيع استدعاء أية أشكال وأية أوجه مألوفة تطلب منه أمام تفرسة التجريدى . وكان هذا يتم خلال ساعات الليل المواتية والملائمة ، أى فيما بين التاسعة أو العاشرة مساء حتى الواحدة أو الثانية صباحا وربما حتى الثالثة أو الرابعة صباحا . وربما كان صديقه فرلى جالسا إلى جانبه وهو « أحيانا هاجعا وأحيانا مستيقظا » . كان فرلى يقول مثلا (ارسم لى النبي موسى أو داود النبي) أو ربما يطالبة برسم مشابه ليسوع المسيح أو لإحدى الشخصيات التاريخية الأخرى العظيمة . وكان من عادة بليك أن يجيب قائلا ها هوذا ثم يأخذ فى الرسم بينما تكون الورقة والقلم الرصاص بين يديه ، وكان يتم ذلك بأكثر خفة ورباطة جأش ، كما لو كان هناك فى الواقع شخص جالس أمامه .وكان الموقف يتطلب من بليك فى بعض الأحيان أن ينتظر حتى يظهر الشبح . ذلك الذى لم يكن يأتى على الإطلاق فى بعض الأحيان . وفى أحيان أخرى كان بليك وهو منهمك فى رسم الوجه يكف فجأة عن الاستمرار ثم يقول فى لهجته الهادئة المعتادة ، وبنفس رباطة جأشه الحقيقية (إن السماء تمطر ولا أستطيع الاستمرار . لقد ذهب . يجب أن أنتظر حتى يعود مرة أخرى) أو يقول (قد تحرك . إن فمه قد ذهب) أو يقول (إنه يعبس . إنه غير راض عن رسمى له) .

وهناك تقارير أخرى تزعم أن الرؤى التى كان يراها وليم بليك كانت مصحوبة بهياج عقلى . فأحد أصدقائه وهو جيمس بورتر الذى تصادف أن عرج على بليك ، فوجده يتأمل بعض الرسوم التخطيطية للسير وليم والاس والملك إدوارد الأول . وقد قال بليك الذى كان فى حالة من النشوة بحيث كان مقطع الأنفاس تقريبا (لقد كنت جالسا فى تأمل البطل الاسكتلندى ، كد دأبت دائما بازاء الأعمال البطولية ... فوقف أمامى عندئذ شبح فى هيئة نبيل ، وقد أدركت لتوى أنه السير وليم والاس ، فرجوته أن يظل لدقائق قليلة وأنا أعلم أنه كان طيفا روحانيا سرعان ما سوف يختفى بالسرعة التى أتى بها . فابتسم البطل وقت بوضع رسم تخطيطى له . وفى الحال اختفى

الشبح ثم حل محله شبح ادوارد الأول الذى استمر أيضا مدة كافية لكى أرسمه) .

بيد أن أكثر الشواهد دقة عن الطبيعة الإلهامية للصور الذهنية لدى بليك قد وردت فى الملاحظة التالية لفارلى — وهى حول الرسم الشهير لشبح برغوث . ولقد تم هذا الرسم فى حضرة فارلى الذى يقول (لقد أحسست باقتناع من طريقته فى العمل بأن هناك صورة ذهنية واقعية أمامه ، وذلك لأنه انصرف بذهنه تماما ، وبدأ بالرسم على قطعة جديدة من الورق فى وضع صورة منفصلة ومفصلة لفم برغوث ، وهو ما قدمته الروح ، وقد حيل بينه وبين الاستمرار فى الرسم التخطيطى الأول حتى انتهى من رسم البرغوث) .

ولقد يفترض أن القدرات التصويرية لدى هوجارث وبليك إنما تمثل عمليتين عقليتين مختلفتين تماما . بيد أن الواجب ملاحظة أنه على الرغم من أن موهبة هوجارث قد تم اكتسابها بالتمرين المستمر ، فان موهبة بليك لم تكن فطرية تماما ، ولم تكن مختصة به شخصيا ، إذ أنه علم زوجته أن ترى الأشباح . وفى كلتا الحالتين كانت الصور الذهنية دقيقة . فلقد قام بليك باستدعاء الملك شارل مرتين حتى يكمل رسم خوذة معقدة كان يرتديها . وفى كلتا الحالتين اعتمدت الصور الذهنية على التركيز . والفارق الرئيسى ليس كبيرا جدا من حيث طبيعة الصور الذهنية فى حد ذاتها ، بل من حيث أصلها . ولقد كانت صور هوجارث تخزن تحت سطح الشعور مباشرة بينما كانت صور بليك تأتى من أعماق اللا شعور . ولكن هربرت ريد لا يرى مسوغا حقيقيا للافتراض بأنه فى كلتا الحالتين لم تكن الصور الذهنية تسقط وترى بالفعل . ولذا فانها صور إسقاطية بالمعنى الدقيق للكلمة .

ويبدو أن الأشباح كانت تستحضر أمام بليك بالصلاة . فجورج ريتشموند يحكى أنه ذات مرة عندما عرج على فونتين كورت ، وجد بليك وقد كان منقبض النفس وهو يشرب الشاى . قال بليك (لقد فارقتنى منذ خمسة عشر

يوما قوة الابتكار » وقال بليك وقد استدار إلى زوجته « هذا ما حدث لنا بالضبط . أليس كذلك ؟ إنه منذ أسابيع تركتنا الأشباح ؟ ما الذى نعمله إذن يا كيت ؟ » أجابت كيت « فلنركع ونصلى يا مستر بليك » .

والواقع أن أمر الإلهام هو قدر مشترك بين المصورين النابهين . ولعلنا نضرب مثالا آخر بفان جوخ(١) وقد بدأ حياته العملية كبائع للصور والتحف الفنية فى محل كان يملكه أحد أقربائه فى لندن . ولكنه كان برما بالكثير من السلع الفنية المعروضة للبيع بذلك المحل . وكان يبدى دهشته بل وانتقاده للزبائن الذين يسيئون الاختيار فيقعون على الصور والتحف القبيحة فى تقديره ويعزفون عن الصور والتحف الجميلة فى تصوره وحسب ذوقه . فكان بذلك فنانا وليس تاجرا ، مما اضطر مدير المحل إلى طرده فى نهاية الأمر لأنه كان غليظا فى نقده لأذواق الزبائن .

وبعد ذلك أخذ فان جوخ طريقه إلى مناجم الفحم حيث عمل هناك قسيسا وواعظا ، وعكف فى تلك الفترة على القراءة المكثفة إلى إن وصل فى النهاية إلى درجة من التشبع لم يعد بعدها يطيق مشاهدة أى كتاب . وفى أحد أيام نوفمبر الصافية جلس على عجلة حديدية صدئة يراقب عمال المناجم من البوابة فشاهد أحد العمال كانت قبعته السوداء تظلل عينيه ، وكتفاه منحنيين وقد دس يديه فى جيبى سترته وركبتاه العظيمتان بارزتان إلى الخارج . فجذب منظر الرجل انتباه فان جوخ وأثار فيه رغبة ملحة فى رسمه ، فأخذ يفتش فى جيوبه ووجد القلم الرصاص وخطابا كان قد وصله من والده وبه صفحة بيضاء . فأخذ يعبر عن انطباعه الفنى بأن رسم ذلك المخلوق بسرعة . وكانت هذه نقطة البداية فى قصة فان جوخ مع التصوير الفنى .

---

(١) حياة فان جوخ — أرفنج ستون — ترجمة محمد محمود صفوت — الألف كتاب — القاهرة .

وبعد أن عاد فان جوخ إلى الدار التى كان يقطنها وجد بالمصادفة فروخا عديدة من الورق النظيف الأبيض وقلما ثقيلا فعكف على الرسم حتى غابت الشمس وخيم الظلام على الحجرة وهو منهمكاً على الأوراق يرسم عليها .

ومنذ ذلك الحين انتقل الفنان بنشاطه ووجدانه من المجال الدينى إلى رسم كل ما كان يثير خياله من شخصيات وأشياء ومواقف وعلاقات . وواصل العمل ليلا ونهارا . وعندما كان يجهده التعب ويعجز عن الرسم كان يلجأ إلى القراءة . وكان يحب المناظر الحلوية حبا جما ، ولكنه كان يحب الدراسات المشتقة من الحياة .

وعاد فان جوخ إلى أسرته ودأب على الرسم ، وقد قام برسم شقيقته ويليمين وهى أمام ماكينة الخياطة ورسم صورة الرجل ذى الفأس خمس مرات ، وصور رجلا يعزق الأرض فى أوضاع مختلفة ، ورسم باذر الحبوب مرتين ، والفتاة ذات المكنسة مرتين ثم رسم امرأة بقبعة بيضاء كانت تقشر البطاطس ، وراعى الغنم وقد كان منحنيا على أغنامه ، وأخيرا رسم فلاحا عجوزاً مريضاً كان يجلس على مقعد بالقرب من المدفأة ، ورأسه بين كفيه وقد استند بكوعه على ركبتيه ، ورسم الحفارين وحارثى الأرض من الجنسين . وكان ما يشعر به أنه يجب أن يرسم بلا توقف ويجب أن يلاحظ وأن يسجل كل ما يمت إلى الحياة الريفية بصلة .

ونشأت علاقة حب قوية بينه وبين ابنة عمه الأرملة واسمها كاى وقد صارت ملهمته فيما صار يقوم برسمه ، وكان تشجيعها له فى صمت ، وقد كانت تنصت إلى كلامه وتشجعه على التعبير عما فى نفسه من آمال وأحلام تتعلق بفنه . وكانت كاى وجان طفلها الصغير يصحبان فان جوخ كل يوم إلى الحقول حيث كان ينصب حامله بينما كان يظل جان يلعب فى الرمال وكاى تقرأ فى كتاب . وكان فان جوخ يعكف على الرسم فى انهماك وصمت وتدفق .

وتعرف فان جوخ بعد ذلك على إحدى الساقطات اسمها كرستين ووجد لديها الحثالة من العطف الذى كان بحاجة إليه بعد أن صدم فى حبه . اتخذها فان جوخ موديلا يقوم برسمه ، وقد قامت بجلب شخصيات أخرى ليرسمها . وبعد أن استرد الفنان بعض الثقة بنفسه صار يعمل كل يوم لمدة أطول مما اعتاد ، كما صار يبذل جهدا أكثر . ولكنه أخذ يفقد شهيته للأكل وربما ظل طوال الليل يؤرقه السهاد ويفكر فى الأشياء التى ينبغى أن يعملها . وبينما كانت قواه تخور كان انفعاله يشتد . وسرعان ما يعيش على طاقته العصبية . وربما تقلص جسمه فى هيكله العظمى وتغشى العينين ضبابة قاتمة . وكلما استبد به التعب استمات فى العمل . وربما اشتدت به النوبة العضبية التى كانت تتملكه وكان يدرك بفكره الوقت الذى سوف يستغرقه لينتهى من اللوحة ، وقد صمم على أن ينتهى منها خلال اليوم نفسه . كان كرجل تقمصه ألف شيطان وكان أمامه سنوات من العمل لاتمامها . ولكن شيئا ما كان يرغمه على أن عزق نفسه كل ساعة من الساعات الأربع والعشرين . وفى النهاية يصبح فى أقصى انفعاله وهياجه العصبى . ويتبع هذا حدوث مشهد مخيف لو وقف أحد فى طريقه إذ يندفع مزمجرا إلى اللوحة بكل مالديه من قوة ، ولا يهمه ما تستغرقه من وقت حتى تنتهى . فكان لديه دائما العزيمة الكافية للعمل حتى آخر قطرة من اللون ، ولا شىء يمكن أن يوقفه قبل أن ينتهى منها تماماً .

والواقع أن الدافع الذى كان يحرك فان جوخ نحو الرسم كان دافعا داخليا بمعنى الكلمة . فلم يكن يرسم ليكسب ، بل كان يتحرك من دخيلته بالهام داخلى يسيطر على جماع شخصيته .

فى الموسيقى :

ونضرب لهذا المجال مثلا بسيد درويش الذى يقول عنه العقاد « إنه أدخل عنصر الحياة والبساطة فى التلحين والغناء بعد أن كان هذا الفن مثقلا كجميع الفنون الأخرى بأوقار من أسجاعه وأوضاعه وتقاليده وبديعياته

وجناساته التي لا صلة بينها وبين الحياة » فجاء هذا النابغة الملهم فناسب بين الألفاظ والمعاني وناسب بين المعاني والألحان وناسب بين الألحان والحالات النفسية التي تعبر عنها ، بحيث تسمع الصوت الذي يضعه ويلحنه ويغنيه فتحسب أن كلماته ومعانيه وأنغامه وخوالجه قد تزاوجت منذ القدم فلم تفترق قط ولم تعرف لها صحبة غير هذه الصحبة اللزام » .

ولم يكن الغناء الفني كذلك منذ عرفناه وإنما كان لغوا لا محصل فيه وألحانا لا مطابقة بينها وبين ما وضعت له حتى جاء سيد درويش» . يقول عباس محمود العقاد عنه أيضاً « حدثني بعض أصدقائه الذين حضروه في تلحين أدواره ومقاطيعه أنه كان إذا قصد التلحين أخذ الورقة التي كتب فيها الكلام شعرا أو نثرا فقرأها في نفسه قراءة متفهم متأمل يستشف روح معانيها وإيماءات ألفاظها ومضامين أغراضها ، ثم يتلوها جهرة لتصحيح كلماتها وفواصلها ، ثم يرفع الصوت مؤديا كل جملة بما يوائمها من لهجة الدهشة أو الغضب أو الحنان أو الفرح أو الزهو أو الوجوم . فإذا تم له ذلك هداه اختلاف اللهجات في تلاوة الجمل إلى اختلاف الألحان التي تناسبها . فيخلو بنفسه هنيهة ثم يعود إلى رفاقه وقد أفرغ عليها ألحانها الدائمة فلابستها بعد ذلك التفهم والإنعام ملابسة الإهاب المشرق الصحيح لجوارحه السليمة القويمة ، فتسمعها كأنك تسمع تفسيرا موسيقيا لدقائق المعاني وكوامن الإحساس أو ترى صوراً طبيعية تنسجها تلك الموسيقى من خيوط النغم ونياط القلوب ، وطريقته في استيحاء الموسيقى طريقة العبقريين الغربيين إذ يستفتحون أبوابها بين مناظر الليل والنهار وأصداء الرياح والأمواج ولمحات البروق والنجوم ، فكثيرا ما كان يبيت عند شاطىء البحر ليالي متواليات يصغي ويتوسم ويغمغم ويترنم إلى أن يسلس له النشيد كما يريد . وكثيرا ما أحيا الليل إلى الفجر يستقبل أنداءه وأنواره ويترجمها شدوا بديعا يطلع على الأسماع بمثل الفجر في حلل الأنداء والأنوار . ولحنه في رواية هدى حيث تظهر أشباح الأجداد عند القناطر الخيرية في مطلع الفجر قد صيغ في ذلك المكان في تلك الساعة بعد ليلة ساهرة

لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التهيؤ (للقدر) المأمول والوحي السعيد .

وكان الشيخ سيد يستعير بعض الأنغام القديمة ليعيدها على أغان جديدة هي بها أشكل وعليها أكيس وأجمل ، ثم لا يخفي الاستعارة ولا يدعي ما ليس له عادة بعض الأدعياء ، فإذا وضع اللحن مبتكرا أو مستعارا حرص غاية الحرص على أن يؤديه المنشدون كاملا مضبوطا كما أوحي إليه ونقل عنه ، فلا يطيق أن يتصرف فيه متصرف أو يعبث به عابث من عشاق التزويق والترطيب . وبلغ من فرط غيرته على صناعته أنه سمع ليلة إحدى الفرق تنشد ألحانه في بعض الروايات فهاله ما وجد فيها من التحريف وجن جنونه من الغيظ والهياج وجعل يصيح : أهذه موسيقاي؟ أهذه موسيقاي ؟ ثم أغمي عليه لتوه ، وقيل إنه ظل بقية حياته يرغبونه في العمل مع تلك الفرقة بالأجر الغالي والتوسل الكثير وهو يأبى عليهم أشد الإباء .

كان أبوه نجارا معنيا بتعليم أبنائه فأدخله مدرسة تسمى شمس المعارف يتعلم فيها التلامذة تجويد القرآن وإنشاد القصائد وتمثيل الروايات الصغيرة في ختام السنة على عادة أكثر المدارس في ذلك العهد ، فظهرت هناك موهبته الغنائية وزين له بعض إخوانه إحياء الليلات الخاصة ففعل ونجح فيها نجاحا أغراه بالمثابرة والمزيد ، ثم انتظم في مسجد أبي العباس لتلقي الدروس الدينية فمكث فيه إلى أن توفي أبوه . فصار يحضر الليالي الساهرة والموالد التي يدعى إليها للغناء وترتيل المولد عند أبناء حيه الأقربين . ثم تألفت في الإسكندرية فرقة تمثيلية فاتصل بها مطربا لها وسافر معها إلى الشام ولقي هناك الشيخ الموصلي وبعض أساتذة الموسيقى فأخذ عنهم الكثير من أصولها ، وعاد من هناك واستمر في الاطلاع على كتب الموسيقى والتوفر على دراسة مراجعها الميسورة لقراء العربية ، وأنشأ له فرقة للغناء في القهوات فاستقل بنفسه في تأليف الأدوار وتلحينها ونبغ في ذلك نبوغا لفت إليه عشاق هذا الفن وأساتذته ، فأعجبوا به وشجعوه وذكروه بالثناء .

ويعرف أخصاؤه أنه وضع كل دور من أدواره فى حادثة من حوادث غرامه فلم يخل من فضل للحب عليه فى إذكاء قريحته وتهذيب فنه وإغرامه بصناعته وكأنه طبع على حب التجديد وسلامة الذوق . فكانت نفسه تعاف لوازم المغنين التى طفقوا زمانا يرددونها فى جميع الأغانى والأناشيد (كيا ليل ويا عين) وما شابه ذلك مما هو فى الغناء كوصف الطلول والنياق فى الشعر والأدب ، وقد عدل عنها تماما فى أدواره الأخيرة ونبذ التكرار الذى لا معنى له .

وهكذا نلاحظ أن الإلهام كان له الأثر الأكبر فى إحراز هذا الفنان المصرى الأصيل لذلك المستوى العالى من التذوق الموسيقى ومن تحديد ملامح محددة ومتطورة للموسيقى العربية .

وثمة مثال آخر نسوقه فى هذا المجال لموسيقار مصرى آخر هو أحمد خيرت (١) الذى شارك فى استنهاض المشاعر المصرية فى ثورة ١٩١٩ بما قدمه من أناشيد جنبا لجنب مع جهود سيد درويش. لقد كان أحمد خيرت فى ذلك الوقت طالبا بالثانوى وعضوا فى لجنة الطلبة لثورة ١٩١٩ صغير الحجم رقيق الجسد دقيق الحس عاطفيا عصبيا لا يهاب ولا يخاف ، ينتقل من مكان إلى مكان ومعه سلاحه هو سلاح الكلمة . وقد غذى الثورة بأناشيد ثورية كانت كلماتها تتردد والصفوف المتراصة تتحرك بين الأزهر ونادى المدارس العليا . وفى خلال التجمعات وأشهرها .

بنى النيل هبوا وكونوا يدا	وردوا عن النيل كيد العدا
ولا تحسبوا ما بذلتم سدى	وصونوا جلال الفدى بالفدا

وكان أحمد خيرت يلقى أناشيده فى ثوب شحاذ حتى لا يفطن رجال الاستعمار إلى حقيقة أمره ، ووصف إذ ذاك بأنه شحاذ القرن العشرين .

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام — تأليف أنور الجندى — دار نهضة مصر للطباعة والنشر — القاهرة .

وكان يعمد إلى تغيير وتبديل وتطوير أزجالة الملحنة فى شكل مونولوج لتساير الأحداث . وفى سبيل ذلك اعتقل مراراً ، وكان آخر عهده بالاعتقال نوفمبر ١٩٢٤ إثر حادث السردار المشهور ، ومضت أناشيد خيرت تسابق الحركة الوطنية فهى تحارب الاستعمار وتحمل عليه وتقاوم الخلاف وتهاجم الأحزاب التى تخرج عن صف العمل الموحد ، وتتابع فى يقظة كل تطورات الحركة الوطنية .

وفى حياة أحمد خيرت ظاهرتان واضحتان : أولاهما الطبيعة الفنية . فقد درس فى الزراعة العليا وأحرز دبلومها ، وكان فى الإمكان أن يعيش واحدا من رجال هذا الفن ، لولا موهبته الطبيعية التى برزت وفرضت نفسها ، واستطاعت أن تشق طريقها فى ظل حدث من الأحداث الكبرى هو ثورة ١٩١٩ ثم وجدت مجالها فى إدخال هذا الفن فى المدارس والمعاهد المختلفة . أما الظاهرة الثانية فهى قدرته على الجمع بين النظم والتلحين . فقد كان شاعراً وموسيقارا . وأغلب أناشيده التى أربت على الألف نشيد هى من تأليفه وتلحينه . وهو صاحب مدرسة فى هذا المجال : فقد تخلص من الطريقة القديمة ، أعنى طريقة التخت واختار منهجا جديدا مبسطا سهلا يتيح للطفل والشاب أن ينشد كلماته دون عسر ، وكان لقدرته على الجمع بين النظم واللحن أثرها فى انتشار ألحانه وأغانيه ، فإن معظم أناشيده تتسم بالبساطة والسهولة والجرس الموسيقى .

وثمة ثبت طويل لأناشيد أحمد خيرت قام بتأليفها وتلحينها فى موضوعات شتى منها الصياد والعلم ودعاء طفل ونشيد البوليس ونشيد الطيران ونشيد شكرا لله ونشيد الطيور تستقبل الصباح ونشيد العزة الشماء ونشيد عم يا خباز ويا بايع الفطير وأنشودة القطن وأنشودة المشمش وأنشودة الحجاج ومملكة النحل والبحارة وقطار الرحمة وأفراح النيل ونشيد الهجرة وغير ذلك كثير . وكلها تدل على مشاركة روحية كاملة لكل ما تضمه مصر فى مجالات الطبيعة والحياة والوطنية والزراعة والفنون ومن استهلالات هذه الأناشيد تبدو طبيعة أحمد خيرت الهادئة والملهمة فى نفس الوقت .

ولقد ساند أحمد خيرت كثيرا من النابغين والنابغات فى مجال النشيد والألحان أمثال فايدة كامل ونجاة الصغيرة. ولم يقتصر على تلحين الأناشيد الوطنية بل نظم ولحن الأناشيد العاطفية وساهم فى النهضة المسرحية واعتلى خشبة المسرح ممثلا هاويا وأبرز أعماله أوبريت (أدى يومنا) التى ألفها ولحنها ومثلها مع زملائه أعضاء نادى منتخب المدارس على مسرح جورج أبيض ورواية (أحمد وحنا) إبان ثورة ١٩١٩ ومثلت على مسرح الأوبرا.

وهكذا نجد أن هذا الفنان كان — بالإضافة إلى تحصيله ودأبه ومثابرته على العمل — شخصية ملهمة تستشف إلهاماتها من الأحداث المحيطة بها ومما يهز وجدانها ويذكى مشاعرها.

فى الشعر:

قام الدكتور مصطفى سويف فى كتابه «الأسس النفسية للابداع الفنى» بتتبع موضوع الابداع والالهام لدى مجموعة من الشعراء من بينهم الشاعر المصرى أحمد رامى وذلك من واقع تجربتهم الشخصية. وقد وجه إلى كل منهم السؤال التالى: إذا استطعت أن تتذكر عملية الابداع كما جرت فى آخر قصيدة لك، فالمرجو أن تتبع حياتها فى نفسك. هل عاشت فى نفسك صورها وأحداثها كاملة قبل النظم؟ أم هل بزغت وقت النظم فحسب؟ وإذا كانت قد عاشت قبل النظم فهل عاشت حياة جامدة أى أنها ظهرت فجأة كاملة وظلت كما هى حتى انتهيت من كتابتها أم تطورت فى حياتها قبل الكتابة أو أثناءها. وجعلت تمتلىء وتتضح فى بعض نواحيها وتتضاءل وتتلاشى فى نواح أخرى؟

أجاب الشاعر بقوله: أنا لا أكتب الشعر أبداً، بل أغنيه.. أكون فى حجرة منفرداً وغالباً فى جو مظلم بعض الشىء، وعندئذ أغنيه فى خلوتى هذه

وبذلك يظهر الشعر . وأنا لا أفهم أن القصيدة تبزغ وقت النظم فحسب بل على العكس من ذلك فإن بعض القصائد تعيش معى فكرتها عدة سنوات قبل أن أنظمها . أنظر مثلا « رق الحبيب وواعدنى يوم » . إن هذه القصيدة ظلت فكرتها فى نفسى سبع سنوات ، وأخيراً نظمتها عندما حانت فرصة معينة وهى أننى فى لحظة من اللحظات نلت من الفرح ما جعلنى أخاف أن تضيع حياتى ، أخاف أن أفقد هذه الحياة قبل أن أنال قمة هذا الفرح . هنا بالضبط أسرعت لأنظم هذه القصيدة ولأصور فيها أننى نلت سعادة عظمى كنت أنتظرها من زمن :

ولقيتنى طايل م الدنيا كل اللى أهواه
بس اللى كان فاضل لى أسعد بلقاه
لما خطر دا على فكرى حير أمرى
والقرب سبب تعذيبى . . . .

ومعنى هذا أن هناك لحظة معينة تكون بمثابة فرصة لبزوغ أو لظهور هذه الفكرة التى ظلت مختصرة من زمن . وفى الواقع أنه بالنسبة لهذه القصائد التى قضت فكرتها مدة طويلة وهى تختمر فى نفسى ، أقول لك إن هذه اللحظة لا تتدخل فى جوهر الفكرة المختمرة وإنما تتدخل فيما يشبه الهامش . على كل حال يحدث أحياناً أن تبزغ عندى قصيدة وأتجه إلى نظمها فى لحظة سريعة دون أن تسبقها فكرة مختمرة ، وفى هذه الحال تجد أن اللحظة تتحكم فى جوهر القصيدة إلى حد بعيد جداً . ويحدث أحياناً أن أكون بسبيل نظم قصيدة معينة وفيما أنا أنظمها إذا بى مثلا أسمع نعيق البوم عندئذ لا يمكن أن أترك هذه اللحظة دون أن أدخلها فى القصيدة بطريقة ما . وقد حدث هذا ذات مرة ، وأدخلت هذه اللحظة فى القصيدة رغم أننى كنت أكتب فى اتجاه معين يغلب عليه الفرح والشعور بالسعادة ، على أن إدخال هذه اللحظة لم يخل أبداً بوحدة القصيدة .

على أنى أكون فعلا على وعى بوحدة القصيدة وأقصد ألا أحيد عنها .
وأنا فى العادة أبدأ القصيدة ببيت أو بعدد ضئيل من الأبيات يركز كل تجربتى ، وبعد ذلك أقصد إلى تخريج كل ما يمكن من التخريجات من هذه التجربة المركزة فى البيت الأول ، أو بعبارة اخرى فى الـ motto وقد يحدث أحياناً أن تبلغ البداية من التركيز درجة هائلة تمنعنى من أن أكتب أى شىء بعدها . وبذلك يتعذر على أن أكمل القصيدة فتظل عندى بدايتها فحسب . وقد حدث لى هذا بالفعل ذات مرة وأظن أنه يحدث لكثير من الشعراء . وأنت تعرف طبعاً أن الانسان يمكن أن يكتب كثيراً فيقول مثلا إننى قضيت ليلا ساهراً بين آلامى وأن الليل طال جداً وأن كل شىء أمامى شمله الظلام وأن صحبى أحاطوا بى يواسوننى على محنتى وما إلى ذلك . ويستطرد فى هذا السبيل ، ولكن طبعاً أنت تعرف أيضاً أن كل هذه المعانى جميعها تجتمع فى شطرة واحدة : « لم يطل ليلى ولكن لم أنم » .

من ذلك ترى أننى عندما قلت أن كل شاعر لابد أن يكون قد عانى مثل ما أعانى إنما قصدت الشاعر بالمعنى الدقيق ، أى The born poet

وأظنك تفهم أنه فى حالة الفكرة المختمرة التى حدثتك عنها هى تتطور طبعاً ويحدث فيها بعض التغيرات. لكن مع ذلك فان الجوهر لا يصيبه أى تغير . على أن هذا التطور لا يكون واضحاً بالقدر الذى يتضح به التطور الحادث أثناء النظم . فبالنسبة للنظم تجد أن الخاطر يجلب الخاطر والفكرة تجلب الفكرة وإلا لكنا نجارين أو حدادين . فأنا ليس عندى أنموذج معين أصفف له الألفاظ تصفيفاً معينا . ولكن قد تأتى هذه العبارة بعبارة أخرى وقد تأتى هذه الفكرة بفكرة أخرى . وعلى كل حال نحن أبناء خواطر وربما اتضح ذلك بشكل بارز جدا فى القصائد التى هى بنت لحظتها والتى لم تسبقها فكرة مختمرة . ففى هذه القصائد يكون عندى ميل إلى قول الشعر ولكن ليس عندى فكرة بالذات لأقول فيها ، ومن هنا يكون للخواطر الواردة دور كبيرة .

وبالنسبة للعادات التى تلازمنى فى الكتابة فأقول نعم لى عادات . فمثلا هذا القلم (وأخرج من جيبه قلما صغيرا) لا أنظم الشعر إلا وهو معى وبصحبته قطعة من الورق مستطيلة ، ولابد من أن أنظم فى حجرة خاصة ، حجرتى التى يشيع فيها جو حزين ، وأحسن الأوقات التى أنظم فيها هى وقت الغسق وحينا أشعر أننى مستيقظ والناس نيام . ولا يمكن أن أتصور أننى أكتب من غير واقعى . أتعرف أننى على صلة وثيقة بالطبيعة؟ إننى أعشقها جدا ولا أتصور مثلا أن أوجد فى حجرة لا أرى من نافذتها جزءا من السماء . وأنا ذو إحساس شديد بالطبيعة منذ طفولتى . أذكر أننى فى الثامنة من عمرى وقد كان أبى طبيبا « للخديو عباس حلمى » ذهبنا إلى جزر الارخبيل الموجودة قرب سواحل تركيا . تلك الجزر التى ذهب إليها فرجيل وهو ميروس ومن إليهما من الشعراء . وأذكر أننى أحسست بجمالها الطبيعى إحساسا مدهشا لايكاد يفارقنى . ولهذا أثره فى شعرى . فتجد أننى أصور حزنى ببعض مشاهد الطبيعة ، أكون مثلا فى موقف وداع فأتحدث عن أن الشمس تغرب :

لما بعدت عنه قليل حبيت أشوفه قبل الرحيل

بصيت وراى أبكى هواى

لقيت خياله من بين ضلوعى

عمال يغيب

والكون مراية فيها أسايه

والشمس رايحه تبكى معايه

ساعة الغروب

وهناك أمثلة أخرى تدلك على كيفية تأثير واقع حياتى فى شعرى ؛ فمثلا أنا يغلب الحزن على شعرى ، ولابد أن يكون لموت أبى وأنا صغير السن وابتعاد إخوتى عنى لانشغالهم بالأسفار ومرضى مدة طويلة أثناء

هذه الوحدة دون أن أشعر بأن هناك من يسأل عني ويهتم بي . لابد أن يكون لكل هذا تأثيره الذي يبدو بوضوح في شعري .

وبالنسبة للفكرة المختمرة أكون على وعي بالاطار العام للقصيدة ، وقد كان الشعراء قديماً يكتبون كثيرا ولكن كتابتهم كان يغلب عليها الاصطلاح . فتبدأ مثلا بالغزل ثم بعد ذلك بالفخر وهكذا . ولكني أقصد شعرنا الحديث،شعري الحاضر . والواقع أن الشعر لا نهاية له ولكن أظن أن هذا لا يتحقق إلا في حالة الفكرة المختمرة .

ويخلص الدكتور سويف من تحليلاته لمقابلاته لهذا الشاعر وغيره من الشعراء إلى القول بأن الشاعر « لايتقدم من بيت إلى بيت كما يخيل للكثيرين » .. « فهذه لحظة يبزغ فيها أمام الشاعر عدة أبيات دفعة واحدة مما يدفعه إلى الاسراع في كتابتها خشية أن يضيع أحدها ، وقد يكتب آخرها قبل أولها ... المهم أن تكتب المجموعة كلها وهي بناء متماسك منظم بمعنى أن لأجزائه دلالة حسب موضعها في الكل ، ... فالبيت مرتبط بكل منظم ..وقد أتى للشاعر مرتبطاً هكذا. كذلك نجد ساشفرل سيتول يشكو من أن القلم يكون أحياناً أبطأ من أن يلاحق بالتسجيل وابل الإلهام وقد ترددت أصداء هذه الشكوى عند الكثيرين ... ويحاول الشاعر استعادة الكل عن طريق استعادة دلالة الوثبة فيه . وكان قد فقد الصلة بالكل نتيجة لوقفته عند الوثبة وسلبيته في تلقيه لها . وفجأة وفي اللحظة التي يستعيد فيها الصلة بالكل يثب وثبة جديدة متكاملة . ومعنى ذلك أن قوى مجاله الابداعي قد انتظمت من جديد .. ومن ذلك نستنتج أن القصيدة من حيث هي عملية أو من حيث هي كل دينامي ، تتألف من وثبات لا من أبيات . ومن هنا كانت الوثبة هي وحدة القصيدة ، وليس البيت هو الوحدة كما هو شائع عند النقاد العرب بوجه خاص . فالوثبة هي الوحدة الدينامية المتكاملة للقصيدة التي هي كل دينامي متكامل . وكذلك كل عملية متكاملة لابد أن تتألف من عمليات صغرى متكاملة ،وكل بناء متكامل لابد أن يتألف من أبنية أو أنظمة صغرى متكاملة .

فى العلوم :

تقدم نموذجاالعالم الملهم كما يتبدى لنا باستعراض حياة شارلز دارون(١) الذى ولد سنة ١٨٠٩ وظهرت عليه فى صغره علامات تبشر بالعظمة التى تنتظره . ولو أنه عد من الأغبياء حين كان تلميذا بالمدرسة ، وقد بادل الدراسة نفس الشعور وتمكن من دراسة اللغة اللاتينية وحفظ الكثير من الشعر اليونانى كى يفلت من العقاب ، ولكنه نسيها جميعا بعد يوم أو يومين . وكان يعشق المعيشة فى الهواء الطلق ، كما كان يحب التاريخ الطبيعى . وكان يهوى صيد السمك وصيد الحيوان ، وجمع الكثير من بيض الطيور والحشرات من كل نوع والصخور . وكان يقضى أوقاتا طويلة فى مراقبة غارات الطيور . وقد أسماه زملاؤه بالمدرسة (جاس) لأنه كان هو وأخوه أراسموس يقضيان الساعات فى تجارب عن الكيمياء . ولما نمى ذلك إلى ناظر مدرسته أنبه علانية لاضاعته هذا الوقت . وكان دارون شديد الاهتمام بالكتب ، يمضى ساعات طوالا فى قراءة أشعار شكسبير وتمثيلياته وربما أن معلميه قد ظنوا فيه الغباء والكسل ولكن من المؤكد أن ما كان يفعله هذا الغلام كان يبشر بمستقبل باهر .

ولما رأى والده أن شارلز لم يصادفه النجاح فى مدرسته أرسله مع أخيه أراسموس لدراسة الطب فى أدنبره . بيد أن الدكتور دارون الوالد كان يائسا من ابنه الصغير فوجه إليه العبارة التالية (إنك لا تهتم إلا بصيد الكلاب والفئران وستكون بذلك عارا على نفسك وعلى أسرتك) . ومع ذلك لم يظهر شارلز أى نبوغ فى دراسة الطب ،فقدوجد أنالمحاضرات التى يحضرها فى غاية العقم كما أن منظر الدماء جعله مريضا . ولما كان معظم أصدقائه من طلبة التاريخ الطبيعى ، لذلك نراه قد أقبل على دراسة هذا النوع من العلوم أكثر من إقباله على دراسة الطب .

---

(١) سبعة من علماء الحياة - تأليف ن هـ سافورى - الألف كتاب - ترجمة حسن على العجاوى .

كشف دارون فى ذلك الوقت عن حقائق جديدة حول دودة البحر وقدم بحثا فى ذلك لجمعية التاريخ الطبيعى وعد ذلك أول كشوفه وكان ما يزال فى السادسة عشرة من عمره .

وعندما فشل فى دراسة الطب حزن أبوه لذلك . وإذ كان دارون يمضى وقته فى الصيد أو رياضة المشى أو فى مصاحبة علماء التاريخ الطبيعى ، فقد صمم والده ألا يترك ابنه ليصبح صيادا خاملا كما كان يبدو له ، فأرسله إلى كمبردج ليصير قسيسا . وبعدمضى ثلاث سنوات فى كمبردج وجد دارون نفسه ما يزال قلقا على مستقبله ، واعتبر أن الوقت الذى أمضاه فى كمبردج قد ضاع عليه كما أضاعه فى أدنبره ، ومع ذلك فقد حصل على درجته العلمية فى سهولة وما زالت هواياته منحصرة فى الصيد والتجول فى الريف . وقد وطد أواصر الصداقة بينه وبين علماء التاريخ الطبيعى البارزين فى كمبردج الذين جعلوا ينظرون بعين الاعتبار إلى ذلك الذى كانت تبدو عليه علامات الخمول وهو صغير .

كانت هواياته خليطا غريبا ، ولابد أن قد ضحك منه أصدقاؤه عندما شاهدوه يجمع الخنافس بحذق . ولقد كانت هذه الهواية تبهجه . وفى الحق لقد كان صيادا ماهرا للخنافس . وقد جمع عددا كبيرا من أنواع الخنافس النادرة ، وقد أثلج صدره عندما قرأ فى أحد الكتب التى بها مصورات للحشرات قرأ تحت بعض هذه الصور العبارة الآتية : « اقتنصت بمعرفة السيد شارلز دارون » وقد كانت المصادفة وحدها — أو قل الإلهام وحده — هو الذى غير مجرى حياة دارون إذ انحصر عمله بعد ذلك فى علم التاريخ الطبيعى بعد أن كان ملهاة له .

أعدت السفينة بيجل للقيام برحلة لمسح المحيطين الهادى والأطلسى الجنوبى ، وكانت فى حاجة إلى أحد المشتغلين بالتاريخ الطبيعى ، وكان قبطانها فتزورى يرغب فى أن يشاركه فى حجرته أى شاب من المشتغلين بهذا العلم ، واشتاق دارون أن يكون ذلك الشاب ، ولكن والده كان يشك كثيرا

فى جدوى ذلك وتساءل ما الذى يمكن أن يجعل شارلز يستقر فى هذا العمل ؟ وأضاف « إذا عثرت يا بنى على أى رجل له ذرة من عقل يوافق على ذلك فانى أيضا أوافق » فتوجه دارون لتوه إلى خاله جوسيا — ابن صانع الخزف — فتوسط له عند والده فوافق فى النهاية على سفره بالسفينة .

أقلعت السفينة بيجل فى رحلتها من إنجلترا فى أواخر سنة ١٨٣١ واتخذ دارون من حجرة القبطان مكانا لدراسته ومقامه ومعمله . وعانى دارون من دوار البحر طوال مدة الرحلة التى استغرقت خمس سنوات . ولم يكن ذلك ليحول دون مواصلة عمله ودراسته . فكان يفحص كل كائن حى بعناية سواء كان من البحر أم من البر وجمع منها الآلاف . وكان يبعث بالطرود تلو الطرود — كلما رست السفينة على ميناء ما — من الحشرات النادرة والنباتات والصخور غير العادية والحفريات كلما وقع على أنواع نادرة منها . ولم يكن يتقن الرسم ولا التشريح ولكنه كان يمضى أوقاتا طويلة فى رسم الكائنات التى يعجز عن ارسالها ، ويقوم بدراسة تشريحها . وكان يصطاد الحيوانات البحرية باستخدام كيس يدلى فى مؤخرة السفينة . ولقد لفتت نظره الحيوانات الدقيقة التى تغير لون الماء ، وسمك القهقة بالقرب من شاطىء البرازيل والأسماك التى تغير لونها ، وجمع أنواع المحار والشعب المرجانية . وتندر عليه بحارة السفينة ، فكانوا يلقبونه بجامع الذباب أحيانا وبالفيلسوف أحيانا أخرى ولكنهم جميعا أحبوه .

وولت السفينة وجهها شطر الجنوب متجهة إلى رأس سانت ياجو أكبر جزيرة فى جزر رأس فرد حيث أدهشه ما يحيط بالجزيرة من الصخور البيضاء . فحصه دارون فوجد أنه مكون من أصداف ومرجان من قاع البحر تصلبت بفعل حمم البراكين ، ثم ارتفعت فوق سطح ماء البحر ، وربما كان ذلك منثورا من بركان قديم . وكانت تلك ما تستحق الذكر بالنسبة لدارون ، فكتب عنها عندما تقدمت به السن وقال « تلك الصخور البركانية التى استظللت بها والشمس ساطعة محرقة ، وتلك النباتات الصحراوية الغريبة

القليلة تنمو بالقرب منها ، والمرجان الحى فى الماء الضحل تحت قدمى . . .
ما زال هذا المنظر ماثلا أمام عينى » .

ثم أقلعت السفينة صوب الغرب حين وصلت باهيا فى البرازيل فى أواخر فبراير سنة ١٨٣٢ ودراون ما فتىء يذكر باعجاب منظر الغابة الاستوائية ، فذكر منها النباتات الغريبة والحيوانات غير المألوفة والطيور والحشرات والأشجار الضخمة التى كانت تشدهه عجبا . وكتب بعد مضى أربعين عاما عن ذلك يقول (إن أهم ما استلفت نظرى أكثر من أى شىء آخر هو النباتات الاستوائية) . أمضى داروين ثلاثة شهور فى البرازيل حيث قام بعدة جولات فيها ، ثم أبحرت بيجل فى تؤدة نحو الجنوب بحذاء شواطىء أمريكا الجنوبية . وفى باتاجونيا عندما عثر داروين على حفريات لعظام الحيوانات التى انقرضت منذ أمد طويل ، وبدأ يأخذه العجب لماذا اختفت هذه الحيوانات من ظهر الأرض . وقام بجولات فى جميع الأماكن التى اختفت فيها تلك العظام ولاحظ أن بعض تلك الحيوانات يشبه إلى حد بعيد الحيوانات الموجودة حاليا ولكن لم تكن تشبهها تماما فتساءل عن سبب هذا التغير فى النوع . وأخذ يفكر فى الاجابة عن هذا السؤال عدة سنوات قبل أن يتحقق من الاجابة ه

وكان أن وصلت السفينة إلى منطقة صحراوية عارية جافة مغطاة بطبقة من الملح ونباتات شائكة يسكنها هنود بدائيون ، فلاحظ داروين أن هؤلاء الهنود قد طردتهم العناصر النشيطة المهجنة فى تلك المنطقة .

زارت البعثة بعد ذلك جزر فلاكلاند وشاطىء أرض دلفيجو (أرض النار) ولم يغب عن ذاكرة داروين منظر الثلاجات والأنهار المتجمدة التى تنساب ببطء نحو البحر ، والجبال المغطاة بالغابات التى رآها فى هذه الأرض العجيبة . وقد بدا له أن سكانها العراة الذين يطلون أجسامهم بالألوان كأن لم يكونوا من البشر مما جعله يفكر كثيراً فى حياة الإنسان قبل التاريخ .

وبعد المرور على رأس القرن أبحرت السفينة إلى شيلى فشاطىء بروفان ثم إلى جزر جالاباجوس حيث دهش دارون من ألفة الطيور والسلاحف الضخمة والسحالى آكلة الأعشاب البحرية ، كما لاحظ أن أنواع هذه الطيور لم تكن موجودة فى أى جزيرة منها ، بل إن كل جزيرة لها أنواع تخالف ما هو موجود فى غيرها ولو أن كثيرا منها ينتمى إلى نفس الفصيلة ، وظهر له أنه لابد من وجود سبب لهذه الاختلافات .

ثم أخذت السفينة فى عبور المحيط الهادى عن طريق جزر تاهيتى متجهة إلى استراليا ونيوزيلنده ، وشغف دارون بما رآه من شعب مرجانية فى جزيرة كيلنج ، ووجد أن هناك شعبا مرجانية حلقية ومنحنية وسط المحيط فتساءل عن سبب تكوينها فى هذا القاع .

ولاحظ دارون أن الشعب تحيط بالجزر الاستوائية ، وتذكر بل فطن إلى أن ذلك يرجع إلى ارتفاع وانخفاض القشرة الأرضية ، ويحدث أن مثل هذه الجزر تغطس أحيانا تحت سطح الماء وربما ترسبت عليها وهى فى هذا الوضع الحيوانات المرجانية وقد أحدثت فيها بعد ذلك بسنين كثيرة ثقوبا عميقة . ولقد ثبت أن دارون كان مصيبا فى رأيه .

ورجعت السفينة بيجل عن طريق المحيط الهندى مارة برأس الرجاء الصالح ووصلت انجلترا فى أواخر سنة ١٨٢٦ وكانت فرحة دارون عظيمة برجوعه إلى وطنه ثانية . ولما قيل إن رحلاته لم تكن بذات فائدة قال (إنى لا أستبدل بما تعلمته منها عشرين ألف عام) ، وذلك بفضل ما استلهمه من المشاهد التى وقع عليها بنفسه ، وما انتهى إليه من نتائج شكلت فلسفة تطورية انسحبت على مجالات كثيرة متباينة بما فيها المجالات الإنسانية .

الفصل التاسع

اعداد الذات لاستقبال الالهام

الإعداد البيولوجي :

نحن نعلم أن الانسان محكوم فى عواطفه وأفكاره بما يسود تكوينه الجسمي من مقومات . ذلك أنه كائن حى أولا وقبل كل شيء . على أن ذلك الكائن الحى يقع فى قمة هرم الكائنات الحية ، وذلك بفضل تعقد ودقة أجهزته الجسمية وعلى رأسها جهازه العصبي وما يؤثر فيه من مستوى صحى عام من جهة ، ومن هورمونات تفرزها الغدد الصماء من جهة أخرى . ناهيك عن الخبرات التى تظل قائمة ومختزنة ومتفاعلة بعضها مع بعض بطريقة تراكيبة ومعقدة أشد التعقد فى نطاق ذلك الجهاز . والواقع أن اللغز الذى سيظل يحير العلماء هو لغز التفاعل الخبرى الذى يضطلع به مخ الانسان . ولعل المخ البشرى هو المخ الوحيد من بين أمخاخ جميع الحيوانات الأخرى الذى يتم فيه تفريخ الأفكار وتناسلها بعد أن تتزاوج أو تتلاقح فيما بينها . ولكأن الأفكار والعواطف الإنسانية تشكل مجتمعاً قائماً بذاته فى مملكة خاصة به هى مملكة الخبرات التى تحتل مكانا لها فى غياهب وسراديب المخ .

والمهم أن الإنسان لكى يعد نفسه وجدانيا وعقليا فيصير شخصية ملهمة ، عليه أن يبدأ بإعداد نفسه لذلك بيولوجيا قبل إعداد نفسه بأى شيء آخر . ولا شك أن هذه الحقيقة قد اتضحت أمام أنظار الأنبياء والقديسين والرهبان والمتصوفة فى الأديان المتباينة من يهودية ومسيحية وإسلام ، بل ومن بوذية وكونفوشية وغير ذلك من أديان سماوية وغير سماوية . فأخذ الجميع باعتقاد شبه متطابق يؤكد أن ثمة مواصفات جسمية معينة يجب أن تتحقق للمرء لكى يقترب من مستوى روحى معين يكون عنده قابلا لتلقى

الإلهام . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن الحكماء والفلاسفة والعلماء أيضا قد آمنوا فى معظمهم بهذه الحقيقة فأخذوا أنفسهم بنظام معين فى المأكل والمشرب والنوم والعلاقات الجنسية والملبس اعتقادا منهم أن ثمة ارتباطا وثيقا بين الحالة الجسمية التى يكون عليها المرء وبين ما يمكن أن يتأتى له من فكر صائب ومن إلهام لدنى أو استلهام لحقائق الوجود من حوله .

ولا شك أن هناك علاقة أكيدة بين نوعية الطعام الذى يتناوله المرء وبين حالته الوجدانية والذهنية . ونستطيع أن نقرر أن الشخص الأكول النهم يقترب فى وجدانه وفكره من مستوى الحيوانات . وحتى إذا وجدنا فى تاريخ بعض العباقرة من يقال عنه إنه كان محب الطعام ، فيجب أن نعلم أن من بين الناس من يتناوبون على أساليب سلوكية متناقضة . فلقد تجد أن أحد الأشخاص يمعن يوما فى اتجاه ، بينما يمعن يوما آخر فى اتجاه مضاد. فتجد شخصا يقبل على الطعام بنهم وجشع فى أحد الأيام ، بينما تجده زاهدا تمام الزهد فيما يأكل بحيث يتم انقطاعه عن الطعام فترة طويلة أو هو يتناول أقل الأشياء ثمنا أو قيمة بل وأقل كمية منه لا تكاد تكفى لسد رمقه ويظل على هذه الحال لعدة أيام أو أشهر . ونحن نعرف جيدا من دراستنا للشخصيات الإنسانية هذا النوع القلب الذى يشبه بندول الساعة فيما يتعلق بتغيير اتجاهه من أشد اليمين تطرفا إلى أشد اليسار تطرفا .

وما يقال عن الطعام بازاء هذه الفئة البندولية ، يقال أيضا عن الجنس. فالواحد من هذه الفئة يغوص إلى أم رأسه فى الشهوات الجنسية بضعة أيام، ثم ما يفتأ أن يصوم صياما تاما عن الجنس فترة من الزمن تقصر أو تطول .

ولكن بغض النظر عن هذه الفئة البندولية ، فإننا نجد الفئتين الأخريين الثابتتين : أولاهما : فئة الشهوانيين ثم فئة القانعين . ناهيك عن فئة المتوسطين الذين يغلب انتماؤهم إلى كفة الفئة الأولى أو إلى كفة الفئة الثانية من هاتين الفئتين . ولذا فإننا نعفى أنفسنا من الاعتراف بوجود هذه الفئة التى يطلق عليها المعترفون بها اسم فئة المعتدلين .

وعلى أية حال فما يهمنا فى هذا الحديث هو فئة القانعين الذين نجد على رأسهم صفوة مختارة هم الملهمون . والواقع أن هؤلاء الصفوة يدربون أنفسهم تدريجيا وفى خطة دائبة على التخلص من الزيادات فى حياتهم . فهم يتجنبون ما يزيد عن حاجة الجسم من النوم ، بل إن البعض منهم قد يستغنى عن ممارسة الجنس استغناء تاما بغير أن يحس الواحد منهم بأى حرمان أو تعطش أو تحرق أو هيام أو جوع جنسى مؤرق . ذلك أن الجنس بالنسبة للانسان وإن كان يشكل حاجة من ضمن الحاجات الأساسية كالطعام والنوم بالنسبة للانسان العادى ، فإنه ليس كذلك بالنسبة لأولئك الذين أخذوا أنفسهم بنوع معين من التدريب على الزهد وتهيئة أجسامهم وفق نظام بيولوجى معين ؛

والواقع أن الشخص الملهم يكون قد آمن بوجود تضاد أو حتى تصارع ومناهضة بين المناشط الجسمية وبين المناشط الذهنية والروحية . فبينما يجذب الجسم صاحبه إلى أسفل ، فإن العقل أو الروح تجذب المرء إلى أعلى. وبتعبير آخر فإن ثمة نسبة عكسية بين شهوات الجسم وبين شهوات الروح. فالملهم يتحيز إلى شهوات الروح ويعمل على دعمها بالتدريبات الذهنية والروحية من جهة ، وبالتدريبات الجسمية التى تعمل على التخلص من معوقاته من جهة أخرى . وليس هذا فى الواقع بالأمر المستغرب حتى من زاوية حياتنا المعاصرة المتسمة بالمادية غالبا . فنحن نشاهد أن الغالبية العظمى من الاتجاهات الصحية التى ينادى بها الطب الحديث تذهب إلى مبدأ التخفف من الشهوات الجسمية سواء فى الأكل أم فى الجنس أم فى النوم . ولقد أثبتت الاحصاءات والملاحظات اليومية أن الأشخاص — بل والشعوب — الأكثر تخففا من هذه المقومات الثلاثة هم فى نفس الوقت أكثرهم تمتعا بالصحة وأكثرهم قابلية للتعمير بغير إصابة بالأمراض التى تعرف حاليا بأمراض الحضارة .

ولعلنا نلاحظ أيضاً أن ما تذهب إلية الحضارة الإنسانية الحديثة من ترف توفره لأبنائها إنما كان فى الواقع على حساب صحتهم الجسمية والنفسية

والعقلية جميعاً . فوسائل الانتقال الحديثة قد جعلت الإنسان الحديث محروما من المشى ومن استخدام عضلاته وبالتالى فإن شرايينه تصلبت وعضلاته ضمرت وتقلصت . وكذا فإن الخبرات الجاهزة التى تقدمها المدارس ووسائل الإعلام قد أفقدت الإنسان الحديث الرغبة فى البحث والتنقيب عن المجهول . ولماذا يبحث وينقب والخبرات جاهزة تقدم إليه بوفرة بالكتب وبالإذاعات والبرامج التليفزيونية ؟ إننا نستطيع أن نقرر بصراحة أن الحضارة الإنسانية فى تقدمها التكتولوجى قد سارت فى خط مضاد لتقدم الإنسان صحياً ونفسياً وذهنياً . ولا يغرنك ما نشاهده من مساندات طبية ترقيعية تقى الإنسان الحديث شر الموت ، ولكنها لا توفر له المستوى الصحى السديد . فلا شك أن إنسان الحضارة كائن حى ذابل العضلات كسيح الرجلين ضعيف الذراعين واليدين . وشكرا للملابس التى افتتنت فيها الحضارة بحيث صارت تغطى أجسادا هزيلة معوجة وشائهة. ولا ننسى أن نقول إن إنسان الحضارة وبخاصة فى المدن قد فقد الهواء النقى يستنشقه والهدوء يريح أعصابه الهائجة بسبب الضوضاء . ناهيك عن العلاقات الاجتماعية الشكلية التى لا تنبنى على أساس طبيعى ، بل تقوم على أساس وظيفى موقفى مما جعل الإنسان الحديث يمثل باستمرار أدواراً ليس لها رصيد من المشاعر الحقيقية . فما يأتيه الإنسان الحديث من ابتسام أو عبوس لا يكون صادرا عن قلبه ولا يكون تعبيرا عن مشاعر حقيقية تعتمل فى أنحائه ، بل يكون غالباً مجرد وظيفة تؤدى فى المواقف المتباينة .

كل هذا جعل فئة القانعين وبخاصة فئة راغبى الإلهام يعمدون إلى التخفف من وطأة الحضارة والعودة إلى ما يشبه أن يكون لاحضارة . فهم يعطون أنفسهم إجازة من الضغوط الحضارية وبضمنها الضغوط الغذائية ونحوها . فالتقليل من الطعام بالتدريج — وهو ما يسمى على الألسنة الشائعة بالرجيم — هو الخط الذى يقفونه. فالقليل من الطعام أفضل من كثيره ، والقليل من الجنس أفضل وأمتع وأدوم للمرء ، والقليل من النوم ألذ وأعمق . ناهيك عن أن التقليل فى هذه المناشط الثلاثة يوفر للإنسان عمراً

أطول . ذلك أن المتخفف من الأكل والجنس والنوم يعيش بصحة جيدة ولعمر أطول فى الغالب . ناهيك عن أن قلة النوم معناه إضافة ساعات يقظة تحسب لصالح المرء وتطيل مدة حياته الشعورية . فمن بلغ الأربعين من فئة الملهمين قد يناظر فى عمره من بلغ السبعين مثلا من فئة النهمين فى النوم . فالملهم يحيا حياته بالطول والعرض على السواء . فاحتمال طول عمره الزمنى قائم ، كما أن زيادة ساعات يقظته خلال كل يوم يحسب أيضاً ضمن عمره ، ناهيك عن أن الشخص الملهم هو أيضاً شخص يقضى حياته فى أشياء ذات قيمة عالية ، بحيث يمكن القول إن حياة الواحد من الملهمين تساوى حياة عدة أشخاص مجتمعين من غير الملهمين : ونذكر بأننا قد توسعنا فى معنى الإلهام ولم نقتصر على المعنى الدينى فحسب .

ولنا أن نتوقع اكتشافات طبية هامة فى المستقبل القريب حول الطعام والجنس والنوم سوف تغير من موقف إنسان المستقبل فينحو إلى التخفف مما يرزح تحته إنسان الحضارة الحالى من أثقال جسمية ينوء بها ظهره .

الهضم الخبرى :

سبق أن قلنا إن منهج تهيئة الذات بيولوجيا للالهام يقضى بضرورة التخلص من الزيادات البيلوجية ، والحيلولة دون تقبل زيادات بالجسم أو نوال قدر كبير من النوم يمكن الحد منه أو تقليصه ، وكذا الحد من النشاط الجنسى إلى أقل قدر ممكن وإن أمكن فالاستغناء تماما عن الممارسات الجنسية بشرط ألا يؤدى كل هذا إلى انهيار المرء أو إصابته بالشقاء أو إلى إحساسه بالحرمان أو الندم على ما فاته من لذائذ . وقلنا أيضاً إن المنهج الإلهامى يقضى بضرورة التدرب المستأنى والمتواصل بحيث لا ينتقل المرء من حال إلى حال مناقضة فوريا وطفره واحدة ، لأن مثل هذا الانقلاب أو هذه الفجاءة تشكل خطرا على كيان المرء من جهة ، كما أنها تجعله فى نفس الوقت ومن جهة أخرى عرضة لأن ينقلب مرة ثانية إلى النقيض ، أعنى إلى ما كان عليه قبلا . وهذا التذبذب هو ما تتسم به الفئة البندولية التى أشرنا إليها قبلا .

والواقع أن ما يقال عن الطعام يتغذى به الجسم وما يقال عن النوم والجنس ينسحب بنفس القدر من الصدق بإزاء الخبرات المعرفية والوجدانية والأدائية . فما يتم تعلمه بالنسبة لأى إنسان يتخذ له طابقين فى شخصيته أو يمكن أن يتخذ له طابقاً واحدا من هذين الطابقين . أما الطابق الأول فهو ما نسميه بالتحصيل الخبرى . أما الطابق الثانى فهو ما نسميه بالهضم الخبرى . فدارس الفلسفة مثلا عليه أن يحصل المعارف الفلسفية ويتقنها . ولكن دراسته للفلسفة لا تعنى بالضرورة أن يصير فيلسوفا . ونحن نعلم أن الغالبية العظمى من دارسى الفلسفة لا يستحيلون إلى فلاسفة ، بل يظلون محصورين فى نطاق التحصيل الخبرى الفلسفى . ولكن ثمة قلة قليلة من دارسى الفلسفة يرتفعون إلى الطابق الثانى الأعلى فيكون لكل واحد منهم فلسفة خاصة به يستقل بها عن سواه ، بحيث يقدم بناء فلسفيا لم يسبق لأحد أن قدمه.وبذا يحتل مكانا خاصاً به بين الفلاسفة الذين يجدر بدارسى الفلسفة دراسة فكرهم والوقوف على مناحى فلسفتهم .

وعلى الرغم من أن دراسة الفلسفة تشكل قواما ضروريا بالنسبة لمن يريد أن يحتل الطابق الثانى ، أى عندما يرغب فى أن تكون له فلسفة خاصة به ، فإننا مع هذا نستطيع أن نقرر أن إتخام الذهن بالمواد الفلسفية يمكن أن يشكل عائقا أمام المرء يحول بينه وبين الصعود إلى الطابق الثانى ، أى يحول بينه وبين تقديم فلسفة مستقلة خاصة به . وبتعبير آخر فإننا نقرر أن بعض التحصيل الفلسفى — وغير الفلسفى — يمكن أن يشكل تخمة خبرية لا تقل خطورة أو ضررا عن التخمة تصيب المعدة وتفسد باقى أجهزة الهضم . فكما أن تناول الطعام بكثرة ضار بالإنسان وقد يكون فى زيادة الطعام ما يقتل أو ما يصيب بالمرض أو ما يعمل على تقريب الأجل ، كذا فإن الزيادة فى التحصيل الخبرى تعمل على الحيلولة بين ذهن المرء وبين هضم الخبرات التى تم له تحصيلها .

وكما أن هضم الطعام يحتاج إلى نشاط هضمى من جانب المعدة والكبد وغيرهما من أجهزة الهضم ، كذا فإن الخبرات التى يحصلها المرء من

الكتب وغيرها بحاجة إلى جهد ذهنى ووجدانى آخر مباين للجهد المبذول فى التحصيل . إنه جهد هضمى وليس جهدا تحصيليا . فبعد أن يتم لك تحصيل أو حفظ العديد من القصائد الشعرية ، فإنك تكون بحاجة إلى عملية تأملية أخرى مباينة لمجرد عملية الحفظ التى اضطلعت بها حتى يتسنى لك أن تقرض الشعر . وشاهد ذلك أننا نجد العديد من حفاظ الشعر الذين أتموا الحفظ على خير وجه كما وكيفا لا يتسنى لهم قرض الشعر . ولقد يذهب البعض إلى أن عدم قرض أولئك الناس للشعر إنما يعود إلى عدم إحرازهم لموهبة قرض الشعر . والواقع أن السبب قد لا يكون افتقارهم إلى الموهبة ، بل قد يكون اكتفاؤهم بالحفظ دون الهضم . فالحفظ تقبل والهضم استيعاب وامتصاص بحيث يصير المحفوظ من لحم الكيان الذهنى للمرء . ..

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن الإلهام لا يتأتى لأى إنسان إلا إذا مر بمرحلة التحصيل ثم بمرحلة هضم ما سبق له تحصيله . ولعلنا ننعى على المنهج الذى يذهب إليه ويتخذه معظم الدارسين وننعته بأنه منهج اجترائى ، حيث يظن الواحد منهم أنه انتهى إلى أعلى مرتبة يمكن أن يصل إليها إنسان بمجرد شحن ذهنه بالمعلومات ولمجرد أنه متمكن مما حصله واستوعبه كما كان فى أصله لدى تحصيله له . والواقع أن مثل هذا المنهج الذى يعتمد على التحصيل والتوقف عند هذا الحد هو منهج تقبلى نقلى لا يكون المكتفى به بأكثر من نسخة مكررة مما قام بتحصيله .

وكما أن الإلهام لا يتأتى لأحد الكتب ، بل يظل الكتاب مشتملا على مافيه دون تحول أو تطور ، كذا يكون الحال بالنسبة لأولئك الذين يقتصرون على التحصيل الخبرى المعرفى وغير المعرفى ولا يتخطونه إلى مستوى الطابق الثانى ، أعنى الطابق الخاص بالهضم الخبرى .

ولسنا نزعم أن الإلهام يتأتى بالضرورة لمن يتسنى لهم القيام بالهضم الخبرى ، أعنى أن بعض من يتسنى لهم الهضم الخبرى لا يحظون بالإلهام ولا يتقدمون بجديد جدة تامة أو يشقون طريقا جديدة لم يسبق لغيرهم أن قام بشقها .

فالواقع أن الإلهام – كما سبق أن قلنا – هو عطية توهب وليس عملية تؤدى . فأنت عندما تضطلع بالتأمل أو بغيره مما يساعد على هضم الخبرات التى سبق لك أن حصلتها ، إنما تكون بذلك قد أعددت نفسك لاستقبال الإلهام فحسب ، ولا تكون بالضرورة قد أمسكت بالإلهام . فأن تحصل على الإلهام لا يعنى أنك بمجهودك وبقدرتك قد حصلت عليه ، بل يعنى فقط أنك اجتهدت فى أن تهيىء نفسك بحيث صرت بمثابة جهاز التقاط لاسلكى يستطيع التقاط الإشارات اللاسلكية التى توجد من حوله .

فالهضم الخبرى إذن ضرورة لامناص منها قبل التطلع إلى الحصول على الالهامات المتباينة . ولعلنا نقرر أن الهضم الخبرى يتشعب إلى هضم خبرى معرفى ، وهضم خبرى وجدانى ، وهضم خبرى أدائى . فبالنسبة للهضم الخبرى المعرفى ، فوسيلته التأمل المنطقى والغوص إلى العلاقات التى يضطلع الإنسان باكتشافها بنفسه . والهضم المعرفى لايعنى الاقتصار على إقامة علاقات محدودة بحدود الموضوع المعرفى الراهن الذى يكون المرء قد حصله ، بل تكون العلاقات المبتغاة علاقات آنية خاصة بالموضوع المدروس من جهة ، وعلاقات متشابكة وعامة حيث يربط المتأمل بين ما حصله من الموضوع المدروس وبين جهازه المعرفى وحصيلته الخبرية برمتها التى سبق له إحرازها من جهة أخرى . وبتعبير آخر فان المتأمل فى هضمه للخبرات الجديدة يستعين بكل ماسبق له تحصيله وهضمه فى موقفه الجديد . فالأمر هنا يتضمن عمليات ديناميكية ، بل ويتضمن مركبات لا تقل تعقدا عن المركبات الكيميائية الشديدة التعقد . فالفيلسوف فى تأمله للحقائق الفلسفية يترك نفسه يسبح ولكأنه يوجه ذهنه ولكن فى نطاق دوائر واسعة جدا بحيث لايسير فى خط واحد مرسوم . فتلك الدوائر الواسعة جدا تتضمن ملايين الخطوط التى يمكنه الاختيار من بينها . فهو وإن كان يوجه ذهنه بحيث لا يخرج عن إطار تلك الدوائر الواسعة ، فإنه يتمتع بحرية كبيرة جدا ، لأن الدوائر التى يلتزمها هى دوائر واسعة لا تعمل على تقييد حركته ولا تقسره على انتهاج خط بالذات . ونستطيع أن نسمى هذا الموقف التأملى بالتسكع التأملى .

ذلك أن الفيلسوف عندما يفرض على نفسه التفكير فى الفلسفة ، والرياضى عندما يلزم نفسه بالتفكير فى نطاق الرياضيات ، ورجل الدين أو الناسك عندما يلزم نفسه بالتفكير فى إطار الدين ، فإنهم جميعاً يتمتعون بالحرية التأملية التى تسمح لهم بالتسكع التأملى . ونعنى هنا بالتسكع عدم الالتزام بخط مرسوم من قبل ، كما سبق أن أوضحنا فى موضوع التسكع الإلهامى . فهم يتركون الذهن يسبح فيما يرغب هو فى التوجه إليه . وهم أيضاً لا يفرضون على أنفسهم نتائج معينة ، ولا يحددون لأنفسهم شروطاً لقيمة مايتوصلون إليه من نتائج . فالفائدة أو القيمة لايقعان فى حسبان المتسكع التأملى . إنه يترك نفسه على السجية وكل ما يترقبه هو الحصول على إلهامات ربما تواتيه بين لحظة وأخرى ، وهى كما قلنا ليست مستمدة من عناصر الموقف بل يحصل عليها المرء من الخارج أو من باطن المركبات الخبرية المعقدة جدا ، وهى نتاجات تقفز قفزا إلى الذهن وتومض ومضا مفاجئا ويكون على المرء التقاط تلك الومضات الإلهامية لحظة بزوغها إلى الذهن .

وما يقال عن الهضم المعرفى ينسحب أيضاً بإزاء الهضم الوجدانى . ومثل هذا الهضم يجب أن يتأتى للفنانين الأدباء . فبعد أن يمر الفنان والشاعر فى مرحلة جيشان الانفعال ، فإن عليهما أن يهضما ما اعتمل فى القلب من وجدان وما اشتعل فى الجنبات من عواطف . فالهضم الوجدانى الانفعالى ضرورى لكى يتسنى لهما تجهيز الذات لتقبل الإلهامات الفنية أو الأدبية . وعلينا أن نقرر أيضاً أن الهضم الفنى والأدبى بحاجة إلى التمرس بالهضم الأدائى لفنون التعبير الفنى أو الأدبى .

ومعنى هذا فى الواقع أن الهضم الأدائى — وهو النوع الثالث من الهضم الخبرى — يشكل قواما أساسيا فى الإبداع الفنى . ولكأن اليد تفكر ولكأن القلم والورق والتمرس بالكتابة تشكل مقوما هضميا لامناص منه فكما أن الهضم التذوقى فى الفن والأدب ضروريان ، كذا فإن التمرس الأدائى المهضوم ضرورى حتى يتسنى تقبل الإلهام .

التخفف من الهموم :

يقول الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل إن الفلسفات الكبرى والمكتشفات العظيمة والمخترعات الرئيسية والأشعار الخالدة والقصص العالمية الواسعة الانتشار والتى تعتبر دعائم أساسية فى الأدب العالمى لم تصدر إلا عن عقول أناس تمتعوا بالفراغ . وهو لايقصد عدم الارتباط بأعمال ملزمة خارجية فحسب ، بل يعنى فراغ الذهن من المشاغل والهموم النفسية . ذلك أن الإلهام لايهبط على عقل مشغول بأشياء متباينة ، ولا يداعب شخصية مضطربة وقد مزقتها المشاغل والارتباطات شر ممزق .

وحتى بالنسبة للشخصيات الاجتماعية التى يبدو أنها ممزقة بالمشاغل والقيود الخارجية ، فإن العباقرة من تلك الشخصيات كانوا يهيئون لأنفسهم الظروف والشروط اللازمة لاستقبال الإلهام . فإذا أنت تناولت حياة إحدى هذه الشخصيات من أمثال نابليون أو جورج واشنطون أو محمد على الكبير مثلا ، فإنك سوف تجد أن الواحد منهم كان ينزوى فى ركن قصى ويعطى نفسه الفرصة الكافية لخلو البال من المشاغل بحيث يتسنى له إزاحة كابوس الهموم عن نفسه . ولقد تقول إن السياسيين الكبار قد حظوا بخصيصة لاتكاد تتوافر للشخصيات العادية ، هى القدرة على الانسحاب خارجيا وداخليا إلى العالم الشخصى الخاص بالمرء بحيث تكون لهم خلوات شخصية بحتة وبحيث ينشغل الواحد منهم فى أمور بعيدة كل البعد عن السياسة وأمور الحكم . ولقد يجد أحدهم نفسه فى صيد السمك ، والآخر فى مداعبة كلابه والعناية بحظائر الطيور ، أو الخروج إلى الحقول والمشاركة فى الزراعة أوفى قطف بعض ثمار الفاكهة . وقد يخلع أحدهم عنه ملابسه التى اعتاد أن يقابل الناس بها ، ويرتدى مايشاء من أزياء ويتخفى وينخرط فى ركب العامة حيث لايعرفه أحد فيكتشف بذلك نفسه من جديد كواحد من الشعب ، وقد خلع عن نفسه كل مايربطه ويقيده بسدة الحكم وهيبة السلطان .

وبالنسبة للأشخاص العاديين الذين لا سلطان لهم كالفنانين والكتاب والشعراء والمفكرين بعامة فإنهم يحاولون أيضا أن يتخلصوا كلما تسنى لهم ذلك من هموم ومشاغل الحياة التى تربطهم بالواقع الصاخب من حولهم بحيث يجد الواحد منهم نفسه وجها لوجه أمام ذاته بغير ارتباط واقعى اجتماعى أو عقلى أو وجدانى بالآخرين بما فى ذلك أقرب الناس إليه . ولكن المهم ألا تكون تلك الخلوات شكلية صورية ، بل تكون بالفعل تخففا من الهموم وتفرغا تاما للحضور الذاتى . ذلك أن الواحد منا لا يكاد يستطيع أن يجالس ذاته الحقيقية ، بل هو فى الأغلب مشدود إلى الآخرين. فهو يفكر وينعطف إلى الخارج ولا يفكر إلى الداخل ولا ينعطف إلى قوام ذاته .

ولعلنا نقول إن التفرغ من الهموم ليس مجرد انسحاب من الخارج ، بل هو يتطلب أولا التخلص بالفعل من المشكلات وحالات الترقب والتوقع. وهذا يتطلب بيع العالم والتخفف من أثقاله . والواقع أن المرء لا يستطيع أن يعبد سيدين : الأول — العالم بارتباطاته ومطامعه ومطامحه ، والثانى — الإلهام بأسراره التى لا تتكشف ولا تهبط على من يقيم روابط بالعالم ومشاغله. فأنت إذن أمام خيار من خيارين : إما السعى فيما يضطرب فيه معظم الناس من أمور الحياة ، فلا يكون لك نصيب من الإلهام يهبط عليك ، وإما أن تختار البحث عن الكنز المطمور أو عن الجوهرة الثمينة التى يجب أن تكرس كل جهدك من أجل الحصول عليها . فإذا كنت قد تخرجت فى إحدى كليات الطب مثلا ، فإنك ستجد أمامك هذين الطريقين لتختار واحداً منهما . الطريق الأول — أن تخطط لفتح عيادة وأن تنشر نفسك بين أكبر عدد من المرضى لعلاجهم فتحصل بذلك على المال والشهرة ، وإما أن تواصل المسيرة الإلهامية فى مجال الطب ، فتبحث عن مجال لم يسبقك أحد إليه كأن تحصر جهدك وذكاءك فى أحد الأمراض النادرة التى لم يعرف أحد لها علاجا ، فتقضى السنوات دارسا ومجربا ومنقبا عما كتب وما سبق أن توصل إليه الآخرون شرقا وغربا فى هذا المضمار ،

ومستلهما الحقائق التي تتجمع بين يديك علك تقع فجأة على العلاج الصائب . وطبيعى أنك قد تحظى بالإلهام المطلوب وقد لا تحظى به . وطبيعى أيضا أنك سوف لا تحظى بمال أو بشهرة على المستوى الشعبي . وأكبر ما يمكن أن تحظى به هو أن يذكر أسمك (أو لا يذكر) بين السطور العديدة فى أحد المراجع التي لا تتناولها إلا أيدى المتخصصين جداً فى النقطة التي تكون قد انفقت حياتك فيها .

فالثمن الذى يدفعه الملهمون ليس بالثمن الرخيص . فالمشهورون من الملهمين لا يكادون يشكلون سوى قلة نادرة من بين ملهمين عديدين عاشوا وماتوا وقد تركوا بصماتهم قوية ورائعة فى المجالات التي الهموا فيها ولكنهم ظلوا مطمورين لا يكاد يعرف عنهم أحد شيئاً . فحظ الشهرة لا يواكب إلا العدد القليل من الملهمين . وحتى تلك الشهرة التي يحظى بها الموهوب الملهم هي فى الغالب شهرة بين الخاصة المتخصصين وليست شهرة بين العامة . وشاهد ذلك ما تراه من شهرة واسعة يحظى بها أحد المطربين الناشئين بينما لا يكاد اسم واحد من واضعى السيمفونيات العالمية يعرف إلا عند من يقدرون الفن الرفيع الذى لا يواتى إلا صفوة المتذوقين للموسيقى العالمية واللحن الرفيع .

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن الطموح إلى المجد والشهرة والثراء يتعارض تعارضا كاملا مع الإلهام . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن إرضاء المعلمين بالمعاهد أو الجامعات وأخذ موافقة وتأييد الآخرين من حول المرء على النهج الذى يسير وفقه كثيراً ما يتعارض تعارضا جذريا مع الإلهام. ولقد ضربنا مثلا بشارلز داروين وكيف أنه كان خارجا عما رسم له من دراسة . ذلك أن الإلهام يتسم أولا وقبل كل شيء بالجدة التامة . وبتعبير آخر فإن الضرب فى إثر الآخرين أو حتى الامتداد بالخطوط التي سبق أن حددوا مسارها لا يقع فى نطاق الإلهام من قريب أو من بعيد . فشرط الإلهام ما يمكن أن نسميه بالخروج عن الخط المرسوم ورسم خط جديد تماما.

ومعنى هذا فى الواقع أن الإلهام يتطلب التفردية وقطع أواصر التبعية بالآخرين . فالملهم شخص يشكل عالما قائما بذاته ، أو هو كائن ذو محور مستقل يدور حوله ليس له صلة بالمحور الذى يدور حوله سائر الناس من حوله . فهو وإن كان يتأثر بالمؤثرات المحيطة به ، فإنه لا يتقبل تلك المؤثرات كما هى بل هو يعتصرها اعتصارا ويمتصها امتصاصا ، ويتفاعل معها تفاعلا بحيث يحيلها إلى قوام من قوامه وإلى عصارة من عصارته وإلى لحم من لحم جوهره .

ونستطيع القول إن الملهم هو شخص مستقل عن الآخرين ، وقد صار طافيا على السطح يرى الآخرين ولكن من بعد ، ويتأمل الوجود من حوله بغير أن يكون ملاصقا لذلك الوجود . ولكأنه بمثابة إله أرسطو الذى وصفه بأنه يدرك الوجود من حوله بغير أن يتأثر أو أن ينفعل عما يدور فيه . ولكأن الملهم شخص قد جمع مجموع وجداناته فيما يصب إليه جهده النفسى . ولذا فانك تجد الملهمين وقد فطموا فعلا عما حولهم ، ولم يعودوا يرتبطون وجدانيا بالأشياء والأشخاص ، ولم يعودوا يعبأون بالمظاهر الخارجية أو بما يتم لهم إحرازه بالمجتمع من شهرة أو ذيوع صيت أو بما يقرره لهم الناس من فضل أو ما يعترفون لهم به من عبقرية . يكفيهم ما يلتذون به فيما يلهمون به .

ولعلنا نضيف إلى هذا أن من خصائص الملهم التفرغ لما يعمل فيه فى ذاته ، بغير نظر إلى العمليات التالية التى يمكن أن تتأتى عما يضطلع به آنيا . خذ مثالا لذلك بواحد مثل فان جوخ الذى كان يرسم اللوحات بكثرة متكثرة إلى أن ضاق المكان بلوحاته . فكان يضع ما انتهى من رسمه تحت سريره . فهو لم يكن يرسم ليبيع لوحاته أساسا ، بل كان إقبال الناس على شراء هذه اللوحة أو تلك شيئا عارضا . فسواء بيعت لوحاته أم لم تبع ، فإنه ظل مستمرا فى الرسم بنهم لا يقبل التوقف . وهذا واضح فيما سبق لنا ذكره عنه قبلا .

ولكأن المرء قد اشتمل على طاقة حيوية معينة . وتلك الطاقة إما أن تتوزع بين الخارج والداخل بنسب متباينة ، وإما أن تتركز بالخارج ، وإما أن تتركز بالداخل . وبالنسبة للملهم فان تلك الطاقة الحيوية تتركز تماما أو بدرجة شبه تامة بدخيلة المرء . وبذا فان ارتباطاته وهمومه لا تكون سوى ارتباطات وهموم داخلية هي هموم الإنتاج الإلهامي فحسب. ولعل أهم ما يحرص عليه الشخص الملهم هو إسقاط عنصر الزمن من حسابه . فهو لا يرغب فى الارتباط بمواعيد مع أحد . إنه ينكر التمييز بين نهار وليل ، أو بين شتاء وصيف . وقد ينسى موعد تناول الطعام أو حتى موعد عقد قران حتى وإن كان موعد قرانه شخصياً كما حدث لأحد العلماء وقد نسى موعد قرانه وكان المدعوون فى انتظاره . فان دل هذا على شيء فانما يدل على شدة انقطاع الصلة بين الملهم وبين هموم ومشاغل العالم الخارجى . وبتعبير آخر فان الشخصية الملهمة تركز كل همومها فى المجال الذى كرست نفسها لأجله . ومن هنا فان حكم الناس على الملهم لا يكون لصالحه فى الغالب لأن ما يتسم به من عدم اكتراث بما وبمن يحيطون به وخلو باله من الهموم والارتباطات لا يجعل منه شخصية اجتماعية ناجحة . ولعل أن تكون هذه هى ضريبة العبقرية والإلهام .

ساعات الخلوة اليومية :

قلنا إن من أهم شروط تهيئة النفس لتلقى الإلهام — سواء كان إلهاما خارجيا من الواقع الخارجى الروحانى وغير الروحانى ، أم كان إلهاما متفتقا من دخيلة المرء ، أعنى من قوامه الخبرى المركب والمعقد أشد التعقد — هو شرط الخلو إلى النفس ، ومن ثم التحرر من الضغوط الخارجية التى تطمس معالم الشخصية وتجعل المرء كيانا آخر غير كيانه الحقيقى ، أو بتعبير آخر تلك الضغوط التى تجعله مجرد ناقل لما يصدر إليه ، أو التى تجعله مجرد مرآة عاكسة لما يوجه إليه من أضواء أو صور . ولا شك أن احتفاظ المرء بكيانه الذاتى وبجوهره بغير تزييف إنما يتطلب استرجاع الكينونة الذاتية كلما بدأت الضغوط الخارجية فى طمس معالمها . ذلك أننا فى خضم العالم من حولنا —

وهو العالم الزاخر بالضغوط الحضارية المتباينة والمتكثرة كلما أخذت الحضارة فى التقدم والتعقد — نفقد الكثير جدا من أصالتنا ومن قوامنا الحقيقى . بيد أن جوهر وجودنا يظل موجودا وإن تغطى وتغلف بتلك الركامات الحضارية وبما تفرضه علينا الشواغل والمشتتات الخارجية . ولكأننا كنز مطمور يجب أن تزاح عنه الأتربة التى تراكمت عليه فخبأته عن الأعين ونأت به عن الظهور للعيان . فثمة إذن حاجة ملحة لجلو شخصياتنا ، وإزالة ما سبق أن علق بها من ركامات وأتربة وتعلقات خارجية تبعد بها عن حقيقة وجودها .

والواقع أنه لا سبيل إلى استرجاع ذواتنا وجواهرنا الحقيقية إلا باتباع نظام معين يضمن لنا استرجاع ما فقدناه ، أو بتعبير آخر إزاحة ما ترسب علينا من أثقال وهموم النهار . ونرى أن أنجح طريقه لذلك تتمثل فى التمتع بخلوة يومية بغير عزوف وبغير تواكل . على أن تلك الخلوة لا تتأتى لنا بمجرد الركون إلى النوم والاستسلام للنعاس . فنحن نعتقد أن النوم ليس له دائماً وظيفة تطهيرية ، بل ان له فى كثير من الأحيان وظيفة اجترارية . فنحن فى أثناء نومنا قد نجتر خبرات اليقظة ، بل إننا قد نثبت دعائم ما مررنا به فى يقظتنا ونؤكده فى قوامنا النفسى . فبدل أن نفرغ همومنا فى أثناء النوم عن طريق الأحلام ، فاننا قد نعمل على مضاعفة أثقال آلامنا وهمومنا عن طريق الانغماس فى النوم والتردى فى الأحلام التى نعيشها فنمتد بما بدأناه فى حال اليقظة . ذلك أن حياتنا اللاشعورية ليست مجرد تفريغ أو تنفيس عما ألم بنا من ضغوط خارجية فى أثناء اليقظة ، بل إنها فى حالات كثيرة قد تكون استمرارا ومضاعفة لما عشناه . فنحن لا نخرج المكبوتات فى الأحلام بصفة دائمة ، كما يظن فرويد وأتباعه بشكل مطلق ودائم ، بل إننا فى الحلم قد نخلق لأنفسنا مواقف جديدة لم تمر بنا ، بحيث ننوء بأحمال جديدة لم نكن نحملها قبل انخراطنا فى النوم. بيد أن هذا لا يعنى أن جميع الأحلام تسير على هذا النحو . فثمة أحلام مفيدة كوسائل تنفيسية ، ولكن هذا لا يعنى إنكارنا للنوع الثانى من الأحلام الذى يضيف إلى همومنا هموما جديدة ، والذى يجعلنا

تمر بخبرات رديئة هى امتداد وتكملة لخبرات رديئة بدأناها قبل النوم وقبل الانخراط فى الحلم .

وهذا يدفعنا فى الواقع إلى التأكيد على ضرورة النظر إلى الخلوة التى نعنيها بعيدا عن مضمار الأحلام . فمن الخطأ إذن اعتبار الانخراط فى النوم أو الانخراط فى الأحلام كافيا لامكان اعتبار ذلك خلوة إلى أنفسنا . ذلك أن الخلوة التى نقصدها هى خلوة إرادية مع الذات . إنها عملية سيكولوجية — أو قل أنها عملية تربية ذاتية أو تنقية وجدانية نضطلع بها ببذل كثير جهد وبقصد ووعى تامين . ومن هنا فاننا نستبعد أيضا ما يسمى بأحلام اليقظة باعتبار ان تلك الأحلام خلوة مفيدة . صحيح أننا لا ننكر أن بعض تلك الأحلام — أحلام اليقظة — تشكل عاملا تنفيسياً تماما كما هو الحال بالنسبة لأحلام النوم . ولكن كما أننا لا نستطيع أن نعتمد على أحلام النوم واعتبارها خلوة تكشف لنا أنفسنا ، وقد أظهرنا أنها استمرار لخبراتنا اليقظانة التى قد تكون رديئة ، ومن ثم فان أحلام النوم قد تكون رديئة وضارة ، كذا فإن أحلام اليقظة قد تشكل عاملا مضيفا إلى أعبائنا النفسية أعباء جديدة . ولقد نقول إن أحلام اليقظة قد تكون عائقا بيننا وبين اكتشاف ذواتنا . وبتعبير آخر فإن تلك الأحلام قد تزيد من وطأة الضغوط الاجتماعية الخارجية ولا تسمح لنا بالتخلص من وطأة تلك الضغوط .

فلابد إذن من تحديد مفهوم الخلوة اليومية التى نزعمها وندعو إليها كضرورة لاعداد الذات لتقبل الإلهام . إننا نعنى بالخلوة اليومية الجلوس بعيدا عن عوامل التشتيت أيا كانت والبحث عن أول الخيط أو ما يمكن أن نسميه حسب تعبير إحدى مريضات فرويد بتنقية المدخنة . أو كما يمكن أن نسميه نحن باجلاء الصدأ عن النفس . فنحن فى حياتنا اليومية بحاجة إلى ترتيب البيت أو تنظيم المكتب ، أو أخذ حمام بعد يوم من التعب والعرق . وبتعبير آخر فاننا كما نحتاج إلى اعادة الأشياء إلى ما كانت عليه قبل الاستخدام وقبل إشاعة الفوضى فيها بسبب ذلك الاستخدام وعلى نفس النحو فإننا أيضا فى حاجة

إلى ترتيب ذواتنا عن طريق الخلوة الواعية مع النفس ، وهى كما قلنا خلوة يومية منتظمة ومستمرة .

ولعلنا نحدد الشرط الأول للخلوة اليومية التى تقصدها فنقول إنه ينبغى أولا إعطاء أجهزة الحواس وبخاصة جهازى الإبصار والسمع إجازة كاملة لبعض الوقت . ومعنى هذا بالتالى الامتناع عن استقبال مدركات من الواقع الخارجى المحيط بنا خلال تلك الخلوة . ليتنا نتمكن من الخلو بأنفسنا فى مكان قصى لا تصلنا إليه مؤثرات صوتية أو ضوئية . والواقع أن هذا متعذر أو شبه مستحيل فى عالم اليوم . ولقد أحسست أنا شخصياً براحة عجيبة لدى انتظارى لبضع دقائق وحدى فى أحد استوديوهات الإذاعة لحين وصول المذيع لتسجيل حديث معى . لقد وجدت نفسى فى جو عجيب أحسست لحظتها أنى محروم منه عادة بالفعل . لقد كان المناخ مناسباً فعلا لخلوة ممتازة مع النفس . ولكنها خلوة لم تستمر الوقت الكافى الذى كنت أتمنى قضاءه فى ذلك الجو المثالى الذى لا يصل إلينا فيه أى صوت من الخارج .

وإنى لأذكر الآن ما كان يفعله الشاعر شيلى الذى كان يسدل برقعا أسود اللون أمام عينيه حيث يريح عينيه وذهنه وهو يقظان ، فكان عندئذ يرى أشباحا شعرية سواء كانت أشباح أشخاص أم أشباح أنغام . ويصف هربرت ريد ما كان يفعله الشاعر شيلى على النحو التالى :

« يحكى أن هذا الشاعر كان يستطيع أن يلقى بحجاب على عينيه وأن يجد نفسه فى حجرة مظلمة ، حيث كان يعيد تشكيل جميع ملامح أحد المناظر فى صيغة أكثر نقاء ، وأكثر اكتمالا مما كانت مقدمة فى الأصل إلى حواسه الخارجية . ويجب أن نذكر أن شيلى كان يعانى من الهلوسات ، التى كان لها فى بعض الأحيان أثر ضار على حياته . ويمكن اقتباس الشواهد من مصادر أقل رومانتيكية توضح القيمة العالية التى ينوطها الفنان بمثل تلك الصور عندما يتمكن من السيطرة عليها وقيادها . . . » (تربية الذوق الفنى — ترجمة المؤلف) .

ونستطيع أن نؤكد أن إراحة الحواس ومن ثم الامتناع عن استقبال مدركات حسية جديدة شرط ضروري لاعداد النفس لتقبل الإلهامات .على أن الخلوة اليومية التي نقصدها يجب أن تمتد فترة معقولةلا تقل عن نصف ساعة يومياً . ذلك أن لم الشعث واسترجاع المفقود من الذاتية يتطلب وقتا كافيا للراحة من الضغوط الحسية الإدراكية الخارجية . على أن ابطال الحواس والإدراك أو إعطاءها إجازة ليس بالإجراء الكافي لكسب الراحة الحقيقية . فثمة ما يعرف بالاسترخاء الإرادي حيث يقوم المرء بارخاء عضلاته ابتداء من الوجه وانتهاء إلى أخمص القدمين . وهذا يتطلب اتخاذ وضع متوسط بين الرقاد وبين الجلوس ، ثم التنبه إلى العضلات عضلة بعد أخرى وفرض الاسترخاء عليها . وهذا يتطلب أيضاً الحصول على فكرة بسيطة عن العضلات القابلة للتوتر . والواقع أن الاسترخاء العضلي هام جدا لاعادة المرء إلى حالته الأولى التي كان عليها بين مجابهة المواقف التي حملته على التوتر . ولابد أيضا من الاستمرار فى حالة الاسترخاء العضلي فترة مناسبة مع التوقف عن تشغيل حاستي البصر والسمع (١).

وطبيعي أن يسبق الخلوة توفير الجو المضمون لعدم الإقلاق والاعتداء على مجال الخلوة . من ذلك رفع سماعة التليفون أو حتى الهرب من المكان الذي اعتاد الناس على الاتصال بالمرء فيه . وطبيعي أن نتجنب اصطحاب أحد معنا فى خلوتنا حتى الزوجة والأبناء . وعلينا أن نقرر أن ثمة فروقا فردية بازاء ما ينبغي أن تكون عليه الخلوة اليومية . فمن الناس من يحبون الأماكن المغلقة ، بينما يحب غيرهم الأماكن المفتوحة.فالأمر متروك لما يميل إليه المرء ويفضله . ولكن ما نزكيه نحن وننحو إليه هو الأماكن المغلقة البعيدة عن أي ضوضاء والمظلمة أو شبه المظلمة .

أما من حيث ما يجب التفكير فيه وسبر أغواره بالذهن فاننا سوف نتناوله بالتفصيل فى الموضوع التالي .على أننا نود أن نقرر هنا أن الخلوة اليومية يجب أن تكون مشمولة التخفف من أثقال الفكر المضني. فهي مناسبة

---

(١) أنظر كتاب « الاسترخاء النفسي والعصبي » بدار نهضة مصر بالفجالة وكتاب « تخلص من التوتر النفسي » بمكتبة الأنجلو والكتابان للمؤلف .

للتخلص من ثقل الفكر والجهد الذهني . إنها استعداد للتفكير المضني وليست مجالا لهذا النوع من التفكير .

التدريبات التأملية :

لقد قمنا بالربط بين الخلوة وبين الراحة الذهنية ، ولكن هذا لا يعني أننا نغفل ما يجب أن تتضمنه الخلوة من نشاط ذهني من نوع معين . والنوع الذى نعنيه من النشاط الذهني هو التدريبات التأملية . والواقع أن معظم المثقفين لا يولون التأمل الأهمية الكبيرة التى يجب أن تناط به . ولسنا نغالى إذا قلنا إن التأمل عند كثير من المثقفين يترك للمصادفة ولا يخضع لترتيب معين ، ولا يحتل فى حياتهم مكانة زمنية محددة ، بل ولا تهيأ له الأجواء المناسبة التى يمكن ممارسته من خلالها . فما يواتى المرء بالمصادفة من تأملات يكون بمثابة منحة أو عطية لا دخل لجهد المرء فيها . ولكأن التأمل نشاط ليس فى مستطاع المرء ممارسته عن قصد وترتيب ، بل هو يواتيه بالمصادفة أو بترتيب غيبي لا دخل له فيه . ولقد نعزو هذا الاعتقاد السائد لدى كثير من المثقفين إلى وجود وانتشار وذيوع اعتقاد آخر هو أن القراءة والتحصيل وحدهما هما اللذان يقعان فى مقدور الإنسان. أما التامل فانه يخرج من إطار قدرة الإنسان . إنه فى رأيهم أشبه مايكون بالإلهام ، مع أن الواقع مباين لذلك تماما . ذلك أن التأمل عملية نشاطية ذهنية تخضع لأمرة المرء . إنه يناظر التدريبات الرياضية بالنسبة للجسم . فكما أننا ندرب الجسم على حركات معينة ، كذا فاننا ندرب الذهن على اتجاهات محددة لمساره . ولعلنا نشبه القراءة والتحصيل بالغذاء والشمس والهواء مما يصل إلى الجسم ويقوم على استمرار وجوده ونشاطه . وكما أن تناول الطعام والتعرض للشمس والهواء النقى لا يكفى لتوفير الرشاقة فى الحركة ولا للإتيان بالحركات الجسمية الدقيقة ، كذا فان الانكباب على القراءة والتحصيل فحسب ، لا يكفل للمرء الاتيان بالأفكار المستحدثة ولا يضمن إحراز القدرة على الإبداع العقلى والوجدانى .

وعلينا فى هذا المقام تقديم مجموعة من التدريبات التأملية التى ننصح بممارستها فى الخلوة اليومية على التوالى،ويمكن ممارسة تدريب واحد أو أكثر فى الخلوة الواحدة من بين هذه التدريبات التى يمكن للقارىء المثقف وضع تدريبات لنفسه على مثالها أو فى صيغ جديدة مبتكرة حسبما يرغب ووفق طبيعته التأملية . على أننا نعتقد أن هذه التدريبات يجب أن تخضع للممارسة المنتظمة لأن الاقلاع عن استمرار استخدامها يضيع الفوائد التى تم تحصيلها بالفعل ويكون على المرء إذن أن يبدأ من جديد .

التدريب الأول : وهو خاص بالتركيز الذهنى والتخلص من عوامل التشتيت .

أولا — بالنسبة لذاكرة الأشخاص — اطلب من نفسك فى خلوتك تذكر أسماء وأوجه آخر عشرة أشخاص قابلتهم اليوم . ثم اسأل نفسك عن أسماء وأوجه عشرة أشخاص كانت تربطك بهم علاقات وماتوا . ثم تذكر أسماء وأوجه عشرة أشخاص من المعلمين (ذكورا أو إناثا) قاموا فى يوم ما بتدريسك أيام كنت تلميذا صغيرا أو مراهقا أو شابا . ثم اسأل نفسك عن أقرب عشرة أشخاص إلى قلبك وأكثرهم مودة لك . ثم اسأل نفسك عن عشرة أشخاص يشبهونك فى طريقة التفكير وفى الميول العامة . وحذار من التوقف عند أى شخصية من هذه الشخصيات التى تتذكرها لتمضى فى التفكير فى أحداث أو وقائع تتعلق بها لأن المطلوب منك هو تركيز الذهن فى المطلوب فحسب ، أو تذكر الأسماء والوجوه فحسب وليس أكثر من ذلك .

ثانياً — بالنسبة لذاكرة الأرقام : وأنت فى خلوتك الهادئة والمظلمة عليك أن تتذكر أرقام تليفون عشرة من معارفك واسم كل منهم بوضوح. ثم تذكر أرقام البيوت التى أقمت فيها مع أسرتك منذ طفولتك حتى اليوم، ثم تذكر عدد الأدوار التى تسلقتها خلال نهارك،وكم أنفقت من نقود طوال هذا النهار، وتذكر أيضا عدد الكتب التى قمت بقراءتها أو عدد الكتب

التى اشتريتها أو عدد الكتب التى تضمها مكتبتك . وحذار أيضا من الخضوع لتوارد الأفكار ، فتنسى المطلوب منك وتسترسل فى التفكير . إنك تريد أن تدرب نفسك على التركيز فيما تقوم بذكره ، فتخضع ما تتذكره لنفسك ولا تخضع أنت لما يرد إلى ذاكرتك .

ثالثاً — بالنسبة للعلاقات فى المركب الحسابى الواحد . عليك أن تأخذ أحد الأرقام المكون من ثلاثة أعداد مما يقبل القسمة على ٢ مثلا ، ثم ابحث بذهنك عن عدد الاثنينات التى يتضمنها الرقم الذى تختاره . وطبعا لا تستخدم ورقا وقلما ، بل ركز ذهنك وحاول تحليل الرقم الذى قمت باختياره اعتباطا . افعل نفس الشىء بالنسبة لأرقام أخرى مما يقبل القسمة على ٣ أو ٥ أو ٧ ... الخ .

التدريب الثانى : وهو خاص باستحداث الأشكال الجمالية :

خذ ورقه بيضاء وقلما رصاص واطلب من نفسك رسم أى خطوط تحس أنها تنساق جماليا مع نفسك . اترك القلم فى يدك يخطط بغير إلجام أو بغير تدخل من جانبك . استمر فى الرسم كيفما اتفق . لا مانع من أن تتداخل الخطوط . استمر فى الرسم وحاول أن تقدم أمام ناظريك أجمل أشكال خطية يوحى بها إليك . ليس المطلوب منك أن تصور شخصا أو شيئا ، بل المطلوب هو القيام برسم الخطوط التى يوحى بها إليك . وهى التى تعبر عن خلجات وجدانك والتى تعبر عن الانسجام الجمالى الذى تحس به فى أثناء التأمل . استمر فى هذا التمرين أطول مدة ممكنة لأنه يفيدك فى التركيز وفى تنظيم وجدانك ولم شعثك واشاعة الهدوء فى نفسك .

وبالنسبة للتأمل الجمالى الصوتى عليك أن تستحدث نغمة من تأليفك فوراً وأن ترددها بصوت مسموع خافت . لا يهم ما تكون عليه تلك النغمة ولا يهم حكم أى شخص عليها . المهم أنها نغمة تستحدثها أنت بنفسك ولنفسك . إنك لست ملحنا ، ولست لذلك مسئولا عن جودة ما تقدمه أو ما تبتكره .

المهم هو أن مثل هذا الاستحداث النغمي سوف يعود عليك بفائدة كبيرة لأنه يكشف عن مزاجك الجمالي الصوتي ويبصرك بما تهواه نفسك من أنغام . كرر المحاولة أكثر من مرة ولا مانع من ترك نفسك ترقص مع اللحن الذى تخلقه بنفسك ولنفسك . المطلوب هو أن تحيا وجودك الحقيقي بهذا التمرين ، أعنى وجودك الجمالي الصوتي .

التدريب الثالث : وهو خاص بتأمل أحد الشعارات ولنأخذ مثالا لما يمكن أن تقوم بتأمله :

اعرف نفسك . هذا هو الشعار الذى أطلقه سقراط . تأمل هاتين الكلمتين . هل يستطيع غيرى أن يكتشف نفسي ، أم أنى أنا وحدى الذى أستطيع الكشف عن هذه القارة المجهولة التى هى أنا ؟ أنا إذن مجهول حتى من نفسي . المعرفة التى أقرأها بالكتب لا تستطيع أن تقفنى على حقيقة ذاتى . إذن لابد أن أتفحص نفسى لأعرفها . ماذا أقصد بكلمة «نفسى»؟ هل أقصد جسمى وإمكانياته أم أقصد عقلى أم أقصد أشياء أخرى ؟ لابد إذن من تحديد معنى « نفسى» . فلأبدأ بما يتركه الانسان من آثار ولأبدأ بالرجوع من تلك الآثار إلى دخائل النفس البشرية . أجد أمامى علاقاتى بالآخرين . هل هى مجرد تقليد لما أشاهده حولى من سلوك أم أنى أعبر بتصرفاتى عن واقع نفسى معتمل بداخلى ؟ فلأسأل نفسى إذن هل أنا خاضع لعادات رديئة ؟ وهل هناك أشياء تضايق الناس منى ؟ وهل ما يضايق الناس منى يكون بالضرورة أشياء رديئة ؟ إننى أجد أن الحساد يتضايقون من تصرفات جيدة أقوم بها . إذن الاعتماد على مواقف الناس منى لا يكفى للحكم على نوعيات سلوكى . فاذن لابد من التوصل إلى مجموعة مبادىء أو شعارات سلوكية أحتذيها والتزم بها وأفرضها على الواقع من حولى . ماذا تكون هذه الشعارات ؟ لنترك الإجابة لك . استرسل فى التفكير وابحث عن وسائل سبر أغوار النفس .

التدريب الرابع : وهو خاص بالمرور فى خبرة مشابهة للخبرة التى مر بها شخص آخر .

لنضرب مثالا بكتاب « التأملات » الذى ألفه ديكارت وقام بترجمته الدكتور عثمان أمين . إنك ربما تقوم بقراءة هذا الكتاب ولا تخرج منه إلا بمجموعة من المفاهيم . لكن الواقع أن كتابا كهذا لايقرأ بل يمارس. إنك تجد فيه مجموعة من التمرينات الذهنية التى اضطلع الفيلسوف بالمرور بها ومعاناة تجربتها . إذن عليك — إذا أردت — أن تتناول كل تدريب مما مر به الفيلسوف وتعانى مثله تماما . لا تقرأ الكتاب فى عجالة ، بل عش الكتاب مرحلة فرحلة.إنك ربما تخرج بنتائج جديدة لم يصل إليها الفيلسوف نفسه . والمهم فى الواقع أن تتعلم من ديكارت طريقة التأمل لا أن تصل إلى نتائج معينة . عش مثله فى وحدة . يقول ديكارت فى ص ١٢٣ من الكتاب المذكور : « الآن سأغمض عينى وسأصم أذنى ، وسأعطل حواسى كلها ، بل سأمحو من فكرى صور الأشياء الجسمية جميعا ، أو على الأقل سأعدها باطلة زائفة ، ما دام محوها عسيرا . وسأبذل جهدى حين أخلو إلى التحدث إلى نفسى وأعكف على النظر إلى دخيلتى ، فى أن تزيد على التدريج معرفتى بنفسى وعشرتى لها . » عليك إذن أن تعايش ديكارت وتفعل مثله ، وأن تتدرج معه خطوة فخطوة ، فتصير مثله أو قريب الشبه منه ، ومن ثم تكون قد هيأت نفسك لاستقبال الإلهام . بيد أننا إذا كنا قد ضربنا مثالا بديكارت وكتابه«التاملات» فان هذا لايعنى ضرورة التزامك بشخصية واحدة . إنك تستطيع أن تعايش شخصيات كثيرة سواء كانت شخصيات دينية أم شخصيات فلسفية أم شخصيات سياسية أم شخصيات أدبية . المهم أن يقع اختيارك على تجربة شخصية حية وتعيشها بالفعل .

الفصل العاشر

الطبيعة كمصدر الهامى

الطبيعة وشبه الطبيعة :

كثيراً ما نقرأ بالكتب الأدبية أن المرء عندما يتوجه إلى الريف ويسير بين المزارع ، فانه يكون بذلك فى أحضان الطبيعة . والواقع أن الطبيعة الخليقة بهذه التسمية ليست الحقول والبساتين ، بل هى الغابات والحشائش كما وجدت بغير تدخل من جانب الإنسان . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن شأن الحقول والبساتين هو نفسه شأن الشوارع والعمائر المقامة بالمدن . فمن يجيز لنفسه اطلاق كلمة طبيعة على الحقول والبساتين يجوز له أيضاً أن يسمى الشوارع المرصوفة والعمائر المقامة بالطبيعة . ومن الطبيعى والمعترف به من الجميع أنك إذا سرت فى أحد شوارع القاهرة مثلا فانك لا تزعم عندئذ أنك تتنزه فى أحضان الطبيعة . وبنفس المنطق فانك لا تستطيع أن تزعم أنك فى أحضان الطبيعة إذا ما قمت بالتجول فى أحد البساتين أو اذا سرت مع أصدقائك فى أحد الطرق الزراعية والحقول من يمينك ومن يسارك .

والطبيعة فى رأينا — وهذا هو عين الواقع — هى المكان الذى لم تمسه يد إنسان بالتعديل أو التعبيد أو التهذيب أو التطوير . فاذا قيض لك أن تسلك عبر احدى الغابات أو أن تشق طريقك فى الصحراء أو أن تصعد على سفح أحد الجبال غير المعبدة وغير المهذبة وغير المطورة أو المصطنعة ، فانك تستطيع عندئذ أن تزعم أنك موجود فى أحضان الطبيعة . ولكن اذا جلست فى أحد الكازينوهات المقامة على سفح جبل من جبال

لبنان أو عند سفح المقطم بالقاهرة ، فيجب أن نحذر من استخدام كلمة طبيعة .

بيد أننا مع هذا نستطيع أن نقول إن هناك ما نسميه بشبه الطبيعة وليس بالطبيعة . فالبساتين والحقول ليست طبيعة بل هى شبه طبيعة . فلقد اقتلع الإنسان منذ آماد بعيدة ما كان نابتا بالفطرة فى تلك الأراضى وقام هو باستنباتها وتطويعها ففقدت بذلك عنصرا جوهرياً من كيانها ، وذلك بما أدخله عليها من تعديلات وبما أقحمه عليها من خصائص جديدة لم تكن تتصف بها . لقد أخذ يزرع نباتات لم تكن لتزرع بها قبلا ، بل إنه أخذ يعبث بالتربة ذاتها فاحل تربة جديدة محل التربة الأصلية ، أو أضاف إليها عناصر وأسمدة حتى يضمن محصولا أوفر ، أو حتى يلائم بين العناصر الغذائية التى يحتاج إليها النبات الذى يقوم بزرعة وبين العناصر الجديدة التى يقدمها لتغذيته ومساعدته على النمو .

ولعلك تقول نفس الشيء بالنسبة للحيوانات التى صارت تعيش فى رحاب الإنسان وبحمايته وتوجيهه واستغلاله. إننا نستطيع أن نجزم بان الحصان الذى نستخدمه اليوم فى جر العربات أو الذى نمتطى صهوته قد فقد الكثير من طباعه الأصلية التى نستطيع الوقوف عليها لدى الأحصنة التى لم تمتد إليها يد الإنسان بالاستئناس والرعاية والتربية . وقل نفس الشيء بالنسبة لما نراه من طيور فى بيئة الإنسان . إنها لم تعد تعيش فى نفس البيئة التى عاش بها الطير وهو فى حال الطبيعة ، ومن ثم فان الكثير من عاداته الأصلية قد فقد . وحتى بالنسبة للمواد التى تقوم طيور المدن ببناء أعشاشها منها ، فانها تباينت عما كان عليه حالها بعيدا عن الحضارة الإنسانية ، وبعيدا عن الخامات أو المواد التى صارت الطيور الحديثة تستخدمها فى بناء أعشاشها .

والواقع أن من الصعوبة بمكان أن يجد المرء الطبيعة على حالها الأصلية لكى يلقى بنفسه فى أحضانها إذا ما أراد ذلك . ولنا أن نقول إن إنسان

اليوم صار منذ أول نهاره حتى صبيحة يومه التالى وهو محاط ببيئته مصطنعة حتى ولو انتقل إلى شاطىء البحر فى الصيف ليلقى بثقل متاعبه على شاطئه وقد خلع عن نفسه ما ظل يثقله عدة أشهر من أزياء مرتديا لباس البحر الذى يقربه من حال الطبيعة فحسب . واذا ما سأل أحد عن البحر ، وهل هو طبيعة زائفة هو الآخر ؟ فاننا نقول لا ولكن البلاجات والمظلات والكازينوهات وما يرتديه الإنسان وما يستخدمه من مراكب شراعية أو بخارية إنما هو بعيد عن الطبيعة . فما يبقى من طبيعة البحر هو ما لا يكاد الإنسان الحديث يحيا فى إطاره . ولعلك تصافح طبيعة البحر مباشرة اذا أنت جلست على صخرة بعيدا عن ضوضاء المصطافين وأخذت فى تأمل البحر فى صخبه وهدوئه بغير أن يقطع عليك حبل التأمل شىء أيا كان . ولعلنا نزعم بحق أن الجو الحضارى الذى ينقله المصطافون عادة معهم من المدينة إلى الشواطىء لما يبعد بهم تماما عن حضن أمهم الطبيعة التى يشتاقون إلى الإلقاء بأنفسهم فى حضنها . فحتى الشواطىء التى جعلت أصلا للاصطياف والعودة الى ما يشبه حال الطبيعة تبعد هى أيضاً بعدا شاسعا عن مضمونها الفطرى الطبيعى ، وتكتسب صبغة حضارية مصطنعة بعيدة عن الجوهر والأصل .

واذا كان هذا هو حال البيئة من حولنا وقد استحالت عن طبيعتها الأصلية الى ما أراد لها الإنسان أن تكون عليه ، وقد صبغها بأصباغ حضارته التى كثيرا ما تكون أصباغا باهتة بل أصباغا ممسوخة مفسدة للألوان الطبيعية التى كانت تتمتع بها تلك البيئة قبل أن تعبث بها اليد البشرية ، فانه فى نفس الوقت حال الإنسان نفسه . وحتى بالنسبة للجسم البشرى والبنية البشرية، فان الحضارة البشرية قد انحرفت بها كل الانحراف. فالحضارة قد أبعدت بنيتنا الجسمية عن القوام الأصلى لها . فالملابس تحمى أجسامنا من الحر والبرد ، ولكنها فى نفس الوقت قد عملت على فقدان أجسامنا للمناعة والقدرة على مقاومة الظروف المناخية الصعبة . والأطعمة التى نتناولها والتى افتنت يد الإنسان فى طهيها ، وقد عذبت روائحها

واستسيغت طعومها ، قد فقدت الكثير من فوائدها الأصلية ، بل إنها صارت فى كثير من الأحيان ضارة بالجهاز الهضمى . وفى النهاية صار الإنسان منحرفا عن طبيعته الأصلية التى جبل عليها ، وهى الطبيعة التى كانت تناسب وجوده وبقاءه . وحتى الدواء ومساندة الضعفاء من النسل البشرى وإن كان ذا فائدة عظيمة بالنسبة للأفراد والأسر ، فانه على المستوى البشرى العام قد أدى الى تناسل الضعفاء الذين كانوا ليواروا التراب لولا الطب والعلاج لعدم صلاحيتهم للحياة . وهكذا نجد أنه على المستوى العام فقد انحرف الإنسان عن طبيعته كنوع حيوانى يتربع على قمة الهرم الحيوانى ، أو هكذا نزعم نحن البشر هذا المجد الموهوم لأنفسنا .وحتى اذا نحن صدقنا أنفسنا ، فما لا شك فيه أننا لا نتربع تلك القمة الموهومة فى الواقع بسبب الذبول البيولوجى الذى سببته لنا الحضارة والذى تأتى لنا نتيجة بعدنا عن حال الطبيعة التى كان يتمتع بها أسلافنا البعيدون جداً فى عصور ما قبل الحضارة .

ولا يقتصر الأمر على تزييف طبيعتنا البيولوجية ، بل ان الحضارة والبعد عن الطبيعة الأصلية قد أفقد الإنسان الكثير جدا من المواهب الروحانية التى كان يتمتع بها فى الآماد البعيدة . فمما لا شك فيه أن الحضارة بما تقدمه إلى الناشئة من ثقافات متباينة قد أثقلت الكواهل وملأت العقول بالمفيد والضار فى نفس الوقت ، بل إنها حرمت الإنسان الحديث من نعمة التأمل ومن نعمة البقاء على حال الفطرة فى المشاعر والأحاسيس الوجدانية. ولذا فان علماء النفس يبحثون اليوم عما طمر فى الطبيعة البشرية من قدرات مثل التخاطر وقراءة الأفكار ، بل إن البعض من علماء النفس يبحثون اليوم فى مجال علم النفس الروحانى عن وظائف أخرى للمخ البشرى غير الوظائف الاستقبالية المعروفة . إنهم يزعمون أن المخ البشرى ليس مجرد آلة استقبال ، بل هو جهاز استقبال وإرسال فى نفس الوقت . فثمة قوى وقدرات روحية منوطة بالإنسان ، ولكنها فقدت — أو بالأحرى صدئت — نتيجة عدم الاستخدام ، أو نتيجة التطويع والتطوير والتربية

غير الروحانية ، وما تزدحم به الحياة البشرية الحضارية من خبرات يكون على الإنسان فهمها واستقبالها وهضمها ، ومن ثم عدم اعطاء الفرصة للوظيفة الإرسالية للظهور والاعمال فى حياة الإنسان الحديث .

وإنسان هذا شأنه لا يستطيع أن يستلهم طبيعة هى فى الواقع شبه طبيعة. فهو من جهة صار منحرفا عن طبيعته الأصلية التى فطر عليها ، ومن جهة أخرى فان الطبيعة من حوله قد شوهت وانحرفت عن مسارها الأصلى . والخطر والمؤسف فى نفس الوقت أن إنسان الحضارة ينظر باحتقار إلى الطبيعة ، بينما يعول كل التعويل على التطويرات الحضارية التى يفرضها فرضا على نفسه وعلى الطبيعة من حوله . ولا شك أن اتجاها كهذا من شأنه أن يجرف البقية الباقية من الطبيعة ، أو قل البقية الباقية من شبه الطبيعة فتطغى الحضارة أكثر من طغيانها الحالى وتقضى على كل أمل أمام الإنسانية فى استلهام الطبيعة على حقيقتها وبغير تزييف أو انحراف عن الجادة . والمعجزة التى يأمل محبو الطبيعة فى حدوثها هى أن يكتشف الإنسان ذلك الزيغان الحضارى الذى تردت فيه الإنسانية حقبا طويلة ، ويعود إلى نفسه من جديد ، ويزيح فى نفس الوقت عن وجه الطبيعة مالوثها ومسخها بحيث تسترجع أصالتها وتنزع عن وجهها برقعها الزائف ..

الشوق إلى حضن الأم :

إننا نعتقد أن هناك شوقا طبيعيا إلى الموت يحتمل لدى كل إنسان بعد مروره إلى شيخوخة طبيعية . ذلك أنه لا تناقض بين دورة الحياة الطبيعية وبين الجبلة البشرية . فكما أن الجنين يرغب لا شعوريا فى الخروج من أحشاء الأم ليستمر فى دورة حياته الطبيعية ، كذا فان الشيخ ينحو ويصبو إلى الارتماء فى حضن أمه الأرض . فكما أن الانسان يبدأ من تراب ، فانه ينتهى أيضا إلى تراب . وكما أنه يستعير وجوده البيولوجى بمساعدة النبات والحيوان يأكلهما ويتمثلهما فى قوامه البيولوجى ، كذا فانه لابد أن يعيد الدين إلى أصحابه . فمن جسمه تتسمد الأرض من جديد ، ويجد النبات

غذاءه من التربة التى تغذت من جثته المتعفنة ، وبالتالى فإن الحيوان يجد ما يتغذى به من نبات ، وبالتالى مرة أخرى يجد الناس ما يتغذون به من نبات وحيوان . وهكذا تكتمل الدائرة وتستمر دورة الحياة من تربة إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان ، ثم أخيراً إلى التربة من جديد .

ولكن قد يتساءل سائل : كيف تقول هذا الكلام ونحن نرى الشيوخ الذين ضربوا فى العمر أمدا طويلا وهم يتحسرون على شباب ولى وعلى موت يقترب منهم وقد فتح فاه مستعدا لافتراسهم ؟ الواقع أن الجبلة البشرية الطبيعية شيء ، وما تضيفه الحضارة الإنسانية إلى تلك الجبلة شيء آخر . فما تعمد إليه الحضارة من تصوير للموت بأنه وحش غادر ، وما تعمد إلى إحاطة الانسان به من مقومات حضارية كثيرة ومتنوعة إنما يعمل فى النهاية على إحالة الموت إلى شيء لا يمكن تحمله ولا يمكن تخيل وقوعه .

والواقع أن من قاموا بوصف الموت ومعاناته سواء بالقلم أو باللسان أو الفرشاة بالألوان هم من الشباب أو من الكهول . ونحن نعلم أن الناس فى الشباب والكهولة يعزفون عن الموت بطبيعتهم تماما كما يعزف الرضيع عن الخروج من حضن أمه وقد تشبث بذلك الحضن وكأنه يمثل العالم بأسره. ولكن لسان حال الشيخوخة وبخاصة بالنسبة لأولئك الذين لم تستطع الحضارة ترك بصمة ثابتة على شخصياتهم ينطق باشتهاء الموت والتخلص من الحياة . فالحياة إذن مجموعة من الرغبات والميول والأهواء . فاذا ما زهد المرء فيما كانت تتوق إليه نفسه فى طفولته ومراهقته وكهولته ، فانه يجد أن جميع وسائط التعلق بالحياة قد نفدت ، وأن الموت هو الحلقة التالية المنتظرة والتى يجب الانخراط فيها والتعجل بالوصول إليها .

ونستطيع أن نؤكد أن الموت فى الشيخوخة الطبيعية غير المصحوبة بالمرض وآلامه إنما يكون شيئا هينا وطبيعيا وبغير معاناة . وإنا لنجد المعاناة الحقيقية تتركز فى المرض لا فى الموت . وأكثر من هذا فلعنا لا نخطىء إذا قلنا إن الموت نفسه هو المنقذ الوحيد من كثير من أمراض

بأوجاع الجسد فى الشيخوخة . فاذا كنا مؤمنين بخلود الروح وأنها تفارق الجسد بعد الموت إلى حيث تكون ، فاننا نؤمن إذن فى نفس الوقت بان الروح لا تتألم بالأمراض التى كانت قد أصابت صاحبها ، وأنها بانطلاقها من الجسد فانها لا تكون مشوبة بأى وجع أو ألم كان يتالم أو يتوجع منه صاحبها قبل الموت . وإذا كنا غير مؤمنين بخلود الروح أو غير مؤمنين حتى بوجود الروح أصلا ، فاننا فى نفس الوقت نكون مؤمنين بأنه بموت الشخص فان نهاية أوجاعه وأسقامه تكون محتومة بموت المرء . إذن سواء كنا مؤمنين أم ملحدين ، فاننا فى الحالتين لابد نؤمن بأن الموت هو نهاية المطاف لخضوع الانسان لأوجاع المرض سواء فى الشيخوخة أو ما قبلها .

فالحضارة الوافدة على الطبيعة البشرية هى التى تحارب الموت وتبقى على الحياة فى جميع أشكالها . وهى لكى تؤكد اتجاهها تعمد إلى بث المخاوف الشديدة من الموت ومن كل ما يتعلق به . ونحن نعلم جيدا ما كشف عنه بافلوف العالم الروسى من أن الخوف أو أية استجابة أخرى كالفرح والتقزز والحب والكراهية ونحوها لا تكون مرتبطة بالضرورة بالمثير الأصلى ، بل يمكن أن ترتبط بأى شىء آخر يتلازم مع ذلك المثير الأصلى سواء بالاقتراب المكانى أم بالاقتراب الزمانى أو بالاقترابين معا . وبذا يمكن أن يخاف المرء من اللون الأسود لأنه يرمز إلى الحزن على فقيد ، ويخاف الناس من منظر النعش أو من عربة الموتى حتى ولو كانا خاليين من جثة الميت . وإذا ما سمع شخص أجراس إحدى الكنائس وهى تدق دقاتها الثلاث المتواترة ترحيبا بالميت للصلاة عليه أو توديعا له وهو خارج منها ، فان شعر رأسه قد يقف وتستولى عليه جميع دلائل الخوف من الموت . ونفس الشىء إذا ما سمع المرء أصوات المكبرين وقد ساروا خلف نعش حتى ولو كان المرء باحدى غرف شقته ولا يرى النعش ولا المشيعين . فمجرد ارتباط أى شىء بالموت يحدث الخوف منه . ولقد لا نبالغ فى القول إذا زعمنا أن المخاوف التى تصيب الانسان نتيجة ما يرتبط بالموت تزيد كثيرا جدا عن كمية المخاوف التى يحدثها الموت نفسه .

والواقع أن ما قد يحتمل من ألم نفسي يعتصر جنبات المرء المحب للشخص المشرف على الموت قد تزيد مرات ومرات عن تلك الآلام التي تصيب الشخص المشرف على الموت نفسه . ذلك أن المشرف على الموت يكون في غالبية الحالات قد فقد جانباً كبيرا من وعيه بحيث يعاني سكرات الموت باعتباره كائنا حيا يموت لا باعتباره إنسانا يفكر ويعقل ويدرك تمام الادراك ما يحدث له .ولعلنا نكون بالفعل قد سبق أن اقتربنا في يوم ما من الموت وعانينا من شبه سكراته ونحن في أشد حالات المرض التي نكون قد أصبنا به . صحيح أننا في تلك اللحظات قد عانينا ، ولكن أحياءنا من حولنا كانوا يعانون أكثر منا . ذلك أنهم بعقولهم الواعية يضيفون الى واقع مشاعرهم أخيلة مبالغاً فيها حول ما نعانيه نحن من آلام وأوجاع .

وعلى الجملة نستطيع أن نقول إن ثمة شوقا طبيعياً إلى حضن أمنا الأرض . فنحن ننحو بطبعنا وبغريزتنا وجبلتنا إلى أن نكمل الدورة ونموت . فالموت كالانخراط في النوم بعد السهر ، وكاليقظة بعد أخذ القسط الكافي من النوم ، وهو كالإقبال على الطعام بعد الجوع ، وكالانصراف عن الطعام بعد الشبع ، وهو كالشرب بعد العطش ، وكالعزوف عن الماء بعد الارتواء . فنحن بعد أن نشبع ونرتوي ونأخذ القسط الكافي من الحياة نزهد في البقاء على هذه البسيطة وننحو بقلوبنا قبل عقولنا إلى الموت .

بيد أن الغريزة وطبائع الأشياء في جانب ، وما نتشربه من قيم ، وما نتأثر به من اتجاهات ، وما يتملك على عواطفنا ويأخذ بزمام وجداننا شيء آخر . والواقع أن الإنسان يتسم بدرجة كبيرة من المرونة ومن القابلية الشديدة للتشكل والتكيف لما ليس من صميم طبيعته . فنحن نحب المال والجاه مع أن طبيعتنا لا تعرف المال ولا الجاه . وحتى إذا كان في طبعنا البشرى ماينم على حب الاقتناء وحب السيطرة على الآخرين والتفوق

على سوانا من أشخاص ، فان فى طبعنا أيضاً وفى خصائص جبلتنا البشرية ما يؤكد زهد الإنسان فى الامتلاك وفى السيطرة بعد أن ينخرط فى الشيخوخة. ولكن الطبيعة أو الجبلة شيء ، وما نتربى عليه ونتشربه من قيم واتجاهات شيء آخر . والأغلب أن ما نتعلمه ونتربى عليه يسيطر متفوقا على ماجبلنا عليه بالفطرة . فليس من السهل أن نتخلص مما اعتدنا عليه فى صبانا وشبابنا وكهولتنا . وحتى عندما نحس بالزهد فى الأشياء وفى العلاقات الاجتماعية فى الشيخوخة ، فاننا نجد أن المحيطين بنا يعملون إلى حثنا على الاستمساك بالحياة وعدم التفريط فيما سبق تحصيله بشق الأنفس . ومن ثم فاننا نخضع لما يقال ونرجح كفة المؤثرات البيئية والتقاليد والقيم الاجتماعية على كفة ما نندفع إليه وننحو إليه بطبعنا .

فنحن فى الشيخوخة نجد أن غريزة الموت ترجح على غريزة البقاء . ولقد كشف فرويد عن وجود هاتين الغريزتين لدى جميع الناس . فبينما نميل إلى التمسك بالحياة غريزيا ، فاننا من الجهة المقابلة ننحو أيضاً إلى الفناء والانخراط فى الموت . ولعل أن تكون غريزة البقاء أكثر قوة لدى الأطفال عنها لدى المراهقين ، وأنها أقوى لدى المراهقين عنها لدى الشباب ، وأقوى لدى للشباب عنها لدى الكهول . ولعلها أن تكون أضعف من غريزة الموت لدى الشيوخ . ولذا فاننا نجد الكثرة الكثيرة من الحوادث القاتلة هى تلك التى يتعرض لها الشيوخ . فالشيخ أكثر عرضة للهلاك من أصحاب الأعمار السابقة ، لا لأنه أقل انتباها وأبطأ حركة منهم فحسب ، بل لأنه لا يكون فى الواقع حريصا على الاستمرار على قيد الحياة مثلما يكون عليه حال الآخرين من غير الشيوخ . ولكن يجب أن نضع فى حسباننا مرة أخرى عوامل التربية ، وتأثير القيم وما اكتسبه الشيخ من عادات قد تتغلب على كفة وقوة ما يعتمل فى جبلته بالفعل .

وليس من شك فى أن غريزة الموت التى كشف فرويد النقاب عنها دليل واضح وكاف للبرهنة على أن الإنسان بطبعه يميل إلى الارتماء فى

حضن أمه الأرض . وقد يجد المرء النوازع التى تشجعه على مثل هذا الإرتماء فيسارع الى حتفة برجليه وبملء إرادتهوليس بأى ضغط خارجى. فعندما يدق ناقوس الخطر كاشتعال حريق فى مبنى ، أو عندما تعلن الحرب أو عندما يقوم شجار بين قبيلتين أو أسرتين أو عندما تنطوىء جذوة « الأنا » لتحل محلها جذوة « النحن » ، فانك تجد أن الراغبين فى الموت كثيرون جدا . وهذا إن دل على شىء فانما يدل على أن القشرة الرقيقة بالشخصية التى تسمى بالأنا سهلة الانتزاع ، بحيث يظهر النحن ويعتمل فى الواقع الاجتماعى . ولكأن طبيعتنا البشرية هى طبيعة « نحنية » — إن صح التعبير — وليست طبيعة إنية أو أنانية . وبتعبير آخر فان الرغبة فى الموت لدينا أقوى من رغبتنا فى الحياة . فنحن نتوق إلى الارتماء فى حضن أمنا الأرض .

الانهيار الوجدانى :

قلنا إن هناك توقا ورغبة لا شعورية عامة لدى البشر للارتماء فى حضن الأرض والرجوع إليها بعد اكتمال دورة العمر . بيد أن هذا الشوق يتخذ له صيغا متباينة غير الموت خلال الحياة . ومن ضمن هذه الصيغ التى نقصدها الصيغة الوجدانية حيث يريد أو يصبو المرء إلى الفناء وجدانيا فى الطبيعة . والواقع أن الحب والفناء فى شخص المحبوب شىء واحد . ونحن هنا نستخدم كلمة «شخص» بالمعنى العام للفظ . فالشخص المحسوس هو شخص بهذا المعنى . فالأرض والكواكب أشخاص إذن . وحب الطبيعة صنو للرغبة فى الفناء فيها . فالشاعر عندما يهتز وجدانيا بأى مظهر من مظاهر الطبيعة ، كأن يهتز وجدانيا لمنظر جبل عال ، أو لدى سقوط المطر غزيرا أو عندما يشاهد الندى يتساقط على أوراق الورد ، فانه يكون عندئذ مفعما بالرغبة فى الاتحاد مع الطبيعة التى يقع عليها حسه . فالحب هو الرغبة فى التلاشى فى المحبوب ، بحيث يصير المحب والمحبوب شيئا واحدا بلا انفصال أو تمييز .

والواقع أن تاريخ البشرية مفعم بالدلالات على أن الحب يتضمن فى نفس الوقت الاتحاد . ولعلنا نسوق أمثلة على ذلك بما يسمى بالكانيباليزم أو أكل لحم البشر . فيقال إن هذه العادة قد ارتبطت فى تاريخ البشرية بالطقوس الدينية . فالشخصية المحبوبة هى التى كانت تؤكل بقصد الاتحاد معها أو بقصد إحراز الفضائل والمزايا التى تتمتع بها . وفى المسيحية نجد أن تناول جسد المسيح وشرب دمه مرموزا إليهما بالقربان والخمر ، إنما هو صيغة رمزية للنزعة الإنسانية نحو الاتحاد بالمحبوب . وعندما تحب الأم طفلها فانها تحتضنه بشدة وقد تعضه . ولقد تداعبه بأنها ترغب فى أكله. وعندما تخاف الأرنبة أو القطة على أطفالها من خطر يحيق بها ، فانها تلتهمها التهاما .

ولعلنا نقول إن الشعراء فى صدر الحضارة البشرية كانوا يذوبون ذوبا فى الطبيعة ، وكانوا يهفون إلى الاتحاد بها . ولعلهم كانوا يذوبون فعلا فى الطبيعة ثم يفيقون من ذلك الذوبان فيكتبون شعرهم وكأنه ذكريات مروا بها فى لحظات مرت بالفعل . فثمة إذن رحلة وجدانية كان يقوم بها الشاعر هى رحلة إلى حضن الأم . ولم يكن الشاعر يقول الشعر وهو فى حضن أمه الطبيعة ، بل كان يقرضه بعد أن يفيق إلى نفسه من خمرة سكره بحبها . ولكأن الشاعر يصف ما كان عليه ، وليس ما هو عليه بالفعل لحظة قرضه للشعر .

وبتعبير آخر فاننا نقول إن الانبهار الوجدانى بالطبيعة هو حالة من فقد الشعور والانخراط فى حالة اللاشعور . ولعل أن تكون تلك الحالة اللاشعورية هى حالة من الذوبان الوجدانى الذى تناظر حالة الذوبان البيولوجى فى حالة الكانيباليزم . والواقع أن قطاع الوجدان من الشخصية ذو وجود لا يقل تحققا عن قطاع الجسم . ولقد يكون الفرق الجوهرى بين الذوبان الجسمى وبين الذوبان الوجدانى هو أن المرء لا يستطيع استرجاع نفسه فى حالة الذوبان البيولوجى ، بينما يتسنى له ذلك فى حالة الذوبان الوجدانى . فالولهان يكون ذائبا فى الحبيب ، ولكنه يستطيع بعد فترة

تقصر أو تطول أن يسترد ذاتيته وأن ينسحب من ذلك الذوبان حيث يجد ذاته مرة أخرى . بيد أن الذكريات المتعلقة بذلك الذوبان الوجدانى تظل معتملة فى ذاكرة المحب ، فيأخذ فى التعبير عنها بقلمه أو لسانه أو ريشته وألوانه أو بغير ذلك من وسائل تعبيرية .

بيد أن المحبين لا يعتبرون ما يعبرون به عن ذكرياتهم وقت أن كانوا فى حالة اندماج أو ذوبان وجدانى مع الطبيعة فى نفس قوة ما كانوا عليه فى ذلك الذوبان . فهم يقولون لك إن ما يقدمونه باللسان أو بالقلم أو بالفرشاة لا يعدو أن يكون ظل ما عاشوه ، أو قل إن ما يقدمونه لا يعدو أن يكون جثثا لكائنات حية ماتت على أفواههم أو أقلامهم أو فرشهم وألوانهم .

على أن المتتبع لتلك الجثث التعبيرية قد يستطيع الوقوف على كثير من ملامح الانفعالات التى كان ينخرط فيها الأديب أو الفنان . فالرمز وإن لم يكن فى قوة وحيوية الأصل ، فانه يشير إليه بشكل أو بآخر . ولقد يكون المتلقى للعمل أكثر انبهارا به من المبدع نفسه . فالواقع أن الأدباء والفنانين لا يستطيعون تقدير أعمالهم . فهم فى الأغلب ينظرون إلى إنتاجهم بنوع من عدم الرضا . ذلك أن تلك الأعمال تقوم فى أنظارهم باهتة فاترة إذا ما قورنت بالأصول التى عاشوا فى إطارها . إنهم لا يستطيعون الاعتراف بأن ما قدموه من أعمال يتطابق مع ما عاشوه وانغمروا فيه . والمسألة هنا شبيهة بالحلم النابض بالحيوية تستيقظ منه وتقصه على من حولك، فلا يجدون فيه ما انبهرت به وما أحسست به من انفعالات . فلساننا وقلمنا ووسائل التعبير التى فى مكنتنا لا تستطيع أن تنقل الأحاسيس ، بل هى تنقل صيغا كلامية أو خطية أو لونية فى محاولة للإشارة بصدق إلى تلك الأحاسيس . فالانبهار الوجدانى هو حياة ، والتعبير عن ذلك الانبهار هو رمز لتلك الحياة ..

والواقع أن إنسان الحضارة قليل الحظ وجدانيا . ذلك أن الحضارة الشيئية تصبو جاهدة إلى جعل كل شىء شيئا موضوعيا مطروحا بعيدا عن

نطاق الوجدان الإنسانى . إنها بصراحة تحارب الذوبان الوجدانى . وتجعل من الإنسان متفرجا على لعبة الحياة وليس لاعبا فى خضم الحياة . وشاهد ذلك أن الصفة الرئيسية من صفات العلم هى أنه يتجرد عن الذاتية ويتصف بالموضوعية أو الشيئية . وحتى علم النفس ، وهو أقرب العلوم إلى الذات الإنسانية يتنكر للذاتية ويعمد إلى رصد الظواهر النفسية من منظور موضوعى بحت . وإنك لتجد أكثر الظواهر ارتباطا بالذاتية مثل ظاهرة الاستبطان أو ظاهرة الحدس وقد تعرضت للنقد الشديد من جانب معظم علماء النفس لأنها لا تخضع للنظرة الشيئية أو للفحص الموضوعى .

ونخشى أن نقول إن القوالب والصيغ الموضوعية النقدية فى الأدب والفن قد جعلت من النقاد فى هذين المجالين متربصين للأدباء والفنانين . فهم يضعون لهم القواعد والقوانين ، ولكأن الواحد منهم يقول للأديب وللفنان « هذا هو الخط الذى أرسمه لك ، فعليك اتباعه وحذار من الخروج عليه وإلا فانى سأسلط عليك سيف النقد وأحط من عملك الأدبى أو الفنى » .

ونحن نعلم أن الأدب الخليق بالاعتبار ، والفن الخليق بالتبجيل هما الأدب والفن اللذان يعبران عن ذكريات الانبهار الوجدانى : وليسا الأدب أو الفن الممارسين شعوريا ويحذر من الخروج عن الاطار الذى يرسمه الناقد الأدبى أو الناقد الفنى . ولعلنا نعترف بمصدر واحد من مصدرين يمكن أن يستمد منه الأديب والفنان الأدب والفن . المصدر الأول — الانبهار الوجدانى أو حالة الذوبان والتفاعل التى ذكرناها . أما المصدر الثانى فهو تلك القواعد التى يقررها الناقد الأدبى أو الفنى . فاذا ما انحاز الأديب أو الفنان إلى الانبهار الوجدانى ، فانه لا يرضى الناقد ، وإذا ما انحاز إلى الناقد وقواعده لارضائه وتجنب بطشه ، فانه يكون بذلك قد خان نفسه وخرج عن إطار انفعالاته الحقيقية .

ونخشى أن نقول إن الأديب والفنان المعاصرين لا يكادان يجدان من الطبيعة إلا فضلة باقية لا تقيم أود الوجدان ، ولا تفى بالأغراض الانفعالية

الوجدانية التى يجب أن ينخرط فيهما الأديب والفنان لكى يفيقا بعد ذلك الانخراط فيسجلان ما يتذكرانه . وإنك لتجد شعراء اليوم يتحدثون عن الخمر والنساء تقليدا لمن سبقوهم من شعراء كانت فى حياتهم خبرة حية بالخمر والنساء . ولسنا هنا لكى ندعو إلى احتساء الخمر أو للتهتك والارتماء فى أحضان النساء ، ولكنا نود أن نبرز ما يتعرض له الشاعر اليوم من زيف لأنه يريد أن ينقل صورة كان يحياها غيره فى أزمان بعيدة ، وهو لا يحياها . ولكأن الشعراء القدامى قد عاشوا له ما يريد قرض الشعر فيه .

ونخشى أن نقول أيضاً إن المدنية قد أفسدت أمزجة الأدباء والفنانين. فصار الأديب والفنان المعاصران منبهرين بالخواء الحضارى . ذلك أننا كلما ضربنا بسهم أوفر فى المدنية ، بعدنا بالتالى عن حال الطبيعة . ولعل فارس الأمس كان أقرب من راكب القطار أو الطائرة اليوم من حال الطبيعة بالرغم من أنه كان بعيداً نسبيا عن تلك الحال . ولذا فإنك تجد أن الانبهار الوجدانى بالطبيعة شىء صعب المنال بالنسبة للحضاريين . ولكن صعوبة المنال شىء والاستحالة شىء آخر . فمن الممكن الاقتراب من الطبيعة لفترات تقصر أو تطول . وأضعف الإيمان أن نقترب من أنفسنا بغير زيف حضارى ، وذلك باطراح ما أثقلتنا به الحضارة جريا وراء روسو وغيره من شخصيات تناصر حال الفطرة لدى الإنسان وتصبو إلى استرجاع حالة النقاء من التلوث الحضارى التى إبتليت بها البشرية والتى أفقدتها الحظ الوافر من الانبهار الوجدانى والذوبان والانفعال بالأم الحقيقية . فذلك الكائن الغريب على الجبلة البشرية يطحن الإنسان طحناء ويبعد به بعدا شاسعاً عن كيانه وعن متطلبات حياته الوجدانية التى لا تتغذى إلا من ثدى الأم الحقيقية أعنى الطبيعة . ولكم احتج المحتجون ونعى الناعون بسبب ذلك الحرمان من منبع الإلهام الحقيقى والصادق . وليس أمام إنسان الحضارة من سبيل إلا محاولة الاقتراب فحسب من أمه لأن من المتعذر والحال هذه الاتحاد معها والارتماء فى حضنها إرتماء كاملا.

الكشف عن المخبوء :

قلنا إن الإنسان يصبو إلى الذوبان فى حضن أمه الطبيعة . بيد أن هناك فى الواقع دافعا آخر يقابل ويناهض الدافع إلى الذوبان المشار إليه . ولكأن الطبيعة البشرية قد جبلت على الثنائية فى جميع أنحائها . فنحن نعلم أن المخ البشرى محكوم بقوتين أساسيتين : قوة الإثارة من جهة ، وقوة الضبط أو الكف من جهة أخرى . ونعلم أيضاً أن الجسم محكوم بقوتين : قوة اللذة من جهة ، وقوة الألم من جهة أخرى . وكذا فان الحياة الوجدانية محكومة بقوتين هما الحب من جهة والكراهية من جهة أخرى . وكذا فان الحياة الأخلاقية محكومة بقوتين هما الخير من جهة والشر من جهة أخرى . والحياة العقلية محكومة بقوتين هما الحق من جهة ، والباطل من جهة أخرى . وأخيراً وفوق كل ذلك فان الانسان متميز بقوتين أساسيتين هما القوة الجسمية من جهة ، والقوة العقلية الروحية من جهة أخرى . ولعلنا نضيف إلى هذه الثنائيات هذه الثنائية الجديدة التى فطرنا عليها وهى الرغبة فى الذوبان فى أمنا الأرض من جهة ، والرغبة فى الاستقلال عنها والتميز منها من جهة أخرى .

والواقع أن تحقيق التوازن بين هاتين القوتين الدافعتين ينتهى بالمرء إلى ما يسمى بالتفكير . فنحن فى لحظة التوقف عن الارتماء فى حضن الأرض وعن الذوبان فيها والتوقف فى نفس الوقت عن التقوقع حول الذات والالتفاف حول الإنية الشخصية ، فاننا نجد أنفسنا فى موقف وسط يدعونا إلى ممارسة التأمل الذهنى الصافى . ولقد سبق أن قلنا إن الأديب والفنان لا يعمدان إلى الإنتاج الأدبى أو الفنى ساعة أن يكونا ذائبين فى الانفعالات وفى عشق الطبيعة والاندماج فيها ، بل هما يفيقان من حلمهما العميق ويعودان إلى حالة من التذكر والوقوف على ما ترسب فى أنحائهما من خبرات ، فيحاولان التعبير الأدبى والفنى . ومن الطبيعى أن تكون هذه المرحلة التى يعبر فيها الأديب والفنان عن خبرتهما واقعة فى مرحلة

وسط بين مرحلتين هما مرحلة الاندماج والذوبان فى الطبيعة ، ومرحلة البعد والانفصال والنسيان التام لما سبق لهما المرور فيه من خبرة وجدانية . فالأديب والفنان إذا انتظرا أكثر من اللازم بعد المرور فى مرحلة الذوبان أو الانصهار الوجدانى الانفعالى فى الطبيعة ، فإنهما يفقدان القدرة على التعبير عن تلك الخبرة لأنها تكون قد انقشعت وتلاشت أو صدئت وصارت غير واضحة المعالم فى الذهن والوجدان جميعا . ومن ثم فان التعبير الأدبى والفنى إذا ما أتى قبل الإفادة من الذوبان ، أو بعد خفوت الصور التذكرية المتعلقة بتلك الخبرة الوجدانية فانه يكون تعبيرا فجا أو غير مترابط أو غير دقيق .

وعلى نفس النحو نقول إن العقول البشرية قد مرت بهذه المراحل الثلاث التى عرضنا لها هنا . فثمة أولا الذوبان والانصهار فى الطبيعة ، ثم مرحلة الافاقة والاحساس بالذاتية القريبة نسبيا من الخبرة الوجدانية ، ثم مرحلة النسيان وفقدان الذكريات المتعلقة بالاندماج أو الانصهار . ولقد نقول إن هذه المرحلة الثالثة هى فى الواقع المرحلة التى تمر بها البشرية اليوم . وبتعبير آخر فاننا نزعم أن العلماء الذين تلوا المرحلة الشعرية أو قل مرحلة الوله بالطبيعة كانوا ما يزالون متعلقين بأمهم الطبيعة ، وكانوا مايزالون منبهرين بتأثير الطبيعة عليهم . ولقد نقول إن الحضارة البشرية قد بزغت أول ما بزغت نتيجة تعشق الطبيعة والانصهار فيها ورضع ثديها . ولكن بعد أن ابتعد الإنسان عن حضن تلك الأم ، فانه اتخذ موقف العداء منها ، وصار متألبا عليها . ولقد لا نبالغ إذا ما قلنا إن العلماء يتنكرون اليوم لكل ما هو طبيعى ويعملون إلى إحلال المصطنع محل الأصل . فالأسمدة الكيميائية حلت محل الطمى ، والحاسبات الالكترونية حلت أو هى تحل تدريجيا محل العقول البشرية ، والميكنة تحل محل اليد البشرية فى العمل ، والعقاقير الكيميائية تحل محل العقاقير الطبيعية المستمدة من النباتات مباشرة. ولعلنا مقبلون على مرحلة وشيكة هى مرحلة تصنيع الأغذية من الحجارة والمواد الكيميائية بدل تناولها مباشرة من النباتات والحيوانات. وقس على

ذلك مواقف انسحابية كثيرة تبعد بنا عن الطبيعة وتجعل الانسان فى مكان قصى عن حضن أمه الأرض .

والواقع أن العلماء قد بدأوا مسيرتهم العلمية باحترام الطبيعة وتقديسها: والاحترام والتقديس يستوجبان الكشف عن الأسرار المخبوءة بغير هتك أو اعتداء على صاحبة تلك الأسرار . فكان العلماء من أمثال ارشميدس ونيوتن يبحثان عن أسرار الكون للوقوف عليها دون اللجوء إلى الاعتداء على الطبيعة . فكان العلم لا يطلب لهدف معين ، ولا لتحقيق نفع مرجو ، بل كان العلم أشبه ما يكون بالعبادة ولسد نهم عقلى معتمل بقلب العالم : ولم يكن هناك فرق جوهرى بين أن يكتشف الراهب أو الصوفى حقيقة غيبية نتيجة تأمله فى صومعته أو كهفه ، وبين العالم الذى يكتشف حقيقة علمية فى برجه العاجى أو فى عزلته التأملية العلمية . ولقد نقول أكثر من هذا إن حياة الكثير من العلماء كانت نسكية فى الواقع ، بل إن الكثير من العلماء كانوا رهبانا بالفعل يعيشون فى الأديرة ، وكانوا يمارسون العلم ويتذوقون التأملات العلمية إلى جانب تذوقهم للتأملات الروحية الدينية . من ذلك الراهب مندل الذى وقع على قوانين الوراثة وهو فى ديره حيث أتاحت له فرصة العزلة بالدير ممارسة زراعة الزهور والنباتات وتتبع نموها وعلاقاتها وقيامه فى نفس الوقت ببعض التجارب التى لم تكن لتسىء إلى طبيعة النباتات أو لتخرج بها عن أصولها وطبائعها . وقل نفس الشىء بالنسبة لعلوم اللغة العربية مثلا وعلوم المعمار والفلك وغيرها مما انتعش فى الحضارة الإسلامية لخدمة الدين على أيدى رجال جاوروا بين الدين وبين التأمل العلمى الذى اعتبروه ضمن تيار التأملات الدينية .

ولسنا نشك فى أن ثمة انفصالية كانت قائمة بين الفكر العلمي وبين الممارسة الأدائية . ولعلنا لا نخطىء إذا ما قررنا أن المهارات اليدوية جميعاً لم تكن مرتكزة على أسس علمية ، بل كانت مرتكزة على الخبرة اليومية . ولقد صار كل جيل تال يأخذ عن الأجيال السابقة خبراته العملية التى تتعلق

بالممارسات والحرف المتباينة ويضيف إليها . أما العلماء فانهم كانوا كالشعراء والفنانين . فهم كانوا يبحثون ويتأملون ويسجلون بحوثهم ويعلمونها لغيرهم بعيدا عن مجال الممارسات العملية المتباينة . ولعل الزواج الذى تم بين العلم والعمل قد أتى فى مراحل متباينة بعد ذلك عندما أخذت فئة من العلماء يخرجون عن الصف ويزاوجون بين ما تنتهى إليه الكشوف العلمية وبين النفع يحصلون عليه لأنفسهم أو الضرر يوقعونه على أعدائهم . وهذه الفئة من العلماء المنشقين هم التكنولوجيون الذين صاروا يسخرون نتائج البحوث العلمية لمصلحة الواقع العملى ولمصلحة الممارسات والأداءات المتباينة .

ويصح أن نذكر حقيقتين أساسيتين ثابتتين تاريخيا : الحقيقة الأولى أن العلم كان مرتبطا بالفلسفة أو قل كان جزءا منها ، وكانت الفلسفة لدى فئة كبيرة من الفلاسفة من أمثال فيثاغورس وأفلاطون وديكارت مرتبطة بالدين . وكان التعليم أيضا منزها عن أن يكون حرفة يتقاضى المرء عنها أجرا . ولكن المنشقين لعهد سقراط الذين أطلق عليهم اسم السوفسطائيين قد خرجوا على هذه القاعدة وأخذوا يبيعون العلم والبلاغة للناس . أما الحقيقة الثانية فهى ان العلماء كانوا يحتقرون المادة والاشتغال بالمحسوسات أعنى إعمال اليدين فى الخامات . وقد جعل أفلاطون الاشتغال بالعمل اليدوى خاصاً بفئة العمال التى تعمل لشهوة الكسب ، بينما يعمل الفلاسفة لشهوة العقل والتفكير المطلق . وبذا بعد العلماء عن العبث بالطبيعة وظلوا لفترة ذات بال وهم يتأملون الطبيعة ولا يعبثون بها . لقد كان موقفهم موقفا استطلاعيا لا موقفا استذلاليا للطبيعة .

ولكن التكنولوجيين استولوا على الأرض التى كان يلعب عليها العلماء شيئا فشيئا ، بحيث صار التكنولوجى والعالم متمثلين فى أغلب الأحيان فى شخص واحد . وصار العالم التكنولوجى يبحث فى مشكلات محددة ذات غاية نفعية معينة . ولم يعد العالم يتأمل لذات التأمل ، أو يبحث لذات البحث ، ولم تعد الرغبة فى العلم لذات العلم ، بل صارت النفعية هى الأساس . وبذا فبدل أن يتقرب العالم من الكون بروح التعبد أو بروح الراهب أو

الصوفى ، فانه صار يقبل على الكون بروح الغازى القاهر والمسيطر المتحكم أو حتى المحطم والمفسد . وبهذا صار العلماء التكنولوجيون فئة تريد السيطرة على الكون ومعرفة أسراره للقضاء عليه أو امتصاص دمائه إذا كانت ثمة دماء باقية يمكن أن يستنزفها ويمتصها .

ومع ذلك فلقد يفيق الإنسان مرة أخرى إلى نفسه بعد أن يتذوق المر نتيجة المنهج الردىء الذى ينتهجه حاليا ، أعنى منهج استذلال الطبيعة . فبعد أن يشبع الإنسان نهمه ، وبعد أن يجد أنه وقد إنزاح بعيدا عن الأعمال بعد سيادة الميكنة والعقول الالكترونية ، وقد صار فارغا ومتفرجا على الحياة وليس قواما من قوامات الحياة ، فانه قد يعود كالابن الضال مترجيا الحصول على الفتات الساقط من مائدة الطبيعة لكى يتبلغ به ، وقد استذل نفسه بعد أن ظن أنه مستذل للطبيعة وحدها ، بينما يظل هو سيدا عليها . ذلك أن الانسان وهو يهدم صرح الطبيعة قد نسى أنه مرتبط بها وأنه جزء منها . فاذا ما تم له هدمها ، فانه سينهدم معها . وبذا قد يلحق الإنسان القطار قبل أن يفوته ويعود إلى النهج القويم بتأمل الطبيعة للكشف عن المخبوء فيها فحسب .

الإلهام الارادى :

سبق أن قلنا إن الإنسان فى صدر الحضارة الإنسانية كان متعشقا للطبيعة بحيث كان يصبو إلى تأملها أو الكشف عن أسرارها المخبوءة . ومن هنا ظهرت الفلسفة والأدب والعلوم وقد كانت جميعاً تسعى إلى إشباع نهم الإنسان من المعرفة بغض النظر عما يمكن أن يترتب على مثل تلك المعرفة من فائدة لنفسه وأحبائه أو من ضرر يصيب به أعداءه . بيد أن هناك خطا آخر قد سار جنبا إلى جنب مع المعرفة ألا وهو خط الفن والإبداع الفنى . والفن — سواء كان مرتبطا بالألوان فى الرسم ، أم باللمس والإدراك البصرى كما هو الحال فى النحت ، أم بالنغم كما هو الحال فى الموسيقى — فانه فى جميع الحالات يعبر عما يخالج النفس من وجدانات

وأحاسيس عاطفية . ولعلنا نقول إن الإنسان قد سار فيما يتعلق بالفن وفق خطين أساسيين : خط يرتبط فيه الفن بالمصلحة أو الاستخدام اليومى ، وخط ينهج فيه الانسان نهجا إطلاقيا حيث يبغى الفن لذات الفن ولا يترجى من ورائه قضاء مصلحة أو إحراز نتائج عملية من وراء تعبيره الفنى . والواقع أن الانسان كان دائب الرغبة فى صبغ أشيائه التى يستخدمها فى الحياة اليومية بصبغة جمالية . وإذا نحن تذكرنا أن المصنوعات التى كان يستخدمها الإنسان قديماً كانت تنتج فرادى وليس بالجملة ، إذن لأدركنا كيف أن الإنسان القديم كان يتحرى فى صناعته الصياغات الجمالية . بيد أنه من المقطوع به أن الإنتاج الجمالى الذى لم يكن يستهدف مصلحة أو منفعة كان على جانب أكبر من الاتقان والابداع .

ويدلل هربرت ريد على أن الإنسان يتحرى فى صناعاته للأشياء التى يستخدمها كل يوم تلك النسب الجمالية التى توجد فى الطبيعة حتى ولو لم يدرك مايتحراه بطريقة واعية بقوله « خذ حالة الإبريق العادى . إن الأباريق ذات أشكال وأحجام لا حصر لها ، ولكن إذا قمنا بعمل إحصاء للإبريق ، فأعتقد أننا سوف نجد بالضرورة أن شكلا واحداً قد كان هو السائد منذ اختراع الفخار : هو الشكل الكمثرى أو المتموج . وعلى الرغم من أن الأبريق قد اتخذ الشكل الكمثرى ، فلا أظن أن هذا الشكل مستمد من الفاكهة . فشكل هذه الفاكهة ذاتها إنما يعزى إلى قانون أساسى للفزياء. فاذا أخذت سائلا مناسبا يكون أكثر كثافة بقليل من الماء ، وغير قابل للامتزاج به ، وصببت منه قدرا قليلا فى كوب ماء ، فانه سوف يأخذ فى الانتشار على السطح ، مستحيلا بالتدريج إلى نقطة كبيرة ماثلة بشكل نصف كروى تقريباً . ولكن حالما نضيف قدرا أكبر من السائل فان النقطة تأخذ فى الغطس ، أو بالأحرى فانها تنحو بشدة إلى أسفل ، وهى لا تزال متعلقة بغشاء السطح . ويمتد إتزان القوى بين الجاذبية وبين توتر السطح بنقطة السائل إلى أن تتخذ شكل الكمثرى أو الشكل المتمتوج . وأخيرا فهى تنقسم إلى نقطتين : ولكن فى اللحظة التى يصل فيها التوتر

إلى أعلى درجة فان النقطة تتخذ الشكل الكمثرى . ولا يوجد هذا الشكل فى الكمثرى فحسب ، بل وأيضاً فى كثير من الموضوعات الأخرى بالطبيعة — أصداف الرخويات الدقيقة ، والأغلفة المتعددة لحبات النبات والكائنات الحية المسامية المتعددة . وما أزعمه هو أنه عندما يتخذ فنجان القهوة أو إبريق اللبن هذا الشكل ، ونجده جميلا ، فان هذا إنما يعزى إلى أن الخزاف لدى تشكيله للاناء ، يكون قد أعطاه الشكل المكثف لنقطة السائل بوحى من غريزته . وحالما يكتشف هذا الشكل الرئيسى ، فانه يستطيع بلا شك أن يدخل عليه تغييرات كثيرة . فهو يستطيع على سبيل المثال أن يقلبه رأسا لبطن ، وأن يمتد به أو يضغطه ، على الرغم من أن حدود تغييرات كهذه يمكن أن تكون محدودة » . (تربية الذوق الفنى ص ٤٢/٤١ ترجمة المؤلف) .

ويتضح من كلام هربرت ريد أن الإنسان هو الواقع ابن لطبيعته ، أعنى أنه ابن للطبيعة من حوله من جهة ، وابن لطبيعته الذاتية الداخلية المعتملة فى أنحائه بغير وعى من جانبه من جهة أخرى . وهذا يتضح فى قوله « إن الخزاف لدى تشكيله للاناء ، يكون قد أعطاه الشكل المكثف لنقطة السائل بوحى من غريزته » والغريزة هى ما نعنيه عندما نقول : « الطبيعة الذاتية الداخلية المعتملة فى أنحائه » .

والفنان الحقيقى هو ذلك الذى يستلهم الطبيعة ويحذوها ولا يخرج عن إطارها وإن كان هذا لا يحول دون إضافات يستحدثها الفنان بحيث لايكون مقلدا للطبيعة تماما . يقول هربرت ريد فى هذا الصدد أيضاً بنفس كتابه المذكور « قام المعمارى التشيكى كارل هونزك بشرح القول بأن المعمار ليس قادرا على الاستعانة بالنسب الموجودة فى نمو النبات فحسب ، بل وأيضا فى تركيبها الآلى.وجدير بالذكر أن لزنبق الماء بأمريكا الجنوبية أو فيكتوريا ريجيا ورقة تبلغ مساحتها حوالى ستة أقدام بحيث يمكن أن يحمل عليها جرو أو طفل صغير على سطح الماء . أما دعائم هذه الورقة التى تستهدف نفس الغرض الذى يستهدفه تجزيع أية ورقة نبات عادية ، فانها

تكون نامية بدرجة هائلة ، كما أنها تتطابق بشكل واضح مع الشكل البنائى الذى يضطلع به المهندسون لدعم أحد السقوف الحقيقية . ولقد قام السير جوزيف باكستون بالفعل لدى شرح خططه بصدد كريستال بالاس بعرض إحدى ورقات ذلك الزنبق المائى قائلا : إن الطبيعة كانت مهندسا ، فوفرت للورقة عوارض ودعائم طولية ومستعرضة . وقد اقتبستها منها لهذا المبنى » .

ولقد نقول إن الحضارة وإن كانت قد أفادت من الطبيعة فى كثير من النواحى الجمالية ، فانها من جهة أخرى قد زيفت طبيعة الإنسان الحضارى وحرمته من استلهام الطبيعة مباشرة . فأغلب من يقرأون هنا وصف الزنبق الذى عرض له السير جوزيف باكستون لم يسبق لهم أن شاهدوا هذا الزنبق أو غيره . ونخشى أن نقول إن الكثير من أطفال المدن لم يتسن لهم مشاهدة البقرة أو الجمل أو حتى الدجاجة . بيد أنهم لا يلتقون بتلك الكائنات الحية إلا وهى مطبوخة وقد وضعت منها أجزاء أمامهم على المائده وقت الغداء . فابن المدينة يتغلف بغلاف حضارى يفصله تماما عن أمه الطبيعة ، ومن ثم فانه إذا استلهم شيئاً فى حياته وفى إنتاجه الجمالى ، فانه يستلهم الحضارة التى تكون فى الغالب زائفة أو بعيدة عن الأصل ، أعنى الطبيعة التى تكون مفتقدة لجوانب أساسية متوافرة بالطبيعة وليست متوافرة فيها .

على أن ثمة جوانب من الطبيعة قد ساعدت الحضارة على الكشف عنها بحيث يتسنى استلهامها . يقول ريد فى هذا الصدد وإن الأشكال الجميلة توجد بالخلايا وجزئيات المادة الميكروسكوبية . فقد يقوم أحد العلماء مثلا بصنع نموذج لاظهارنا على التنظيم المتقن للذرات بداخل إحدى بلورات الماس ، وعندئذ ترى أن الذرات تشكل نمطا منظما . نمطا سوف يصفه نفس ذلك العالم بأنه جميل ، ويمكن التوصل إلى البرهنة على أن هذا النمط ليس من اختراع ذلك العالم ، ولكنه يوجد فى الواقع . فاذا ما قمنا

بتمرير شعاع من خلال باورة كاليوفوليت (سلكات بوتاسيوم وألومنيوم) فعندئذ يترجم نمط الذرات الموجودة بداخل البلورة بواسطة ذلك الشعاع إلى تنظيم شكلى مكون من ضوء وظل يمكن تسجيله على لوح فوتوغرافى». (نفس المرجع ص ٣٣) .

ولكن إذا كان للحضارة يد بيضاء واحدة على إظهارنا على ما جبلت عليه الطبيعة من جمال ، فإن لها ألف يد سوداء ، إن لم نقل إن الحضارة تتآمر على الجمال والابداع الجمالى وتعزف بالانسان الحضارى عن استلهام أمه الطبيعة . فلقد عملت الحضارة على إزاحة الإنسان من طريق الإبداع الفنى وذلك بما توفره من قوالب جاهزة عليه أن يتخذ موقف المتقبل منها . فانسان اليوم بمثابة متفرج على مبـــاراة رياضية . فهو لا يشاطر اللاّعبين لعبهم ، ولكنه يهلل لهم أو يصفر ضدهم مستهزئا بما أدوه من لعبات رديئة . فلقد انصرف أبناء الحضارة عن الابتكار الفنى إلى الابتكار الاقتصادى . فالرجل الناجح والمرأة الناجحة هما اللذان يضطلعان بأعمال تدر عليهما ربحا وفيرا . أما أن يقتفى الواحد منهما طريق الابتكار الفنى الذى ينفق عليه من دخله ولا يعود عليه بدخل ، فانه عبث وضياع وخروج عن الخط القويم . ولعلنا نضرب مثالا واضحا على ذلك بانصراف الفتاة المعاصرة عن دارسة فنون الإنتاج الفنى غير النفعى واتجاهها إلى الفنون الاقتصادية التى يمكن أن تدر عليها ربحا كبيرا فى المستقبل . وإذا كان هذا هو حال المرأة ، فما بالك بالرجل وهو الذى ما يزال مسئولا عن الانفاق على أسرته وعن ضمان مستقبل اقتصادى باسم لأبنائه .

ولنا أن نزعم أن الإنسان الحضارى يمكن أن يفيق إلى طبيعته الأصلية إذا هو عاد مرة أخرى إلى حضن أمه الأرض وإلى الكون من حوله لا يهدم صرحه وعزقه إربا إربا كما هو حاله اليوم ، بل لكى يتصالح مع طبيعته الأصلية التى جبل عليها بداءة . ونحن لا نقصر الكلام على الانتاج الفنى فحسب بل نخرج من المجال الفنى إلى جميع المجالات ويضمنها

المجال الأخلاقى . فلكم رزح إنسان الحضارة تحت قيم أخلاقية بالية أو مصطنعة أو زائفة ، ونسى أن يستهدى بما جبل عليه فعلا من حنان وتعاطف وانسجام مع ذاته ومع غيره . فليتنا نبدأ أخلاقنا بمعايير سلوكنا من دخائل أنفسنا وليس من صيغ وقوالب جاهزة تفرض فرضا علينا وتفرضها نحن على حولنا سواء كانت ذات مغزى وذات جمال أم لم تكن. إننا نريد أن نستلهم الطبيعة من حولنا والطبيعة فى داخلنا حتى يأتى سلوكنا الخلقى منسجما مع قوامنا وليس بمثابة رقع مضافة إلى قوامنا إضافة أو هلاهيل ممزقة نحاول حياكتها فى إنسجام مفتعل . بهذا يكون استلهامنا الإرداى ، وبهذا أيضاً يتم التصالح مع ذواتنا ، ولا تكون شخصيات زائفة تسير فى عالم زائف .

الفصل الحادى عشر

الآخرون كمصادر الهامية

دور المرأة فى إلهام الرجل :

من المعروف أن العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة قد تشعبت وتعقدت وأخذت لها معانى واتجاهات مباينة عما هى عليه لدى الحيوانات. فالعلاقة بين الرجل والمرأة لم تعد مجرد علاقة فسيولوجية يقصد من ورائها اللذة أو الانجاب أو كليهما ، بل تعدت ذلك إلى مناح معنوية كثيرة . من ذلك مثلا ما يتعلق بالإحساس بالجمال وما يمكن أن يثمر ذلك الإحساس من فن وأدب . وأكثر من هذا فان تفوق الكثير من الناس فى جوانب حياتهم المتباينة وفى مناشطهم التى يضطلعون بها إنما يعود فى نهاية المطاف إلى ما اعتمل فى جنباتهم من رغبة فى إرضاء المرأة التى يحبونها والحظوة باعجابها . ولقد يتفوق الطالب فى المدرسة المشتركة التى التحق بها أو فى الجامعة حتى يحظى باعجاب الطالبات اللائى يزاملنه فى حجرة الدراسة . ولقد نجد أن الكثير من الأبطال فى الملاعب يبذلون قصارى الجهد حتى ينالوا إعجاب الصديقات والمعجبات بهم وهم يشاهدونهم ويتابعون نشاطهم على أرض الملعب. وقل نفس الشيء بالنسبة للممثلين والمطربين وغيرهم ممن يرسمون أو ينحتون أو يقرضون الشعر أو يبدعون فى شتى ألوان الإبداع البشرى .

والواقع أن الإلهام الجنسى يعتمل فى قلب الرجل إنما يقع فى مرحلة أو فى واقع بين واقعين أحدهما النشاط الجنسى الفسيولوجى ، والثانى اللاّمبالاة الجنسية وعدم التعلق بالموضوع الجنسى أو عدم الصبو إلى أى امرأة من قريب أو من بعيد . والواقع أن هذا لا ينفى أن الزوج يرغب

أيضا فى إحراز إعجاب زوجته به ، وكذا فان أكثر الناس بعدا ولامبالاة بالمرأة هم فى الواقع اللاشعورى على الأقل يهتمون برضى المرأة وإعجابها بهم . فسواء كنت مدركا لحاجتك ورغبتك فى إحراز رضى وإعجاب امرأة بالذات أو رضى وإعجاب فئة النساء عموما ممن تقوم بينك وبينهن علاقات فى العمل أو الدراسة أو غير ذلك من مجتمعات تجمعك بهن ، أو غير مدرك لتلك الرغبة أو تلك الحاجة ، فإنك بلا شك تتحرك من باعث جنسى خفى يحرك سلوكك ويدفع بك إلى بذل النشاط ومحاولة التفوق والتبريز فيما تمارسه من نشاط حتى تضمن رضى المرأة وتشجيعها لك وإعجابها بك .

ونستطيع أن نقرر أن فرويد كان محقا عندما عزا غالبية — أو كل — النشاط البشرى إلى الجنس . ولكن الذى نختلف فيه عن فرويد هو أن ما نذهب إليه ونؤمن به هو أن الإنسان يصدر فى نشاطه لا عن الجنس أياً كان ، بل عن جانب منه بالذات هو الحصول على الإعجاب الجنسى من جانب المرأة . فالمرأة هى التى تحرك فينا النشاط . وهى التى تدفع بنا إلى مجابهة الحياة بجرأة ، بل هى التى تجعلنا نركب الصعاب من أجل إحراز رضائها . ولقد نقدم حياتنا فدية لها إذا ما اقتضى الأمر ذلك . فانك تجد الرجل وقد أخذ يدافع عن زوجته أو حبيبته حتى ولو قدم حياته ثمنا لذلك . وقد تبدى هذا بشكل واضح فى المبارزات التى كانت تنشأ بين الفرسان فى العصور الوسطى بسبب الرغبة فى الاستئثار بحب امرأة جميلة . ولقد تجد فى تاريخ النساء الشهيرات من كن يثرن حمم الرجال بل وغيرتهم حتى تقع المعارك فتجد المرأة مشتهاها وهى تشاهد الدماء تنصبب من أجساد الرجال الذين حاربوا بعضهم بعضا من أجل الحصول عليها والفوز برضاها.

بيد أن حب الرجل للمرأة الجميلة قد اتخذ له أشكالا متباينة كثيرة . يقول محمد اسماعيل الموافى فى بحث له عن الحب الرفيع بين الرجل والمرأة « يتعلق شاعر حب بسيدة عالية المقام فلا يلبث أن يهيم بها ، فاذا هذا الهيام يملأ عليه وجوده . وإذا هى من الوجود مركزه . إن غابت عنه لم

يزايل خيالها خياله، وإن كان بمحضرها أخذه الخشوع واضطرب قلبه غاية الاضطراب . فالسيدة قد حلت من نفسه منزلة لا يرقى إليها مخلوق . ولهذا فى عينيه من الجمال الكمال ما يرفعها إلى مقام إلهة تحول حبه لها عبادة تترجم بالسعى لإكتساب الخلال التى تؤهله لأن يدنو من إلهته . وهو يتقرب إليها بالتلطف والتعفف ، بالحياء والوفاء والصدق والطاعة ، وخاصة بالكرم والشجاعة والتضحية . ولا غاية له إلا نيل رضاها . أما ما وراء ذلك فلا أمل له فيه إلا أن تأخذها به شفقة . وحتى ترق له إن رقت . قد تمر ستون طوال من المعاناة والصبر قد يظفر فيها ببسمة ويقنع منها بكلمة . ودون ذلك حياة من الحرمان هى أقرب للموت ، ينفى النوم عن عينيه لوعة الغرام وتبرى عظامه تباريح الهوى ويلتهم حياته مر الأيام العجاف ، ولكنه مع ذلك مستطيب لعذابه مستعذب لهواه لا تأخذه حسرة أو ندم » (عالم الفكر — المجلد الحادى عشر — العدد الثالث) .

ولا شك أن هذا التوتر النفسى بمتلك ناصية الولهان لا يقف عند حدود نفسه ولا ينحبس فى دخيلته ، بل هو يبحث له عن قنوات يخرج من خلالها إلى حيث يجد له فرصة سانحة يعبر من خلالها عن نفسه ، ويتجسد فى صيغة أدائية فيتسنى للآخرين الوقوف عليها وتفهمها واستشفاف ما تتضمنه بين السطور أو فى الخطوط أو الألوان أو المجسمات ما تخفيه من مشاعر وما سبق أن احتدم فى قلب الشخص المبدع من انفعالات ثائرة ومن مشاعر فائرة .

ولكن الحال لا ينتهى بالولهان فى جميع الحالات إلى الإبداع الفنى أو الأدبى ، بل إنه قد يخرج ما يحسه من توترات فى الأحلام أو فى أحلام اليقظة أو حتى فى أشكال سلوكية غير مألوفة هى ما نسميه بالجنون . ولا شك أن التعبير الفنى والأدبى هما البديلان الرائعان لما يمكن أن ينحو إليه الولهان المتوتر من تعبير . ولكن يجب أن نعود فنؤكد أن التعبير عن الوله والعشق قد يكون تعبيرا مستخفيا فى أثواب تعبيرية غير مباشرة ، بل إن أحدا لا يكاد يصدق أن ثمة ارتباطا بين النشاط يبذله الشخص أو إنتاج

يتجه وبين العشق والهيام . فالمهندس المجيد والطبيب النطاسي والمحامى اللوذعى بل والنجار الحاذق والسائق المتمكن من فنون القيادة يمكن أن يكون للحب لديهم جميعا باعث دفع بهم إلى التفوق والعبقرية .

ولقد نستطيع أن نحدد مراحل الإلهام الذى يتأتى للرجل المحب لامرأة بعينها أو لفئة النساء بعامة على النحو التالى :

أولا : مرحلة التهيؤ للحب : ذلك أن ثمة ارتباطا وثيقا بين النمو وبين الجنس بصفة عامة . فالمراهقة والشباب هما المرحلتان الأساسيتان اللتان يكون المرء خلالهما مهيأ للحب . بيد أن الطفولة والشيخوخة تعرفان الحب أيضا عند بعض الناس . فثمة من يذكرون أنهم أحبوا فى طفولتهم وكانوا ولهانين بمن أحبوهن من النساء . ومن جهة أخرى فان هناك من الشيوخ من يقعون فى غرام فتيات صغيرات أو شابات مراهقات . فثمة فروق فردية فى هذا الصدد . فلقد تجد مراهقا أو شابا أقل تشبيأ بالنساء من طفل أو من شيخ ، ولقد تجد فروقا شاسعة فى الاهتمامات الجنسية بصفة عامة بين أفراد من نفس الجنس فى نفس السن .

ثانياً : مرحلة الكشف الجمالى : فثمة مناح معينة فى الجنس اللطيف تجذب انتباه الذكر فى الأعمار المتباينة . وهنا نجد اختلافات شاسعة من شخص لآخر . فثمة أجزاء معينة بالجسم تحظى باهتمام المرء فى المرأة أكثر من أجزاء أخرى . وبعض الرجال يتعشقون الصوت الجميل تصدره المرأة ، وبعضهم تأسر لبه حركة معينة فى المشية أو الجلسة أو الإشارة باليدين أو حركات الشفتين أو الحاجبين ، وبعض الرجال يتعشقون البشرة السمراء أو القمحية ... الخ

ثالثاً : مرحلة الالتقاء : وهذه المرحلة قد تتم بالتقاء متبادل بين الطرفين ، كما أنها قد تكون التقاء من طرف واحد . وفى هذه الحالة يقع الرجل فى الحب بغير أن تكون المحبوبة على علم بذلك . وفى بعض الحالات لا يلقى الرجل هوى فى قلب محبوبته فتصده ، فيبعد عنها ويملها ويعزف

عنها ، أو يزيد تشبثه بها ويلح عليها لاستعطافها واسترضائها وترقيق قلبها فتعطف عليه .

رابعاً : مرحلة التعميم : فعندما يمر المرء فى خبرات حب كثيرة ، فانه ينتهى إلى تصور معين للمرأة الجميلة ويكون قد شكل هيئة معينة للمرأة التى تعجبه . ولقد يكون التعميم متعلقا بالخصائص النسائية فتجد واحدا يصف النساء بأحسن الأوصاف ، وبعضهم يصفهن بأردأ الأوصاف . ومن هنا تجد الاتجاه العام للرجل قبالة النساء فى حديثه وتصرفاته . فمن حظى برضى كثير من النساء فى مراحل حياته المتباينة يكون رقيق الحاشية بتجاهن ويعاملهن باللطف والتقدير . أما الذى لم يجد سوى الصد من النساء خلال مراحل حياته وفى مواقف كثيرة متباينة ، فانه يكون فى الغالب ناقما على المرأة ودائبا على ذمها والتهكم عليها أو التربص بها .

خامساً : مرحلة الإنتاج : . وهذه المرحلة تكون بوسيلة أو أكثر . والواقع أن هذه المرحلة تسير جنباً لجنب مع جميع المراحل السابقة ، ولكنها تكون قد اكتملت ونضجت بعد المرور بالمراحل الأربع السابقة : ومن هنا فاننا نجد عظماء الكتاب والقصاصين هم أولئك الذين نضجت خبرتهم بالنساء بحيث تكون لديهم خبرات مهضومة تشكل ركائز الهام المرأة لهم . فهم يستلهمون المرأة عندئذ بشكل عام بغير تخصيص أو تعيين .

دور الرجل فى إلهام المرأة :

يختلف تأثير الرجل فى المرأة عن تأثيرها هى فيه . ومن هنا فاننا نجد أن الإلهام الذى تستشفه المرأة من الرجل يختلف اختلافا بينا عن الإلهام الذى يستشفه الرجل من المرأة ، وهو الإلهام الذى عرضنا له فى الموضوع السابق . ولعلنا فيما يلى نعرض لأوجه التباين بين هذين النوعين من الإلهام :

أولا : إن العمق الوجدانى عند المرأة أبعد بكثير عن العمق الوجدانى عند الرجل . فالمرأة السوية أحادية القلب وغير تعددية العاطفة . فهى لا تستطيع أن تحب أكثر من رجل واحد فى الوقت الواحد ، ولكن الرجل

يمكن أن يحب أكثر من امرأة واحدة فى الوقت الواحد . ولذا فاننا نجد أن النساء بوجه عام أكثر إخلاصا فى حبهن من أغلب الرجال . ولكن هذا لا يحول دون وجود رجال يكرسون القلب لامرأة واحدة ، كما أنه لا يمنع من وجود نساء تحب الواحدة منهن أكثر من رجل واحد فى الوقت الواحد . ولعل هذا يرجع إلى التباين فى البنية الجسمية كما يرجع إلى التربية والقيم السائدة بالمجتمع . ونحن عندما نتحدث هنا فانما نتحدث عن التكوين الأصلى للجهاز النفسى لدى المرأة والرجل بغير أن يتأثر هذا الجهاز بالمؤثرات المتباينة أو بغير أن نأخذ فى اعتبارنا الحالات الشاذة التى لا يصح التعميم فى ضوئها .

ثانياً : إن المرأة تختزن عواطفها وتحتفظ بها وتدور فى دوامتها . وهى إذا عبرت عن تلك العواطف التى تجيش فى صدرها ، فانها تقتصر فى التعبير عنها على أضيق نطاق ممكن . فهى من جهة تخجل وتستحى من التعبير عن عواطفها ، ومن جهة أخرى فانها تعتز بتلك العواطف وتعتبرها كنزا ينبغى أن تستأثر به وألا يطلع عليه أحد .

أما الرجل فانه بوجه عام كائن معبر . فهو يقرض الشعر ويكتب القصة ويرسم ويصور عواطفه بالصورة والتمثال واللحن والأغنية إلى غير ذلك من وسائل تعبيرية . ولعلنا إذا ما تصفحنا شعر الحب على مر العصور وعلى المستوى العالمى ، فاننا نجد أن ما قاله الرجال يربو كثيراً ما قالته النساء فى هذا الباب .

ثالثا : إن ما تستلهمه المرأة من الرجل لا يكاد ينعكس عليها ، بل هو ينعكس على نفس الرجل الذى استلهمته وعلى أبنائها . فهى تكثف ما استلهمته تكثيفا شديدا وتجسده فى أعمال وتصرفات . ولعل أهم ما يعنى المرأة مما تلهم به من الرجل هو أن تسهر على رضائه ، وأن تركز جهدها فى إسعاده . ولعل أكثر وسيلتين ظهرتا فى هذا المجال هما إعداد الطعام وإعداد الكساء . فالفتاة التى تحب خطيبها تستلهم أطيب طعام يحبه لتعده له يوم

أن يقوم بزيارة بيت أبيها ، كما أنها قد تنكب على التطريز لتصنع له شيئا يعجبه وينبهر به . أما الرجل فانه خلافا لذلك — كما رأينا — يعبر مباشرة حتى وإن هو قدم شيئا إلى خطيبته فى المناسبات فانه يقدم لها أشياء جاهزة لم يقض الوقت ولم يسهر الليالى فى صنعها .

رابعا : هناك أيضا ما يسمى بتقمص الشخصية . فالمرأة عندما تحب الرجل تستلهمه بالتقمص الحركى والكلامى . فهى تكتسب وتستوعب حركاته وطريقة كلامه بل وطريقة تعامله للناس . صحيح أن الرجل يستمد بعض المقومات السلوكية من زوجته أو من خطيبته . ولكن بصفة عامة فان ما يقتبسه الرجل من المرأة لا يتعلق بشكليات السلوك ، بل يتعلق بالاتجاهات والمواقف العامة والعواطف التى تتعلق بالحب والكراهية . فالرجل المحب للمرأة يحب ما تحبه ويكره ما تكرهه . ولعل أكثر الأشياء استعصاء على المرأة أن تغير من القوامات النفسية الداخلية لديها . وقد يرجع ذلك إلى ما سبق أن قلناه وهو أن عواطف المرأة تكون دائما ذات جذور عميقة لا يسهل اقتلاعها أو التخفف من عمقها .

خامسا : نستطيع أن نقرر أن إلهام الرجل للمرأة هو إلهام نقلى . فالمرأة فى استلهامها للرجل تنقل عنه وتأخذ بما يريد وتتجاوب معه فيما يرغب فيه . ذلك أن المرأة التى تحب تسعى إلى إسعاد حبيبها ، وهى ترى تحقيق تلك السعادة فى الخضوع والطاعة والتقبل . وهذا يتبدى فى سلامة القياد تبديها المرأة فى المجتمعات التى يكون المترئس عليها فيها رجلا محبوبا ومرموقا . ولعلك تلاحظ هذا جيدا فى مدرجات الجامعة وفى أوساط الموظفين بالبنوك وغيرها . فالطالبة أو الموظفة عندما تعجب بالأستاذ أو بالرئيس فى العمل ، فانها تبحث دائبة عن الوسائل التى تجعله أكثر سعادة ورضاء عنها . ولقد يكون هذا هو سر اكتساح المرأة لكثير من مجالات العمل وتفوقها رئاسيا ، إذ أنها تكون قد اقتبست وتقمصت الكثير من تصرفات السابقين عليها من الرجال فى سدة الرئاسة أو فى كرسى الأستاذية . وواضح أن إلهام المرأة للرجل هو إلهام إبتكارى . ولعل هذا أن يكون

هو السر فى خروج كثير من الرجال عن الخط الذى ترسمه أو ترسمه المرأة (تتخيله بذهنها) عندما تكون رئيسة عليه أو أستاذة له . فالرجل بطبيعته عندما يتأثر يتفاعل مع ما تأثر به بحيث يخرج من ذاتيته مركبا جديدا يتباين جذريا عن العناصر الإلهامية التى تقبلها بداءة .

والواقع أن المرأة فى استلهامها للرجل تكون بمثابة مفسرة لما يذهب إليه . أما إضافاتها التى تقدمها فى بحث أو مقال أو محاضرة ، فانها تكون فى الأغلب مستفادة من مراجع أخرى . وبتعبير آخر فان المرأة فى استلهامها للرجل تكون منغمسة فى العنعنة من أم رأسها حتى أخمص قدميها. ولعلك تلاحظ انتحاء المرأة إلى القصة قراءة وكتابة (إذا كتبت) وهى قصص وصفية على أية حال ، لا تكاد تتضمن فلسفة قائمة بذاتها تنشئها إنشاء وتبتكرها إبتكارا . وكذا فان المرأة الشاعرة تنحو إلى وصف واقعها النفسى بصورة مرئية . ذلك أن الألوان والأطياف والأشكال والأحجام تسيطر على ذهن المرأة . أما التجريد وتخليص الصور الذهنية من الأصباغ والأطوال والأحجام وحلها إلى أجزاء متناثرة ثم تركيبها على نحو جديد لم يسبق أن ركبه أحد من قبل ، فهو أمر بعيد فى رأينا عن متناول المرأة ذهنيا .

وهذا يجعلنا نقرر — على عكس الشائع على الألسنة والأقلام — أن المرأة أكثر واقعية من الرجل . فالمرأة مرتبطة بتاريخها وتاريخ غيرها . إنها تنقل الماضى إلى الحاضر وتقصه أو تعيد حدوثه إذا صح التعبير . ومن هنا يبدو ارتباط المرأة بدرجة كبيرة بالتقاليد الموروثة والعادات التى قد تتعارض مع المتغيرات . ولكن واقعية المرأة تتغلب فى النهاية . فهى تغير ما دأبت على ممارسته بعد وقت يقصر أو يطول تشبثا بتلك الواقعية ، واستمساكا بتلابيبها . ولعل من أكثر الوقائع التى تهم المرأة فى استلهامها للرجل هو تشبثها واستمساكها بما رأت عليه والدها إذا كانت قد أحبته فى نشأتها وأعجبت به . فهى تريد أن يكون جميع الرجال على نمط ذلك الوالد . فاذا ما كان زوجها شبيها بذلك الوالد ، فانها تكون الزوجه الوفية

له الآخذة بمشورته . وعن العكس من ذلك إذا كان زوجها من نمط مباين لنمط الوالد ، فانها فى الأغلب لا تحبه ويكون زواجها به زواجا إسميا حتى وإن اصطبغ بالصورية الشرعية .

ولقد نقول إن الأم تستلهم أيضا أبناءها الذكور . فعندما تكون الأم محظوظة وقد أنجبت إبنا عبقريا وناجحا فى الحياة ، وقد احتل منصبا مرموقا ، فانها تتقمص ذلك المجد . وتلك العبقرية التى يتميز بها الابن. فهى تنسب أصل العبقرية ومنبع التفوق إلى ذاتها حتى ولو لم تفه بذلك . إنها تمتلىء ثقة بالنفس وتحس بتعزيز متزايد للنحن الذى هو حياتها . ذلك أن المرأة دائبة على الإتجاه إلى النحنية كما قلنا . فهى لا تريد أن تقول «أنا» بل تريد أن تقول « نحن » وقد ضمنت فى نطاق هذا « النحن » زوجها وأبناءها . ولعل أن يكون هذا ذوبانا لذاتيتها فى النحن من جهة ، ولعله أن يكون من جهة أخرى إعظاما لشأنها وتأكيدا لذاتيتها ، ولو أنه تأكيد أو إعظام مستخف خلف النحن .

على أن هذا الذى قلناه عن طبيعة الإلهام عند المرأة ـ تأثرا واستشفافا من الرجل ـ لا ينقص من قدرها ولا يقلل من قيمتها . ذلك أن التكاملية التى يمكن أن تتأتى للمجتمع الجامع بين الرجال والنساء لا تتسنى ولا تتحقق إلا فى ضوء التباين الذى يوجد بين الجنسين والاعتراف بهذا التباين وعدم الغض منه أو محاولة ملاشاته . والواقع أن المجتمع المتحضر الحديث قد افتقد الكثير من التكاماية والإنسجام اللذين كان يتمتع بهما المجتمع القديم ، وذلك عندما اعتبرت المرأة الحديثة أنها لكى تتحرر ولكى تتساوى مع الرجل ، فان عليها أن تتلبس بجميع مواصفاته وسجاياه ، وأن تنفض عنها فى نفس الوقت سجاياها وما جبلت عليه من خصائص . ومن هنا فان اعتبرت الكثير من صفاتها فى الإلهام وغيره نقلا عن الرجل استذلالا لكرامتها وطعنا فى قدرتها . ومن ثم فانها سعت إلى صخب الحياة متشبهة بالرجل فى كل شىء . ونحن نؤكد أن هذا التشبه إنما هو تشبه زائف لا صلة له بالصفات

الحقيقية للمرأة . ولو أن المرأة قد استمسكت بما جبلت عليه ، لكانت إذن أحسن حالا وأكثر سعادة بل وأكثر إسعاداً للزوج والأبناء على السواء .

ولقد تعثر المرأة الحديثة — وقد إندرجت فى مضمار الأعمال وصخب الحياة — على المعادلة الصعبة فتحقق التوازن والتعادل بين ما جبلت عليه بالطبيعة ، وبين ما اكتسبته جريا وراء ركب الحضارة . بيد أن الحل المنشود يجب ألا يكون حلا ترقيعيا كتلك الحلول الجزئية والمبتسرة التى تنتحى إليها الهيئات والمصالح الحكومية والشركات تخفيفا عن كاهل المرأة. فالحل السليم أو المعادلة الصعبة لاتتأتى بالحلول الجزئية الناقصة . ذلك أن أول الخيط المفقود ليس الحضارة بل الطبيعة ، وهو فى الواقع الاستلهام الصادق تستمده المرأة من طبيعة الرجل .

دور الطفولة فى الإلهام :

يمكن أن ننظر إلى هذا الموضوع من زاويتين : زاوية طفولة المرء نفسه وقد كبر واكتمل نضجه وانخرط بعد مروره فى هذه المرحلة النهائية فى مرحلة الشباب أو تخطاها إلى مرحلة الكهولة ، ثم زاوية طفولة الآخرين التى تكون موضوعا لإلهام المرء . وهناك فى الواقع تفاعل بين هاتين الزاويتين . ذلك أن الإنسان عندما يستلهم طفولة لآخرين ،فانه يترجم تلك الطفولة فى ضوء الخبرات التى سبق له أن مر بها هو شخصيا فى طفولته وكذا فان المرء عندما يستلهم طفولته الشخصية فانه يعقد ولو لاشعوريا مقارنة بين طفولة الآخرين وبين طفولته . ولقد يكون الاختلاف بين الزاويتين متبديا من حيث النتاج المتأتى عن مثل ذلك الإلهام فيما يستهدفه وفيما ينتحى إليه .

أما عن الزاوية الأولى — وهى زاوية استلهام طفولة المرء نفسه — فنحن نعلم أننا لا نخلع عن أنفسنا مراحل نمونا السابقة التى يبدو ظاهريا أننا إنسلخنا عنها تمام الانسلاخ . فلقد يظن البعض أنه طالما أننا شببنا عن الطوق

وصرنا شبابا أو كهولا أو حتى شيوخا ، فاننا لا بد أن نكون قد تخلصنا تماما من كل المقومات الطفلية التى كانت لدينا أيام كنا أطفالا . والحقيقة غير هذا . فنحن لا نخلع مرحلة نمو لنرتدى زى مرحلة نمو أخرى — إذا صح التعبير — بل إننا نتفاعل بجماع نمونا فى المراحل الجديدة التى نتجه إليها أو نمر فيها . ففى المراهقة مثلا تتفاعل مقومات طفولتنا مع العناصر والخصائص الجديدة التى تبزغ فى هذه المرحلة .

وعلى الرغم مما يقال عن أن المراهقة أكثر نضجا من الطفولة ، ومن أن الشباب أكثر نضجا من المراهقة ، ومن أن الكهولة أكثر نضجا من الشباب ، فاننا نجد فى الواقع ما يؤكد أن لكل مرحلة من مراحل النمو ميزات خاصة تنفرد بها ولا تباريها فيها أية مرحلة أخرى . ولعل من أهم الميزات التى تتصف بها الطفولة الخيال الواسع المنسلخ أو المتحرر إلى حد كبير من الواقع الضيق . أما بعد الطفولة فان الأخيلة تركن إلى الهدوء أو إلى الفتور وذلك بسبب الارتباط الأكثر متانة بالواقع المحدود بحدود المكان وبحدود الزمان .

وبمطالعتنا فى حياة العباقرة(١) وجدنا أن العبقرى شخص استطاع أن يختزن أخيلة طفولته بغير أن يصيبها التلف وبغير أن يعتورها الفساد . فالعبقرى يعيش طفولته كما يعيش مراهقته ، كما يعيش شبابه ، كما يعيش كهولته . وبتعبير آخر فان التفاعل الذى يحدث لدى العبقرى بين مراحل النمو السابقة لا يؤدى به إلى فقدان الخصائص الخاصة بتلك المراحل وذوبانها أو تلاشيها فى طيات ذلك التفاعل، أو بالأحرى فى طيات ذلك المركب الثقافى الجديد الذى يشكل ملامح العبقرى الذهنية والوجدانية . ولنا أن نقول إن بمقدور العبقرى أن يتذكر طفولته وأن يلم بأطراف تلك الطفولة وما تمتع به خلالها من أخيلة خصبة .

---

(١) انظر كتاب العبقرية والجنون للمؤلف بمكتبة غريب بالفجالة .

وليس من شك فى أن ثمة تزاوجا وتوافقا وتفاعلا مكينا يحدث فى ذهن العبقرى فيما بين الواقع الذى يدركه ويعيه ويحيا فى إطاره بالفعل ، وبين الخيال المعتمل لديه والحى بين ضلوعه منذ أيام طفولته . ولذا فانك تجد العبقرى يعيش حياتين لا حياة واحدة : حياة واقعية وحياة أخرى خيالية . ولكنه فى الحياة الواقعية يعمد إلى ترجمة الأخيلة المختزنة لديه والحية فى ذهنه والتى تشكل حياته الثانية إلى واقع فعلى يمكن أن يحس أو يدرك أو يعاش أو يستفاد منه من جانب الآخرين .

وثمة ما يمكن أن نسميه بالاجترار الذهنى يعتمل فى أذهان الملهمين . فنحن كالحيوانات المجترة التى تختزن فى وعاء خاص بجسمها كمية من الطعام تعيد مضغها ثم تبتلعها لتدخل معدتها. ولكن الاجترار الذى نقصده لدى الإنسان هو اجترار ذهنى وليس اجترارا جسميا . فنحن نختزن صوراً ذهنية معينة نعاود التفكير فيها واستيعابها من جديد لكى تشكل جانباً من لحم كياننا ومن جوهر قوامنا الذهنى . ولعل أن يكون الملهم العبقرى قد اختزن فى ذهنه الكثير من الأخيلة التى لعبت دورا حيا فى طفولته ، ولكنها لم تستحل إلى واقع أو لم يتسن للعبقرى الملهم فى طفولته أن يترجمها إلى صيغ اجتماعية مقبولة، وذلك بسبب احتدامها فى ذهنه من جهة ، ولأن الطفل الموهوب لا يحب أن يترجم تلك الأخيلة إلى واقع من جهة ثانية ، لأنها إذا ما ترجمت إلى واقع فانها تفقد نصاعتها وبريقها وقوتها . ومن جهة ثالثة فان الطفل الموهوب لا يستطيع أن يتحرك إلا فى حدود إمكانياته الضيقة التى لا تسمح له باحالة تلك الأخيلة الذهنية إلى واقع فعلى .

ويمكن القول بأن ما اعتمل فى ذهن الطفل الموهوب من أخيلة يكون بمثابة خطوة أولى يجب أن تتلوها خطوة تالية أخرى هى خطوة إحالة تلك الأخيلة إلى واقع فعلى . وهذه الخطوة لا تتأتى لذلك الطفل الموهوب إلا بعد أن ينضج ذهنه ويشتد عوده وتتوطد أركان خبرته ويتمرس أو يتسلح بوسائل إحالة الخيال إلى واقع وإحالة الصورة الذهنية المتحررة من حدود

الواقع إلى عمل أو أداء أو نتاج متلبس بحدوده . على أن الواقع الذى ينشئه العبقرى يكون بمثابة امتداد للواقع الذى سبقه وليس تكراراً له وليس فى نفس الوقت انحباسا فى إطاره . ذلك أن العبقرى بطبعه ينبو عن الاستسلام لحدود الواقع الآنى ، ويهفو إلى إنشاء واقع جديد يربع فيه أخيلته التى عاشها فى طفولته والتى أخذ يجترها فى يفوعته وقد ارتدت أثوابا تشاهد فيها، بل قل يكون العبقرى قد كساها لحما ودما بحيث تصير واقعا مجسدا . ولكنه واقع جديد تمام الجدة ، أو هو واقع جديد إلى أبعد درجة ممكنة من الجدة .

فنحن إذن نجتر أخيلة طفولتنا . بيد أن عملية الاجترار الذهنية هذه ليست متاحة لجميع الناس بنفس الدرجة . فمن الناس من تكون تلك الأخيلة لديهم قد ضمرت وذوت بحيث لا يكادون يجدون شيئاً منها يجترونه بعد بلوغهم الشباب أو الكهولة : وهناك أناس متوسطون فى هذا الباب،وهناك أخيرا الملهمون الذين يجدون من منابع طفولتهم الخصبة صورا ذهنية خيالية يطفون بها على سطح حياتهم يتأملونها ثم يبحثون عن أفضل الوسائل العملية التى تتيح لهم الترجمة من الخيال إلى الواقع، ومن الصور الذهنية المتذكرة إلى أشياء أو أعمال أو نتاجات باهرة .

أما بالنسبة للزاوية الثانية التى ألمعنا إليها فى أول حديثنا — ألا وهى زاوية طفولة الآخرين كموضوع للإلهام ، فإننا نقول إن الطفولة هى فى الواقع عالم يستعصى ولوجه أو الدخول فيه من جانب الكبار إلا لقلة نادرة منهم . ذلك أن المرء عندما يخرج من إطار مرحلة ما من مراحل النمو ، فإنه يكون فى الغالب ناظرا إلى تلك المرحلة وقد صب اهتمامه فيها . وإذا هو أراد أن يتملى مرحلة نمو أخرى ، فانه يتملى المرحلة التالية وليس إحدى المراحل السابقة من مراحل النمو . ولقد يساعد على هذا الاتجاه تلك الضغوط الاجتماعية التى تغلف حياة المرء . فعندما يشاهد الوالدان ابنهما أو ابنتهما الشابة ما يزالان يحييان فى إطار الطفولة، فانهما سرعان ما ينزعجان، بل إنهما

ينهران ذلك الإبن أو هذه الإبنة ويحثانها على التمسك بخصائص الشباب فينفضان أيديهما من خصائص المراحل السابقة وأن يتحررا بصفة خاصة من خيال الطفولة الذى ينعتانه بأنه وهم فارغ بلا مضمون .

ومن هنا فان المرء نادرا ما يجد نفسه بالقادر على أن يلج الطفولة بعد أن يكون قد تركها ، بل إنه لا يستطيع أن يحس بأحاسيس أطفال مجموعة من الأطفال يوجد بينهم . والواقع أن معظم الآباء والأمهات يتبرمون بطفولة أبنائهم وبناتهم ويضجرون من تلك الخصائص التى يتصفون بها والتى تنبو عن خصائصهم . ومن ثم فانهم يضغطون ويمارسون الإرغام لإحالة الأطفال إلى كبار . وليس لنا إلا أن نقول إن هذا عجز من جانب الآباء والأمهات عن تفهم طبيعة الطفولة وعن الدخول فى عالمها . ولعل أكثر ما يسعد الأطفال هو أن يعثروا على أحد الكبار وقد حمل معهم خصائص الطفولة . إنهم عندئذ يقدسونه ويتعلقون به وينعمون بصحبته . وليس من شك فى أن مثل هذا التوافق الوجدانى والاجتماعى يحققه الكبير فى نفسه فينسجم مع مجموعة الأطفال ويلعب معهم ويشاركهم أخيلتهم ويعيش عيشتهم ويقيم علاقات معهم كأنه واحد منهم، لما يسعد الأطفال من جهة ، ولما يسمح له بأن يستوحى ويستلهم طفولة أولئك الأطفال من جهة أخرى.

ومن عوامل عزوف الكبار عن الطفولة اتسامها فى نظرهم بالفجاجة والركاكة ونقص النضج . ولكن إذا أنصف الكبار فإنهم يشاهدون فى الطفولة خصائص لا تكاد تتوافر لديهم . والواقع ان الطفولة عالم مستغلق لا يكاد يعثر على مفتاحه إلا أقل القليل من الناس . وشاهد ذلك أنك لا تكاد تجد إلا ندرة من كتاب قصص الأطفال استطاعوا أن يشبعوا نهم خيالهم وسد حاجاتهم الذهنية كما لو أن طفلا منهم هو الذى ألف تلك القصة. ولذا فاننا نقول إن كاتب القصة أو مصمم الدمية أو مخطط أحد أندية الطفولة أو من يقوم بانشاء دار حضانة أو ما إلى ذلك من مناشط تتعلق بالطفولة يجب أن يكون متمتعا بخاصتين رئيسيتين : الأولى أن يكون قد

اختزن منذ طفولته كنزا من الأخيلة التى عاشها فى تلك المرحلة ، ثم أن يكون قادرا على استلهام طفولة أطفال اليوم فى بيئة بالذات حتى يتسنى له تقديم شيء ذى بال إليهم .

دور الشيخوخة فى الإلهام :

إننا بادىء ذى بدء لا نربط بين الشيخوخة وبين المرض والسقم والذبول . ذلك أننا نعتقد أن الشيخوخة – شأنها شأن أية مرحلة نمائية أخرى – يمكن أن تكتنف بالصحة كما يمكن أن تكتنف بالمرض والسقم والذبول . فثمة شيخوخة صحيحة وثمة شيخوخة سقيمة ، كما أن هناك شبابا أو مراهقة أو طفولة صحيحة وأخرى سقيمة . وليس هذا الكلام لتشجيع الشيوخ أو للتخفيف من وقع الشيخوخة عليهم ، أو لاشاعة الطمأنينة فى قلوب من أقتربوا من حافة الشيخوخة ، وإنما هو واقع فعلى وعلمى . فكما أن الشمعة تظل تضيء بنفس القدرة إلى آخر لحظة فى عمرها ، كذا فان من الممكن أن يظل المرء شخصا منتجا ومثمرا ومفيدا إلى آخر لحظة فى حياته. وما نراه شائعا بين الشيوخ من ضعف أو مرض أو يأس ، إنما هو نتاج لأوضاع حضارية ليس للشيخوخة ذاتها سبب فى إحداثها .

ونحن نشاهد بين ظهرانينا شيوخا مايزالون يعملون وينتجون كأحسن ما يكون العمل والإنتاج . فلدينا إلى وقت كتابة هذه السطور توفيق الحكيم وزكى نجيب محمود يكتبان وكان قبلهما طه حسين والعقاد . ناهيك عن برتراند رسل وبرنارد شو وغيرهم كثيرون ظلوا على مسرح الحياة مؤثرين بما ينتجو . وهم شيوخ ناهيك عن الشيوخ الذين يستمرون فى الحياة العملية التجارية والزراعية والصناعية والسياسية يعملون بدأب كدأب غيرهم من الشبان. فالشيخوخة على هذا الأساس ، وفى ضوء هذه الأمثلة وغيرها الكثير ، لاترتبط ارتباطا عليا بالتوقف عن النشاط . فما يلم بالشيخ من مرض يمكن أن يذب عنه . وثمة فى الواقع جهود طبية متواصلة للبحث عن علاج لمرض الشيخوخة الوحيد الذى يتمثل فى الضمور أو قلة الحيوية .

أما الأمراض الأخرى كنزلات البرد أو الروماتزم أو السكر أو ضغط الدم أو غير ذلك من أمراض تصاحب الشيخوخة عادة ، فانها فى نظر الطب الحديث هى أمراض مصاحبة فقط وليست امراضا من ذات قوام الشيخوخة. وبتعبير آخر فان هذه الأمراض المصاحبة لا تلازم بالضرورة جميع الشيوخ ، بل من الممكن أن يتخلص منها جميع الشيوخ إذا ما أولاهم المجتمع عنايته، وإذا هم تجنبوا أسباب تلك الأمراض ، وساروا وفق نظام صحى سليم فى حياتهم اليومية .

ولقد نقول إن النضج العقلى والوجدانى والخبرى يكون قد اكتمل لدى الشيخ إذا كان قد انتهج فى حياته السابقة النهج السديد . فالفنان أو الأديب أو العالم أو السياسى أو غيرهم إذا كان قد ظل فى حالة دائبة على النمو والمثابرة على العمل والعلم والتأمل خلال مراحل نموه السابقة ، فانه عندما يصل إلى الشيخوخة يكون قد اكتمل نضجا ، بل ويكون قد صار أدق حسا وأرسخ قدما وأنفذ بصيرة وأرجح رأيا من أقرانه فى نفس الميدان من الشباب .

وهذا فى الواقع هو الذى يحدو بالشباب إلى استلهام الشيوخ الذين يعترفون لهم بالفضل ويقدرون ما اضطلعوا به من أعمال . فالشباب ينظرون إلى هؤلاء الشيوخ كمثل عليا تبوأوا قمم المجد فيهفون إليهم راغبين فى الأخذ عنهم والاحتذاء بسلوكهم وانتهاج نفس الطريق الذى نهجوه حتى يصيروا مثلهم عندما ينضجون وتقيض لهم شيخوخة حكيمة مثلما قيض لهم .

ولقد كنا ونحن فى الشباب نهفو إلى مجلس العقاد حيث كان يفتح لنا صدره فيقبل عليه من يرغب ويجالسه فى بيته فى أيام الجمعة . وكنا فى ذلك الوقت ننظر إلى العقاد الشيخ وقد تبوأ مجلسه وسطنا وكأننا ننظر إلى هرم شامخ ، وكنت أركز نظرى إلى يده اليمنى قائلا فى نفسى إن هذه اليد هى التى كتبت المجد لهذا الرجل . وعلى الرغم من أن الحجرة التى كنا نجلس بها—حيث كان يستقبلنا الكاتب الكبير—غاصة بالناس ، فان الأنظار لم تكن

تتجه إلا إليه . واعتقد أن ثمة استلهاما روحيا حقيقيا كان يحدث بين الشباب وبين العقاد آنذاك فى تلك الجلسات : ولعل تلك الندوات تكون قد شجعت الكثير من الشباب على السير قدما فى مضمار الكتابة والإبداع الأدبى والخلق الفكرى .

وأذكر أيضاً أنى شاهدت على شاشة التلفزيون لقاء بين مجموعة من المفكرين وبين الدكتور طه حسين . لقد كانوا جميعا جالسين بخشوع أما الأستاذ الكبير . وكان من هؤلاء الرجال شخصيات لها مكانتها وتأثيرها. ولكن الجميع الذين أحاطوا بطه حسين وقتئذ كانوا يحسون — كما لمحنا فى كلامهم — بالخشوع والخضوع والتهيب أمام ذلك العملاق العجوز . ومن الطبيعى أننا كنا نتابع كل حركة وكل كلمة كانت تصدر عن طه حسين .

والواقع أن الشيخوخة السليمة تشكل مصدرا عظيما للإلهام . فللشيخوخة جمالها وبهاؤها . ولقد يكون من التناقض الذى يطفئ جمال الشيخوخة محاولة أحد الشيوخ التلبس بمظاهر الشباب. فالشيخ الذى يصبغ شعره أو الذى يحاكي الشباب فى مشيتهم مفتعلا الرشاقة ، يكون ماسخا وسخيفا وقد استحال جمال الشيخوخة لديه إلى قبح . ولو أن مثل هذا الرجل قد اتشح بجمال الشيخوخة وقام على خدمة هذا الجمال بالعناية بمظهره ونظافته وصحته ، لكان بهى الطلعة وجذابا للشباب ، بل ان بعض الشبان قد يتمنون أن يكونوا مثله أو أن يصيروا فى هيئته ومظهره عندما يبلغون سنه . وأكثر من هذا فإن بعض الشبان قد يقلدون مثل هذا الشيخ المتشح بجمال الشيخوخة فى حركاته وطريقة كلامه .

ولعل أن تكون الشيخوخة هى تمام الخبرة ، وهى الثمرة التى خرج بها المرء من نتاج كفاحه ونضاله ودأبه واجتهاده . ومن هنا فإن الشيخوخة الصالحة تمتاز بالتخلص من الحماس الأجوف الذى يكثر تردى الشباب فيه ، كما أنها تتخلص من سقطات الكهولة حيث تكون جوانب كثيرة من الخبرة لم يقيض لها الهضم والاستيعاب . ناهيك عن أن الشيخوخة تكون قد تخلصت من الأهواء والرغبات فينظر الشيخ إلى الأمور وإلى الأشخاص بنظرة حيادية

تماما . والشيخ الصالح يكون قد استطاع أن يجمع فى نفسه النظرة الصادقة إلى الكون والناس . ولذا فانه يقدم المشورة الصادقة لمن يكون بحاجة إلى المشورة . وهو لا يكون مندفعا فى أحكامه ، كما أنه لا يتناغم مع الصاخبين أو المتحمسين أو المتحزبين أو الهائجين أو حتى الخاملين والمنافقين . فهو يكون قد خلص من تلك الأشياء التى كانت تهز وجدانه قبلا . فهو لا يهتز بالفرح لمديح يقال له ، كما لا يهتز بالحزن لهجاء يوجه إليه . والأغلب أيضا أن يكون الشيخ قد تخلص من عوامل الخوف والتهيب . ذلك أنه يكون قد ترك الحياة العملية إذا كان موظفا أو تاجرا أو سياسيا . ولذا فانك تجده لا يخاف من رئيس كان يخشى بأسه أيام كان موظفا ، ولا يخشى مناوئين له فى التجارة أو فى السياسة إذا كان قد اشتغل فى شبابه وكهولته بالتجارة أو بالسياسة .

وبهذا التصور فاننا نرى أن الشيخوخة تتمتع بالحرية والتحرر من الخوف ومن القيود التى كانت مفروضة على المرء قبل أن يتدرج فيها . ومن هنا أيضا فإننا نجد أن مثل هذه الشيخوخة تكون مطمحا يرتجى من جانب الشباب والكهول . فالشيخ حر فى وقته وحر فى إرادته وحر فى كل شىء . فإذا كان متمتعاً بالصحة وقد نظم حياته وفق نظام معين ، فلماذا لا يكون إذن مصدر إلهام للشباب والكهول بل وللأطفال أيضا ؟ لقد سمعت طفلا يقول لجده ، وكان ذلك الجد مرحا ومتمتعا بالصحة والنشاط : ليتنى مثلك يا جدى لأنك غير ملزم بالذهاب إلى المدرسة ولا تتعرض للعقاب والضرب مثلما أتعرض أنا ؟

ومن المشاهد اللطيفة تجمع الشيوخ الأصحاء بعضهم مع بعض فى المقاهى . إنهم يعرفون متى يجتمعون ومتى ينصرفون إلى بيوتهم . إنك تجد الواحد منهم مهتما بمظهره تمام الاهتمام . لقد قام فى الصباح وحلق ذقنه وغسل وجهه وأعد ملابسه التى يخرج بها ، وما أن يقبل على زملائه فى الشيخوخة بالمقهى حتى يقابلوه بالترحاب وبما يشبه التهليل ، فيلتئم المجلس ويستمرون فى السمر

وفى سرد الذكريات وقد يكون من بينهم القاضى والمهندس الزراعى والتاجر والسياسى والمعلم والأديب والموسيقار والرسام والنحات . وقد تجد الواحد منهم يترك المقهى لكى يذهب إلى بيته حيث يمارس عمله الإبداعى إذ يؤلف أو يرسم أو يلحن : فمثل هؤلاء الشيوخ يعيشون حياة سعيدة هنيئة يحسدهم عليها كثير من الشباب والكهول .

ولقد نقول إن الشيخوخة بحاجة إلى رعاية واهتمام فتنظم لهم الأندية(١) وتقوم الدولة على خدمتهم والعناية بصحتهم. فإذا ما تحقق هذا فإن الشيخوخة تشكل إذن مرحلة جديرة بالفعل بأن تكون مصدر إلهام للشباب والكهولة على السواء . وإذا كانت بين أيدينا أمثلة ليست كثيرة لشيخوخة تستحق أن تكون مصدراً للالهام، فاننا نأسف أن نقول فى نفس الوقت إن لدينا شبابا وكهولة ليست بالكثيرة جديرة بأن تكون مصدراً للالهام . ذلك أن المواهب وعوامل النبوغ فى الصغار والكبار لا تلقى كثير عناية فى زحمة الحياة . ولو أننا خففنا من غلواء الحضارة وما ينوء به الناس من أثقال ومتاعب ، لكنا فى جميع مراحل العمر أكثر سعادة ، ولكان الكثير منا فى مراحل عمرهم المتباينة جديرين بأن يكونوا مصدر إلهام لمن يحيطون بهم ولمن يشاهدونهم أو يسمعون عنهم من بعيد . ومهما يكن من شىء فان الشيخوخة لها دور هام فى إلهام الطفولة والشباب والكهولة على السواء .

دور الأبطال فى الالهام :

ثمة أنواع كثيرة من الأبطال. والبطولة هى نوع من الإعجاب المكثف والمتواتر والمتبلور فى وجدانات فئة من الناس حول شخص معين ، أو بالأحرى حول ميزة أو خصيصة معينة يختص بها ذلك الفرد . فثمة الأبطال العسكريون من أمثال الاسكندر الأكبر ونابليون بونابرت وابراهيم باشا ابن محمد على الكبير وغيرهم ممن يزخر بهم تاريخ المعارك التى دارت

(١) أنظر رعاية الشيخوخة بقلم المؤلف بمكتبة عريب بالفجالة .

رحاها، وثمة أبطال فى عوالم السياسة والتجارة والخطابة والكتابة والشعر وأعمال الخير والرياضة بأنواعها المتباينة وفى مجال الدين وما يتبدى فيه من ميادين متباينة تتعلق بالعقائد والعبادات والإحسان والزهد والريادات الإجتماعية والدعوات إلى تحرير الإنسان من العبودية ورد العصاة إلى طريق الصواب إلى غير ذلك من مناح كثيرة يتضمنها الدين أيا كان اسمه أو مكان وجوده وانتشاره . فهؤلاء الأبطال لا تتحقق بطولتهم إلا إذا اعترف بها بعض الناس من حولهم وقد تعلقوا بهم وأخذوا عنهم وحذوا حذوهم وضربوا فى طريقهم وقلدوهم فى مسيرتهم وتشوفوا إلى أن يكونوا مثلهم .

ومن هنا فان مثل هذا الاعتراف ببطولة الأبطال يرتبط ارتباطا وثيقا ودائما بعملية استلهام لما فعلوه ولما اتصفوا به من صفات، مع التمنى والاجتهاد فى أن يحظى أولئك المعجبون بقسط ولو ضئيل من الخصائص التى اتصف به هؤلاء الأبطال . فالبطل فى نظر أتباعه ومريديه والمتعلقين به هو شخصية تتجسد فيها جميع المواصفات التى تملأ على المرء حياته وتفعم عواطفه بما يشبعها وتشيع فى جنباته ما يرضيها . إنه المرتكز النفسى الذى يرتكز عليه المتعشق له الراغب فى الضرب فى إثره . ذلك أن الإنسان فى حاجة إلى شخصية مركزية تتبوأ الركن الركين من قلبه وتلم بجماع مشاعره وتستولى على مقود حياته . ويكون ذلك عن بعد أو عن قرب . ولقد تقول إن البطل إذا كان بعيدا نسبيا عن المرء، كان تأثيره أقوى فاعلية عنه إذا كان ملاصقا له ومحتكا به أو إلفاً له .

ولعل سر هذا يكمن فى صفة الغموض التى يجب أن تكتنف شخصية البطل حتى تتاح الفرصة لخيال المعجب به ليصول ويجول ولأن ينسج من خيوطه ما شاء له أن ينسج من خصائص أو حتى من قصص حول ذلك البطل الذى استولى على مقاليد حياته . والواقع أن لدى الإنسان قدرة فائقة على تكبير الصغير وأيضا على تصغير الكبير . فهو يستطيع أن يجعل من بطله العادى بطلا ليس له نظير بين الأبطال الآخرين فى مضماره ، كما أنه يستطيع

بخياله أيضاً إحالة الأبطال الكبار الذين لا يستحوذون على وجدانه وإعجابه إلى أقزام أو أن يحيلهم إلى أشخاص عاديين وقد جردهم من الهالات التى تحيط بهم عادة من جانب المعجبين بهم ومن المشدوهين ببطولاتهم .
ولقد نقول إن تعظيم الأبطال ليس خطأ يقع فيه المعجبون بهم ، كما أن القصص التى يبالغون فى تفاصيلها أو التى ينسجونها أصلا حول أبطالهم لا تعتبر أوهاماً يجب القضاء عليها ، بل إنها تعد صوابا وحقا إذا ماتظرنا إلى سيكلوجية المعجب وشاهدنا كيف تنسج هذه الأقاصيص وكيف تتعاظم الخصائص أو التصرفات تصدر عن البطل فى أذهانهم . فالمعجب بالبطل صادق فى مشاعره ، وهو بتلك المظاهر النفسية التى تنحو إلى المبالغة أو إلى قص القصص المتباينة ، إنما يعبر عن طبيعة جبل عليها الإنسان . فنحن البشر بحاجة إلى مثل عليا نقية نحتذيها ، ولا نريد أن يلحق بمثلنا العليا أية نقيصة ، كما أننا لا نرغب فى أن تشوب أياً من أبطالنا نقيصة واحدة . ومن هنا فاننا ندافع عنهم لاشعوريا وذلك بأحاطتهم بهالة كبيرة تحفظ صورهم الذهنية فى قلوبنا من أى شىء يحط من مقامهم أو ينقص من قدرهم . وحتى تلك القصص التى يمكن أن يحيكها المعجب ببطله تكون فى الواقع تجسيداً لخصائص ارتسمت وتبلورت فى ذهن المرء ، ولا تجد لها تعبيراً لديه إلا عن طريق القصة يصنعها صنعا ثم يصدقها تصديقا كاملا لا يشوبه أى شك ، وبحيث لا تقل فى يقينيتها عن أية حقيقة موضوعية أيا كانت .

من هنا فاننا نعتقد أن الأساطير البشرية الكبرى والقصص والملاحم اليونانية وأبطال شكسبير ، وغير ذلك من أساطير ، إنما تتضمن أشخاصاً أو قل أبطالا حقيقيين لا من الناحية التاريخية البحتة ، بل من الناحية النفسية الإنسانية . فنحن لا يهمنا إذا كان روبنسون كروزو أو هملت أو على بابا أو جحا أو غيرهم شخصيات حقيقية وجدت فى حدود زمان ومكان معينين أم لا . وحتى إذا كانوا جميعاً قد عاشوا فعلا أو لم يوجدوا أصلا ، فان واقعنا النفسى أو قل إن حاجة قلوبنا تستلزم وجود تلك الشخصيات العبقرية تستلهمها وتلقى بأعبائها النفسية الثقيلة عليها .

على أن الأبطال قد يكونون شخصيات حية بين ظهرانينا نتعامل معهم ولكننا مع ذلك لا نرى جميع جوانب حياتهم. فمنا من اتخذ من أحد المدرسين في الابتدائي أو في الثانوي أو حتى في الجامعة بطلا له . بيد أن الطفولة والمراهقة هما بالدرجة الأولى مرحلتا اتخاذ الأبطال نبراسا ومثلا أعلى . وفي هاتين المرحلتين من مراحل العمر تكونَ شخصية المرء محتلمة تريد أن تتشكل وفق نمط أو نموذج معين . فيبحث الواحد منا عن شخصية جديرة بأن تحتذى . فيعثر على مدرس أو تعثر البنت على إحدى مدرساتها فتأخذ في استلهامها والأخذ عنها . ولا يقتصر الأمر في ذلك الاستلهام على مجرد التقليد الخارجي بل يصل غالبا إلى حد التقمص اللاشعوري . فيجد المراهق وتجد المراهقة أنهما قد تلبسا بما يتلبس به المدرس أو المدرسة المحظوظان من حركات أو إشارات أو أصوات أو كلمات . ولقد نجد أن بعض الحركات التي يكتسبها المراهق والمراهقة ليست مما يمتدح كأن تكون الحركة بمثابة لازمة حركية نابية عن السوية، أو قد تكون اللازمة الكلامية المكتسبة غير مستساغة في السمع ، أو قد تكون الكلمة أو العبارة المكتسبة من البطل كلمة أو عبارة خاطئة وغير صحيحة أو غير مستخدمة الاستخدام الصحيح أو محرفة عن الأصل الذي استخدمت فيه .

ولقد يرغب متعشقو البطل في أن يستأثر كل منهم بالبطل وحده دون سواه . فيتخاصمون حول قضية أيهم أكثر فهما له وأكثر قربا من واقعه أو أيهم كان أكثر قربا إليه أو أقربهم إلى قلبه . فيعمد كل منهم إلى التنافس في تقليد حركاته والضرب في إثره . ولقد ينجم عن مثل هذا التنافس على حب البطل أن يحس بعض مريديه بالهزيمة من جانب منافسيهم ، فينقلب حبهم للبطل إلى كراهية ، وقد يخفون مشاعرهم بالهزيمة والكراهية ، فيأخذون في استمرار حبهم للبطل مع نقدهم له وتحفظهم بإزاء بعض التصرفات التي صدرت عنه أو من بعض الأقوال والآراء التي فاه بها في أحد المواقف . ولا يكون موقفهم الجديد هذا إلا من قبيل الإنتقام من منافسيهم « علي وعلى أعدائي » . فهم يهدمون سبب التنافس نفسه ولكن

بطريقة ماكرة . ذلك أنهم لا ينفصلون عن الركب تماما ، بل يقوضون البناء من أساسه وهم ما يزالون فى حضنه . والمعروف أن العدو من داخل البيت أقوى وأخطر وأنكى من العدو الخارجى .

وسواء ظل المرء مخلصا لبطله أم خرج عليه ونال منه وأخذ فى الانتقاص من مقامه ، فانه بلا شك يكون قد اكتسب منه الكثير وقد ألهمه العديد من أفكاره واتجاهاته وأخلاقه ، بل لعله يكون قد أرسى لديه الدعائم الأساسية فى شخصيته . والواقع أن المراهقين والمراهقات بعد أن يغرقوا فى تعشق أبطالهم ، فانهم ما يفتأون — وقد إنخرطوا فى الشباب ملتحقين بالجامعة أو مندرجين بالحياة العملية — أن يتخلصوا من تلك العبودية التى طوقوا أنفسهم بها . بيد أن البعض منهم يفطمون من عبودية القلب للبطل بشكل تدريجى وصحى ، بينما ينقلب بعضهم الآخر ظهراً لبطن ، بحيث يبدون الكراهية والإشمئزاز للأبطال الذين سبق لهم استرقاق أنفسهم لهم والتمسح فى ركابهم .

ولقد يجد المراهق بطله فى أبيه ، كما قد تجد المراهقة بطلتها فى أمها . على أن بعض الأبناء من الجنسين ينقلبون على والديهم فيعلنون بين أصدقائهم أو حتى على الملأ أن إعجابهم السابق بهما لم يكن على أرض صلبة ، بل كان خدعة نفسية وقعوا فيها . ولكن هذا الموقف لا يحول فى الواقع دون القول إن هذه الفئة من الأبناء قد استلهمت الوالدين فى فترة الإعجاب الشديد بهما خلال المراهقة ، وأن ذلك الإعجاب لم يختلف ولم تتلاش آثاره من شخصياتهم مهما أعلنوا وشقوا عصا الطاعة . وفى كثير من الأحيان يعود أولئك الأبناء إلى الاعتراف من جديد ببطولة الوالدين وبفضلهم الكبير فى إرساء دعائم شخصياتهم فى أخلاقهم وأساليب حياتهم . ويتبدى هذا بصفة خاصة بعد أن يكتمل النمو الشخصى لأفراد هذه الفئة وبعد أن تتبلور شخصياتهم ويعترف لهم من حولهم بالفضل والنباهة والتفوق . ومهما يكن من شىء فان من أهم دلائل نجاح الأب فى أبوته، والأم فى أمومتها أن يكونا مصدر إلهام للأبناء والبنات ولو خلال المراهقة . وعلينا أن ننظر إلى ظاهرة التمرد على الكبار فى الشباب باعتبار أنها ظاهرة صحية وطبيعية .

الفصل الثاني عشر

أثر المشكلات والصعاب في الالهام

العاهات والالهام :

لا يختلف اثنان على أن العاهات تشكل عائقا أمام المصاب بها . بيد أن بعض العوائق تكون عند بعض الناس حوافز جديدة تدفع بهم إلى التقدم وإحراز التفوق الذي يلفت الأنظار ويثير الإعجاب . وفي هذه الحالات يصير للعاهة قدرة إلهامية خارقة . وثمة في الواقع شواهد على هذا في تاريخ العباقرة من أصحاب العاهات تؤكد أن العاهات يمكن أن تكون مصادر إلهامية خارقة ، ولا تكون — كما هو متوقع من وجودها — سبب تخلف المصابين بها وتدهور حالاتهم .

على أن من الخطأ أن نعزو عبقرية صاحب العاهة إلى وجود العاهة لديه . ذلك أن العاهة في حد ذاتها لا يمكن أن تكون سببا للتفوق أو عاملا على التقدم . إذن فما العلاقة بين العاهة وبين الإلهام والعبقرية ؟ لابد أن العلاقة بينهما هي علاقة ثأرية أو تعويضية وليست علاقة علية أو سببية . فصاحب العاهة يحس بالنقص الشديد ، ولكنه بدل أن يركن إلى التخاذل والانهيار والتقوقع حول ذاته والإحساس بالانهزام أمام الآخرين من غير المصابين بالعاهات ، فانه يأخذ في لم شتات نفسه والاندفاع بقوته نحو التفوق والتبريز على من سلمت أجسامهم من العاهات . إذن فنقطة البداية هي الشعور بالنقص ، ثم تجميع القوى والتركيز الذهني .

وهنا نستطيع القول إن هذا التجميع وتركيز الذهن بمثابة إعداد للذات لاستقبال الإلهام عند صاحب العاهة . فلقد سبق أن قررنا أن الإلهام وافد يفد إلى الإنسان بعد أن يكون قد هيأ نفسه لاستقباله . وصاحب العاهة إذا ما هيأ ذاته أولا بأن يستجمع لمام نفسه ثم بالتركيز الذهني ، فإنه يكون

بالتالى قد أعد محطة استقباله النفسية لاستقبال الإلهامات المتباينة المتعلقة بالجانب الذى جبل عليه والذى هيىء من أجله وأعد ذاته وكرس جهوده النفسية للاستزادة منه .

والواقع أن التعويض ، ومن ثم الإلهام الذى يواتى صاحب العاهة قد يكون متعلقا بنفس العمليات التى تتعلق بالعاهة ، كما أنه قد يكون متعلقا بأشياء أخرى لا صلة لها بالعاهة . فلقد نجد المصاب بالعرج مثلا وقد صار من أعظم أبطال السباق فيكون التفوق هنا مرتبطا بالعاهة ذاتها . ولكن فى حالات أخرى يتم التفوق بمساندة عضو آخر أو بتركيز العمل به . من ذلك العاهة متعلقة بالبصر ، فيعمد صاحب العاهة الأعمى إلى إيكال العمل كله إلى أذنيه بدل أن يوزعه على عينيه وأذنيه . فهو يستقبل المعرفة عن طريق السمع بدلا من استقبالها بالبصر والسمع معا . ولقد يوكل العمل إلى حاسة أخرى لم تجعل لدى الشخص العادى لإستقبال المعرفة ، فتتم القراءة مثلا باللمس كما هو الحال فى طريقة بريل . فهنا نجد أن الأذن من جهة واللمس من جهة أخرى يتعاونان فى تلقى المعرفة بحيث يعوضان المرء عن فقدان عينيه .

على أن كل هذا لا يعدو أن يكون الطريق المألوف أو العادى بالنسبة لمن يصاب بإحدى العاهات . ذلك أننا لا نستطيع أن نزعم أن كل من سلك هذا الطريق التعويضى بإزاء الإصابة بعاهة يكون قد استطاع أن يحرز إلهاما فى هذا المضمار . فالواقع أن الملهمين قليلون أو نادرون فى جميع الفئات المجتهدة أو حتى المتفوقة . فالتفوق شىء والإلهام شىء آخر . فالتفوق هو الارتفاع عن مستوى العاديين واحتلال مكان القمة بينهم . أما الشخص الملهم فانه يحوز أشياء جديدة تماما ، أو قل إنه يقبض على ناصية أشياء لم يسبق لغيره قبل ذلك أن حصل عليها أو قبض عليها . فهو يشق خطا جديدا وتكون له سمات أساسية يتميز بها ويعرف بها وكأنها قد خلقت خصيصا من أجله ثم أخذ الناس من بعده يسيرون فى هديه ويقفون أثره وينحون نحوه .

وما يلهم به صاحب العاهة بعد أن يكون قد هيأ ذاته لاستقبال الالهام ، إما أن يكون متعلقا بالشكل وإما أن يكون متعلقا بالمضمون . فلقد يكون أثر العبقرية والالهام ظاهرا فى أسلوب التعبير الأدبى أو الموسيقى أو التصويرى أو التجسيدى النحتى . وقد يكون أثر العبقرية والالهام متبدياً فى المضمون يسوقه المرء فى الصيغ ووسائل التعبير المألوفة . ولقد تتبدى العبقرية والإلهام فى الصيغة التعبيرية والمضمون فى نفس الوقت. ولقد تتبدى العبقرية والالهام أخيرا عند صاحب العاهة الملهم فيما يقيمه من علاقات اجتماعية أو فيما يسديه من عمل الخير وتقديم الإحسان إلى الآخرين أو تقديم المساهمة الفعالة فى حل مشكلة كانت مستعصية لولا جهوده المشفوعة بالإلهام والمبادأة .

ويصح لنا أن نقول إن صاحب العاهة نفسه كان يمكن أن يكون صاحب إلهام فى المجال الذى ألهم فيه بغير أن يكون مصابا بتلك العاهة . فوجود العاهة لديه لم يكن سوى عامل مساعد فحسب فى حفز همته وفى تركيز ذهنه وفى تهيئة نفسه لاستقبال الالهام . فكل الفرس ليس العاهة ، بل إعداد الذات لاستقبال الالهام . وإعداد الذات لاستقبال الالهام يمكن أن يتم سواء وجدت العاهة أم لم توجد . وإذا كانت العاهة تشكل عاملا مساعدا فى بعض الأحيان لإعداد الذات لاستقبال الإلهام ، فانها فى أحيان أخرى كثيرة يمكن أن تشكل عامل تعويق وتثبيط ومعاكسة قبالة استقبال الالهام.

والواقع أن من الشروط الأساسية التى يجب أن تتوافر لدى صاحب العاهة أو غيره لإمكان استقبال الالهام تركيز الذهن وعدم التشتت فى أمور كثيرة . فنحن عندما نكون فى حالة استقبال بحتة نكون بالتالى قد ركزنا كل جهدنا الذهنى فى الموضوع المستقبل . ولقد يكون صاحب العاهة الملهم قد استطاع أن يركز ذهنه فى استقبال المعطيات الإلهامية بفضل انغلاقه على إطاره النفسى خلال كثير من الوقت . وبتعبير آخر يكون لدى صاحب العاهة الفرصة لإجالة الفكر بالتأمل ومواصلة التفكير غير المشتت فى أمور كثيرة . ومما يساعده على هذا قدرته على تقليص علاقاته الاجتماعية

فى نطاق ضيق . فانصراف الناس عن المرء وعدم شغل فكره بهم ، يكون مدعاة للتأمل . فاذا ما أتيح لصاحب العاهة عدم الانهماك فى علاقات اجتماعية تشتت ذهنه ، فانه يكون بذلك قد وفر جهده الذهنى للتفكير أو بالأحرى لاستقبال الإلهامات المتباينة . ولقد يكون انصراف الناس من حول صاحب العاهة وعدم إقبالهم عليه وعدم الرغبة فى إقامة علاقات كثيرة معه مدعاة للروية والتأمل .

ولعلك تلاحظ فى نفسك — وأنت الشخص العادى والسوى — أنك إذا كنت فى إحدى الحفلات حيث لا يكاد تكون لك علاقة بأحد من الموجودين بها ، أنك تكون أكثر انبهارا بما يقع عليه بصرك وبما يصل إلى سمعك من أصوات . لقد تشاهد الجمال أو تستمتع به أكثر بكثير مما لو كنت نجم ذلك الحفل وقد أحاط بك الناس من كل جانب ، أو يكون جميع المدعوين قد ركزوا نظرهم عليك وأخذوا يتفرسون فيك . فانصراف الناس عن صاحب العاهة يكون بالأولى مدعاة له لمشاهدة الناس والوقوف على أحوالهم أكثر مما لو كانوا قد التفوا حوله وركزوا أنظارهم فيه .

ولذا فانك تجد صاحب العاهة الملهم هو فى نفس الوقت صاحب مزاج حاد ، أو قل إنه فى الغالب لا يكون حلو المعشر . فهو وإن كان متواضعا سمحا ، فانه يحاول ذب الناس عنه ، ولا يكون صاحب ارتباطات واتصالات متباينة . إنه لا يكون إيجابيا بالمعنى الاجتماعى للكلمة ، بل يكون سلبيا أو استقباليا . إنه يرغب فى أن يعزف عن الناس وعن العالم الخارجى أكثر من رغبته فى أن يعرف الناس عنه خصائصه وطرائق تفكيره أو نحو ذلك من أمور يعزف بها عن أن تعلن على الملأ . وحتى ما يعمد صاحب العاهة الملهم إلى استحداثه إنما يكون مرتبطا بوجدانه الشخصى أكثر من ارتباطه بالآخرين . فهو وإن أعجب المشاهدين أو المستمعين بما يقدمه ، فان مثل ذلك الإعجاب يكون بالمصادفة ولا يكون مقصوداً من جانب صاحب العاهة الملهم . فهو لا يخاطب الناس ، بل هو يناجى نفسه ، أو قل إنه يقيم حوارا بينه وبين ذاته ولينجم عن ذلك الحوار

ما ينجم . إن هذا لا يهمه ولا يعنيه فى شيء . فصاحب الموهبة الملهم يدأب على العمل الاستقبالى لكى يحيل ما يستقبله إلى عناصر ذاتية بحتة يحيكها من جديد فى صور وأشكال وأنغام أو فى غير ذلك من نتاجات .

فالإلهام عند صاحب العاهة ليس إلهاما من الخارج بل هو فى الواقع إلهام من دخيلته . فما يستقبله من الخارج يكون بمثابة خامات فحسب لإلهامه وليس هو العامل المؤثر فى الإلهام . ذلك أن بؤرة الإلهام عند صاحب العاهة ليست الخارج ، بل الداخل . فما يمتصه من خارج ذاته يستحيل بالتشرب والتفاعل إلى قومات أو إلى عناصر ذاتية فى نطاق المركب الخبرى لديه . وهو عندما يأخذ فى التأمل لا يبدأ بالعناصر التى استقاها من الخارج قبل أن تستحيل إلى عناصر ذاتية ، بل يبدأ بالمقومات الذاتية التى تشكل جوهر قوامه . وعندئذ ينبثق لديه الإلهام من دخيلته وفى نطاق إطاره الذاتى .

التوترات النفسية :

على الرغم من أن الإلهام لا يتأتى للمرء إلا وقد صار فى حالة استقبالية نفسية جيدة ، فإننا نستطيع القول بأن تلك الحالة الاستقبالية لا تتأتى له إلا بعد أن يكون قد تقلب على أوضاع توترية نفسية . وهذا هو ما يبدو فى الواقع لدى الأدباء والفلاسفة والفنانين وجميع المبدعين . فاذا ما قرأت عن حياتهم — وقد سبق أن عرضنا العينات منهم بالفصل الثامن من هذا الكتاب — فإنك تجد أن ثمة توترات نفسية كانت تعتور كلا منهم فى وقت أو آخر . ذلك أن الشخص الملهم لا يكون بأى حال راضياً عن الواقع المحيط به أو الواقع المطروح أمامه . ومن ثم فانه يستشرف واقعاً آخر فى طى الغيب يريد أن يحله محل ذلك الواقع البغيض الذى لا يرضيه ولا يعجبه . فالتبرم الذى يشيع فى جنبات المبدع الملهم يصيبه بقدر من التوتر النفسى .

بيد أن التوتر النفسى يصيب العبقرى الملهم لا يصل لديه إلى حد التشنج أو الجنون . ذلك أن التوترات النفسية إذا ما زادت عن حد معين ، فإنها تخرج بالمرء عن طور العقل وتدفع به إلى الجنون . والواقع أن التوترات النفسية ليست هى السبب فى إلهام الملهم ، بل هى مجرد عامل مساعد يجعل الملهم غير متوافق مع الواقع الآنى من جهة ، ويدفع به إلى الانسحاب إلى دخيلته من جهة أخرى . فلولا تلك التوترات التى تصيب الملهم ، لكان قد اندمج وذاب فى الواقع الاجتماعى من حوله ولرضى بالموجود بغير أن يتشوف إلى غير الموجود . ومن جهة أخرى فانه كان إذن ليظل على ارتباط وثيق بما ومن حوله بغير أن ينسحب إلى الآفاق الداخلية فى نفسه التى تعتبر المسرح الذى تلعب عليه الإلهامات دورها الأساسى .

والتوترات النفسية التى تصيب الملهم قد تكون موروثة لديه بحيث يكون شديد الحساسية مرهفا يتأثر جداً بالأشياء والوقائع فتخدش مشاعره لأتفه الأسباب ، وتثور ثائرته لمواقف أو كلمات لا تثير الناس العاديين . ولقد لا تظهر آثار تلك التوترات على سطح حياة الملهم بسبب قمعه لها واختزانه لآثارها . فهو لا يبدى استياء ولا ينخرط فى عدوان أو مهاترات جدلية ، بل هو يتخذ من الانسحاب والتأمل الداخلى والتفريغ الذاتى وسيلة للتخلص من الآثار الناجمة لديه . فهو يجعل مسرح حياته الداخلية حيا نابضا بالقوة ، بل إنه يجعل من صراعاته الداخلية مملكة قائمة بذاتها . ولكنه بخلاف المجنون يستطيع ضبط تلك المملكة فيشيع النظام والهدوء بها ، ويعوض عما أساء إليه فى الخارج بهدوء فى الداخل ، وذلك بافراط العزلة والتأمل والهرب من أسباب التوترات النفسية التى أثارته .

وثمة فى الواقع تأثير متبادل بين الانسحاب إلى الداخل وبين ما يحس به الملهم من اغتراب وبعدم التوافق فى الخارج مع الناس والأشياء والمواقف . فانسحابيته تفضى إلى ذلك الاغتراب ، كما أن إحساسه بالغربة وهو بين ظهرانى أهله وصحبه يفضى به إلى الانسحاب ومداومة التأمل .

وإنك لتجد أن الملهم شخص غير راض وغير منسجم مع القيم الاجتماعية السائدة بالمجتمع الذى نعيش فيه . وهـذا هو سر إحساسه بالاغتراب . وحتى عندما ينظر إليه من حوله باعتبار أنه متفوق عليهم وأسمى منهم وأعلى فى قيمه ومواقفه من قيمهم ومواقفهم ، فإنه من جانبه يحس بأنه غير قادر على مسايرتهم والإنسجام معهم أو أخذ الأدوار التى تناط به منهم .

وإذا نحن تأملنا حياة وسلوك الملهم، فاننا نجد أنه فى تأمله يبدأ مسترخيا ثم ما يفتأ أن ينخرط فى التأمل المضنى لأعصابه والمثير لكوامن نفسه . فهو يكون مشدودا بكل جوارحه إلى القطاع التأملى الذى ينغمس فيه إنغماسا ويندمج فيه اندماجا . وهنا نتذكر قصة حياة وليم بليك الذى عرضنا لها قبلا ، وكيف أنه كان يغيب عن وعيه فى أثناء تأمله للصور الإسقاطية فيقوم برسمها . وكذا الحال بالنسبة لسقراط الذى كان يغيب عن الوعى فلا يحس بمن حوله فيقف متصلبا فى مكانه لايشعر ببرد أو حر أو تعب فيظل منخرطا من تأمله طوال النهار والناس من حوله يذهبون ويجيئون ويصخبون أو ينهمكون فى أعمالهم وهو لاه عنهم وقد وجه كل طاقاته النفسية إلى الحالات التأملية التى تنسيه كل شىء . على أن سقراط وغيره من الملهمين كانوا يحسون بالنهكة أو التعب الشديد لدى إفاقتهم من الإندماج الإلهامى الذى كان يستغرق من وقتهم القدر الكبير . ولعلنا لانخطىء إذا قلنا إن الشخص الملهم ما يكاد يخرج عن نطاق إندماجه الداخلى — منخرطا فى الواقع من حوله— حتى يكون قد بدأ يهىء نفسه لإنخراط داخلى إندماجى جديد . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن هناك تأملا يمارسه المرء وهو فى خضم الحياة . فالملهم لا يجد فاصلا حاسما فيما بين وعيه ولاشعوره ، بل إنه لا يكاد يجد فاصلا حاسما فيما بين أحلامه وأحلام يقظته . وحتى وهو فى أثناء تعامله مع الناس يكون فى جانب من شعوره فى حالة من التأمل أو فى حالة من اللاوعى . ولذا فانك إذا تعاملت مع الملهم ، فانك تجده شبه نائم أو فى حالة من عدم الانتباه لما يدور حوله . وهذا ما يدفع

بالبعض من الملهمين إلى عدم الانتباه إلى واجباتهم الاجتماعية أو إلى مأكلهم وملبسهم ، كما أنهم ينسون المواعيد التى يجب أن يلتزموا بها فى تعاملهم مع غيرهم . .

ومن هنا فانهم لا يكادون يطيقون عوامل التشتيت تقلف بهم بعيدا عن مجالات تأملهم . فهم يجدون فى الأشياء التى تشتت تدفق فكرهم أعدى أعدائهم . وهم لذلك يكونون فى حالة هروب من تلك العوامل المشتتة ، ويحرصون على توجيه قواهم الذهنية والوجدانية الوجهات التى يرتشفون منها إلهاماتهم .

بيد أن السعادة التى يحظى بها الملهم تعوضه فى الواقع عما يعانيه من توترات نفسية مرهقة . فهو فى تبرمه بالواقع والمألوف يجد السعادة فى الجدة والابتكار اللذين يتسم بهما ما يلهم به من أشياء . فثمة إذن تعادلية فيما بين ما يلاقيه الملهم من توتر وبين ما يحظى به من سعادة وحبور عن طريق ما يحرزه من إلهامات . ومن هنا فانك لا تجد الملهم يهرب من المناخ النفسى الذى يسبب له التوتر النفسى ، ولا تجده نافرا من انتهاج طريق التأمل الذى ينتهى به إلى طريق الإلهام .

وإنا لنجد فى تاريخ بعض العباقرة الملهمين من كانوا يستحدثون التوترات النفسية فى أنفسهم عن طريق ما كانوا يتناولونه من منبهات . من أمثلة هؤلاء ما ذكر عن فولتير الكاتب الفرنسى الذى كان يدمن شرب القهوة ، إذ كان خادمه يرفع الفنجان الفارغ الذى تم له شربه لكى يضع له فنجانا آخر منها . فكان لا يستطيع الكتابة والاستمرار فى الابداع إلا إذا اهتاجت أعصابه وتنبهت بما تتضمنه القهوة من صفات الإثارة والتنبيه . وهناك من المفكرين من استعان بغير ذلك كالتدخين وغيره . المهم أن التوتر العصبى النفسى يستحدث لدى الواحد منهم لكى ينكب على الكتابة أو الابداع الفنى أو غير ذلك من مجالات تتسم بالإلهام فى العادة .

بيد أن هناك من الملهمين من يكونون فى غير حاجة إلى مثل تلك المواد المنبهة لكى يتوتروا . ذلك أن من سماتهم الطبيعية أنهم متوترون وليسوا بحاجة إلى عوامل مساعدة تصلهم إلى حالة التوتر . فهم بمجرد تناول عملهم يصيبهم التوتر . ولا يصل الواحد منهم إلى حالة من الاسترخاء إلا بعد أن ينتهى من الإنتاج الإبداعى . المهم عند هؤلاء هو ألا يقتحم عليهم مقتحم جوهم النفسى المتوتر فيفسد عليهم توترهم الإلهامى . ذلك أن مثل هذا التدخل يرتفع بدرجة التوتر عن الحد المطلوب ، فيستحيل التوتر الوظيفى المطلوب لأداء العمل إلى غضب بسبب إفساد المناخ النفسى .

ونحن فى الواقع نستطيع أن نقرر أن المطلوب للإلهام الحصول على درجة معينة من التوتر هى مرحلة بينية تقع فيما بين الاسترخاء النفسى وبين التشنج العصبى . ولا يستطيع أحد أن يقيس أو أن يحدد الدرجة من التوتر التى يجب أن يصل إليها الملهم أو التى ينبغى ألا تنقص أو تزيد عن ذلك الحد أو عن تلك الدرجة المطلوبة للانتاج ولتقبل الإلهام ، بيد أن الشخص الملهم نفسه يستطيع أن يحدد ذلك حتى بغير وعى من جانبه . ذلك أن العمل الإبداعى المطلوب لتقبل الإلهام خلاله يجب أن يكون فى تواؤم وتكيف مع شخصية المبدع الملهم ، فكل مبدع له درجة من التوتر يعرفها هو ويحسها ويصبو للوصول إليها .

وإنك لتجد الشخص الملهم وقد استطاع أن يحدد النقطة أو الدرجة التى يجب أن يتوقف عندها توتره . إنه عند تلك النقطة أو الدرجة يستمر فى العمل . فاذا لاحظ أن شدة توتره قد قلت ، فانه يعمل عندئذ على زيادتها . وإذا وجد أنه قد زاد فى توتره عن الحد المطلوب ، فانه يأخذ عندئذ فى الاسترخاء حتى يترل بتوتره إلى الحد المطلوب . ومن الطبيعى أن يعمد الشخص المبدع الملهم إلى الاسترخاء اليومى حتى لا ينتهى إلى الافلاس الإنتاجى . فالراحة وأخذ فترات مناسبة من الاسترخاء لمن الشروط الضرورية حتى يتسنى للشخصية المبدعة الإلهامية مواصلة العمل وإحراز ما يناسبها من إلهامات فى المجال الذى كرست نفسها له .

المشكلات الاجتماعية :

قلنا إن أهم شيء فى الاستقبال الإلهامى تركيز الذهن وعدم الذوبان فى الواقع الموضوعى أو الاجتماعى حول المرء . ذلك أنك عندما توزع اهتماماتك فى الأشياء من حولك وفى العلاقات الاجتماعية التى تنخرط فيها، فانك تفقد بالتالى قدرتك على إعداد نفسك لاستقبال الإلهامات التى يمكن أن تصل إليك . والواقع أن كبار الزعماء السياسيين والمصلحين الاجتماعيين لم يكونوا ذائبين فى الإطار الاجتماعى الذى كانوا يؤثرون فيه ، بل على العكس من ذلك كانوا يذيبون ذلك الإطار الاجتماعى فى ذواتهم . وبتعبير آخر ، فانهم كانوا يطفون دائماً على السطح ، ولا يسمحون بأن يغوصوا فى لجة الحياة الاجتماعية التى تحيط بهم .

والصحيح أن عباقرة الشخصيات الاجتماعية كانوا لا يخضعون للمجتمع الذى يعملون فى إطاره ، بل كانوا يخضعون ذلك المجتمع لذواتهم . وقل إنهم كانوا يتصورون صورا ذهنيا يترسمونها ويتشوفون لتحقيقها وذلك بصدد المجتمع القائم فيها ، ثم كانوا يضعون الخطط التى تحيل ذلك التصور الذهنى إلى واقع فعلى . على أن الزعيم الاجتماعى لا يرضى أو يقتنع بما حققه من صوره الذهنية فى الواقع الاجتماعى للمجتمع الموجود بالفعل .. ذلك أن الصورة الذهنية لديه تتجدد باستمرار وتسبق الواقع الفعلى بصفة دائبة . فما يتحقق بالفعل بالمجتمع ، سرعان ما تقابله صور ذهنية تستجد فى ذهن الزعيم الاجتماعى الملهم : فما يعتمل إذن فى ذهن ذلك الزعيم يكون أكثر وأغزر مما يكون قد تحقق بالفعل . من هنا نجد أن الزعيم أو المصلح الاجتماعى يتسم بعدم الرضى المستمر والدائب . فهو يكون غير قانع بما استطاع تحقيقه . إنه يجد أن ما تحقق بالفعل فى الواقع الاجتماعى أقل وأصغر وأضعف بكثير مما كان يؤمل فى تحقيقه .

ومن هنا نستطيع أن نلاحظ أن الكثير من العباقرة لم يكونوا راضين عن المجتمع الذى عاشوا فى إطاره . إنهم كانوا يتصورون فى أذهانهم

مجتمعا مباينا كثيراً أو قليلا عن المجتمع الذى كان يطويهم تحت ردائه . ولعل ذلك التباين — أو قل التناقض — بين ما يترسمه العبقرى من صور ذهنية ، وبين ما يجده فى الواقع الاجتماعى من حوله ، هو السبب فى الانشقاق الذى كثيرا ما نقرأ عنه فى حياة العبقرى بينه وبين المجتمع الذى ينشأ فيه ويحيا فى إطاره .

ولقد نقول إن هناك زاويتين يمكن أن نفسر منهما ما نشاهده من مشكلات اجتماعية تلف حياة العبقرى الملهم فى لفائفها . الزاوية الأولى — هى زاوية الصور الذهنية المعتملة فى القوام الذهنى للعبقرى الملهم . أما الزاوية الثانية فهى تلك الظروف الاجتماعية غير المواتية التى ينشأ فيها العبقرى الملهم والتى لا يكون له يد فى صنعها أو حياكتها . فلقد ينشأ العبقرى الملهم فى جو أسرى ردىء الغاية ، وقد يكون الفقر قد أحاط به من كل جانب ، أو قد تكون النزاعات الأسرية - أو قد تكون البيئة المحلية التى تحيط بالعبقرى الملهم مناهضة له أو لأسرته أو لكل من على شاكلته ممن يدينون بدينه أو يتسمون بلون بشرته أو ينحدرون من مسقط رأسه أو نحو ذلك .

وبتعبير آخر فلقد نجد أن العبقرى الملهم لا يكون على وفاق مع البيئة الاجتماعية التى ينشأ فيها . إنه قد يكون مرذولا أو منبوذا أو محتقرا أو يلقى معاملة غير كريمة من الناس المحيطين به . ولقد يتنكر له الممسكون بزمام الأمور من حوله ، فلا يعترفون له بالعبقرية أو التبريز . ومن ثم فانه يجد أنه يزاح باستمرار ، أو يضطهد أو يستبعد أو يحارب أو توجه إليه أصابع الاتهام أو يفت فى عضده باستمرار أو توضع أمامه العراقيل حتى لا ينمو وحتى لا يثبت وجوده .

بيد أن عبقرية العبقرى الملهم الملحة تجعله يقف صامدا ولكنه لا يسعى وراء المجتمع لاسترضائه ، بل هو يندفع نحو شق خط جديد له لم يسبقه أحد إليه . ولقد نقول إن العبقرى يسعى إلى الاستخفاء فيجعل تقدمه فى غفلة

من أمر المتربصين به . فهو يسير فى الظل ، أو قل إنه يتسلل من وراء الأسوار التى أقيمت كحواجز دون تقدمه . فهو يختبىء فى مكمن بعيد عن الانظار لكى يخطط لغزو ذلك المجتمع . فهو يتساءل بينه وبين نفسه عن الثغرات التى توجدفى قوام المجتمع لكى يمر منها إلى الصفوف الأماميةبه. وهنا يأتى دور الإلهام فى حياة العبقرى . إنه يكتشف فى لحظة خاطفة تلك الثغرات التى يمكن أن ينفذ من خلالها ، والتى يستطيع أن يتخذها أداة لتقدمه ولتفوقه وإثبات وجوده .

ونحن لا نجد فى الواقع أى شيء من التناقض بين تفسير المشكلات الاجتماعية التى تجابه العبقرى الملهم سواء بالزاوية الأولى المتعلقة بالواقع الداخلى للعبقرى ، أعنى بصوره الذهنية ، أم بالتفسير لتلك المشكلات فى ضوء الزاوية الثانية المتعلقة بالواقع الاجتماعى الفعلى المحيط بالعبقرى . ذلك أن الزاويتين جميعاً يجب أن تؤخذا فى الاعتبار . فالعبقرى الملهم . بحكم تكوينه النفسى يكون شخصية غريبة عن المجتمع الذى ينشأ به ويوجد فى نطاقه. إنه يكون دائما سابقا عليه ، أو قل إن تصوراته الذهنية المتعلقة بالمجتمع المرغوب تحقيقه تتباين تباينا جذريا وتباينا مستمرا عن المجتمع الموجود بالفعل . ومن جهة أخرى فان شخصا هذا شأنه يكون قليل التكيف أو بالأحرى يكون منعدم التكيف مع المجتمع الموجود بالفعل فى الواقع . ولذا فان النبذ والطرد والمناهضة تكون من نصيبه فى بداية الأمر على الأقل .

بيد أن العبقرى يحاول دائبا أن يرأب الصدع الذى يوجد بينه وبين المجتمع . ولكنه بدلا من أن يطأطىء الرأس للمجتمع الموجود ، فانه يضع خططه لحمل ذلك المجتمع على التطور والتغير وإبدال جلده بجلد جديد . فإرادة التغيير لدى العبقرى الملهم لا تتجه إلى شخصه وأفكاره وصوره الذهنية تبدلها وتعدلها ، بل هى تتجه إلى المجتمع الموجود بالفعل ترغمه على الخضوع للتغيير والتكيف للصور الذهنية المعتملة فى ذهن العبقرى الملهم .

وحتى بالنسبة للغربة التى يستشعرها العبقرى وهو الموجود بجسمه فى المجتمع ، فاننا نجد أنه يحيلها إلى مؤانسة ووئام .. بيد أن المؤانسة والوئام ليسا مؤانسة ووئاماً مع المجتمع القائم ، بل هما مؤانسة ووئام مع المجتمع المثالى المفترض تحقيقه بعد وقت يقصر أو يطول . ولكأن العبقرى فهو بوجدانه وبجماع شعوره إلى مجتمع يستشعر أحقيته بالوجود والتحقق عن المجتمع الموجود والمتحقق بالفعل فى الواقع من حوله . وأكثر من هذا فان العبقرى الملهم يجد أن الواقع الاجتماعى للمجتمع من حوله قمين بالتزايل والاختفاء لكى يحل محله المجتمع المثالى المتمثل فى ذهنه .

ولذا فاننا نلاحظ أن العبقرى الملهم يستلهم من الشقاق الاجتماعى ما يجب أن يصير إليه المجتمع . وبتعبير أدق نقول إن المشكلات الاجتماعية التى قد تغلف حياة العبقرى وواقعه الاجتماعى قد تكون فى حالات كثيرة السبب أو الدافع المباشر لأن يحيا ذلك العبقرى حياته الخاصة جداً التى لا ينازعه حولها منازع . وبتعبير آخر فاننا نقول إن أحلام اليقظة السوية هى التى تشكل الجو النفسى المناسب لدى العبقرى لتلقى الإلهامات . ولعلنا نعود فنؤكد أن الالهام مباين فى جوهره لما يمكن أن يقال من أن الشخص الملهم هو شخص عادى قام بصنع صوره الذهنية بغير أن يكون هناك تلق من الخارج : إننا نعتقد أن إعداد الذات للإلهام هى مرحلة ضرورية لتلقى الالهامات . ولكن لا يكفى للعبقرى أن يعد نفسه — أو أن تقوم الظروف باعداده — حتى يكون بالضرورة شخصية ملهمة . ذلك أننا نضع خطا فاصلا بين العبقرية وبين الالهام ، فما نؤمن به هو أن الالهام مرحلة تالية لمرحلة العبقرية . فثمة عباقرة غير ملهمين ، كما أن هناك شخصيات ملهمة ولكنهم لم يمروا بمرحلة العبقرية . فالعبقرية هى إعداد ذاتى مكين ، وهى التسلح بجميع وسائل الابانة أو العمل أو التأثير . ولكن بعد هذا الاعداد الذاتى يجب أن تكون محطة الاستقبال الذاتية جاهزة لاستقبال الالهامات التى قد ترد إلى ذهن ووجدان العبقرى وقد لا ترد إليه . فكما سبق أن قلنا فان جهاز الراديو أو جهاز التلفزيون قد يكون صالحا

ومستعداً لاستقبال الاذاعات أو الصور المرئية ، ولكن حيث لا تكون هناك إذاعة مذاعة أو برامج تلفزيونية مبثوثة فان الراديو أو التلفزيون لا يستقبل شيئاً بالطبع . كذا فان العبقرى قد يكون هيأ نفسه لاستقبال الالهامات ولكنه مع هذا لا يستقبل شيئاً جديداً لم يصل أحد إليه .

ولكن الواقع أن العبقرى الملهم غالباً ما يستقبل إلهامات جديدة . ذلك أنه يدأب على الشعور بالاغتراب عن مجتمعه . وبتعبير آخر فانه يظل فى حالة ترقبية استقبالية لما يمكن أن يلقى به إليه من إلهامات . فالمشكلات الاجتماعية التى تحيط بالعبقرى الملهم تشكل عوامل مساعدة فى كثير من الأحيان لاستقبال الالهامات المتباينة . وإنك لتجد فى سير العباقرة الملهمين شواهد كثيرة تؤيد ما نذهب إليه هنا .

الأزمات الاقتصادية :

لاحظنا فى الموضوع السابق أننا ننحو إلى القول بأن العبقرى الملهم ليس بالشخص المنسجم أو الذائب فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بل على النقيض من ذلك إنه الشخص الذى ينحو إلى إذابة المجتمع فى قوامه . إنه يريد أن يحمل المجتمع على مطاوعته ولا يطأطىء هو رأسه للمجتمع . ومن هنا فاننا نجد أن الظروف غير المواتية اجتماعيا واقتصاديا تعمل على إحالة العبقرى إلى شخصية غريبة عن المجتمع ، أو قل إن الظروف غير المواتية تشكل عوامل مساعدة على حمل العبقرى على الاحساس بالاغتراب عن مجتمعه . فثمة نزعة طبيعية أو جبلية تحمل العبقرى على الاحساس بالاغتراب ، يساعدها ويدعمها ما يستشعره من ظلم يقع عليه ، أو من نبذ أو جفاء أو عدم تقدير أو حتى الاستنكار والاحتقار لهمن جانب الكثير من أبناء المجتمع الذى يوجد به . بمدارستك لسير العباقرة ، فانك تجد أن ظروفا خارجية غير مواتية كانت تزيد إحساسهم بالغربة فى المجتمع الذى يوجدون به .

ولقد ذكرنا قبلا أنه لولا مثل هذا الاحساس بعدم التوائم وبعدم الرضى عن المجتمع القائم ، لكانت إذن كفة ذلك المجتمع المتحقق بالفعل أرجح وأقوى وألصق بوجدان العبقرى . ولكن حيث أن العبقرى لا يكون راضيا أو منسجما مع المجتمع الراهن ، فانه يسعى لتشكيل صورة ذهنية عن المجتمع النموذجى وكيف يكون . على أن إحساس العبقرى بعدم الرضى وبالتبرم من بالمجتمع الراهن يظل معتملا لديه حتى ولو تغيرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية لصالحه . ذلك أن الرواسب النفسية التى سبق أن ترسبت فى قرارة نفس العبقرى منذ مطلع حياته تظل تعمل عملها وتظل مؤثرة بعمق فى حياته الذهنية . فالمرء ليس ابن ساعته الراهنة بقدر ما يكون إبنا للظروف التى أحاطت به فى نشأته والتى غلفته فى صباه ومراهقته وشبابه .

والواقع أن الأزمات الاقتصادية التى تحيط بنشأة العبقرى فى طفولته ومراهقته وشبابه تجعله راغبا فى التعويض عما فاته من متع الحياة أو من الترف والنعيم المادى . من هنا فان العبقرى يسعى إلى التعويض الداخلى عما فاته فى الواقع الخارجى . ولكن ذلك التعويض النفسى لا يسير وحده فى دخيلة العبقرى ، بل يرتبط ارتباطا وثيقاً بالرغبة فى الانتقام من الواقع الاجتماعى . من هنا فان العبقرى يبطش داخليا — فى ذهنه وفيما يصوره بالقلم أو بالريشة أو بغير ذلك من وسائل الإبانة — بالمجتمع الراهن وبالأوضاع القائمة . فهو يحارب المجتمع الذى حرمه من الرخاء ، ويتخيل نفسه فى صورة مستقبلية عله يوجد من جديد طفلا ومراهقا وشابا فى مجتمع جديد من صنعه وتصويره الذهنى . وهو يجد فى عمليتى الهدم والبناء حيث يهدم المجتمع القائم وحيث يبنى مجتمعاً ذهنياً جديدا ما يشبع إنتقاميته من جهة ، وما يشبع جوعته وما فاته من جهة أخرى .

ونستطيع القول بأن الانسان بعامة فى حاجة إلى قدر معين من التوتر لكى يعمل فكره ولكى يشغل ذكاءه فى المشكلات والمواقف التى تصادفه.

ولا شك أن إحساس الانسان منذ بداوته بالخطر يتهدده وبالمخاوف تعتمل بين أضلعه كان دافعا له على الاختراع وتفتيح مجالات كثيرة متباينة للدرء الأخطار المتربصة به ولتهدئة المخاوف التى تساور قلبه . ونستطيع أن نقرر فى مقابل هذا أن الانسان الذى تحيط به الرفاهية من كل جانب ، والذى يحس بالطمأنينة الكاملة تنشر ألويتها على فؤاده ، والذى توفرت له جميع مقومات الحياة الرغدة ، والذى لا يستشعر توتراً فى قلبه ، لا يجد لديه بالتالى دافعاً نحو الكشف والابتكار والتجديد . ومعنى هذا أن رغبة الانسان فى الكشف والاستطلاع لا تكفى وحدها لتقدمه وإظهار مواهبه على الملأ .

ونحن لا نخطىء — بناء على هذا — إذا ما قلنا إن الأزمات الاقتصادية التى غلفت حياة معظم العباقرة فى المجالات الانسانية المتباينة ، كانت دافعاً لهم نحو الاحساس بالتوتر الداخلى ، ومن ثم كانت دافعاً لهم نحو شق طرق جديدة وترك بصماتهم الأصيلة على ما اضطلعوا به من أعمال عظيمة . وصدق المثل القائل « إن الحاجة أم الاختراع » . على أننا لا نعنى هنا بكلمة « حاجة » مجرد الاحتياج إلى شىء من الكماليات ، بل نقصد الحاجة الأساسية التى يهدد عدم توافرها حياة الانسان أو مستقبله أو سمعته أو مكانته بين أقرانه . فاحساس الإنسان بالحاجة وبعدم توافر أسباب إشباعها ، إنما يجعله فى حالة من التوتر التى تحمله على إخراج ما فى جعبته النفسية من مواهب مطمورة .

على أننا لانستطيع أن نقرر أن هناك علاقة سببية بين الأزمات الاقتصادية وبين العبقرية والالهام . إننا نعتبر أن العلاقة السببية إنما تقوم بين التوتر المناسب الذى يشيع فى جنبات المرء وبين ما يتسنى له عمله أو التأثر به فى المجالات المتباينة المحيطة به . وهناك العديد من الأسباب التى يمكن أن تحدث التوتر فى دخيلة العبقرى . ومن بين تلك الأسباب ما يفتقده من رغد ورخاء ووفرة ، ولعلنا نضيف أيضاً إلى هذا أن مجرد الاحساس

بالتوتر والابانة عن الذات بالتعبير عن المواهب المخبوءة بالشخصية لا يعني الحصول على الالهام . فثمة عباقرة كما قلنا في الحالات المتباينة لم يصلوا إلى مرتبة تلقي الالهامات . فلقد نجد شخصية عبقرية توفرت لها جميع الوسائل وقد تمكن صاحبها من المجال الذي يعمل فيه ، ولكن عبقريته لا تكون مشمولة بالالهام . ومن ثم فان صاحب تلك الشخصية العبقرية يبرز ويتفوق على جميع أقرانه ويلقى شهرة كبيرة وذيوع صيت، ولكنه مع ذلك لا يكون قد فتح مجالا جديداً يشد البشرية إليه . فهناك الكثير جدا من العباقرة في علم الهندسة ، ولكن فيثاغورس بلا شك هو الشخصية الملهمة الأولى بينهم لأنه أول من وضع اللبنات الأولى للهندسة ، أو قل هو الذي اخترع الهندسة . فمن المؤكد أن فيثاغورس قد تجاوز الى نطاق أعلى هو نطاق الالهام . ولكننا نستطيع أن نسرد أمثلة لشخصيات ملهمة ولكنها ليست عبقرية . فشاعر النيل حافظ إبراهيم كان شاعرا ملهما ، ولكنه لم يكن عبقريا . ذلك أن شعره كان مفعما بالالهامات ولكنه في نفس الوقت لم يكن غزير المادة ولم يكن ينم على سعة في الاطلاع ، كما أنه لم يتوسع في شعره إلى آفاق متباينة كالمسرحية الشعرية مثلا مثلما فعل شوقي . ونستطيع من جهة أخرى أن نقول إن العقاد كان عبقريا ولكنه لم يكن ملهما .

وبالجملة نستطيع أن نقرر أن الازمات الاقتصادية التي تحيق بالعبقري — أو بمن لديه استعدادات عبقرية — تعمل غالبا على شحذ همته والدفع به إلى الابانة عما يتوارى في ثنايا شخصيته من إمكانيات نادرة . ولكن ظهور تلك المخبوءات ليس بكاف لتلقي الالهام . إننا نستطيع أن نقرر أن إعداد الذات لتلقي الالهام يمكن أن يتواكب معه تلقي الالهام بالفعل ، كما يمكن ألا يتواكب ذلك معه . ولنا أن نقول إن النقد يمكن أن يوجه إلى من لديه استعداد للعبقرية ولكنه أهمل استعداده فلم تظهر عبقريته . ولكن الأمر ليس كذلك بازاء الالهام . فأنت لا تستطيع أن تنتقد الأديب أو الفنان أو الفيلسوف لأنه لم يحصل على الالهام . ذلك أن الاجتهاد والمثابرة

والدأب والمواصلة وحدها هي التي بيد المرء . أما تلقي الالهامات فانها خارج نطاق قدرته . فالإلهام موهبة أو هو عطية تمنح منحا للمرء . وكل ما بيده لفعله هو أن يعد نفسه لتلقي الالهام فحسب. فأنت لا تستطيع أن تهب الالهام ، ولكن تستطيع أن تترقبه . فاذا ما لاح الالهام أمامك فعليك بالانقضاض عليه والتشبث به والامساك بتلابيبه . ولعلنا نعود فنؤكد أن الالهام يتأتى للمرء الملهم على هيئة ومضات سريعة الاختفاء . فاذا لم تكن متيقظا ومترقبا للانقضاض على الكنز الذى يفتح أمامك ثم يغلق بعد برهة قصيرة جدا ، فان جميع مجوهراته الثمينة تضيع عليك ولا تستطيع الحصول عليها بعد ذلك إلى الأبد . .

ولعلنا نجد فى حياة كثير من الناس لحظات الهامية توافرت لهم ولكنهم لم يستغلوها . لقد يعمل الفقر أو الحاجة على الإلقاء ببعض الناس فى حمأة اليأس أو الارتماء فى أحضان الجريمة أو الجنون . ولكن نفس تلك الظروف المالية القاسية هى التى جعلت العباقرة الملهمين فى حالة من التفحص الذاتى ، أو قل إنها جعلتهم فى حالة ترقب وإنتباه لما يمكن أن يصدر إليهم من إلهامات . ناهيك عن إعداد أنفسهم بوسائل العبقرية وذلك بالتمكن من المجال الذى كانوا يشتغلون به والتفوق فيه والتبريز على جميع العاملين به .

ولا شك أن العبقرى يكون أكثر قدرة على استثمار الالهامات التى تتأتى له من غير العبقرى . فاذا ما توافرت العبقرية والالهام جنبا لجنب ، فان المرء يستطيع عندئذ أن يقدم إلى الانسانية فتوحات جديدة لم يسبقه أحد إليها . فالالهام هو الضوء الذى يكشف للملهم نطاقات جديدة لم تدسها قدم بشرية من قبل . أما العبقرية فهى الامتداد بالطريق المعبد إلى أبعاد جديدة . ولكن العبقرى الملهم يجمع فى نطاقه بين التمكن من اكتشاف الجديد وبين استيعاب القديم فى نفس الوقت .

التحديات والعقبات :

أكدنا فيما سبق أن إرادة الحياة بصفة عامة ، وإرادة العبقرية بصفة خاصة لا يمكن أن تتبدى والمرء فى حالة من الاسترخاء والدعة والوفرة والنعيم والاسترخاء التام : فكما أن النار لا تخرج أو تنزع من الحجر الصوان إلا بالطرق ، كذا فان المواهب لا تتبدى إلا إذا حدث احتكاك وتحد لفكر ووجدان الشخص . فالحجر الصوان لا يبدى مواهبه أو قطرته النارية إلا بالاحتكاك والمصادمة . وكذا فان التحديات والعقبات التى تجابه صاحب المواهب للعبقرية هى الشرط الوحيد والضرورى لإبداء ما هو مخبوء فى أغوار شخصيته .

على أن العبقرية التى تتبدى لدى الشخصية الموهوبة والتى لا تبدو إلا بالتحديات والعقبات تعتور حياة الموهوب ، لا تعنى إحراز الالهام كما سبق أن أكدنا . ذلك أن العبقرية تسبق الالهام فى أغلب الأحيان . ولكن فى أحيان أخرى يكون الشخص ملهما بغير أن يكون عبقريا . فالمايسترو قد يكون عبقريا فى الموسيقى ، ولكنه ليس بالشخص الملهم . ولكن الالهام يواتى واحدا مثل بيتهوفن أو باخ أو غيرهما . وفى أوساطنا العربية نجد واحدا مثل عبد الوهاب حائزا على العبقرية والالهام معاً ، بينما نجد أم كلثوم حائزة على العبقرية فحسب . ذلك أن الالهام يعنى الحصول على أشياء أو على نفحات لم يسبق لأحد أن حصل عليها . أما العبقرية فانها تتبدى فى التمكن والأداء الممتاز .

وبمناسبة ذكر عبد الوهاب وأم كلثوم ، فاننا نجدهما جميعاً قد سارا على الشوك حتى وصلا إلى ما وصلا إليه من مجد فى عالم الموسيقى . وكذا يقال عن فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وغيرهما من عباقرة فى عالم الموسيقى والغناء . فالمرحلة الأولى التى تجابه حياة العبقرى لابد أن تكون متسمة بالتحدى لقدرته . ولقد نجد أن الفشل فى بعض المواقف يشكل دافعا ومقوما ديناميكيا فى شخصية العبقرى يدفع به إلى إبراز ما فى جعبته .

ولذا فاننا نجد أن الكثير من كبار المربين لا يرغبون في عزل الأطفال الموهوبين عن جو المدرسة العادية ويقاومون فكرة إحاطة الموهوبين بكل الرفاهية وتذليل جميع الصعوبات التى يمكن أن تجابههم إذا ما وجدوا فى إحدى المدارس العادية . فهم يؤكدون أن الصعوبات والتحديات أو حتى المقومات الرديئة تشكل مقومات هامة فى بناء شخصية الموهوب . والأمر هنا شبيه بتربية الجسم فى الجو العادى وتعريض الطفل ككائن حى للعوامل الجوية الصعبة ، فينشأ على الإخشوشان ومقاومة التقلبات الجوية . وكذا يقال إن تعرض أبناء الفقراء للإصابة ببعض الميكروبات يقيهم من الإصابة بالأمراض الفتاكة . ونفس الفكرة هى المطبقة طبيا فى الأمصال الواقية من الأمراض المعدية المتباينة . فالمصل هو جرعة من الميكروبات التى يستطيع الجسم مقاومتها والقضاء عليها . ومن ثم فانه يصير مدربا جسميا على مقاومة تلك النوعية من الميكروبات .

فالتصادم بين الإنسان والبيئة الواقعة من حوله يشكل حجر الزاوية فى إبراز المواهب والافصاح عن الجيد من الاستعدادات بالشخصية

ولعلنا نعرض فيما يلى لأهم التحديات والعقبات التى تقف متحدية طريق تقدم العبقرى الموهوب والتى تعمل عادة على تفتيق مواهبه والدفع به نحو التقدم والتفوق المستمرين . إننا نجد أولا ما يعرف بمضايقات الآخرين للمرء . فالكثير من الكبار والأتراب لا يعترفون لصاحب العبقرية بما لديه من امتيازات بل يرمونه بالتخلف . ونذكر بهذه المناسبة ما وقع لاديسون الذى اعتبره مدرسوه شخصا متخلفا لا يصلح لشىء وقد طلبت إدارة مدرسته من أمه سحبه منها لأنه لا يصلح لتلقى العلم . ولكن هذه الحادثة كانت بمثابة دافع كبير للطفل لإثبات وجوده وتفوقه . على أن النقد المستمر وعدم الاعتراف بعبقرية العبقرى الملهم تظل قائمة ومستمرة من جانب الخصوم الذين يتطوعون للفت فى عضده وثنيه عن التقدم فى طريق المجد والشهرة . ولكن كلما ازدادت الضغوط على الموهوب الملهم فانه يدأب على التقدم والتبريز

والواقع أن فاعلية الضغوط التى تحيط بالشخصية الموهوبة تدفع به إلى التركيز حول الذات وإلى عدم الذوبان فى المحيط الاجتماعى فبدل أن يندمج الشخص فى الأشخاص المحيطين به فانه يحس بالتمايز منهم ، وبأنه مغاير لهم ، أو قل بأن له عالمه الخاص الذى يستقل به ، ومن ثم فانه يوفر لنفسه المناخ النفسى المستعد لتقبل الإلهامات . فتلك الضغوط الخارجية لا تعمل على مجرد تفتيق مواهب الشخص وإظهار عبقريته — إذا كان مفعما بالعبقرية — بل إنها تهيئ الفرصة الكافية لتلقى الإلهامات المتباينة .

أما التحدى أو العقبة التالية التى تعمل على توفير المناخ المناسب لتلقى الإلهامات فهى التردى فى الفشل . وهنا نجد أن الشخص الفاشل قد يعقد العزم على التفوق فيما فشل فيه ، أو هو يعقد العزم على تعويض فشله بالتفوق فى مجال آخر مباين تمام التباين للمجال الذى لم يوفق فيه . فبالنسبة للاحتمال الأول فاننا نجد أن واحداً مثل أينشتين الذى رسب فى مادة الفزياء قد عقد العزم على التفوق فى نفس المادة التى رسب فيها ، وكان له التوفيق والتركيز على جميع أقرانه الذين نجحوا فيما رسب هو فيه . أما بالنسبة للاحتمالة الثانى — وهو الانصراف عن المجال الذى فشل فيه المرء إلى مجال آخر فيتفوق فيه — فاننا نضرب مثالا بخليل مطران الذى فشل فى التجارة ، فانصرف إلى الشعر فتفوق فيه وقد ألقى بثقله فى مضماره .

ولعلنا نعزو إلى الشعور بالفشل أو بالنقص الفضل فى التمايز من الآخرين أو عدم الذوبان فيهم ، ومن ثم توفير فرصة لم الشعث وعدم التبعثر فى أشياء متباينة كثيرة حول المرء . ولا شك أن التمركز حول بؤرة الشخصية يعمل على توفير نوع من الاستقلال الذاتى وعدم الذوبان فى الآخرين ، ومن ثم توفير فرصة التلقى الإلهامى للمرء .

أما التحدى أو العقبة الثالثة التى تعمل على توفير المناخ المناسب للتفتق الداخلى وتوفير المناخ المناسب لتلقى الإلهام فهو النقص فى الجاذبية الشخصية أو النقص فى الجمال أو فى الطلعة البهية أو وجود أى صفة من الصفات

الشخصية التى تعمل على عدم اقبال الناس على الشخص أو تعمل على نفورهم منه أو عدم الرغبة فى إقامة علاقات به . ولعل أفضل مثال نضربه فى هذا الصدد سقراط الفيلسوف اليونانى الذى لم يكن يتمتع بالوجه الجميل ، بل كان صاحب وجه قبيح دميم الخلقة ومتفر . ومن هنا فان سقراط قد استطاع أن يستشعر ذلك منذ طفولته ، ومن ثم فانه آثر الانصراف إلى عالم آخر غير عالم الناس من حوله . لقد كان سقراط يقضى الوقت الطويل فى التأمل ، لدرجة أن بعض مؤرخى الفلسفة قد اتهموه بالاصابة بمرض الفصام إذ أنه كان يقضى وقتا طويلا وهو واقف فى حالة تخشب فلا يحس عما كان يجرى حوله ، وقد أخذ يتأمل إحدى القضايا الهامة التى كانت تشغله ، أو ربما كانت الإلهامات توجه إليه فيستقبلها وهو فى تلك الحالة الذاهلة عما حوله من أشياء وأحداث وأشخاص .

أما التحدى أو العقبة الرابعة التى تعمل على تهيئة المناخ المناسب لتلقى الإلهامات فهى عقبة جنسية . فالشخص غير الموفق فى الحب أو الزواج ، قد يجد بغيته أو تعويضا عما حرم منه فى تأكيد ذاته بطريقة أخرى . إنه يسعى إلى تعشق الأفكار والمثل العليا الذهنية ، ناحيا إلى إنجاب أفكار أو مخترعات بدلا من إنجاب الأطفال . ولعلنا نضرب مثالا هنا بفان جوخ الذى لم يكن موفقا فى حبه . فكان كلما أقبل على الحب لم يكن ليجد الاقبال عليه من الأطراف الأخرى من النساء اللآئى أحبهن . وحتى المرأة التى رضيت بعشرته كانت من الساقطات وبائعات الهوى . فكان يحس بفشله المرير فى الحب ، فانصرف فى إقبال منقطع النظير على اللوحات يرسمها بعبقرية وإلهام مدهشين .

وأخيرا فان التحدى أو العقبة الخامسة التى توفر المناخ المناسب لتلقى الإلهام فهى الحرمان من عطف الكبار منذ نعومة الأظفار . فكثير من عباقرة الإنسانية الملهمين كانوا يتامى الأم أو الأب أو الأم والأب جميعاً . ولعل اليتيم الذى لم يجد الصدر الحنون يبحث له عن صدر حنون حتى ولو

كان ذلك الصدر الحنون بعيدا عن الواقع المحسوس . لقد يكفل له الحنان من مصادر إلهامية روحانية تحنو عليه وتكلأه وتعوضه عما فاته من حنان الوالدين . فالطفل والمراهق والشاب الذين يحسون بأنهم قد حرموا من أم تحنو أو من أب يعطف ويرعى، ينكفئون على ذواتهم الداخلية فلا يتسنى لهم الذوبان فى الوسط الاجتماعى الذى يوجدون به ، ومن ثم فانهم يشكلون لأنفسهم عالما خاصا بهم مستقلا عن العوالم الأخرى المحيطة بهم ، وبالتالى فانهم يوفرون لأنفسهم المناخ المناسب لتلقى الإلهامات المتباينة التى تناسب مواهبهم وما جبلوا عليه من استعدادات شخصية خاصة بهم .

الفصل الثالث عشر

التأمل والهروب الى الداخل

إخضاع الخارج للداخل :

نستطيع أن نستشف مما سبق أننا نؤمن بأن الإلهام حالة تتأتى لبعض الأفراد بعد أن يكونوا قد عكفوا على أنفسهم وقد ركزوا الذهن والوجدان بداخلهم ، وبحيث لا يكونون مشتتين أو مبعثرين فى الأمور الخارجية . ونستطيع أن نقرر أن بعض الشخصيات العامة التى توصف بأنها شخصيات ملهمة فيما قامت بالاضطلاع به ، انما يكون الواحد منهم قادرا على الانصراف الى ذاته بعد أن يخلو الى نفسه وبعد أن ينفض يده من الأعباء العامة الموكلة اليه . والواقع أن بعض الناس يجدون فى ضغوط الحياة وما تتطلبه من توجيه الانتباه الى الخارج — أعنى خارج الذات — باعثا لهم على سرعة الانطلاق نحو الداخل ، وعلى شدة التركيز على دخيلة النفس .

ولعلنا نقرر أن مثل هؤلاء الناس يتشوفون إلى البقاء مع أنفسهم والبعد عن صخب العلاقات الخارجية بعد أن يكونوا قد انخرطوا فى تلك العلاقات الاجتماعية مدة طويلة يكونون بعدها بحاجة إلى الهدوء النفسى . فهم يجدون فى الهرب إلى الداخل الراحة مما أصابهم من جهد وتعب نفسيين . فالواحد من هذه الفئة يجد إلهاماته بعد الانصراف عن الهرج والمرج . ولكن العجيب أن بعض أفراد هذه الفئة يجدون الإلهام وقد هبط عليهم وهم فى الزحام وفى معمعة العلاقات الاجتماعية . بيد أن الواقع أن الملهم من هذا النوع لا يكون موجودا فى الصخب الاجتماعى إلا بجسمه فحسب . إنه يجعل من الضوضاء التى تحيط به إطارا أو خلفية بعيدة عن بؤرة وجدانه ، وبعيدا عن تركيزه الذهنى . إنه لا يكاد يسمع مايدور من أحاديث تصافح أذنيه ،

وهو لا يكاد يستبين المرئيات التى تمر أمام ناظريه . فالواحد من هؤلاء الملهمين فى وسط الزحام يكون فى الواقع غريبا عن الصخب الاجتماعى الذى يحيط به من كل جانب . إنه يشبه الزيت الطافى فوق الماء . إنه يلامس الماء ولكنه لا يختلط به ، أو هو كالغواصة التى تشق عباب المياة فى أعماق المحيطات بغير أن ينفذ الماء إلى قوامها ، وبحيث لا تصير جزءا من الكائنات الموجودة بعمق المحيط .

وهناك شخصيات تواتيها الومضات الإلهامية فجأة وهم فى أشد حالات الانهماك مع الناس ، أو وهم منهمكون فى بعض الأعمال الروتينية أو الأدائية . فمثل هؤلاء الناس يجب عليهم المسارعة بتسجيل تلك الومضات الإلهامية فى مفكرة خاصة حتى يتسنى لهم أن يرجعوا إلى ما ألهموا به بعد أن يعكفوا على أنفسهم فى خلوتهم الذهنية . يقول لنا أحد المؤلفين إن إلهاما مفاجئا واتاه وقد كان فى حفل صاخب . فثمة فكرة طارئة باسم الكتاب الذى ألفه بعد ذلك ، وكان فى أثناء الحفل فى غير توقع للتفكير فى أى موضوع يتعلق بالتأليف . ولكن فجأة وبغير مقدمات أو بغير تمهيد أو ارتباط بالكتب أو الثقافة ، إذ بفكره ينسحب بعيدا عن جو الحفل الصاخب ، وكان من حوله منصرفين عنه إلى الدعابات والمناقشات . أخذ فكره يعمل وكأن شخصا أو جنيا بداخله يملى عليه اسم الكتاب الجديد ثم فصوله ومحتويات الفصول من جزئيات أو فروع أو موضوعات جزئية . لقد كان هناك ما يشبه الشريط المرئى يمر بذهنه فى ذلك الجو الصاخب . فما كان منه إلا أن أخرج مفكرته وأخذ يدون ما كان يملى عليه من ذلك الجنى الداخلى الوافد عليه بغير توقع وبغير مقدمات أو تمهيد . ويضيف صاحبنا أنه ما كاد يعود إلى داره حتى بدأ فى نقل ما كتبه فى مفكرته على الورق الذى اعتاد أن يؤلف فيه ، وبدأ منذ تلك الليلة فى تأليف ذلك الكتاب إلى أن أتمه بعد عدة أشهر ، ودفع به بعد ذلك الى المطبعة .

وثمة حالات مشابهة لحالة هذا المؤلف الذى عرضنا له . ثمة ما أجاب به الشاعر محمد بهجة الأثرى على السؤال الذى وجهه إليه الدكتور مصطفى سويف

فى كتابه « الإبداع الفنى » . يقول الشاعر « قد تيقظ الشاعرية عندى فى الأماكن التى تكون فيها حركة وأصوات. لذلك ترانى فى هذه الحالة أسرع فى البحث عن مكان بعيد عن الحركة والجلبة لأنظم قصيدتى تحت تأثير الانطباعات قبل أن تفتر النفس وتضيع الفرصة » .

أما الشاعر محمد مجذوب فانه رد على سؤال الدكتور سويف بقوله « هناك أحوال — لا عادات ثابتة — ترافق عملية التأليف ، فلابد من جو خاص يساعد على الاستغراق فى روح الموضوع كالعزلة — ولا أعنى بها الانقطاع عن رؤية الناس بل الانقطاع عن مشاركتهم فقط — وقلما أستطيع الاعتزال للنظم فى حجرة خاصة بل أنا أقوم بذلك فى المقهى وعلى المائدة وفى السيارة. وقلما يشغلنى عن ذلك ضجيج الناس وحركتهم بشرط ألا أضطر لمشاركتهم فيه هذا لأن أقل شيء من المشاركة يقتضى إعمال الوعى ، وهذا بطبيعته يصرف النفس عن التصور واستحضار التعابير الملائمة لإخراجه» .

أما الشاعر عادل الغضبان فانه يجيب عن نفس السؤال الذى قدمه إليه الدكتور سويف بقوله « لقد يبرز لى معنى من المعانى أو قافية من القوافى وأنا أعمل عملا ليس بينه وبين الشعر سبب أو أحدث أحدا حديثا لا علاقة له بالشعر ، فان لم أتمكن من تقييد خواطرى فى وريقة أو ظرف رسالة أو على علبة لفافات ، فانى أثبتها فى ضميرى إلى حين » .

وفى ضوء هذه الأمثلة التى أوردناها نلاحظ أنها جميعا تشير إلى حقيقة واحدة ، هى أن الإلهام يعنى إخضاع الخارج للداخل . فالملهم ليس شخصا يعكس ما يسلط عليه فى اللحظة أو الآن الواحد ، بل هو شخصية مستقلة بذاتها ، أو هو شخصية تشكل عالما قائما بذاته له قوانينه ونظمه واستقلاليته عما حوله . وأكثر من هذا فان هذا العالم الداخلى يسيطر على العالم الخارجى. فليس العالم الخارجى — بما يحويه من أشياء وأحداث وأشخاص وعلاقات اجتماعية — سوى خامة يقوم العبقرى الملهم بتصنيعها . فهى ليست المؤثرات التى تنعكس على فكر ووجدان العبقرى المبدع ، بل هى مؤثرات مبدئية

أو هي خامات أو عناصر سرعان ما يتم تفاعلها بعضها مع بعض فينتج مركب جديد ليس فيه شبه بتلك العناصر التي يتشكل منها بالتركيب .

فاذا نحن فاضلنا بين نوعين من التأثير في العبقرى الملهم : النوع الأول — هو تأثير الأشياء والأحداث والعلاقات والأشخاص في نفسيته ، والنوع الثاني — تأثير العبقري الملهم في الخارج بما يحويه من أشياء وأحداث وعلاقات وأشخاص ، فإننا نجد أن النوع الثاني من التأثير هو صاحب السلطان وأنه هو الطاغي على النوع الأول من التأثير . فعلى الرغم من أن العبقرى الملهم يستمد عناصره الخبرية الأولية من الواقع الخارجي ، فانه يحيل تلك المقومات الخارجية إلى كيان مباين تمام التباين عما كانت عليه . وأكثر من هذا فانه بما يحصل عليه من إلهام يخلق كيانات جديدة مستقلة تماما وجديدة كل الجدة ولا ترتبط بصلة ما بتلك العناصر المستفادة من الواقع الخارجي .

فثمة أحداث ذهنية بدخيلة العبقرى الملهم أقوى بكثير جدا من الأحداث الحسية الادراكية التي يقوم بها في تلقيه لمؤثرات العالم الخارجي . فبعد أن يعتصر العبقرى الملهم المدركات الحسية ، وبعد أن يحيلها — كمرحلة تالية للاعتصار — إلى مركب أو مركبات ذهنية مغايرة تماما لما كانت عليه في المرحلة الإدراكية ، فانه يرتفع إلى المستوى الثالث — أعني المستوى الإلهامي . وفي هذا المستوى الثالث الإلهامي ، يأخذ العبقرى الملهم في خلق عوالم جديدة ليس لأحد غيره قبل بها . فهو يفتح مجالا مبتكراً لم يقترب منه حد قبله . وقد ضربنا مثالا قبل ذلك بفيثاغورس . ولنقل إن طاليس باليونان هو صاحب الإلهام الأول بالفلسفة : فهو نقطة البداية لكل فكر فلسفي بدأ بتفكيره ونشأ معه وبه . ولنقل إن اخناتون هو الذي ألهم بالتوحيد في المجال الديني بمصر القديمة .

على أن الإلهام ليس قاصرا على العباقرة كما قلنا . ذلك أن الأشخاص العاديين يلهمون أيضا بأفكار أو تصرفات أو مخترعات . فالالهام قسمة مشتركة بين العباقرة وغيرهم . وهو يتوزع بنسب متفاوتة بين كثير من

الناس . ولكنه عند البعض لا يكاد يذكر ، بينما يكون واضحا جليا عند البعض الآخر منهم . ولكن لا يستطيع المرء أن يفيد من الإلهام إلا إذا هو أخضع الخارج للداخل . وبتعبير آخر فان المرء لا يفيد مما يلهم به إلا إذا كانت له شخصية مستقلة ، وقد صار مقود النشاط فى يديه . فالاستقلال الذاتى وعدم الخضوع للضغوط الخارجية هو شرط الإفادة من الالهام . وهنا نكتشف المعادلة الصعبة بين الافادة من المقومات الخارجية الموضوعية وبين القدرة على تلقى الالهامات واستيعابها. ذلك أن أولئك المتخمين بالمعرفة والذين تثقل أذهانهم بما يغص فيها من معلومات لا يكادون يلهمون بشىء. فما لم يهضم المرء ما يصل الى ذهنه من معرفة وخبرة ، فان المعرفة والخبرة تكونان عبئا عليه ومعوقا يعوقه عن تلقى الالهام .

الطفو على سطح الواقع :

هناك نوعان من الناس بصفة عامة : نوع يرتبط بجزئيات الواقع ، ونوع آخر يرتبط بالكليات. والنوع الأول من الناس يهتمون بالظاهر من الأشياء ، ولا يحاولون سبر أغوار الأشياء كما تبدو لكى يصلوا الى جواهرها وأعماقها . أما النوع الثانى من الناس فانهم يهتمون بالحقيقة يبحثون عنها خلف ما يبدو للعيان . على أن هذا النوع الأخير من الناس لا يتنكرون للوقائع الجزئية أو للأشياء كما تبدو فى الحياة اليومية ، بل انهم لا يكتفون بما يبدو أمام أعينهم وبما يقع على سمعهم ، بل يتقبلون الوقائع الادراكية كنقطة البداية أو كأول الخيط فى تفكيرهم . وهم يسيرون بما يصلون اليه بادراكهم الى أبعد شوط ممكن ، أو قل إن أفراد هذه الفئة الأخيرة لا يغطسون فى قرار الواقع المحيط بهم ، بل يطفون على السطح حتى يشاهدوا جميع ما يقع فى مجال الواقع بغير أن تفوتهم واقعة أو حقيقة دون أن يدركوها .

والواقع أن الحكماء منذ القدم قد استمسكوا بموقف هذه الفئة الثانية . فالحكيم ظل عبر الزمان هو الشخص الذى لا يغره الواقع فيصدقه كما يبدو له ، بل هو الشخص الذى يستطيع أن يرى ما يخبئه الواقع من حقائق ثابتة

وجديرة بالتصديق . وبعد الحكماء أتى الفلاسفة ومن بعد الفلاسفة العلماء يبحثون جميعا عن الحقائق الثابتة التى ترتكز عليها الوقائع الجزئية . فالحقيقة لا تكمن فيما يبدو ، بل تكمن فيما يخبئه ما يبدو . ومن هنا أخذ الإنسان يبحث عن القوانين التى تخضع لها الأشياء . وفى نهاية المطاف أخذ علماء الدراسات الإنسانية فى البحث عن القوانين التى يسير وفقها الانسان الفرد والانسان المجتمع فى مواقفه المتباينة . فأخذ علم النفس من جهة ، وعلم الاجتماع من جهة أخرى فى البحث عن القوانين التى يسلك وفقها سلوك الفرد وسلوك المجتمع . فكما أن الفلزات تخضع لمجموعة من القوانين التى لا تريم عنها ، كذا فان الحياة النفسية للانسان الفرد ،وكذا حركة سير وتطور المجتمع بالنسبة للانسان المجتمع تخضع لمجموعة من القوانين التى لا تتأثر بزمان أو بمكان . فثمة حقائق أو قوانين نفسية ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص . فالمصرى والصينى والانجليزى والرومى ، وكذا البدائى والمتحضر ، بل وأيضا الطفل والكبير ، والمرأة والرجل يخضعون لقوانين نفسية عامة تنطبق وتصدق عليهم جميعا . ولكن هناك قوانين خاصة بكل فئة من فئات الناس . فثمة قوانين نفسية خاصة بالطفولة ، وأخرى خاصة بالمراهقة ، وثالثة خاصة بالشباب ، ورابعة خاصة بالكهولة ، وخامسة خاصة بالشيخوخة بغض النظر عن الجنسية أو الدين أو مستوى التحضر . وقل نفس الشىء بالنسبة لباقى القوانين النفسية الفرعية الخاصة بفئة معينة من فئات الناس .

وما يقال عن علم النفس ينسحب بنفس الدرجة من الصدق بازاء علم الاجتماع وبالنسبة لعلم الانسان (الأنثروبولوجيا) وبالنسبة لباقى العلوم الانسانية . فالعلماء الانسانيون يجتهدون فى الوقوف على القوانين التى تحكم العلاقات الانسانية والقوانين التى تحكم تطور المجتمعات الانسانية عبر العصور أو عبر الحقب الكبيرة من تاريخ تطور البشرية .

وعلينا ألا ننسى أن هناك منهجين يستعين بأحدهما أفراد الفئة الثانية الطافون على سطح الواقع والذين يبحثون عن الحقائق الغائصة تحت سطح

الوقائع والأحداث والعلاقات الظاهرة للعيان . أما المنهج الأول فهو المنهج الاستقرائى الذى يخلص المفكر بواسطته إلى القواعد أو القوانين العامة التى تندرج تحتها جزئيات كثيرة . أما المنهج الثانى فهو المنهج الحدسى ، وبمقتضاه يصل المرء إلى حقيقة الأشياء بغير استعانة بالمنهج الاستقرائى . إنه يقع على حقيقة الشيء بغير مقدمات تصل به إلى النتيجة . ومعنى هذا أن الحدس هو قدرة يختص بها بعض الناس ممن تكون لديهم فطرة سليمة . إنها قدرة على سبر أغوار والأشياء الوصول إلى كنهها بغير مدارسة للخصائص أو بغير تناول الجزئيات بالدراسة أو الفحص .

ونستطيع أن نقول إن كلا من التفكير الاستقرائى والتفكير الحدسى يشكلان المدخل إلى الإلهام . فهناك أشخاص استقرائيون ملهمون ، كما أن هناك أشخاصا حدسيين ملهمين . ولكن من جهة أخرى فاننا نجد أن هناك أشخاصاً استقرائيين وأشخاصا حدسيين غير ملهمين . فالإلهام كما قلنا عطية عفوية لا يتأتى للمرء بالاجتهاد والمثابرة ، بل تواتيه كنتيجة غير ضرورية وغير حتمية لتوافر بعض الشروط النفسية اللازمة لاستقبال الالهام . فسواء كان الشخص استقرائيا يبدأ من الجزئيات أو من الحالات الفردية ومنتهيا إلى القوانين أو الحقائق العامة ، أم كان حدسيا يقف على حقائق الأشياء طفرة واحدة بغير أن يمر فى سلسلة المقدمات ومنتهيا إلى النتائج ، فلا بد له لكى يكون ملهما أن يحظى بجو نفسى وجدانى معين . إنه يجب أن يتمتع باستقلال جهازه النفسى وأن يكون بمنأى عن الذوبان أو حتى عن التعلق الوجدانى بالأشياء التى يتفحصها أو يقوم بالتفكير فيها .

ولعلنا نقرب ما نعنيه بمفهوم الطفو على سطح الواقع بالتفكير فى طريقة فهمنا العادى للأشياء أو إدراكنا البصرى لما يقع عليه بصرنا . إننا لا نستطيع أن ندرك الشيء إدراكا بصريا سليما ودقيقا إذا كان ملامسا لأعيننا . فلا بد لكى يكون الإدراك البصرى سليما أن يكون الشيء المدرك بعيدا نسبيا عن أعيننا . وكلما كنا على نقطه أبعدنسبياً من الأشياء المرئيه، كان نطاق إدراك البصر أوسع نطاقا . فلقد التقطت صور للأرض باعتبارها

كرة أرضية من مركبات الفضاء التي بعدت بعدا شاسعا عنها . ولكن نفس تلك المركبات لم تكن لتستطيع تصوير الأرض باعتبارها كرة أرضية بعد أن اقتربت منها .

كذا نقول نفس الشيء عن الالهام . إنك لا نستطيع أن تحظى بالالهام عن مجال ما من المجالات طالما أنك منهمك فيه وغائص حتى أذنيك فى نطاقه أو مشغولا به كل الانشغال . ولكن إذا أنت ابتعدت عنه نفسيا إلى مسافة نفسية معينة ، فانك قد — ونقول قد — تستقبل إلهامات خاصة بذلك المجال . يقول الشاعر رضا صافى فى رده على استخبار الدكتور / مصطفى سويف كما ورد بكتابه السابق ذكره « إذا ما أردت البدء بالقصيدة انكشفت أمام ناظرى صور حياتى كلها فأنتقل من واحدة لأخرى حتى حتى أبلغ أشدها مساسا بموضوعى فأقف عندها وتشرق ساحتها إشراقا تاما ويتضاءل ما عداها فلا يظهر إلا بمقدار ما يساندها ويتممها كجزء من حياة غير منفصل عن الكل ، فأغرق عندئذ فى الناحية المنيرة وكل عملى أننى أصفها . وكثيرا ما أشعر أن التعبير يقصر عما أحمل ، بل عما أشاهد ، فأكتفى بما يأتينى عن طبع ولا آخذ من المتكلف إلا مالا غنى عنه ولا مفر منه لاستكمال الصورة . وللتذكر والتخيل مكان أساسى فى طريقة نظمى ؛ فكثيرا ما يقترح على نظم أبيات فى حال صادقة من الحزن أو الطرب فلا أستطيع . على أنى لا أعيا بذلك بعد زوال تلك الحال واستعادة ذكراها ، وحياة صورتها فى مخيلتى وأقول حياة صورتها ، لأنى أحسب أن لا بد لى فى إحياء تلك الصورة ، ولكن كل عملى ينحصر فى مشاهدتها من زاوية نفسى الخاصة ووصفها ، كالصور الذى يرى المنظر البديع ، فيكون إبداعه الشخصى فى اختيار الزاوية التى ينظر منها إليه ، وفى اصطفاء أرفع ما فى ذلك المنظر من مظاهر الجمال » .

ويقول الشاعر أحمد رامى فى إجابته على استخبار الدكتور سويف «أنا لا أفهم أن يقال إن القصيدة تبزغ وقت النظم فحسب ، بل على العكس من ذلك إن بعض القصائد تعيش معى فكرتها عدة سنوات قبل أن أنظمها،

وفى الواقع أنه بالنسبة لهذه القصائد التى قضت فكرتها مدة طويلة وهى تختمر فى نفسى ، أقول لك إن هذه اللحظة لا تتدخل فى جوهر الفكرة المختمرة وإنما تتدخل فيما يشبه الهامش . وقد يحدث أحيانا أن تبلغ البداية من التركيز درجة هائلة تمنعنى من أن أكتب أى شىء بعدها . وبذلك يتعذر على أن أكمل القصيدة فتصل عند بدايتها فحسب ... » .

ونستطيع أن نخلص فى الواقع مما عبر عنه هذان الشاعران إلى حقيقة هامة وهى أن الالهام لا يواتى المرء وهو غائص بإدراكه ووجدانه فى قلب الأشياء . فعلى الملهم أن يكون على بعد كاف نفسيا ووجدانيا — وربما مكانا وزمانا أيضا — عن المجال الذى يتأتى له الإلهام بإزائه . ولذا فاننا نجد أن التريض والراحة وتنويع النشاط والبعد نسبيا عن مجال الاهتمام هام لتحقيق الالهام . ولقد كان طه حسين محقا عندما قال فى محاضرة له بالفرنسية ترجمها له إلى العربية فؤاد دواره ونشرت بمجلة عالم الفكر « إن المؤلف بحاجة إلى الوظيفة لأسباب نفسية إلى جانب الأسباب الاقتصادية ، مؤكدا أن الانشغال فى أعمال أخرى غير الفكر ينعش الفكر ويؤججه» . ونحن نرى أن طه حسين على ما نذهب إليه هنا من أن الالهام لا يتأتى للشخص الغائص فى المعلومات أو الأحداث أو الوقائع أو الأشياء أو العلاقات الاجتماعية ، بل يتأتى له وهى مطروحة على بعد منه .

الشعور واللاشعور :

لعل السؤال الذى يدور بالخلد ينشأ حول دور كل من الشعور واللاشعور فى الالهام . ولكى نجيب عن هذا التساؤل فان علينا أن نتدارس الحالات التى يتم خلالها الالهام . إن أصحاب الالهام يقررون أنه يواتيهم فى الغالب وهم فى حالة بينية ، أعنى تلك الحالة التى يكون المرء فيها بين الشعور والوعى التام بما حوله ، وبين اللاشعور حيث يكون غائبا عن الوعى بما يدور حوله . على أننا نقرر أيضا أن البعض يواتيهم الالهام وهم غائصون فى أعماق اللاشعور ، سواء كانوا يغطون فى النوم العميق

أم كانوا ذاهلين فى حالةمن أحلام اليقظة وقد صاروا فى حالة من التخشب شبيهة بالحالة التى كان يمر بها سقراط كل يوم .

ونحن نعتقد أن هناك حياتين أساسيتين يحياهما الانسان : حياته الواقعية المرتبطة بالواقع البيولوجى ، وحياته الروحية المرتبطة بما هو أعلى من الواقع البيولوجى . فثمة خوارق روحية تعتور الانسان أو بتعبير أدق تعتور جميع الناس بدرجات متفاوتة . فجميع الناس كائنات حية من جهة ، وكائنات روحيه من جهة أخرى . ومن الناس من تكون حياتهم الأولى أقوى بكثير من حياتهم الثانية ، فيكونون مرتبطين بالواقع المحسوس بدرجة طاغية . ومن جهة أخرى فهناك أشخاص يرتبطون بحياتهم الروحية بدرجة أقوى من ارتباطهم بحياتهم المحسوسة ، فيكونون شخصيات روحية .

ولقد تجد من بين من يقرأون هذا الكلام من يستنكرون هذا التقسيم ويزعمون أن الانسان لا يعدو أن يكون كائنا حيا ذا وظائف متباينة . وهم فى نفس الوقت ينكرون ما قد يبدو من حالات روحية أو هم يعزونها إلى ما قد يصاب به بعض الأفراد من الناس بالجنون أو بالأمراض النفسية . والواقع أن أسهل وأيسر تفسير أن تعزو كل حالة روحية إلى الجنون . ولعل أخطأ وأخطل تفسير هو تفسير الحالات الروحية التى تمر ببعض الأشخاص بالمرض النفسى أو بالجنون . على أن علم النفس الحديث جدا قد بدأ يعترف — أو هو اعترف بالفعل — بالحالات الروحية الخارقة ، أعنى الحالات التى لا تمر فى الحياة اليومية للأشخاص العاديين ، والتى تبدو كبوارق خاطفة فى بعض لحظات حياتهم ، أو التى تبدو بنسب متفاوتة تفاوتا كبيرا فى حياة فئة من الناس ممن تعتورهم تلك الحالات الروحية .

ونستطيع القول بأن الانسان يلهم خلال اللحظات التى يحيا خلالها حياته الثانية ، أعنى حياته الروحية . ففى أثناء اللحظات التى يرتفع فيها

المرء عن مستواه البيولوجي ، يكون أدعى إلى تلقى الالهامات . ولعلنا لا نخطىء إذا ما قررنا أن معظم الناس يتحاشون أو يتخوفون من الوصول إلى تلك الحالات الروحية خشية الاصابة بالجنون . فهم عندما يستشعرون حالة الاغتراب عن واقعهم اليومى ، يسارعون بتوثيق العرى بالحياة اليومية والانخلاع عن الحالة الروحية . وإنك لتجد الناس من حول المرء يحضونه باستمرار على الاستمساك بالواقعية . إنهم إذا ما لاحظوا أنه يشرد بذهنه بعيدا عن الوقائع المباشرة ، فانهم سرعان ما يتدخلون فى خطه الشعورى ويسترعون انتباهه ويأخذون فى جذبه بعيدا عن تلك المنطقة الخطرة — فى رأيهم — أعنى منطقة الاغتراب والتجرد من الواقع اليومى المباشر . ولسنا نشك فى أن الكثير من الاتهامات الباطلة التى وجهت إلى كثير من العباقرة بالجنون(١) ، إنما كان مبعثها ملاحظة أن العبقرى يعصى ويتشبث بعالمه الخاص البعيد عن الاهتمامات والمشاغل اليومية .

والواقع أن صفوة البشرية تتجه أكثر فأكثر إلى عالم التجريد ، ومن ثم إلى عالم الالهام . فنحن نعلم أن أسس الحضارة وركائزها الأساسية هى أسس وركائز رمزية . فالتفجير النووى كان مجرد معادلة رياضية فيزيائية عند أينشتين قبل أن يتم التفجير بالفعل . ومعنى هذا أن الرمز والمجرد يسبق فى حضارتنا الانسانية الواقع الفعلى المادى . والعمارة الشاهقة والطائرة الضخمة ومركبة الفضاء التى تهبط على الكواكب البعيدة لم تكن جميعاً سوى رموز على الورق ثم أخذ التقنيون فى إحالتها من الحالة الرمزية التجريدية إلى الحالة الواقعية . وكذا فان التخطيط للمعارك الحربية الكبرى أو السياسة التى تخضع لها شعوب بأسرها ، أو التى تؤثر فى مجريات أمور العالم بأسره لم تكن لتزيد فى بداية الأمر عن مجرد رموز منقوشة على الورق ، أو قل إنها كانت أفكارا تعتمل فى أذهان البعض ، ثم تفشت

---

(١) انظر كتاب « العبقرية والجنون » للمؤلف بمكتبة غريب بالفجالة .

بعد ذلك على الورق . أليست الحاسبات الالكترونية التى يناط بها مستقبل الحضارة قد لقمت مجموعة هائلة من الرموز فاختزنتها واستوعبتها وأقامت بينها علاقات دقيقة للغاية ؟

من هنا فاننا نعتقد أن زعماء البشرية يحظون بقدرة إلهامية مؤكدة . على أننا نعتقد أن هناك نوعين من التأثير فى البشرية : نوع سطحى ظاهرى ، ونوع آخر جوهرى يعتمل فى لحم كيان البشرية . وكذا فان هناك مؤثرات ضارة كتلك المؤثرات التى يحدثها الطغاة أو المتعطشون للدماء الذين يتزلفون بالبشرية فى الحروب والدمار . فتأثير هؤلاء لا يمكن أن يكون نتيجة ما ألهموا به ، بل يكون نتيجة لنقائص أخلاقية تعتمل فى صميم شخصياتهم . ولكن إذا نظرت إلى أول إنسان قام باستنبات الزرع فى الأرض ، وأول إنسان تحكم فى الاشتعال ، وكذا أولئك الذين اخترعوا الطباعة والكهرباء وقهر الأمراض بالأمصال وبطرائق العلاج المتباينه ، وأولئك الذين اخترعوا الديناموا ، وكذا أولئك الذين قدموا للبشرية روائع الشعر وروائع الموسيقى وروائع الصور والتماثيل ، فانك تجد أنهم كانوا ملهمين بلا شك .

ولعلنا لا نخطىء إذا ما قررنا أن أولئك الملهمين من زعماء البشرية الايجابيين الذين ألهموا بالنفحات الالهامية التى عرجت بالبشرية فى أنحاء جديدة ، وخطت بها خطوات جديدة تمام الجدة ، إنما كانوا مستغرقين فى أعماقهم . أو قل إنهم كانوا فى حالة لا شعورية أو شبه لا شعورية . وهذه الحالة الأخيرة هى التى تسمى فى بعض الأحيان باسم حالة ما تحت الشعور . فالانسان فى الأوقات التى يكون خلالها مستغرقا أو مشدودا إلى الوقائع الجزئية لا يكون قادرا على سبر الأغوار أو الوقوف على كنه الأشياء . إن انتباهه لا يكون غائصا فى عمق الأشياء ، بل يكون محصورا فى ظاهرها فحسب . على أننا نؤكد — كما سبق أن ذكرنا — أن بعض الناس يكونون فى حالة تحت شعورية وهم فى معمع الحياة الواقعية . فليس كل إنسان منخرط فى ركب الحياة الصاخبة يكون فى حالة وعى كاملة ،

كما أن العكس أيضاً ينسحب عليه نفس الكلام . فليس كل إنسان يجلس وحده فى خلوة ، حتى ولو كان منعزلا وحده فى جبل بعيدا عن الناس يكون فى إنفصال نفسيا عن صخب الحياة . فبعض المنعزلين عن الناس يكونون مشدودين إليهم أكثر من المحيطين بهم . فالمسألة إذن نسبية تماما. المهم هو دخيلة المرء وما يكون عليه من حالة نفسية .

والواقع أن بعض الناس يكونون قريبين دائما من لا شعورهم . فهم يتمكنون من دخول مجال اللاشعور بسهولة ويسر . ولكن هناك أشخاصا آخرين لا يكونون كذلك ، بل يكون ارتباطهم بحالة الشعور مستمرة أو تكاد تكون مستمرة . إنهم حتى فى نومهم لا يكونون بعيدين عن أرضية الواقع . والشخصيات الملهمة هى تلك الشخصيات التى ترتبط بوشائج متينة بحالة اللاشعور . ونذكر بهذه المناسبة الفنان وليم بليك الذى كان فى كثير من الوقت شارد الذهن لدرجة أنه كان يرى أحلاما مرئية وهو يقظان. فكان يرسم الأشباح التى كانت تتراءى له بأم عينيه. فهناك بعض الشخصيات النائمة اليقظانة . أو اليقظانة النائمة . ولكن ليس شرطا أن يكون الشخص الملهم فى حالة من الشرود الذهنى الدائم . إن بعض الملهمين ينخرطون فى الحالة التحت شعورية فى بعض الأوقات ، بينما يكونون فى حالة وعى شعورى تام باقى الوقت .

ومن الشخصيات الملهمة من يتسنى لهم استجلاب الحالةالتحت شعورية بارادتهم ووفق رغباتهم ، بينما هناك شخصيات ملهمة أخرى تخضع الظروف النفسية التى لا تخضع لإمرتهم بل يخضعون هم لإمرتها . ولكن مما لا شك فيه أن الشخص أعرف بحالته . فاذا كان من النوع الأول — وهو النوع الذى كان وليم بليك ينخرط تحته — فانه يستدعى حالته اللاشعورية تبعا لارادته ووفق هواه . أما إذا كان الشخص من النوع الثانى ، فانه ينتظر حتى تواتيه الحالة . ويقال إن وليم بليك فقد قدرته على استدعاء الأشباح التى كان يهفو إلى رسمها ، فترك الأمر لله وظل حزينا لأنه فقد تلك الموهبة . بيد أن فقدانه لها كان فقدانا مؤقتا سرعان

ما استردها وصار بمقدوره بعد ذلك أن يستدعي الحالة اللاشعورية التي كان يرى خلالها أشباحه ، التي يقوم برسمها .

ولكل شخص ملهم طريقته وعاداته النفسية التي يتسنى له من خلالها الانخراط في الحالة اللاشعورية . فبعض الأفراد الملهمين يجلسون بطريقة معينة أو في ركن معين بالحجرة التي دأبوا أن يعملوا بها ، وبعضهم يقع على إلهاماته وهو في أحضان الحقول أو على سفوح الجبال ، وبعضهم يقع على إلهاماته في الزحام أو وهو في قهوة والناس من حوله صاخبون . ويقال إن أحمد رامي كان لا يأتيه الإلهام إلا إذا أمسك بقلم رصاص صغير جداً ومبري بطريقة معينة . فتلك العادات والحالات ترتبط بالقدرة على استجلاب اللاشعور وبالتالي القدرة على تلقي الإلهام .

الانطواء والانبساط :

يشيع في بعض الأذهان مفهوم خاطيء عن الانطواء والانبساط . فيظن خطأ أن الانطواء والانبساط هما موقفان أخلاقيان وليسا موقفين نفسيين - فيقال في كثير من المجالس إن الانطواء رديء ، وأن الانبساط جيد . والخلط في المعاني هو خلط بين مفهوم الانطواء وبين مفهوم الانزواء والسلبية والانسحاب من مجالات النشاط المتباينة ، ثم الخلط أيضا بين مفهوم الانبساط وبين مفهوم الاقبال على مجالات الحياة والمشاركة الايجابية في الأعمال المتباينة وتحمل المسئولية . والواقع أن علم النفس غير علم الأخلاق . وعندما نستخدم لفظي الانطواء والانبساط ، فاننا لا نمدح المنبسط ونذم المنطوي ، بل نقرر حالة نفسية أو طبيعة جبلية لا دخل للمرء في استحداثها . ولا يعني عالم النفس بالانطواء والانبساط التفضيل أو الترجيح لواحدة من الحالتين على الأخرى . وأكثر من هذا فانه لا يعتبر الانطواء مؤشرا إلى المرض النفسي ، كما أنه لا يعتبر الانبساط مؤشرا إلى التمتع بالصحة النفسية .

وكل ما في الأمر أن علم النفس يحاول تقسيم الناس إلى انطوائيين وانبساطيين في ضوء الزاوية المعرفية التي يستخدمها كل من الفريقين في الوقوف على الوجود من حولهم . فالانطوائي يرى الوجود من خلال نفسه، بينما يرى الانبساطي نفسه من خلال الوجود . فالمنظار الذي يرى الانطوائي الوجود من خلاله هو منظار ذاتي . أما المنظار الذي يشاهد به الانبساطي الوجود فهو منظار موضوعي . وأكثر من هذا فان الانبساطي يترجم ذاته من خلال الواقع الخارجي الموضوعي .

ولا يهم في الحكم على الشخص بالانطوائية أو بالانبساطية ما يمكن أن نشاهد في حياته من مناشط اجتماعية . فلقد تجد شخصا يعمل في فريق أو يؤدي أعمالا تستلزم وجود ارتباطات اجتماعية كثيرة ، ولكنك إذا ما قمت بتفحص جهازه النفسي ، فانك قد تنتهي إلى الحكم عليه بأنه شخصية انطوائية . ذلك أنه في مناشطه المتباينة في صخب المجتمع وعلاقاته المتشابكة يرى كل شيء من حوله من خلال ذاته . فقد نقول إن هتلر مثلا كان شخصية انطوائية . ذلك أنه كان يرى الأشياء والأحداث والعلاقات من خلال منظار نفسه ، وليس من منظار الواقع الخارجي نفسه . ولقد نقول إن واحدا مثل باستير كان انبساطيا مع أن نشاطه العلمي كان محصورا في معمله عندما اكتشف اللقاح المضاد للجدوى الذي كان منتشرا في فرنسا لوقته . إنه كان يتناول فكره وعلمه من منظار اجتماعي يتعلق بالمشكلة الصحية التي كانت تواجه مجتمعه وقتئذ . ومعنى هذا في الواقع أن الحكم الظاهري على الناس بالانطوائية أو بالانبساطية كثيرا ما يبعد عن الصواب . ولكن بالتحليل والدراسة المستأنية لكل حالة يمكن أن يصدر الحكم الصحيح على الشخص بأنه انطوائي أو انبساطي حسب تكوينه .

ولقد سبق لنا أن قلنا إن هناك أشخاصاً يتلقون الإلهامات وهم في معمع الحياة وصخبها . ولكن هناك أشخاصاً آخرين يتلقون إلهاماتهم وهم في حالة ذاتية بحتة ، أو بتعبير أدق وهم يترجمون الواقع من خلال منظارهم الذاتي . ولعلنا نحسن صنعا إذا ما قمنا بتمييز الموضوعي من الذاتي . فماذا نقصد بالموضوعية ، وماذا نقصد بالذاتية ؟ إننا نقصد بالموضوعية تقديم

صور دقيقة لا يختلف عليها شخصان من حيث دقة التصوير والوصف . أما الذاتية فهى صبغ ما يوصف أو يقدم بالصبغة الذاتية .

ونحن فى الواقع لا نزعم أن الانطوائيين وحدهم يحظون بالإلهامات ، بل نقرر أن للانطوائيين إلهاماتهم ، كما أن للانبساطيين إلهاماتهم . فالإلهام ليس وقفا على فئة دون أخرى من هاتين الفئتين .

ولنضرب مثالين لشاعرين ملهمين : أحدهما انبساطى موضوعى ، والآخر انطوائى ذاتى . ولنقدم المثالين من كتاب « الأدب العربى المعاصر فى مصر » تأليف الدكتور شوقى ضيف .

أما الشاعر الأول — وهو فى رأينا شاعر إنبساطى —فهو محمود سامى البارودى (١٨٣٨— ١٩٠٤) الذى يقول عنه الدكتور ضيف « ويستطيع القارىء أن يقرن ما قدمناه عن حياة البارودى الخاصة والعامة إلى ديوانيه فسيراها مرسومة فيه رسما دقيقا بكل جزئياتها وتفصيلاتها ، فحياته الأولى قبل الثورة العرابية وما ترتبط بها من نعيم العيش ورغده مصورة أوضح تصوير ، فهو يصف لهوه ومرحه ومتعه ، كما يصف بيئته المصرية وما فيها من مشاهد الطير والأشجار والنبات ، وله فى ذلك طرائف كثيرة . . . ويشترك فى حروب الدولة العثمانية فيصف وقائعها وصفا دقيقا تسعفه مخيلة ماهرة فى التقاط المرئيات ، وعاطفة حماسية ملتهبة » .

أما الشاعر الملهم الآخر — وهو فى رأينا شاعر انطوائى — فهو ابراهيم ناجى (١٨٩٨ — ١٩٥٣) . يقول الدكتور ضيف فى تحليل شعر هذا الشاعر بكتابه المذكور « وعلى هذا النسق فهم ناجى الشعر ، فلم يصور عواطف الناس السياسية والوطنية من حوله ، بل انصرف إلى نفسه يتغنى بحب شقى عاثر ، وهو غناء كله ألم وشجن وارتياب وقلق وهم ، غناء عاشق يخفق دائما فى حبه ، ولا يجد فى نفسه ولا فى يده منه إلا الذكرى الممضة المحرقة ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدتاه « الناى المحترق » و « العودة »

وفيهما يتغنى بذكرياته الحزينة لمعاهد شبابه وما كان له فيها من حب ، ذبل قبل أوانه :... وهذا النغم الذى يزخر بالألم نجده فى كل صفحة من صفحات « وراء الغمام » . فليس فيه تفاؤل وليس فيه فرح بحاضر ولا مستقبل ، إذ لا يبدو فى ظلام حياته خيط من الأمل ، بل هو دائما غارق فى لجج من الشقاء والحرمان . وقد يقف بالطبيعة كما فى قصيدته « خواطر الغروب » ولكنه لا يقف بها منفصلة عما فى نفسه ، بل يستغلها لتصوير ما يختلج فى قلبه من مشاعر الأسى والحزن ... »

على أنه يجب ألا يظن من يقرأ هذا الكلام أن الانطوائى يجب أن يحكم عليه بالتشاؤم والحزن واليأس والأسى على ما فات كما كان حال ناجى فى شعره ، بل إن كل ما يهمنا تقريره هنا هو أن الانطوائى يشاهد الواقع من خلال نفسه ، سواء كان ذلك النظر من خلال النفس إلى الواقع مصطبغا بصبغة تفاؤلية كلها مرح وحبور ، أم كان ذلك النظر من خلال النفس إلى الواقع مصطبغا بصبغة تشاؤمية كلها حزن ويأس .

وينسحب حكمنا بالإلهام فى الانطوانية والانبساطية على جميع مجالات النشاط الإنسانى . فالمخترع يكون فى كثير من الأحيان شخصية انبساطية . فهو يستقرىء العلاقات بين الأشياء ليصل من استقرائه إلى التأكيد على علاقات معينة تفضى به إلى اختراعه الجديد الذى لم يسبقه أحد إليه . وكذا يقال عن المجرب العلمى الذى يقول عنه كلود برنار فى كتابه « مدخل إلى دراسة الطب التجريبى » « ومثل المجرب الذى يجد نفسه أمام الظواهر الطبيعية كمثل الشخص الذى يرقب مناظر صامتة . وكأنه من بعض الوجوه قاضى التحقيق مع الطبيعة . غير أنه لا يواجه أفرادا يحاولون تضليله بالكاذب من الاعترافات والباطل من الشهادات ، بل إن الطبيعة له بمثابة أشخاص يجهل لغتهم وطباعهم ، يعيشون وسط ظروف يجهلها ، ويريد مع ذلك أن يعرف أغراضهم ومراميهم ... » (ترجمة الدكتور يوسف مراد والأستاذ حمد الله سلطان) .

ومعنى هذا في الواقع أن الانبساطي إذا كان مخترعاً أو عالماً فانه يستلهم الوقائع والأحداث والعلاقات الموضوعية . أما بالنسبة للشخص الانطوائي فانه يستلهم ذاته ووجدانه وقد أخذ يترجم الواقع الموضوعي ترجمة ذاتية . بيد أن الانطوائي قد يلجأ إلى طور منطقية مجردة يرى العالم في ضوئها . فواحد مثل ديكارت كان بلا شك شخصية انطوائية . فهو وإن كان قد شارك في بعض المناشط الاجتماعية كالجندية ، فانه كان غارقا في الانطوائية في فلسفته . ذلك أنه يبدأ من صميم ذاتيته لإثبات وجود الله والعالم المادي بعد إثباته لوجوده . فقولته المشهورة « أنا أفكر فأنا موجود » كانت نقطة البداية لديه . فهو يرى أن مفتاح الحقيقة في قبضة فكره الذاتي .

ولقد نستطيع أن نقسم الفلاسفة والمفكرين والأدباء والفنانين إلى فئتين اساسيتين : فئة يكون انتاج أفرادها بمثابة انعكاس للواقع عليهم . فهم بمثابة مرآة تعكس ما يوجه إليها من مرئيات . وهؤلاء هم الانبساطيون . أما إنتاج أفراد الفئة الثانية فهو بمثابة انعكاس ذوات أولئك الأفراد على الواقع الخارجي ، وتقديم ذلك الواقع وقد اصطبغ بالصبغة الذاتية لكل منهم.وهؤلاء هم الانطوائيون . ولا يحول اختلاف هذين الموقفين دون القول بأن الإلهام يمكن أن يشملهما جميعاً . ولكن نوعية الإلهام ومصدره مختلفان في الحالتين . فالإلهام لدى الانبساطيين ذو طبيعة موضوعية ويستمد وجوده من الواقع الموضوعي . أما الإلهام لدى الانطوائيين فانه ذو طبيعة ذاتية وجدانية وعقلية ويستمد مقوماته من وجدان وعقل المرء.

بيد أن هذا لا يعني أن الانبساطي لا يفكر ولا يحس بوجدانه ، كما لا يعني أن الانطوائي لا يتطلع إلى الواقع الخارجي ولا يتأثر به ، بل يعني فقط أن لكل منهما طريقته في النظرة والتفسير : فنقطة البداية لدى كل منهما تختلف عن نقطة البداية لدى الآخر . ويصح لنا أن نذكر بأن الشخص يمكن أن يكون انطوائيا غير ملهم أو انبساطيا غير ملهم . فالإلهام بمثابة

عطية أو منحة أو نفحة لا تتأتى لكل الناس . ولكن هذا لا يحول دون القول بأن الشخصية الملهمة إما أن نكون شخصية إنطوائية وإما أن تكون شخصية إنبساطية . وبالتالى فان من الممكن تصنيف الملهمين إلى هاتين الفئتين الأساسيتين فى ضوء ما اضطلعوا به من أعمال .

البؤرة الالهامية :

نعنى بالبؤرة الالهامية المجال المركز الذى ينصب عليه الإلهام . ذلك أننا نعتقد أن الواحد من الناس يتلقى الالهامات فى أنحاء متباينة أشد التباين ، ولكنه يتلقى إلهامات مركزة فى واحد من المجالات التى يهتم بها . فالشاعر مثلا قد يتلقى الهامات خاصة بعلم ما من العلوم التى ربما يكون قد درسها ، أو يتلقى إلهاما خاصا بتوجيه أبنائه تربويا أو فيما يتعلق بشأن ما من شئون حياته المادية. ولكن ذلك الشاعر يتلقى إلهاما مركزاً فى مجال الشعر . من هنا فاننا أطلقنا على الالهام المركز على الشعر فى حياة مثل هذا الشاعر اسم البؤرة الالهامية . فاذا ما قارنا الإلهامات المتباينة التى يتلقاها هذا الشخص بعضها ببعض ، فاننا نلاحظ أن الإلهام المكثف يكون لديه فى مجال الشعر ، بينما هو يتلقى إلهامات مبعثرة وخفيفة ومتفرقة فى المجالات الأخرى المتباينة التى يتوزع عليها اهتمامه .

وعلينا أن نستعرض الخصائص التى تتصف بها البؤرة الإلهامية . ذلك أننا عندما نستعرض تلك الخصائص ، فاننا نحدد مفهوم البؤرة الإلهامية ، فتصير قوية الملامح ومحددة السمات . وفيما يلى أهم تلك الخصائص :

أولا : إن البؤرة الالهامية تتكون شيئاً فشيئاً ، ولا يولد بها المرء من جهة ، ولا تظهر على سطح الشخصية طفرة من جهة أخرى. والواقع أن الانسان يتقبل الكثير من الالهامات المتفرقة خلال الطفولة والمراهقة ، ثم تأخذ فى التبلور فى مرحلة الشباب . وبعد ذلك وحتى نهاية العمر تظل البؤرة الالهامية ثابتة نسبيا . بيد أنه بالنسبة لبعض الأفراد ، فان البؤرة الالهامية تأخذ فى التفكك والتزايل والذبول فى مرحلة الشيخوخة .

ثانياً : إن البؤرة الإلهامية لا تخضع لإرادة الشخص ، ولا تشتد قوتها نتيجة اجتهاد الشخص أو نتيجة ما يبذله من محاولات . ولكن ثمة شرطاً أساسياً لوجودها هو أن يقوم المرء بتوفير الظروف أو الشروط التي تسمح شرطاً لها بالنشوء ، وبعد ذلك يتم لها الثبوت والتبلور والرسوخ . ومعنى هذا أن الشخص الملهم إذا لم يراع تلك الشروط في حياته ، فان بؤرته الالهامية تهتز أو تذبل . وهذا قد يحدث في أي مرحلة عمرية بما في ذلك مرحلة الشباب ذاتها . فالشاعر الملهم مثلا يمكن أن يستحيل إلى شخص غير ملهم ، وذلك بأن تذبل بؤرته الالهامية نتيجة انشغاله في أشياء أخرى غير الشعر أو نتيجة انصرافه عن قرض الشعر انصرافا تاما لسبب أو آخر .

ثالثاً : إن البؤرة الالهامية تختلف في شدتها وقوتها من شخص لآخر في نفس المجال أو في المجالات المتباينة . فشدة وقوة تركيز البؤرة الالهامية تختلف قوة وشدة من شاعر لآخر من جهة ، ومن أحد الشعراء إلى أحد الفنانين التشكيليين من جهة أخرى . وطبيعي أنه كلما كانت البؤرة الالهامية أكثر تبلورا وقوة ، فانها تكون أكثر فاعلية في حياة الشخص الملهم .

رابعاً : بيد أن شدة فعالية البؤرة الالهامية في حياة المرء لا تسير بطريقة مطردة الشدة مع مدى استثمار الشخص الملهم لما يتلقاه من إلهامات . فلقد يكون أحد الفنانين أكثر قوة وقدرة إلهامية بفضل شدة تماسك وتركيز بؤرته الالهامية ، ولكنه من جهة أخرى قد يكون أقل إنتاجا وأقل إتقانا لما يضطلع به فنان آخر تكون بؤرته الالهامية أضعف منه وأقل كثافة وتركيزا من بؤرته .

خامساً : أخيرا فان البؤرة الالهامية برغم ثباتها في حياة الشخص الواحد نسبيا ، فانها لا تظل بنفس القوة والتركيز طوال الوقت . فثمة من العباقرة الملهمين من تكون بؤرتهم الالهامية متأججة في أعماق الليل أو عند بزوغ الفجر ، بينما لا تكون تلك البؤرة بنفس الشدة والقوة والتركيز

لديهم فى الصباح أو فى منتصف النهار . وبعض الملهمين تتأجج لديهم بؤرتهم الالهامية فى أماكن معينة . فبعض المبدعين الملهمين يحصلون على أحسن بؤرة الهامية وهم فى أحضان الحقول ، بينما بعضهم الآخر لايحصلون على أقوى وأشد بؤرة الهامية إلا وهم جالسون بالقهوة والناس من حولهم يموجون بالحركة ويصخبون بالأصوات العالية أو بالمسامرات ، ويلعبون الطاولة وينقرون على خشبها بالقشاط أو بالزهر .

ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض الحالات التى تذبل فيها البؤرة الالهامية بعد أن تكون قد اكتملت ونضجت . ذلك أن الوقوف على تلك الأسباب يمكن أن يكون درعا لنا يقينا شر ذوبان البؤرة الالهامية إذا كنا من الشخصيات الملهمة .

هناك أولا : ما يعرف بانهيار الشخصية من الداخل . فنحن نعلم أن بناء الشخصية بمثابة هرم تنبنى كل طبقة فيه على الطبقة أو الطبقات السفلى به . وقاعدة الهرم هى الطبقة البيولوجية من الشخصية . ويعلو هذه الطبقة البيولوجية الطبقة الوجدانية ، وفوق الطبقة الوجدانية توجد الطبقة العقلية. وفى قمة الهرم توجد الطبقة الاجتماعية . ونحن نعترف بأن هناك تداخلا فيما بين هذه الطبقات الأربع فى بناء الشخصية . ولكن هذا لا يحول دون وجودها ودون تمايزها بعضها من بعض فى نفس الوقت . فاذا ما تضعضعت الطبقةالبيولوجية من الشخصية بسبب الشيخوخة أوبسبب إصابة المخ بالأورام أو التلف ، فان طبقات هرم الشخصيةالأخرى تهتز أو تسقط. وكما سبق أن قلنا فان الشيخوخة التى تصل إلى مرحلة الهرم قد تكون متواكبة فى نفس الوقت مع ذبول البؤرة الالهامية لدى الشيخ الهرم . وكذا يقال عن حالات الحوادث التى تؤثر على البنية البيولوجية للمرء .

وهناك من جهة ثانية : الأمراض النفسية الوظيفية التى لا صلة لها بالجانب البيولوجى . من ذلك مثلا الوساوس والمخاوف المرضية وحالات الاكتئاب ونحوها . ولكن يجب أن نميز هنا بين الحالات التى تنسب

خطأ إلى الأمراض النفسية الوظيفية لعجز العلم حتى الآن عن الكشف عن العلاقة بين الصحة النفسية وبين الحالات الجسمية البيولوجية لدقة وتعقد كيمياء الجسم وفسيولوجيته ، وبين الحالات النفسية التى لا علاقة لها بالفعل بالمقومات البيولوجية . والمهم أنه بالنسبة للحالات العارضة أو المزمنة من الأعراض النفسية غير المواتية ، فان بؤرة الالهام تهتز أو قل إنها تذبل . ولكن فى بعض حالات الأمراض النفسية فان البؤرة الالهامية تظل قوية ، ولكنها تكون بغير ذات فاعلية لأن المريض نفسيا لا يستثمر ما يتلقاه من الهامات من خلال بؤرته الالهامية .

وهناك من جهة ثالثة . الأحداث الخطيرة فى حياة المرء . من ذلك مثلا أن يصاب الشخص الملهم بأزمة اقتصادية خطيرة أو لدى وفاة أحد أحبائه المقربين جدا إلى قلبه ، أو بسبب موقف حاد فى حياته كأن يسجن أو كأن توجه إليه تهمة خطيرة أو نحو ذلك من أحداث مفاجئة وخطيرة ، وهى الأحداث التى تكون بمثابة صدمة قوية فى حياة المرء . على أننا نلاحظ أن البؤرة الالهامية قد تشتد تركيزا بعد مرور الصدمة بزمن يقصر أو يطول ، ويعود الشخص الملهم إلى حالة أقوى من حالته السابقة. من أمثلة ذلك ما أوتيت به الخنساء الشاعرة العربية عندما مات أخوها صخر فى الحرب . فنحن نزعم أن البؤرة الالهامية لدى هذه الشاعرة قد تأججت بعد موت أخيها بفترة ما .

وهناك من جهة رابعة : تشتت الانتباه أو توزيع الاهتمام على مجالات متباينة . من ذلك مثلا توزيع اهتمام أحد الفنانين بين فنه وبين أحد المشروعات التجارية الذى يستولى على لبه ويصرف وجدانه عن الفن . وهنا ينبغى أن نميز بين الانشغال عن المجال الذى يعشقه الشخص لبعض الوقت كأن يشتغل أحد الشعراء الملهمين بالتدريس ، وبين توزيع الاهتمام والوجدان بين هوايتين . فلقد تكون الوظيفة كمصدر للرزق دافعا إلى بلورة الوجدان وتقوية البؤرة الالهامية لدى الشاعر الموظف . ولكن إذا ما وزع ذلك الشاعر اهتمامه بين الشعر والقصة والفن التشكيلى ، فالأغلب

أن بؤرته الالهامية تضعف نسبياً ، وذلك لتوزعها على هذه المجالات الثلاثة .

وهناك خامساً وأخيرا : حالات التعب والارهاق ، سواء كان التعب والارهاق نتيجة لمواصلة العمل لمدد طويلة مستمرة وبغير انقطاع ، وبغير توافر الفرصة لاسترداد القوة والنشاط ، أم كانا نتيجة لكثرة التحصيل وحدوث تخمة تحصيلية عند المرء . ذلك أننا نعتقد أن هناك تخمة معرفية وثقافية تصيب كثيرا من المثقفين لا تقل فى خطورتها عن التخمة التى تصيب بعض الناس نتيجة تناول كميات كبيرة من الطعام . فالمخ البشرى شأنه شأن المعدة — بحاجة إلى فرصة ووقت كاف لهضم ما تلقاه من معلومات ومعارف . وإنك لتلاحظ أن الكثير من المناهج الدراسية التى يتلقاها التلاميذ والطلاب بالمراحل الدراسية المتباينة تصيبهم بالتخمة المعرفية فينبون عن الاسترادة المعرفية طوال حياتهم بعد ترك المدرسة أو الجامعة لما أصابهم من تخمة معرفية . فهم يصابون بسبب الإرهاق فى التحصيل والامتحانات بما يمكن تسميته بالنهكه المعرفية . فالتعب والارهاق يقشعان البؤرة الالهامية أو يعملان على إضعافها على الأقل .

الفصل الرابع عشر

التلاقح الخبرى والالهام

الخبرات كائنات حية :

إننا نعتقد أن الخبرات كائنات حية بكل ما فى الكلمة من معنى . ونحن نستخدم هنا لفظ « خبرة » ولا نستخدم لفظ « فكرة » . ذلك أننا نعنى بالخبرة ثلاثة أشياء أساسية هى أولا — الأفكار ، ثانيا — العواطف ، ثالثا — المهارات اليدوية والاجتماعية . فكلمة « خبرة » إذن كلمة شاملة لهذه النوعيات الثلاث التى تمتلكها الشخصية. وتلاحظ أيضاأننا أطلقنا لفظ «مهارة» على المهارة اليدوية من جهة ، وعلى المهارة الاجتماعية من جهة أخرى . فالكتابة على الآلة الكاتبة مهارة يدوية ، أما القدرة على قيادة مجموعة من الشباب فى حفل أو فى درس فانها مهارة اجتماعية .

وإذا نحن قارنا بين الخبرات من جهة ، وبين الكائنات الحية من جهة أخرى ، فاننا سوف نجد أن ما يقال عن الكائنات الحية ينسحب بنفس الصدق بازاء الخبرات . فهناك أولا ميلاد الخبرات . فالخبرة لا تضاف إضافة إلى المرء ، بل هى تولد لديه . وقبل الميلاد تمر الخبرة فى المرحلة الجنينية حيث تبدأ بازغة فى ذهن المرء فترة من الزمن تنمو خلالها إلى أن يقيض لها أن تولد . وبعد الميلاد تظل الخبرات فى حالة من النمو وكأنها تمر بمراحل نمو متتالية تصل إلى أوجها كما تصل الكائنات الحية إلى الشباب أو ما يشبه الشباب ، ثم تأخذ فى الضعف والذبول وتنتهى إلى الموت .

ولا يقتصر الأمر بالنسبة للخبرات على الحياة والموت ، ذلك أنهاتتزاوج أيضا فيما بينها . وبعد أن يتم التلاقح بين الخبرات ، فان ثمار ذلك التلاقح

تيلو ، وذلك بأن تنجب الخبرات المتلاقحة ذرية جديدة شبيهة بالذرية التى تنتجها الكائنات الحية بعد أن يتم التلاقح فيما بين أفرادها .

فالتكاثر فى مملكة الخبرات البشرية لا يتم بالاضافة من الخارج إلى الداخل كما قد يظن البعض ، بل يتم بالطريقين معا. فثمة وارد من الخارج إلى الداخل بالكسب التحصيلى من موارد الثقافة المتباينة من جهة ، وثمة أيضا تزاوج وتناسل يتمان فيما بين الخبرات التى استوعبها المرء من جهة ثانية . وينجم عن التكاثر الخبرى بهذين الطريقين انتعاش ثقافى لدى المرء . وهناك أيضا تزاوج خبرى واستيراد خبرات من الخارج يتمان فى نطاق المجموعة من الناس. فالشعب الواحد أو القبيلة الواحدة أو الأسرة الواحدة تتذرعان بهذين الطريقين فى سبيل الازدهار الخبرى . فثمة استيراد للخبرات الجديدة من خارج نطاق المجموعة الواحدة من جهة ، وثمة تزاوج الخبرات الفردية وتلاقحها حيث يتم ذلك التلاقح ثم التناسل بين خبرات أفراد تلك المجموعة من جهة أخرى . وبذا يتم الانتعاش الخبرى أو الثقافى فى نطاق المجموعة الواحدة من المجموعات البشرية بفضل انتهاج هذين السبيلين من التكثر الخبرى الثقافى .

بيد أنه لا يجوز لنا القول بأن جميع الخبرات التى يتلقاها الفرد من الناس ، أو التى تتلقاها المجموعة من الأفراد قابلة للتزاوج فيما بينها . فثمة خبرات تتنافر بعضها من بعض ، كما أن هناك خبرات تتخذ موقف اللامبالاة من بعضها البعض ، وثمة أخيرا تلك الخبرات التى تميل بعضها لبعض وتنجذب بعضها إلى بعض ، وهى الخبرات التى يتم بينها التلاقح والتى تصلح للتكثر والانجاب . وعلينا أن نقرر أن الفرد من الناس ، وأن المجموعة من المجموعات البشرية لا يستطيعان بإرادتهما إحداث التجاذب فيما بين الخبرات التى تم لهما إحرازها . فثمة إرادة مستقلة للخبرات البشرية . فهى ترضى أو تأبى ، وهى تقبل أو تدبر ، وهى تتعانق وتتلاقح ، أو تتشاحن وتتنافر أو تتباعد وتتأى بعضها عن بعض . وكل ما يستطيع الفرد عمله ، وكل ما تستطيع المجموعة أن تضطلع به هو توفير المناخ المناسب لاحداث التلاقح الخبرى

فيما بين المقومات الخبرية الموجودة بالفعل فى نطاقهما . فتوفير المناخ لايعنى القسر والاجبار ، بل يعنى الترغيب وإشاعة الطمأنينة بين الخبرات حتى تأنس بعضها إلى بعض . على أن كثرة التدخل فى العلاقات الخبرية أوكثرة الضغط عليها والالحاف على تلاقحها ، إنما يؤدى — على عكس المتوقع — إلى التباعد والتنافر فيما بينها . فتوفير الجو المناسب للتلاقح لا يكونبكثرة التدخل فى شئونها والالحاح عليها ، بل يكون بمجرد إشاعة الطمأنينة لها وتوفير الوقت والمكان المناسب لتواجدها . ولعل التراحم فيما بين الخبرات ينتهى إلى التصارع والتنافر فيما بينها . ومعنى هذا أن على المرء — وأيضا على المجموعة — أن يحقق التوازنبين ما يستقبلهمن الخارج من خبرات جديدة ، وبين ما يتم انجابه فى دخيلته من أنسال جديدة . ذلك أن استيراد خبرات كثيرة من الخارج قد يعمل على نقص الإنجاب الداخلى أو قد يؤدى إلى قتل وإفناء الأنسال الجديدة .

ويصح لناأن نتناول فيما يلى الأنواع الثلاثة من الخبرات : أعنى الأفكار والعواطف والمهارات اليدوية والاجتماعية حتى نتحققمن انطباق ما قررناه هنا بازائها . على أننا عندما نتناول كل نوعية من هذه النوعيات الثلاث فى انفصال منهجى ، فان هذا لا يعنى فى الواقع أنها منفصلة بعضها عن بعض ، ولا يعنى أيضا أنها لا تتزاوج بعضها مع بعض . فثمة فى الحقيقة تزاوج يتمفيما بين الأفكار والعواطف من جهة ، وفيما بينالأفكاروالمهارات اليدوية والاجتماعية من جهة ثانية ، وفيما بين العواطف والمهارات اليدوية والاجتماعية من جهة ثالثة . ولكنلتيسيط العرض علينا بالاقتصار علىتناول كل نوعية من النوعيات الثلاثةعلى حدة لمشاهدة ما يتم فى نطاقها من علاقات وتطورات متباينة .

فبالنسبة للأفكار ، فاننا نجد أن الأفكار التى يحصل عليها المرء أو المجموعة ،إما أن تكونأفكاراً مستوردة منخارج النطاق ، وإما أنتكون قد أنجبت فى دخيلة المرء أو فى دخيله المجموعة عن طريق تزاوج الأفكار

بعضها مع بعض فانجبت تلك الأفكار الجديدة . ومن المؤكد أنه لولا مايتم انجابه من أفكار جديدة نتيجة التلاقح فيما بين الأفكار ، لكانت البشرية قد قد تقلصت فكريا فى حدود ثابتة لا تتخطاها ، ولما كانت العلوم والفلسفات والتكنولوجيات والمخترعات قد بزغت إلى الوجود . فثمة نمو من الداخل فكريا ، كما أن هناك نموا يتم تحقيقه بفضل الاستيراد الخارجى للأفكار من المخزون الفكرى ببطون الكتب أو من صدور الناس .

والأفكار التى تتوالد فى نطاق المرء أو فى نطاق المجموعة تمر بالمرحلة الجنينية ثم تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت .ولولا الاستيراد الخارجى من جهة، والتناسل الداخلى بفكر المرء وبفكر المجموعة من جهة أخرى ، لكانت العقول قد خوت ، وذلك بعد أن تموت الأفكار التى عاشت فى إطارها ثم شاخت واندثرت . وكما أن الأفراد قد يتنابذون ويتعاركون فيما بينهم ، فان الأفكار أيضا قد تتنابذ وتتعارك فيما بينها .

وكذا يقال عن العواطف البشرية . ولقد سبق أن قرر فرويد أن العواطف تتزاوج فيما بينها بحيث ينتج ما يسمى بالعقد النفسية . ومعنى هذا أن فرويد قد قصر مفهوم تزاوج العواطف على نطاق العواطف الرديئة . ولكننا نتوسع بهذا المفهوم ، فنجعل هناك نوعين من تزاوج العواطف : تزاوج فيما بين العواطف الجيدة ، وتزاوج آخر فيما بين العواطف الرديئة. والنوع الأول من تزاوج العواطف ينجب عواطف جديدة تخصب الحياة الروحية والأخلاقية لدى المرء ولدى الجماعة . صحيح أن التزاوج فيما بين العواطف الرديئة ينجب أنسالا أكثر عدداً وأقوى شكيمة لدى الأفراد والجماعات . ولكن هذا لا يحول دون القول بوجود تلاقح فيما بين العواطف النبيلة أيضا . ولولا وجود مثل هذا التزاوج فيما بين العواطف النبيلة . لما نشأت الدعوات إلى الرحمة بالطفولة والمعوقين والشيوخ . ولما نشأت الدعوات إلى تحرير العبيد والاماء ومساواة المرأة بالرجل ، والنظر بانسانية وتعاطف إلى المطحونين من الضعفاء فى الورش والمصانع فى معمع الثورة الصناعية بانجلترا ، ولما وجدنا الحركات الإنسانية إلى التعاطف والرحمة .

أما بالنسبة للمهارات اليدوية والاجتماعية فان من الضروري أولا التعريف بمعنى المهارة . انها عبارة عن ارتباطات عصبية يتم تكونها واشتدادترابطها بالجهاز العصبي . ولدى تكون تلك الارتباطات العصبية ، تتشكل العادة الحركية أو النفسية أو طريقة تناول العلاقات الاجتماعية بالتشكيل والتعديل والتكييف . فالمهارة اليدويةوالاجتماعيةبمثابة عادة مركبةيتم بمقتضاها ممارسة نوع من النشاط الأدائي أو الاجتماعي بطريقة شبه لاشعورية .

والواقع أن المهارات اليدوية والاجتماعية لا تتشكل بمجرد الممارسة المتكررة ، بل يجب أن تتوافر الشروط العصبية اللازمة لتشكيل المهارة . فبغير توافر تلك الشروط العصبية ، فان التكرار الأدائي لا يجدى بحال . وثمة تزاوج وانجاب يتم في نطاق المهارات . وشاهد ذلك ما يمكن أن تلاحظهلدى لاعبي السرك أو لدىبعض الموهوبين في إقامةعلاقاتإجتماعية زعامية بين الأفراد . انهم لا يقتصرون على ما تم لهم كسبه من مهارات أدائية واجتماعية ، بل هم يمتلون بما اكتسبوه بفضل ما يتم بلخاتلهم من تلاقحخبري فيمابين تلك المهارات الأدائية والاجتماعيةالتي اكتسبوها وتمكنوا منها . وينطبق على المهارات كل ما سبق ذكره بازاء الأفكار والعواطف :

التهجين الخبرى :

التهجين هو تزاوج يتم بين فردين من فصيلتين متباينتين يقعان في نفس النوع . مثال ذلك ما يتم من تهجين ملكات النحل المسمي بالكرنيولي بذكور النحل المصرى . ومن المعروف أن النحل الكرنيولي — وهو نحل يوغسلافي — وفير الانتاج ، وهادىء الطبع ، وشمعه أبيض . ولكن عيبه أنه يميل للتطريد ، أي أنه يطرد بعضه بعضاً من الخلية . أما النحل المصرى فهو سريع الحركة وماهر في جمع الرحيق وكثير الانتاج . ولكن عيبه أنه شرس . وبالتهجين بين هاتين الفصيلتين من النحل تخرج سلالات جيدة تجمع بين الهدوء وبين الانتاج الوفير وعدم التطريد . وبتعبير آخر فان التهجين يؤدى إلى الحفاظ على الصفات الجيدة في الفصيلتين المهجنتين كما أنه يستبعد الصفات الرديئة فيهما .

وثمة تهجين للخبرات مشابه لما يحدث فى عالم الكائنات الحية النباتية والحيوانية . والتهجين الخبرى معناه تلاقح الأفكار المتباعدة بعضها عن بعض لأنها تقع فى مجالات معرفية متباينة قليلا أو كثيراً . وكذا يقال بالنسبة للتهجين العاطفى . فنحن نقصد بالتهجين العاطفى تزاوج فصيلتين متباعدتين من العواطف وإنجاب نوعية جديدة من العواطف المتولدة نتيجة التهجين . وكذا يقال عن التهجين المهارى حيث يتم التهجين بين فصيلتين متباعدتين من المهارات الأدائية والاجتماعية مما يسفر عن توالد نوعية جديدة من المهارات .

ومن المعروف أن الكائنات الحية المهجنة ، تكون أكثر قدرة على البقاء وأكثر حيوية وأبقى سلالة من النوعين أو السلالتين اللتين تم التهجين بينهما . وكذا يقال عن الخبرات المهجنة. إنها تكون أكثر حيوية وأكثر جدة وأكثر خصوبة . ولسنا نشك فى أن الشخصية التى تعمد إلى التهجين الخبرى تكون أكثر قابلية لتلقى الالهامات عما يمكن أن تتمتع به الشخصية التى لا تمارس التهجين الخبرى .

ويحسن بنا أن نعرض للعلاقة بين التهجين الخبرى وبين القابلية لتلقى الإلهام . إننا نجد أولا — أن الشخصية التى تمارس التهجين الخبرى بأنواعه المتباينة تكون قابلة للتفتح على قارات جديدة من المعرفة أو من العواطف أو من الممارسات المتباينة . فالتهجين الخبرى يجعل قابلية الحصول على آفاق جديدة فى المجالات المتباينة أمراً ممكنا ومتاحا . وعلى العكس من هذا فان الشخصية التى لا تحظى بالتهجين الخبرى تتسم بالانغلاقية وبالإستاتيكية الخبرية . وبتعبير آخر فان صاحب الخبرات المهجنة يكون متشوقا إلى الجديد . وهنا يأتى دور الالهام فى حياة مثل هذا الشخص . فهو يكون قد هيأ الأرض الخصبة لديه لتلقى الالهامات المتباينة المتعلقة بالمجالات التى تم فيها التهجين الخبرى .

أما العلاقة الثانية بين التهجين الخبرى وبين القابلية لتلقى الالهامات فهى علاقة الحرية . ذلك أن الخطوط التى ترسمها الخبرات الأصلية

— سواء كانت أفكارا أم عواطف أم مهارات — تكون مرسومة ومحددة وبالتالى فانها تكون مقيدة بقيود لا سبيل إلى الانفكاك منها . والقيود التى نقصدها هى قيود فى الطريقة من جهة ، وفى المضمون الخبرى من جهة أخرى . فاذا ما تم التهجين الخبرى ، فانّ تلك القيود التى ترسف فيها الخبرات تتهاوى وتتفكك بفضل التهجين . ذلك أن الطريقة والمضمون الخبريين يتجددان تجددا تاماً بعد وقوع التهجين . ولكأن التهجين يخلق كيانات جديدة كل الجدة جديرة بأن تتناول من جديد بطريقة جديدة تماماً. وهنا يتدخل الإلهام لإلباس الخلائق الجديدة الناجمة عن التهجين أثوابا جديدة تكتسى بها ، كما يتدخل لتغذية تلك الخلائق الجديدة بأغذية جديدة مناسبة لقوامها . فبالتهجين الخبرى تظهر مقومات خبرية جديدة . ولكن كيف تساق تلك الخبرات الجديدة ، وفى أى الأنحاء تتجه ، وبأى مقومات تمتد وتنمو وتتطور ؟ إن هذا هو الدور الذى يضطلع به الألهام . فالإلهام يتناول الكينونات الجديدة التى تأتت عن التهجين ويأخذ فى صبها فى قوالب جديدة ويلبسها صياغات مبتكرة ، كما يقوم بتغذيتها والتقدم بها أشواطا جديدة إلى الإمام .

أما العلاقة الثالثة التى تقوم بين التهجين الخبرى وبين الإلهام فهى علاقة التوظيف الجديد لتلك الخلائق الجديدة التى تتأتى عن التهجين . فالإلهام وظيفته تطبيقية فى مجالات جديدة لم تكن ميسرة للسلالتين الأصليتين من الخبرات التى وقع التهجين فيما بينها .. فإحالة المواليد الخبرية الجديدة إلى أعضاء حية ذات وظائف متجددة ، إنما هى من المهام الأساسية والعظيمة التى تتأتى للإلهام . فبغير الالهام لضربت الخلائق الجديدة المهجنة إذن فى نفس الطرق القديمة التى كانت تسلكها السلالات القديمة . ولنضرب مثالا بخبرة مهجنة تأتت للانسانية نتيجة العلاقات التهجينية بين مجموعة من العلوم منها العلوم الرياضية والعلوم الميكانيكية والعلوم الفلكية وغيرها من علوم . فتأتى عن هذا التهجين الخبرى ما يعرف بعلوم الأقمار الصناعية

وعلوم الفضاء بما تتضمنه من مركبات فضاء ومن نزول على الكواكب الأخرى وغير ذلك من العديد من العلوم المتباينة التى تتفتح شيئاً فشيئاً عن التهجين الخبرى بين المقومات المعرفيةوالعواطف الانسانية وما يعتمل بالقلوب من رغبة وشوق إلى سبر المجهول والمهارات اليدوية والاجتماعية كما يبدو فيما بين راكبي الفضاء من علاقات ومهارات اجتماعية ونحوها .

ولسنا نشك فى أن ما يلهم به المشتغلون بعلوم الفضاء من حيث توظيف الكائنات الخبرية الجديدة لمن أهم ما يضطلع به الالهام فى هذا المجال . خذ مثالا واحدا لذلك ما عرف حديثا بطب الفضاء . فثمة فرع جديد من فروع الطب التى ألهم بها الانسان بعد بزوغ علوم الفضاء نتيجة ما قد يحتاج إليه إنسان عصر الفضاء من طب جديد فى ضوء ما سوف يتعرض له من إصابات فضائية كالاصابات بالأشعة الكونية ونحوها ، أو ما قد يتعرض له من أمراض نفسية نتيجة خروجه من الجاذبية الأرضية وانفصاله عن أمه الأرض لمدد تقصر أو تطول .

أما العلاقة الرابعة التى تقوم بين التهجين الخبرى وبين الالهام فهى علاقة أخلاقية . فبعد حدوث التهجين الخبرى يجد المرء نفسه بازاء نوعيات جديدة من السلوك ، أو قل يجد نفسه بازاء بعض المشكلات الأخلاقية التى لم تكن لتتأتى له قبل التهجين الخبرى . ولنأخذ مثالا لذلك بعد وقوع التهجين الخبرى بين علم كيمياء الجسم وبين علم النفس . فلقد خرجت نتيجة هذا التهجين معرفة جديدة عن الانسان هى العلاج النفسى بالمواد الكيميائية والصدمات الكهربية . ولقد نجم عن المعرفة الجديدة مشكلات أخلاقيه وتساؤلات سلوكية متعلقة بقيم الانسان . من ذلك مثلا التساؤل عن الآثار السلوكية التى يمكن أن تترتب على التهجين الجديد . فهل يجوز أن نعمد إلى تغيير مزاج الشخص مثلا ؟ وهل يجوز لنا فى المستقبل أن نتدخل فى الجينات التى تحملها الكروموزمات فنتغير بذلك الطبيعة السلوكية للمرء ؟ وبتعبير آخر هل يقبل علماء الدين وعلماء الأخلاق أن يعالج الناس

منذ بواكير حياتهم بالكيمياء فنحصل على شخصيات ذات مواصفات أخلاقية محددة بلا اعتماد على الوعظ والارشاد والتوجيه الأخلاقى ؟

لا شك أن مثل هذا التهجين يفضى إلى نشوء مشكلات أخلاقية . ولنذكر ما حدث بعد ماتم من تهجين بين مطلب أو حاجة اجتماعية هى الحد من زيادة السكان والتصدى للإنفجار السكانى وبين علم وظائف الأعضاء. لقد نجم عن هذا التهجين وسائل منع الحمل . ولكن نشأت نتيجة ذلك مشكلات أخلاقية واجتماعية بعيدة المدى . لقد كان الكثير من أفراد الجنس اللطيف فى خشية من الانحراف جنسيا تجنبا للحمل غير الشرعى . ولكن بعد شيوع الطمأنينة من عدم حدوث نتائج محسوسة نتيجة الاتصال الجنسى غير المشروع ، فان وسائل منع الحمل قد شجعت بطريق غير مباشر على انتشار الرذيلة فى بعض المجتمعات . وما يقال عن وسائل منع الحمل ، ينسحب أيضاً بازاء الأمراض التناسلية التى كانت تعتبر من ظواهر النقمة الآلهية تقع على المنحرف جنسيا . فكان البعض يتساءلون عن مدى جواز الكشف عن وسائل طبية لعلاج الزهرى والسيلان وغيرهما من أمراض تناسلية ؟

ولعلنا نؤكد فى نهاية المطاف أن الالهام لا يجد له مكانا فى الوقت الحالى فى المجال العلمى إلا بازاء الحالات التى يتم فيها التهجين الخبرى ؛ ويصح أن نشير إلى واقع نهضتنا الأدبية التى قامت نتيجة التهجين الخبرى بين ثقافات متباينة . فثمة تهجين خبرى عند البارودى بين العلوم العسكرية وبين الأدب . وهناك تهجين خبرى عند طه حسين بين الفلسفة والأدب . وهناك تهجين خبرى عند الدكتور حسين فوزى والدكتور يوسف إدريس وغيرهما من أطباء أدباء بين العلوم الطبية وبين العلوم الانسانية . وقس على هذا بالنسبة للعديد من المبرزين فى عالم الفكر والأدب فى مصر والخارج على السواء .

رعاية المواليد الذهنية الجديده :

لا يكفى أن تتولد لديك أفكار جديدة كمواليد تنجبها الأفكار والعواطف والمهارات التى يتم التزاوج فيما بينها بعضها وبعض ، بل يجب أن تلقى

الأجيال الخبرية الجديدة التى تتأتى لك نتيجة ما أسميناه بالتلاقح الخبرى ، والذى استعرضناه قبلا ، ما تستحقه من عناية ورعاية . ولعلنا نزعم بحق أن الكثير من الناس يصلون إلى مرحلة الإنجاب أو التكثر الخبرى ، ولكن ما تفتأ تلك المواليد الجديدة أن تذبل وتموت . ذلك أنهم لايقومون برعايتها والنهوض بأعبائها وتوجيهها الوجهة الصحيحة . فنحن نزعم أن رعاية وتربية المواليد الخبرية الجديدة بحاجة إلى مهارة وتبصر بما يجب اتباعه من أصول فى رعاية وتربية الأنسال الخبرية الجديدة .

والواقع أن المواليد الجديدة التى تتأتى نتيجة التلاقح الخبرى تكون غضة وسريعة الذبول بحيث تنتهى بسرعة إلى الموت إذا لم تعالج بعناية ، وإذا لم يقم المرء بتدبير أمرها بحصافة ومهارة كبيرتين . ولقد نقول إن المواليد الذهنية الجديدة بحاجة إلى حضانات تشبه الحضانات التى تخصص للكائنات الغضة القابلة للهلاك بسرعة إذا ما تعرضت للعوامل الجوية العادية التى يمكن أن تتعرض لها المواليد القوية بغير أن يحدث لها أى ضرر . ولكن ماذا عسى أن تكون عليه تلك الحضانات الخبرية التى نقصد إلى التعرض لها هنا ؟ الجدير بنا بادىء ذى بدء أن نحاول تقديم تعريف للحضانة الخبرية قبل التعرض لوسائل استخدامها . فنحن نقصد بالحضانة الخبرية الوسيلة أو الأداة التى يستعين بها المرء لحماية المواليد الجديدة الغضة من التعرض للأخطار أو للهلاك . وتتمثل هذه الوسيلة الوقائية فى البعد بها عن الضوء وعدم تعريضها للأنظار أو للهجوم أو للنقد . فالحضانة الخبرية تبعد بالمولود الخبرى الجديد عن التناول بخشونة . ذلك أن مجرد لمسه أو النظر إليه أو حتى ذكره من قريب أو من بعيد قد يعرضه للهلاك.

ونحن نلاحظ من الخبرة اليومية فى حياتنا الشخصية أننا عندما نعرض تمواليدنا الخبرية الغضة أمام الآخرين ، فانها سرعان ما تهلك أو تذبل أو تعوج أو تفقد أصالتها أو تتوقف عن النمو . فاذا ما سارع الشاعر إلى عرض المولود الجديد الذى بزغ لتوه فى ذهنه أمام الأصدقاء أو الأعداء، فان ذلك المولود الجديد يبدأ فى الضمور أو حتى لقد يتعرض للموت السريع .

فالمولود الجديد فى الذهن بحاجة إلى فترة حضانة واحتضان وإبعاد بين الآخرين . وأكثر من هذا فانه يكون بحاجة إلى الإخفاء والإبعاد تماما عن الأنظار حتى يشتد عوده ، وحتى يتمكن من الدفاع عن نفسه والوقوف بصمود أمام معاول النقد والتهديد .

فكم من شخص عبقرى نشأت فى ذهنه مواليد جديدة فسارع بتعريضها للضوء والتعبير عنها فخفتت ثم ذبلت ثم ماتت ، ولم يقيض لها أن تظهر على مسرح الحياة . ولكن العباقرة الذين وفروا للمواليد الذهنية حضانات تقيهم شر التعرض للخطر ، وقد ظلوا يقومون برعايتها بعيداً عن الأنظار فانهم استطاعوا أن يقدموها بعد أن كبرت وترعرعت أمام الملأ بغير خشية عليها . وإنك لتلاحظ ظاهرة استخدام الحضانات الخبرية فى حياة كثير من الأدباء والفلاسفة والفنانين . ولعلنا نكتفى بأن نقدم فيما يلى مثالين لكى نوضح ونبرهن على ما نزعمه هنا من استخدام العبقرى للحضانات الخبرية .

ولنبدأ بديكارت الفيلسوف . يقول ديكارت — كما رد بكتاب الدكتور عثمان أمين بعنوان « ديكارت » — « كنت حينئذ فى ألمانيا عندما استدعتنى الحروب التى لم تنته فيها بعد ، ولما كنت فى عودتى من الاحتفال بتتويج الامبراطور ، ألجأنى بدء الشتاء إلى قرية لم أجد فيها شيئاً من السمر . ولم يكن لدى لحسن الحظ ما يشغلنى من هموم أو أهواء ، فكنت أحبس نفسى طول اليوم وحدى فى حجرة دافئة حيث كنت أفرغ الفراغ كله لحديث نفسى وتصريف خواطر فكرى » .

ويقول الدكتور عثمان أمين « والواقع أن ديكارت كان حريصا جدا على أن يعيش آمنا مطمئنا ، وعلى أن يتجنب جميع أسباب الخوف والقلق وكان يشعر بحاجته إلى ذلك الهدوء النفسى المطلق الذى لا يسمع فيه إلا صوت الفلسفة ، والذى يكون فيه بمعزل عن جميع المضايقات من قبل الحكام أو رجال الدين . والحق أن رجلا كان دأبه أن يتخفى عن جيرانه لكى يفكر ، حتى جعل شعار حياته كلمة أبيقور « السعيد من عاش

متخفياً » لم يكن بمقدوره أن يضحي براحة باله وهدوء نفسه كي ينصر « جاليليو » على الكنيسة . ومن أجل هذا أراد « ديكارت » أن يقنع بحظه من الدرس والبحث الحر لنفسه ، دون أن يتكبد المشقة فى إذاعة آرائه على الناس » .

أما المثال الثانى فهو مستقى من كتاب الدكتور مصطفى سويف السابق الاقتباس منه ، وهو من حياة الشاعر محمد مجذوب وتعبيراً بقلمه عن خبرته الشعرية . يقول الشاعر « أول قصيدة لى هى تأوهات نظمتها قبل بضعة أيام ، وموضوعها كما يدل عنوانها وجدانى صرف ، قصدت به إلى التعبير عن أهم الخطوات التى تستغرق نفسى فى حياة مشحونة بالكبرياء والألم والحرمان . وهى خطرات قديمة أحسها كل يوم وتكاد تغلب على كل ما أنظم من الشعر منذ أكثر من خمسة عشر عاما . فهى إذن لم تنبثق بصورة مفاجئة وقت التأليف ، بل تمخضت بها النفس طويلا ، فكانت مضغة ثم علقة ثم جنينا ، حتى إذا جاء ميقات وضعها كانت مخلوقا سويا . وأريد بهذا التعبير أن موضوع القصيدة لم يأت ارتجالا ، وإنما عاش قبل التأليف حياة متطورة منفعلة بمختلف المؤثرات النفسية التى تتصل به من قريب أو بعيد ، ولا شك أن بدء هذه الخطرات لم يكن مساويا لشكلها الأخير ، بل كان للحوادث والانفعال بها أثره الكبير فى انضاجها والصيرورة بها إلى هذه النهاية . ولزيادة الايضاح أقول : إن عملية التطور والتغير فى حياة هذا الوليد كانت خارجة عن متناول إرادتى تماما . وكل ما أذكره هو أننى كنت أشعر بوجود هذا الجنين يمضى فى تكونه على طى النفس ويزداد شعورى به كلما صدمنى من وقائع الحياة ما يبعث على التأثر وإن كنت لا اذكر أننى توقعت أو صممت أثناء ذلك على ضرورة أن أضع هذا المولود بعينه يوما ما » .

ويتضح من هذين المثالين — ديكارت الفيلسوف ومحمد مجذوب الشاعر — ما عمد كل منهما شعوريا أو لا شعوريا إليه من احتضان المولود الذهنى

الجديد الذى انبثق فى عقل كل منهما . ففلسفة ديكارت لم تكن منقولة من الخارج ، ولم تكن تأثراً بغيره . فالواقع أن ديكارت كما يقول الدكتور عثمان أمين « يقول بمنهج حى ، هو أشبه بتجربة شخصية ... والمنهج الحق عند ديكارت هو ذلك الذى ألفته النفوس . ومارسه الناس ممارسة تجعله قواما لأذواقهم وعقلياتهم ، لا حفظ ألفاظ وحشو الذاكرة بمعلومات قد تظل دهرا من غير استعمال . فكم حفظنا من المعانى ، وكم قرأنا فى الكتب من أفكار غامضة مبهمة لا تصلح للحياة ولا تنفع فى شىء . إننا لم نخلق فى هذه الدنيا للدرس فحسب . وليس المهم فى الحياة أن نعرف كل شىء ، ولا أن نعرف موضوعا خاصا من الموضوعات التى توفرنا على درسها ، وإنما المهم أن يكون بمقدورنا أن نتعلم فى سهولة ما نكون محتاجين إليه ، أو ميالين إلى الوقوف عليه ... »

فديكارت كان يفكر من ذات خبرته الشخصية ، أو وفق ما ذهبنا إليه كان يؤمن بالتهجين الخبرى وبأن الخبرات كائنات عقلية ووجدانية حية لها استقلالها وكيانانها القائمة بذاتها . ولقد أوضح الشاعر محمد مجذوب مااعتمل فى قوامه الداخلى أفضل توضيح .

أما عن كيفية استخدام الحضانات الخبرية فى حياة المرء لكى يحافظ بها على المواليد الجديدة التى نشأت عن التهجين الخبرى ، فانها تتلخص فيما يلى: أولا — يجب عدم الضغط على تلك المواليد الجديدة لحثها على النمو والتطور . فالواقع أن استعجال نمو تلك المواليد الغضة على أن تكبر ، إنما يعمل على تعريضها للهلاك أو على التوقف عن النمو فتصير كائنات ممسوخة شائهة . ثانيا — توفير فرص الراحة الذهنية وعدم حشو الذهن بالمعلومات التى تخنق الكائنات الجديدة التى تتحسس طريقها نحو النمو والتطور واليفوع . ذلك أن بعض مايجهد المرء نفسه فيه بالدراسة يمكن أن يعطل التأمل وبالتالى يمكن أن يعمل على خنق المواليد الجديدة . والواقع أن المواليد الذهنية الجديدة بحاجة إلى رعاية نفسية هادئة . ثالثا — وهذا يسوقنا إلى الوسيلة الثالثة فى استخدام الحضانات الذهنية الخبرية وهى الهرب من التوترات

النفسية والمضايقات الاجتماعية وتوفير جو من الراحة النفسية التامة للمرء . وبتعبير آخر فان المفكر بحاجة إلى توفير أعصابه وجهده الذهنى لرعاية مواليده الخبرية الجديدة . ولسنا ننكر بذلك ما يحتمل فى نفسيه المبدع من توترات . ولكن الذى ننكره ونتنكر له هو إضافة أعباء توترية جديدة إلى الأعباء التوترية التى يتعرض لها العبقرى الملهم . فيكفيه ما يعانيه من توترات تتعلق بالعملية الإبداعية . ولا نريد له نهاية كنهاية نيتشة أو فان جوخ .

الأمراض الفتاكة بالأنسال الذهنية :

قلنا إن المواليد الجديدة بالذهن التى تنتجم عن التلاقح الخبرى بحاجة إلى حضانات خبرية لحمايتها من الهلاك . ذلك أنها مخلوقات غضة سريعة القابلية للهلاك . ولعلنا فيما يلى نقوم باستعراض لأهم الأمراض التى تفتك بالأنسال الجديدة بالذهن . وواضح أننا نميز بين الفجاجة والهشوشة ، وبين الاصابة بالأمراض التى تتعرض لها تلك الأنسال الذهنية . فالأنسال الخبرية تتسم بالضعف الخلقى من جهة . وبالقابلية للاصابة بالأمراض الفتاكة من جهة أخرى . وعلينا فيما يلى أن نعرض لأهم تلك الأمراض التى تحيق بالأنسال الثقافية وتعرضها للهلاك .

هناك أولا مرض القزامة الخبرية ، وهو المرض الذى يجعل النسل الخبرى قزما لا يقبل النمو ولا يبلغ مبلغ القامة والامتلاء والترعرع ؛ أى أنه لا يصل إلى النضج الذى كان قد جبل عليه والذى كان من الممكن أن يصل إليه لو كان قد قيض له المناخ التربوي المناسب لنموه واستكمال نضجه . والقزامة الخبرية تصيب النسل الذهنى لعدم القيام عليه بالتغذية المناسبة . فلا يكفى أن تحصل على نسل خبرى فى ذهنك نتيجة التلاقح الخبرى بين الأفكار والعواطف والمهارات بعضها ببعض ، بل يجب أن توفر لذلك النسل ما يلزمه من غذاء ورعاية مستمرة . والقزامة الخبرية تحدث أيضا نتيجة التشتت بين اهتمامات كثيرة لا ترابط فيما بينها . فالتشتت أو التبعثر بين مناشط

متباينة ومتعارضة يصيب النسل الخبرى الجديد بالقزامة والضمور ، وقد ينتهى به الأمر إلى الموت والهلاك .

أما المرض الثانى الذى يمكن أن يصيب الأنسال الذهنية فهو مرض العقم . فالأنسال الجديدة قد تصير عقيمة لا تستطيع أن تتزاوج فيما بينها لكى تنجب جيلا تاليا من الأنسال . والعقم فى هذه الحالة لا يكون عقما طبيعيا كتب على تلك الأنسال ، بل هو عقم مرجعه إلى عدم توفير الخبرات المناسبة للتزاوج . والأمر هنا شبيه بما يحدث فى دنيا الحيوان إذا لم تتوافر الألفة بين ذكر وانثى أو عندما يكون التنافر هو الصبغة السائدة بين الجنسين من بنى الإنسان . فكما أن الرجل الكاره لفئة النساء لا ينجب أطفالا لأنه يتحاشى مخالطتهن ويمتنع عن الزواج ، وكما أن الفتاة التى تربى على كراهية جنس الذكور تظل عانسا ولا تتزوج مع أن تركيبها الجسمى لا يحول بينها وبين الزواج والانجاب . كذا فان الأنسال الذهنية الجديدة قد تصير عقيمة لعدم توافر المناخ المناسب لها للتزاوج والانجاب . ومثل هذا النوع من العقم يمكن تسميته بالعقم الوظيفى ، وهو مباين للعقم الجبلى الناجم عن نقص جنسى فى جبلة الكائن الحى .

أما المرض الثالث الذى يمكن أن يصيب الأنسال الذهنية فهو الشيخوخة المبكرة . فكما أن الواحد من الشباب يمكن أن يصاب بالشيخوخة المبكرة مع أن عمره الزمنى لا ينبىء بالاصابة بالشيخوخة ، كذا فان الأنسال الذهنية يمكن أن تصاب بالشيخوخة المبكرة فتموت ، بينما كان من المفروض أن تكون فى شرخ الشباب . وهذا ما نلمحه بازاء بعض الأفكار المتولدة العظيمة التى ما تكاد تشب عن الطوق حتى تشيخ وتذبل . فلقد تتولد لديك فكرة عظيمة لمشروع ثقافى جبار ، فتبدأ فى باورتها وتنفيذها وقد امتلأت بالإيمان بجدواها وفائدتها أو قيمتها . ولكنك ما تكاد تبلغ بهذا المولود الذهنى الجديد إلى شبابه وفتوته حتى تجده فجأة وقد أخذ يضرب فى الشيخوخة ، أو قل وقد أخذت الشيخوخة تضرب فيه . وهذا فى الواقع هو ما نشاهده فى الأعمال والمشروعات العظيمة التى لاتكتمل أو التى لايتوافر لها النضج والاكتمال .

أما المرض الرابع الذى يمكن أن يصيب الأنسال الذهنية فهو مرض التشوهات الخلقية . فبدل أن يتم لتلك الأنسال الجديدة النمو السليم مع الخلو من العاهات والتشوهات الخلقية ، فانها تصاب بها ويكون نموها على غير ما خطط له بالجبلة والفطرة . من ذلك مثلا أن تتولد فى ذهن أحد الروائيين فكرة مسرحية رائعة. ولكنه ما يكاد يبدأ فى صياغتها حتى ينحرف بالفكرة الأصلية التى ألهم بها إلى مسار آخر بوازع من البهرج والبريق وجذب انتباه العامة ، فتفقد الفكرة الأصلية الملهمة قيمتها بعد أن داخلها عناصر منفعية تتعلق بالسوق والرواج وما يسمى بالشباك . فالروائى الملهم هذا قد أحس بادىء ذى بدء بما تم فى أعماق ذهنه من تلاقح خبرى تولد عنه نسل ذهنى خبرى جديد ، فبدأ باخراج ما فى صدره إلى خارج ذاتيته على الورق . ولكنه بدل أن يترك لذلك النسل الجديد حرية النمو فى استقلالية وتلقائية ، فانه يأخذ فى تقييده ، بل قل فى تشويهه والخروج به عن سويته إلى الشذوذ والتشوه . فما يلزم به هذا الروائى نفسه من بريق وجاذبية شعبية يضفيها على عمله — كأن يقحم مسائل الجنس إقحاما ، أو كان يدخل عنصر الفكاهة والمرح الرخيص حتى يحيل المسرحية إلى مسرحية كوميدية لأن الجمهور يحب الضحك — إنما يصيب عمله بالتشوهات الخلقية ويخرج به عن مجراه السوى الذى كان مقدرا له أن يكون عليه لولا العناصر المفسدة التى أقيحمها المؤلف عليه إقحاما .

أما المرض الخامس الذى يمكن أن يصيب الأنسال الخبرية فهو مرض التقوقع على الذات . فاذا ما أريد للأنسال الجديدة أن تزدهر ، فلابد لها من مخالطة أنسال أخرى بعيدة عنها كثيرا أو قليلا . ولكن التقوقع حول الذات ، وابتعاد الأنسال الجديدة عن الأنسال المغايرة عنها ، إنما يعمل على الذبول وعدم التفتح أو التفتق من الداخل . وعلينا أن نذكر دائما أن الحركة الذهنية بدخيلة المرء تتسم بالديناميكية لا بالاستاتيكية . والديناميكية حركة مستمرة ، والاستاتيكية سكون مستمر . فاذا لم تتوافر الحركة واقامة العلاقات المتجددة بين الأنسال الجديدة بعضها ببعض ، واقامة العلاقات

العديدة بينها وبين الأنسال المباينة ، والتي تختلف كثيرا أو قليلا عنها ، فان الحكم يكون بالخمول والضمور والموت على تلك الأنسال الذهنية . فلا تحبس إذن الأنسال الخبرية في قمقم فكرك ، بل اجعلها تتحرك وتنشط وأقم فيما بينها بعضها وبعض ، وفيما بينها وبين غيرها من خبرات مستفادة علاقات خصبة مستمرة . من هنا تأتي أهمية الخبرة المتجددة من الخارج. ولكن ليس كل ما تقف عليه بالخارج يكون مناسباً للمخالطة بأنسالنا الذهنية الجديدة. عليك إذن بالاختيار الجيد . اسأل أبناء فكرك الجدد عن الأصدقاء الذين يرغبون في معاشرتهم واجتلبهم لهم من الخارج من أي مصدر ، سواء كان كتاباً تقرؤه أو فيلماً سينمائياً تشاهده أو إذاعة تستمع إليها أو حتى حادثة تشاهدها بالمصادفة في الطريق . المهم أن تجد أنسالك الذهنية الجديدة ما يناسبها من أصدقاء تعاشرهم وتترعرع بمخالطتهم وإقامة العلاقات بينها وبينهم .

أما المرض السادس الذي يمكن أن تتعرض له الأنسال الخبرية الجديدة فهو الاختناق . ذلك أن بعض الأنسال الذهنية يمكن أن تتعارك مع أنسال ذهنية أخرى فتتخنق بعضها بعضا . وقد ينتهي الأمر بعدم انتصار أي منها على الأخرى . فتموت جميع الأنسال الذهنية التي تتولد لديك ، فتصير في حالة من الإفلاس الذهني ، ولا تكاد تحصل على ذرية خبرية متجددة مع أن التلاقح الخبري يتم في ذهنك على خير وجه . والواقع أن هذا المرض — أعني الاختناق — إنما ينشأ عن التناقضات الذهنية . وعلينا أن نميز بين نشوب المعارك الذهنية في عقلك من جهة ، وبين قيام الأنسال الذهنية بخنق بعضها بعضا من جهة أخرى. فالواقع أن نشوب المعارك الذهنية في عقلك مسألة طبيعية ، بل هو ظاهرة صحية بالتأكيد. ولكن خنق الأفكار بعضها بعضاً إنما هو مسألة غير طبيعية وغير صحية بأي حال . والفرق بين الحالتين كالفرق بين الشك وبين الوسوسة . فالشك وظيفي ومفيد . أما الوسوسة فهي شك دائم وانحباس في حلقة مفرغة ، وهي حالة ضارة بذهن المرء وتصيبه بالاجهاد والضمور الفكري . ومن المؤكد أن الخنق الذي تقوم به الأنسال بعضها بازاء البعض الآخر ليس مجرد وظيفة لنصرة فريق على

فريق آخر ، بل هو غاية ونهاية . ذلك أن الجميع مصيرهم إلى الاندحار ، ولا يكون هناك منتصر ومهزوم ، بل تكون الهزيمة من حظ جميع الأنسال المتعاركة والتي تخنق بعضها بعضا . ذلك أن حرب الخنق ليست حربا منتهية بل هي حرب مستمرة أبدا وبغير توقف . وتتأتى حرب الخنق هذه بين الأنسال الخبرية بسبب التناقض الذهني والوجداني الذي يلم ببعض الشخصيات. وفي مثل هذه الحرب يحس المرء بأنه يهدم من الداخل ، وأن كل عبقرية فيه تنهار ، وأن الأنسال الذهنية الجديدة متعاركة أبدا بعضها مع بعض ، وتخنق بعضها بعضا ، وأنه لا انتصار لبعضها وهزيمة لبعضها الآخر ، وأن ساحة المعركة مليئة بالأشلاء ، وأن أنات الموت ورائحة الجثث المنتنة تملأ المكان ، وأن الخراب قد عم ، والدمار قد رفع لواءه على الجميع .

العقم الإلهامي :

قد يعتقد البعض أن الإلهام يهبط على المرء من عل بغصبه ونصبه وكأنه شيء يقدم إليه ويتسلمه بيده ، ثم ما يفتأ يقدمه إلى الناس . والواقع أن الإلهام — كما نفهمه — يسير وفق خطوط طبيعية أو قل إنه شيء يقبل التفسير بالعلة والمعلول ، أعني بالسبب والمسبب . فالالهام في حد ذاته لا يمكن بحثه أو الوقوف على كنهه . ولعله مناظر لما أسماه كانط بالنومين . والنومين عند كانط هو الوجود في ذاته ، وهو ما لا سبيل إلى معرفته والوقوف عليه .أما ما يمكن أن يبدو للناس فهو الفينومين. وكذا الحال بازاء الالهام . فنحن لا نستطيع أن نقف على نومينية الإلهام ، بل نستطيع فقط الوقوف على فينومينيته أى على الجانب الظاهر منه ، أو قل الوقوف على تأثيره في الأشياء أو المواقف أو العلاقات .

وما يمكن مشاهدته والوقوف عليه من نتائج أو آثار الإلهام هو عملية التلاقح الخبرى وما ينجم عنها من أنسال خبرية . فالالهام يبدو في حياة الناس في عملية التكثر الخبرى وذلك بتزواج الأفكار بعضها ببعض ، وتزاوج المهارات بعضها ببعض .ناهيك عن التزاوج الذى يتم بين الأفكار

والعواطف والمهارات . والسؤال الذى يثار هنا هو عما إذا كان التزاوج بين الخبرات يسير اعتباطا أم أنه يخضع لتوجيه معين؟ إننا نعتقد أنه يسير اعتباطا عند بعض الأفراد ، وهم الأفراد غير الملهمين . أما بالنسبة للأفراد الملهمين فان التزاوج الخبرى يتم لديهم بتوجيه من الإلهام . فالشخص الملهم لا يختار بارادته أفكاره وعواطفه ومهاراته التى يتم التزاوج بينها . إن كل ما فى وسعه عمله هو التحصيل والوقوف على الخبرات المتباينة بالدرس أو الملاحظة . فأنت بمثابة جهاز استقبال مركب ومعقد أشد التعقد . ولكنك لست مجرد جهاز استقبال ، أو ليس عقلك مجرد شريط تسجيل ينقش عليه ما يتلقاه ، وإنما أنت أهم من ذلك وأخطر . إنك تتضمن مجتمعاً داخلياً هو مجتمع الكائنات الحية التى نسميها بالخبرات . ومهمة الإلهام — وليست مهمتك أنت — توجيه عملية التلاقح الخبرى فى شتى مجالات الحياة . وينتج هذا التوجيه السديد إنجاب أنسال خبرية ممتازة »

ولكن الإلهام كما قلنا — ليس مطواعا لنا . إننا لا نستطيع أن نجتذبه لصالحنا . فهو موهبة أو عطية تمنح لنا أو تمنع عنا . ومن هنا فاننا نستطيع القول بأن أكثر الملهمين إلهاما لا يستطيع أن يقرر أنه حاصل على الإلهام فى كل الوقت ، أو أنه سيحصل على الإلهام فى المستقبل . إنه يستطيع فقط أن يتحدث عن الماضى . أما الحاضر والمستقبل فانهما ليسا فى مقدور المرء أن يتحكم فيهما .

ومعنى هذا بتعبير آخر أن الشخصية الملهمة يمكن أن تصير شخصية غير ملهمة » ومعنى هذا أيضاً أن الشخصية غير الملهمة لا تستطيع أن تصير شخصية ملهمة إذا ما اعتزمت أن تصير كذلك . ولكن هذا لا يعنى أن الإلهام يفرض نفسه على الشخصية الملهمة فرضا ، بحيث لا يكون هناك فكاك منه . فالإلهام ليس قدرا مكتوبا على الملهم ، وإنما هو عطية تقدم إليه ، فيكون بمقدوره أن يتقبلها كما يكون بمقدوره أن يرفضها . ومن جهة أخرى فان الشخصيات الملهمة تتفاوت تفاوتا بعيد المدى بازاء الافادة من الإلهام الذى توهبه . فبينما يفيد أحد الملهمين من نصف ما يلهم به مثلاً ،

فان غيره قد يفيد من ثلاثة أرباع ما يلهم به . وهكذا نجد أن المهم ليس فقط ما تلهم به ، بل المهم أيضاً أن تفيد مما تلهم به بأكبر قدر ممكن .

وما نسميه بالعقم الإلهامى إما أن يعود إلى كون الشخصية غير قادرة على تلقى الإلهامات ، إذ تكون شخصية غير ملهمة بأية حال ، وإما أن يعود إلى كون الشخصية لا تفيد مما تلهم به ، إذ أنها تتلقى الإلهامات ولكنها لا تستثمرها ولا تجسدها فى مناشط ظاهرة للعيان ، وإما أن يعود من جهة ثالثة إلى أن الشخصية تتوزع بين مناح كثيرة ومتضاربة ، فما تكاد تتلقى إلهاما حتى يفسد بسبب الانشغال والتوزع والتشتت فى أنحاء كثيرة متباينة أو حتى متناقضة .

ونحن نرجع العقم الإلهامى الذى يعود إلى كون الشخصية غير قادرة على تلقى الإلهامات إلى سببين أساسيين : أما السبب الأول — فهو أن الشخص العقيم إلهاميا لم يوفر لنفسه الفرصة الكافية لأن يكون ملهما . فلقد قلنا إن شرط تقبل الإلهام يتبدى أول ما يتبدى فى تهيئة نفسية المرء لتقبل الإلهام . فاذا لم يعمد المرء إلى إعداد نفسه لمثل ذلك التقبل ، فانه يظل محروما طوال عمره من تلقى الإلهامات . أما السبب الثانى فهو ما يعرف بالضغوط الثقافية والاجتماعية . فتكديس المعلومات فى الذهن من جهة ، والانغماس فى خضم العلاقات الاجتماعية من جهة أخرى يؤدى بالمرء إلى الحرمان من تلقى الالهامات . فكم من أشخاص يحملون فى أذهانهم الكميات الهائلة من المعرفة ، ولكنهم مع هذا لا يتلقون أى إلهام من قريب أو من بعيد . إنهم لا يزيدون عن كونهم دوائر معارف بشرية متحركة . ولكن من المؤكد أن الشخصية المكدسة بالمعرفة ليست ذات خطر فى المجتمع الحديث الذى يحظى بالعديد من وسائل التسجيل الدقيقة وذات السعة الكبيرة والتى لا تتأخر عن تقديم المعلومات بسرعة هائلة .

أما الشخصية التى لا تفيد من الإلهامات التى تصل إليها بالفعل ، والتى تصير — كنتيجة مترتبة على هذا — شخصية عقيمة إلهاميا فانها تصير فى

الواقع بلا إلهام متجسد أو معبرا عنه فى صيغ معينة . فلقد يتلقى أحد الشعراء إلهاماً رائعاً خاصاً باحدى القصائد الشعرية ، أو قل بتعبير أدق يلهم بالفكرة العامة للقصيدة أو بالاحساس الوجدانى العميق بها ، ولكنه لسبب أو لآخر يعزف عن قرض تلك القصيدة ، وينأى عن التعبير عما يجيش فى صدره من مشاعر جياشة . إننا نعتبر أن مثل هذا الشخص عقيم إلهاميا . فعلى الرغم من أنه يتلقى الإلهامات بالفعل ، فان تلقيه أو عدم تلقيه لها سيان .

وثمة — كما قلنا — عقم إلهامى يرجع إلى الانشغال والتوزع والتشتت فى أنحاء كثيرة متباينة أو حتى متناقضة . وهذا العقم يتضح لدى كثير من الشعراء أو القصاصين الذين ما يكادون يحظون بالشهرة حتى تتلفق عليهم الفرص لإذاعة أخبارهم وأعمالهم عن طريق الإذاعة والتلفزيون والصحافة . ولقد تسند رئاسة تحرير إحدى الصحف أو المجلات إلى الواحد منهم . فماذا تكون النتيجة ؟ التشتت الذهنى أو قل بعثرة الإلهامات التى تصل إليه . ذلك أن الإلهام لكى يثمر إنما يكون بحاجة إلى نوع من الاستقرار والهدوء النفسيين . صحيح أن الأشتغال ببعض الأعمال أو تقلد إحدى الوظائف قد لا يتعارض مع تلقى الإلهامات . ولكن هناك عنصرين أساسين يجب أن نذكرهما بهذا الصدد . أما العنصر الأول فهو عنصر الزمن . فاذا كانت الأعمال الأخرى أو المناشط الوظيفية تستغرق وقتا طويلا أو تحتاج إلى بذل جهد كبير يضنى المرء ، فان الشخص لا يستطيع فى هذه الحالة أن يفيد من الإلهامات التى تصل إليه . أما العنصر الثانى فهو نوعية النشاط الذى يقوم به الشخص . فاذا كان العمل الذى يضطلع به يستلزم القيام بنفس الأداء الذى يرتبط بالإلهام ، أو يشترك فى قطاع معه ، كأن يكون المطلوب من الشخص الملهم فى التعبير الأدبى كتابة مقالات صحفية باحدى الصحف اليومية ، فان قيام مثل هذا الشخص بعمل يرتبط ارتباطا مباشرا بالتعبير الأدبى أو الفلسفى — وهو التعبير الذى يلهم عادة فيه — إنما يحرمه من الافادة من الإلهامات التى تصل إليه . فهو يتشتت فكريا ، أو قل إنه يتوزع بين العمل المفروض وبين العمل التلقائى . ونحن نعلم أن الإلهام يتعارض أو لا يتساوق مع

الإجبار . فأينما يكون الإجبار والقسر والاضطرار، لا يكون هناك إلهام على الاطلاق . وعلى العكس من هذا فان الإلهام مساوق للحرية ، أو قل إنه صديق للحرية . ولكن الحرية قد تكون خالية من الإلهام . فكما أن الصديق يمكن أن يتواجد وحده في أحد الأماكن بغير أن يكون مرافقاً لصديقه ، كذا فان الحرية يمكن أن توجد في بعض الأحيان بغير أن تكون ملازمة للإلهام . ولكن لا يمكن أن نتخيل وجود الإلهام مع عدوه اللدود ، أعني الاجبار أو القسر .

والواقع أن علاج العقم الإلهامي من الصعوبة بمكان . ولقد نقول إن مثل هذا العلاج قد يكون مستحيلا في بعض الأحيان . ولاشك أن التربية والحضارة التي نستظل بظلها يحاربان الالهام . ذلك أن التربية تنحو في أغلب الحالات إلى إجبار الناشئة على الضرب وفق خطوط مرسومة لهم من قبل . وكذا فان الحضارة تلزم الناس بالارتباط بالمواعيد وبالتواجد في أماكن بعينها، وبالالتزام بروتين يومي معين ، بل وبصب أنفسهم في قوالب فكرية ونفسية وأدائية محددة . وحتى وسائل الاعلام وعلى رأسها التلفزيون والراديو يشكلان وسيلتين لصب الناس في قوالب فكرية ووجدانية لا حياد عنها . والالهام يكره التحديد والقولبة . فطالما هناك ضغوط خارجية تقسر الناس على الضرب في طرق مرسومة ، فان العقم الالهامي يكون إذن من نصيبهم .

الفصل الخامس عشر

الاتحاد الثلاثى بالشخصية

إذا تفككت أضلاع المثلث :

إننا فى الوقت الحاضر وبعد أن أوغل الإنسان فى طريق الحضارة تميز فى الشخصية الإنسانية ثلاثة قطاعات أساسية هى : قطاع العقل ، وقطاع الوجدان ، وقطاع الإرادة . وبتعبير آخر فان الشخصية الإنسانية تشبه المثلث الذى لا يمكن أن يوجد كمثلث إلا بأضلاعه الثلاثة . والمشكلة الكبرى التى تجابه الانسان الحضارى هى مشكلة تفكك أضلاع مثلث شخصيته ، أو بتعبير آخر عندما لا يقتصر إحساس الإنسان الحديث بتمايز الأضلاع الثلاثة فى شخصيته بعضها من بعض ، بل إحساسه أيضاً بتفكك تلك الأضلاع وابتعادها بعضها عن بعض ، أو ضياع أحد الأضلاع الثلاثة أو ضياع ضلعين من تلك الأضلاع الثلاثة ، فلايتبقى له من مثلث شخصيته سوى ضلع واحد منها فحسب .

فالانسان الحديث قد يفقد ضلع العقل ، ويعيش بالوجدان والارادة فحسب . فهو ينساق عندئذ وراء ما تدفع به عاطفته إليه من مناح متباينة ، فينخرط فى أعمال وتصرفات خالية من العقل . فارادته لا تبين عما يترسمه عقله ، بل تبين عما يفور فى قلبه من عواطف فحسب . ولقد تجد بعض الشخصيات فى ظل الحضارة وقد خشى التعبير عما يهتاج فى قلبه من عواطف ، بعد أن فقد ضلع عقله ، فيعيش حبيس قلبه فحسب بغير أن يجرؤ على التعبير عن عواطفه . إنه ينحبس بعواطفه فى دخيلته ، فما يريد فعله فى الخارج يقتصر على فعله بالخيال فحسب . ومثل هذا الخيال ليس من العقل فى شىء . ذلك أننا نقصد بالعقل التفكير المنطقى الهادف .

فالسجين الذى يحلم بالخروج من السجن ،وقد تخيل أنه طليق بينما هو مقيد فى حجرة السجن المظلمة ، ليس بمفكر حتى وإن كان يستعين بمخه فى خياله. وشأن هذا المسجون يختلف عن شأن الأسير الذى يتخيل خطة واقعية للهرب من أسره ، فيخطط لهربه ويقوم بالتنفيذ . فتخطيط الأسير للهرب من الأسر يعتبر تفكيرا . أما أحلام اليقظة التى ينخرط فيها السجين ، فانها لا تعتبر فكرا . فشرط الفكر عندنا هو أن يكون محاولة لحل مشكلة أيا كانت .

فنحن نعتبر أن مجرد تشغيل الخيال لا يعتبر تفكيرا . ولنأخذ مثالا يوضح ما نعنيه . لنفترض أن أحد المراهقين قد وقع فى حب زميلة له بالفصل لأنه فى مدرسة إعدادية مشتركة ، وأن هذا المراهق قد أخذ ينخرط فى أحلام يقظته فينسج قصة حب وغرام بينه وبين حبيبته دون أن يجرؤ على التعبير عن حبه لها من قريب أو من بعيد ، وأنه يخشى حتى مجرد الاقتراب منها أو التحدث إليها . إننا نعتبر أن أحلام اليقظة التى ينخرط فيها هذا المراهق ليست فكرا . إنها مجرد رغبات جنسية تنعكس على عقل ذلك المراهق . وبتعبير آخر فان العقل فى هذه الحالة لا يقوم بعمل إيجابى. إنه مجرد عاكس لرغبات جنسية معتملة بدخيلة ذلك المراهق . ولكن افترض أن أحد الأطباء أعجب بزميلة له فأخذ يفكر فى مفاتحتها فى أمر خطبتها . وبالفعل وضع خطة لينفذها . ثم قام بمفاتحتها فيما فكر فيه . إن ما قام به عقل ذلك الطبيب يعتبر فكرا ، وذلك لأنه يتسم بالايجابية ولأنه لم يكن مجرد رد فعل لرغبة ، بل كان تخطيطاً لهدف مستقبلى واقعى.

ومن ظواهر تفكك مثلث الشخصية الحضارية أيضا فقدان ضلع العاطفة أو تقليصه مع الابقاء على ضلعى العقل والارادة . فتجد أحد العلماء مثلا وقد انكب على التفكير مقدما المؤلفات أو مبتكرا الاختراعات ، بينما جفت عواطفه ونضبت مشاعره . فهو لا يتذوق الجمال فى حياته.فلايطرب للحن الجميل ، ولا ينجذب إلى الصورة الرائعة أو إلى التمثال المبهر ، ولا يجد فى أى من أفراد الجنس الآخر ما يدق باب قلبه ، ولا يتذوق

الشر ولا يعرف معنى الحنان أو المودة . وباختصار فانه إنسان بلا قلب . فمثل هذا الانسان يكون قد فقد ركناً ركيناً من كيانه ويكون مثلث شخصيته قد انفصم وتمزق .

وثمة من جهة ثالثة النوع الثالث من تفكك مثلث الشخصية الانسانية وهو الاعتماد على ضلع الارادة فحسب مع إهمال ضلعى العقل والعاطفة . فتجد أن بعض الناس يعيشون فى أداءات يومية بغير أن يكون لهم رأى وفكر فيما يضطلعون به من أعمال ، وبغير أن يكون لديهم احساس وجدانى قبالة النشاط الذى ينخرطون فيه . إنهم يكونون فى حالة اللامبالاة الوجدانية وفى حالة من السلبية الذهنية . ولعل أن من الوظائف والأعمال الروتينية ما يشير إلى هذه الحالة . وبالنسبة لكثير من الحرف اليدوية فى المصانع يكون العامل محدودا فى نشاطه العملى بحدود شريحة صغيرة جدا من العمل الكبير . فهو مكلف مثلا بربط مسمار قلاووظ فى جهاز أو آلة كبيرة تمر أمامه بالمصنع . فيبعد العامل بذلك عن التفكير كما أنه يصير خلوا من حب أو كراهية العمل ، أو قل إنه صار يمارس عمله وكأنه استحال إلى ما يشبه الآلة الصماء التى لا تحس ولا تفكر . ونذكر بهذه المناسبة ما قدمه شارلى شابلن من تصوير كاريكاتورى فى أحد أفلامه لهذه الحالة التى اتسمت بها الثورة الصناعية فى العالم الصناعى والتى حرمت العامل من الفكر والعاطفة جميعاً فاستحال إلى مجرد قطعة من عمل كبير معقد أو إلى مجرد ترس فيها .

والوضع الأمثل للشخصية أن يكون مثلثها متساوى الاضلاع ، بمعنى أن تكون القسمة متساوية بين التفكير والانعطاف والأداء . ولكن الواقع أن هذا التصور الأمثل للشخصية لا يتوافر فى الغالب حتى بالنسبة لأكثر الشخصيات تمتعا بالتكامل . ولكن إذا ما اتسع امتداد أحد الأضلاع بحيث يطغى على أحد الضلعين الآخرين طغيانا كبيرا ، فان هذا يعد من قبيل تفكك اضلاع المثلث بالشخصية ، حتى وإن ظل المثلث قائما . فالتفكك هنا تفكك مجازى وليس تفككا واقعيا . فاذا ما طغت المناشط العملية ، فان الشخصية

تكون قد فقدت اتزانها وتكاملها . وكذا يقال عن الشخصية إذا ما طغت المناشط الوجدانية أو المناشط العملية فيها على النوعين الآخرين من المناشط.

ونحن نزعم أن الانسان الملهم هو ذلك الشخص الذى يستطيع أن يجعل مثلث شخصيته متساوى الاضلاع . على أننا عندما نعرض لأضلاع مثلث الشخصية ، فإننا ينبغى أن ننظر إلى المثلث الخاص بالشخصية باعتباره كلا متكاملا ، وباعتبار أن كل ضلع من أضلاع الشخصية يلعب دورا أساسيا فى تكامل المثلث ووجوده كوحدة كلية متكاملة ومتفاعلة بعضها مع بعض. وأكثر من هذا فإن الأضلاع الثلاثة تختفى فى مثلث الشخصية بحيث لا يبدو منها إلا ذلك المركب المتكامل .

ولعلنا نجد فى شخصية واحد مثل فيثاغورس ما يشير إلى طبيعة هذا التكامل فى مثلث شخصيته . لقد كان فيثاغوس مهتما بالعقل والوجدان والارادة جميعا . وكانت الفيثاغورية قائمة على أساس من تعاليم النحلة الأورفية ، وهى جماعة دينية استمدت تعاليمها من الهنود القدماء . فكان فيثاغورس يحيا هو وتلاميذه حياة روحية بمعنى الكلمة . لقد أنشأ فيثاغورس ما يشبه الدير ، وكان ذلك الدير يضم أفرادا من الجنسين . وكانت التعاليم فيه سرية . وكان هناك نظام يخضع له الجميع . وكان النظام الموضوع هو نظام عقلى يخدم العقل وذلك عن طريق الرياضيات والفلسفة . وكان التأمل الذهنى هو تأمل اشراقى وليس تأملا منطقيا فحسب . فكان الفيثاغورى يتأمل بعقله ووجدانه أيضا . وكانت الرياضة فى أذهان أفراد هذه المدرسة مرتبطة ومتفاعلة بالدين . فكان للأرقام دلالات روحية . كان العدد واحد صحيح يمثل للإله . وكان السبيل لتنقية الروح يتخذ شقين أو طريقين : أحدهما يتعلق بالطعام . فهناك ممنوعات لأن الفيثاغوريين كانوا يعتقدون أن بعض الأطعمة — كالبقول مثلا — تفسد العقل . أما الطريق الآخر فهو التربية الرياضية العنيفة والمنظمة . فكانت التربية الفيثاغورية التى يخضع لها أفراد هذا الدير (مجازا) تهتم بالعقل والوجدان والجسم . فبالتربية

الرياضية تقوى الارادة . وإذا ما أراد الانسان أن يقوى إرادته ، فان عليه وفق تعاليمهم أن يجبر نفسه على الامتناع عن ممارسة بعض الأشياء ، وأن يجبر نفسه أيضا على ممارسة أشياء أخرى .

والواقع أن انسان الحضارة يحرم من الإلهام إذا ما اتهج طريق العقل فقط أو طريق العاطفة فقط أو طريق الارادة فقط ومهملا الطريقين الآخرين. فالتكاملية هى المرحلة الأولى من مراحل الاستعداد لتقبل الالهامات .

وأكثر من هذا فاننا نعتقد أن النشاط المتوزع — أو حتى المتعين — يفقد الانسان القدرة على تلقى الالهامات . فالملهم شخص مركب . فهو إذا ما فكر فانما يفكر وينعطف ويعمل فى نفس الوقت . والعمل الذى نقصده قد يكون مجرد الابانة عن الفكر والاحساس . فالتقبلية الاسفنجية التى يتصف بها كثير من أبناء الحضارة إنما تتعارض تعارضا جذريا مع القابلية لتقبل الالهام . فالشخص الملهم هو شخص إيجابى تعبيرى . إنه يحيا بذلك المركب المتكامل ، وهو الشخص الذى لا يقتصر على تقديم ما يصل إلى عقله من أفكار ، بل هو ينسج خيوطاً جديدة كل الجدة ويكون قادرا على تقديمها والتعبير عنها .

كيف يتحقق الاتحاد الثلاثى ؟

سبق أن عرضنا لما أسميناه بهرم الشخصية ، وقلنا إن قاعدة هذا الهرم تتمثل فى القوام البيولوجى . ومن تلك القاعدة ينبثق الطابق الثانى بالهرم، وهو الطابق الوجدانى . ذلك لأن الوجدان يتأتى عن الانفعال . والانفعال فى طبيعته بيولوجى أو قل إنه المرحلة الوسيطة بين ما هو بيولوجى وماهو نفسى . والوجدان صنو للانفعال ، بل هو صادر عنه ومرتبط به جوهريا. ومن الوجدان تنبثق العواطف المتباينة . ذلك أن الوجدان عندما يتبلور حول محور ما أيا كان ، وعندما يتخذ لنفسه صفة الثبوت والاستقرار والاستمرار النسبى ، فانه يصير عاطفة . وفوق هذا الطابق الثانى الخاص

بالوجدان والعاطفة نجد الطابق الثالث بالشخصية ، وهو طابق الفكر . والواقع أن الفكر ينبثق من الطابقين الأولين . فهو لا ينبثق عن العواطف والوجدانات وحدها ، بل وينبثق أيضاً عن القوام البيولوجي للمخ .

ونستطيع القول بأن هذا الهرم ذا الطوابق الثلاثة يتسم بالتماسك والتراكب . ذلك أن المنشأ هو قاعدته البيولوجية كما قلنا . بيد أن العواطف والأفكار تعتبر قوامات جديدة ذات طبيعة مستقلة نسبيا . فالعواطف ليست جسما ، وكذا فان الأفكار ليست مادة بيولوجية . فالعواطف والأفكار ليست كالدموع التى تفرزها الغدد الدمعية بالعينين . فالمخ البشرى لا يفرز عواطف وافكارا . إننا نستطيع تشبية العواطف والأفكار بالنار فى نسبتها إلى عود الثقاب . فنحن لا نستطيع أن نقول إن عود الثقاب يفرز نارا . والصحيح أن نقول إن ثمة شروطا معينة تتوافر فى رأس عود الثقاب تسمح له بالاشتعال . فالنار ليست موجودة فى رأس عود الثقاب . والموجود هو الشروط اللآزمة لاشتعال المواد الموجودة برأس عود الثقاب فحسب . فثمة إذن نوعان من الوجود : النوع الأول — هو الوجود الكينونى ، والنوع الثانى — هو الوجود العلى . والوجود الكينونى كوجود الدموع فى الغدد الدمعية . فقبل أن تدمع العين كانت الدموع فى داخل تلك الغدد بالفعل ، ولكنها كانت حبيسة بداخلها . أما الوجود العلى فانه وجود تلوى ، بمعنى أنه ما إذا ما توافر شرط أو توافرت مجموعة معينة من الشروط ، فان الوجود العلى يبدو فى الواقع . فاذا أنت حككت رأس عود الثقاب بالغلاف الخشن بعلبة الثقاب ، فثمة نتيجة تترتب على هذا الاحتكاك هى الاشتعال . والنار لم تكن حبيسة رأس عود الثقاب كما هو الحال بالنسبة للدموع التى كانت حبيسة الغدد الدمعية .

وكما أن النار بعد الاندلاع من عود الثقاب يمكن أن تتصل بأشياء أخرى قابلة للاشتعال فتزيد تأججا والتهابا ، كذا حال العواطف والأفكار عند الانسان . إنها تتواجد عليا وتلويا وقد بزغت نتيجة توافر شروط

معينة بالمخ جعلها تظهر إلى الوجود . ولكنها يمكن أن تزداد فى رقعتها وشدتها إذا ما توافرت لها تغذية من البيئة الخارجية . فالمواقف والعلاقات تغذى عواطفنا وأفكارنا . وهذا يعنى أن من الممكن أن تجد العواطف غذاء لها أكثر مما يتوافر للفكر . والعكس أيضاً ممكن . فقد نتخيل شخصاً وجد غذاء غزيراً لعقله ولكنه لم يجد غذاء كافيا لوجدانه . فماذا تكون النتيجة فى الحالتين ؟ بالنسبة للحالة الأولى التى تتوافر فيها الأغذية للعواطف دون العقل ، فان العواطف تنمو ، بينما يصاب العقل بالضمور. وبالنسبة للحالة الثانية التى يجد فيها الفكر غذاءه ، بينما لا تجد العواطف غذاء لها ، فان الفكر ينمو بينما يضمر نطاق العاطفة .

ونستطيع أن نقرر أن هاتين الحالتين السابقتين هما علة فقدان اتحاد أضلع مثلث الشخصية . أضف إليهما ما يمكن أن يصيب المخ من تلف يفقده القدرة على العمل ، أو يضعفه فلا يفكر بطريقة سليمة . ولكن إذا ما تحققت الصحة للمخ ، ووجد كل من قوامى الوجدان والفكر الغذاء المناسب لهما ، فان مثلث الشخصية يظل متماسكا ، ويظل قوياً فعالا ، وبالتالى فإن الشروط المناسبة لتلقى الإلهام تكون بالتالى متوافرة .

على أنه ينبغى لنا أن نقرر ماسبق أن ألمعنا إليه من أن قطاعات الشخصية الثلاثة تسير فى نموها بطريقة تراكبية تفاعلية ، وليس بطريقة تراكمية . والتراكبية تختلف عن التراكمية ، فى أن التراكبية تتسم بالتفاعل بين المركب الذى تأتى للمرء مع المؤثر أو المؤثرات الجديدة . فالإنسان منذ تكوينه جنينا فى بطن أمه وجسمه يتفاعل مع المؤثرات التى يلاقيها بطريقة تفاعلية . فهو يزداد تعقداً وتركيباً عما كان عليه الحال قبل حدوث التفاعل. وكذا الحال بالنسبة لعواطفنا . فنحن قد تكون لدينا جهاز عاطفى نتيجة التفاعلات الوجدانية الكثيرة . وهذا الجهاز العاطفى عندما يقابله موقف أو علاقة عاطفية جديدة ، فان ذلك الموقف أو هذه العلاقة لا تضاف إلى الجهاز العاطفى ، بل تتفاعل معه كما تتفاعل المعدة والأمعاء مع الغذاء الوارد من الفم . فكما أن الجسم يتفاعل مع الغذاء ، كذا فان جهاز العاطفة

يتفاعل مع المواقف والعلاقات الجديدة ويمتص منها ما يناسبه في حدود طاقته . وكذا الحال بالنسبة للفكر . فجهاز الفكر يستقبل المفاهيم والعناصر المنطقية الجديدة ولا يضيفها إضافة إليه ، بل يتفاعل بطريقة دقيقة للغاية بحيث يتم له النمو .

وإذا ما أجبر جهاز العاطفة أو جهاز الفكر على تقبل ما لا يستسيغه، فان حالة تشبه حالات سوء الهضم بالنسبة للمعدة تحدث لجهاز العاطفة وجهاز التفكير . وهذا ما يحدث في كثير من الحالات التي يجبر فيها المرء على افتعال عواطف ليست من قوامه الوجداني . فاذا ما أرغمت على أن تحب ما تكره ، أو على أن تكره ما تحب ، أو إذا ما حرمت من الغذاء اللازم لتغذية جهازك العاطفي، فانك مصاب بما يمكن أن نسميه بالمرض الوجداني . ولعلنا نرجع الكثير من الأمراض النفسية إلى هذه الحالة التي لا يسير فيها النمو الوجداني في الطريق السليم الذي كان يجب أن يسلكه . ونستطيع أن نرجع الأمراض الوجدانية جميعاً إلى ثلاثة عوامل : الأول — افتقار جهاز الوجدان إلى المقومات الغذائية الوجدانية التي يكون بحاجة إليها . والثاني — الإفراط في تقديم الأغذية الوجدانية إليه وذلك بكثرة ما يكره وبكثرة ما يحب بغير أن تكون لديه الفرصة الكافية لهضم المقومات الوجدانية المطلوب منه هضمها . والثالث — تقديم عناصر غذائية وجدانية متناقضة بعضها مع بعض ولا تتآلف بعضها مع بعض ، مما يترتب عليه حدوث ما يعرف بالتناقض الوجداني .

ونفس الشيء يقال عن فكر الإنسان . فإذا ما توافرت العناصر والمقومات العقلية المناسبة لنمو الفكر نمواً سليما فانه ينتعش ويصح . ولكن الإفراط في تكديس الذهن بالمعلومات ، أو حرمان الفكر من المعرفة المناسبة وعدم تدريبه على التفكير وهضم ما يقدم إليه ، أو تقديم إليه جرعات غذائية فكرية متناقضة بعضها مع بعض أو مقومات غذائية ضارة، إنما ينتهي به إلى التوقف عن النمو وإلى عدم قيامه بواجبه على الوجه الأكمل .

ولا يفوتنا أن نؤكد أن العلاقات القائمة بين الأجهزة الثلاثة أو الأضلاع الثلاثة بالشخصية إنما هى علاقات ديناميكية مستمرة الحركة ودائبة التفاعل فيما بينها . فنحن وإن كنا نزعم وجود نوع من التعين والاستقلال لكل ضلع من هذه الأضلاع الثلاثة بمثلث الشخصية ، فان هذا لا ينفى وجود التفاعل المستمر والدائب بينها جميعاً . فالمثلث كل متكامل وإن كانت به أضلاع ثلاثة متعينة ولها حدودها واستقلالها . بيد أن الاستقلال يختلف جذريا عن الانفصال . فأنت تستطيع أن تكون شخصية مستقلة فى المجتمع ، ولكنك فى نفس الوقت لا تكون منفصلا عن ذلك المجتمع . فثمة تفاعلات مستمرة وقوية بينك وبين مجتمعك ، حيث يؤثر فيك وتؤثر أنت فيه . ولكن التفاعل التبادلى بينكما لا يفقدك ولا يفقد مجتمعك استقلالكما بعضكما عن بعض .

ونستطيع أن نتخيل عمل الأضلاع الثلاثة بالشخصية بطريقة متوازية. فكل منها يعمل بصفته الشخصية من جهة ، وبصفته متأثراً ومؤثراً فى الضلعين الآخرين من جهة أخرى . ولكن التأثير الذى يحدثه أحدهما فى الضلعين الآخرين لا يؤثر فى قوامه الذاتى ولا يعمل على محو شخصية الضلعين الآخرين . وهذا ما يعمل فى الواقع على تحقيق التكامل والتعاون بين الأضلاع الثلاثة جميعاً . ولكن إذا ما حدث أن طغى أحد الأضلاع الثلاثة على الضلعين الآخرين ، فان الشخصية تفقد عندئذ تكاملها ، ومن ثم فانها تفقد القدرة على تلقى الالهامات . وإنك لتجد أمثلة لذلك بين العلماء . فثمة بعض العلماء الذين يعيشون بالعقل فقط أو يكادون وقد أهملوا عواطفهم . فتجد الواحد منهم فج العاطفة بحيث يمكن أن تبدر منه تصرفات توصف بأنها تصرفات صبيانية تنم على عدم النضج والفجاجة . فمهما اختزن الواحد من أمثال هؤلاء العلماء المعلومات من ذهنه ، فانه لا يستطيع أن يصير شخصية ملهمة .

فلندافع عن حياتنا ووحدتنا الداخلية :

لا شك أن القدرة على تلقى الإلهام لا تتأتى إلا لمن استطاع أن يحافظ على وحدته الداخلية . صحيح أن الوحدة الداخلية — وهى ما عبرنا عنه

بتماسك أضلاع مثلث الشخصية — لا يضمن تلقى الإلهام . ذلك أن الإلهام — كما قلنا — بمثابة عطية تمنح ولا تؤخذ . فليس بيدك أن تكون شخصية ملهمة ، ولكن بيدك أن تعد نفسك الإعداد الكافى والسديد لتلقى الإلهام . والسبيل إلى ذلك هام وضرورى لتوفير الحد الأدنى لسعادتك وقوة شخصيتك . فحتى إذا لم تكن طموحا لأن تكون شخصية ملهمة ، فلا أقل من أن تكون طموحا لأن تكون شخصية متكاملة . وتكامل الشخصية ضرورى لتوفير مناخ الطمأنينة النفسية ولتحقيق التوازن النفسى الداخلى .

ولقد يعترض معترض على كلامنا بأن التفوق فى مجال من المجالات لا بد أن يكون على حساب مجالات أخرى يكون الانسان خالى الوفاض فيها ، أو ضعيفا فيها على الأقل. فالعالم لكى يتفوق فى علمه أو فى فرع العلم الذى يتخصص فيه ، عليه أن ينصرف عن الشعر والموسيقى وعن كل ما يتعلق بالجمال . وكذا فان الشاعر أو الموسيقار عليهما أن ينصرفا عن تحصيل العلوم الوضعية وأن يحلقا فى أجواء الخيال غير الواقعى . وكذا الحال بالنسبة للمشتغلين فى التجارة أو الصناعات المتباينة أو بالنسبة للمشتغلين بالعلاقات الاجتماعية . إنهم جميعاً ينصرفون عن المسائل العلمية الفيزيائية وكذا عن مجالات الجمال . ذلك أن الحياة لا تسمح لهم بأن يوزعوا اهتماماتهم على جميع المجالات بدرجة واحدة كما قد يشتم من كلامنا .

والواقع أننا نعترف بادىء ذى بدء بالضرورات الحضارية التى تلزم أغلب الناس بأن يتخصصوا فى مجال صغير . وأكثر من هذا فاننا نعترف بأن الوقت ضيق بالنسبة لمن يعيش فى ظل الحضارة وما تزجر به من علاقات مستمرة وكثيرة . ولكن الذى لا نعترف به هو تعذر توفير النمو للشخصية من جميع الجوانب الأساسية . فنحن لا نعترف بأن ينصرف العالم عن المجالات الجمالية ، ولا نعترف أيضاً بأن ينصرف التاجر إلى تجارته فحسب دون أن يلقى بالا إلى جوانب شخصيته الأخرى التى لا تتعلق بالتجارة .

ونحن فى نفس الوقت لا نطالب بأن يتخصص ابن الحضارة الحديثة فى كل شىء ، ولا نطالبه بأن يوزع جهده بالتساوى على المجالات المتباينة ، وإنما نطالبه فقط بالعمل على نمو شخصيته بطريقة تكاملية بحيث لا يحرم نفسه من النمو الطبيعى لما جبل عليه من مقومات جوهرية . ولسنا بالطبع نصمم على أن يستوعب العالم الشعر أو أن يلاحق الحركة الفنية فيكون ملما بالقصائد التى قيلت أو أن يكون ملاحقا للمدارس التشكيلية المتباينة . ولكن الذى نلح عليه هو ضرورة النمو الوجدانى للعالم ، وضرورة النمو العلمى بالنسبة للفنان . وهذا لا يتأتى إلا بالعمل على أن تطفو الشخصية فوق الجزئيات مهما كانت تلك الجزئيات . فالعالم الحقيق بهذا الاسم — وهو الذى يرغب فى أن يكون شخصية متكاملة أو حتى شخصية ملهمة — يجب أن يكون إنسانا بمعنى الكلمة . إنه يجب ألا يفقد صفة الانسانية لكى يكتسب صفة العالم . إنه يجب أن يظل إنسانا وبعد ذلك يكون ما يكون .

والانسان المتكامل يجب أن يكون طافيا على سطح الحياة وليس غارقا فيها . من هنا فاننا نطالب بأن يتشبث الانسان الحضارى بالعموميات ، وأن تكون له مبادىء عامة يصب فيها كل شىء . فنحن البشر نعمد بطبعنا إلى صب الكثير فى القليل ، وأن نخلص من الجزئيات إلى العموميات . وإذا كان هذا حالنا فى المجالات العلمية الدقيقة ، فانه حالنا أيضا فى سائر المجالات . فعلى الانسان أن يشاهد الكل من زاوية معينة .

فالعالم يجب أن يظل متذوقا للجمال ، وأن يحس بالخير ، وأن يعرف العلاقات الاجتماعية الأساسية فى مجتمعه . إنه يجب أن يتقن فن التعامل مع الآخرين . يجب أن يعرف موقفه من الكبير والصغير والند . ويجب أن يحوز الحد الأدنى من النظام ، وأن يلم إلماما عاما بالقانون الذى ينتظم أبناء مجتمعه وفقه وإن يراعيه فى حياته . ومعرفته بالقانون لا تعنى دراسته لتفاصيله وأن يحصل على المعرفة القانونية التى يتخصص فيها رجال القانون. ولكن معرفة الأساسيات ترتبط به كانسان وكمواطن ولا ترتبط به كشخص مفكر أو كعالم .

والخوف كل الخوف من أن تشوه الأجهزة الداخلية لدى المرء فيفقد قدرته على إحراز التكامل. ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يلغى جهاز عقله أو جهاز وجدانه . فالعالم مهما أهمل حياته الوجدانية ، فإنه لا بد يعيش حياة عاطفية على نحو أو آخر . صحيح أن تلك الحياة الوجدانية لديه يمكن أن تكون ضامرة أو يمكن أيضا أن تكون فاسدة ، ولكن فى جميع الأحوال لا يمكن إلغاؤها . فنحن لا نستطيع أن نتخيل عالما بغير أن تكون له حياة وجدانية ، ولكن ما نستطيع تخيله هو وجود عالم قد ضمر جهازه الوجدانى أو أعوجت حياته الوجدانية وانحرفت عن المسار الذى كان يجب أن تسير وفقه . وكذا فاننا لا نستطيع أن نتخيل فنانا خلا وفاضه من الفكر ، ولكن الذى يمكن تخيله هو وجود فنان يفكر بطريقة فجة أو خاطئة .

بيد أن هناك أمثلة لعلماء وفنانين ملهمين ولكن حياتهم العقلية أو حياتهم الوجدانية مريضة . من أولئك نيتشه فى مجال الفلسفة ، وفان جوخ فى مجال الفن . وكلاهما انتهت حياتهما بالجنون . وثمة كثيرون أيضا يمكن أن يحتج بهم ضد ما نقرره هنا من أن التكامل شرط أساسى يجب توافره قبل تلقى الالهام . ونحن نعتقد أن جميع ما يمكن أن يحتج بهم من شخصيات ملهمة كانت مصابة على نحو أو آخر باعوجاج فى الشخصية ، كانوا مصابين بالتقلب بين التكامل والاعوجاج . فنحن قد نجد شخصا يحيا حياة متكاملة ومتجانسة وخالية من الاعوجاج لبعض الوقت ، ثم ما يفتأ ينحرف عن جادة الصواب. ففى أثناء الوقت الذى يكون الشخص متكامل الشخصية يحظى بالالهام . ففان جوخ مثلا كان ملهما وقت أن كان سويا ، ولكنه لم يكن كذلك فى أثناء فورة المرض النفسى . ومن المعروف فى تاريخ الأمراض النفسية أن هناك أمراضا نفسية وقتية أو دورية . فهى تهاجم الشخصية لبعض الوقت ثم تتركها لحين . وبعد فترة تقصر أو تطول تعاود هجومها على الشخصية المريضة . ففى الوقت الذى تكون فيه شخصية العبقرى فى

حالة من الانسجام الداخلي، وفي وضع يسمح بوصفها بأنها شخصية متكاملة بصفة مؤقتة يكون هو الوقت الذي تتلقى خلاله الالهام .

وهناك في الواقع رأي يقول إن أكثر الناس ميلا إلى السرقة ، يكونون في بعض الوقت من أكثر الناس تمسكا بالأمانة . ومن بين المومسات من يتشبثن بأثواب الطهر وقد صرن نافرات من ممارسة الجنس لبضعة أيام أو لبضعة أشهر فيرفضن بيع الجسد بصدق وإخلاص . ولكن دورة الانحراف تدور عليهن من جديد ، فتقبل الواحدة منهن على ما سبق أن تمرست به من بيع للجسد . وبعض الناس الذين يعرف عنهم اقتراف الجرائم تنتابهم نوبات من التدين والتقشف والبعد عن ملذات الدنيا . ولكن بعد أن تمر فترة التدين والزهد والتقشف تعود المياه إلى مجاريها ، ويعاود المجرم إجرامه من جديد .

ولنا أن نقول إن الوقت الذي يقضيه مثل هذا المجرم في التدين لا يكون خداعا يخدع به الناس من حوله ، بل يكون حالة حقيقية وصادقة تماما . فهو في أثناء نوبات الإجرام يكون مجرما حقيقيا ، كما أنه في أثناء نوبة التدين يكون متدينا بصدق وإخلاص أيضا . والتناقض الذي يبدو في شخصيته ليس تناقضا لحظيا ، بل هو تناقض فتري . ففي الآن الواحد لا يكون مثل هذا الشخص مجرما ومتدينا ، بل يكون مجرما أو متديناً ، ولا يجمع النقيضين في نفس الوقت .

ونحن نعتقد أن القاعدة العامة هي أن الالهام لا يواتي الشخصية السوية المتكاملة التي استوت فيها القطاعات الثلاثة الأساسية : أعني الناحية الجسمية المتعلقة بالمخ ووظائفه الأساسية ، وقطاع الوجدان بما يشتمل عليه من عواطف مرتبة وغير متصارعة ، وأخيرا قطاع العقل حيث يكون التفكير المنطقي متاحا للشخص . فاذا ما انحرفت الشخصية وتحطم تكاملها لانهيار ضلع من أضلاع مثلث الشخصية ، فان القابلية لتلقي الالهام تكون مستحيلة ، أو هي تزايل الشخصية . وإذا افترضنا أن الشخصية هي

شخصية نوابية ، بمعنى أنها تتقلب على التكامل وعدم التكامل بين الفينة والفينة ، فان من الممكن أن يتاح لها تلقى الإلهام فى أثناء الفتره التى تكون فيها متكاملة وسوية .

ومن المؤكد أن الشخصية التى ينهار تكاملها النفسى بدءا بالخضوع لما يسمى بالنواب ، أعنى التعرض لفترات من فقدان التكامل النفسى ، إنما ينتهى بها الحال فى الأغلب إلى الجنون المطلق وفقدان التكامل فقدانا مستمراً . ذلك أن فترات المرض النفسى تزداد اتساعا من جهة، وتتلاحق بسرعة من جهة أخرى ، فيصير الشخص غير قادر على تلقى الإلهامات التى كان يتلقاها قبلا . وهذا بالفعل ما حدث فى حياة كل من نيتشه وفان جوخ وغيرهما . وقد انتهت حياة كل منهما الإلهامية تماما قبل أن تنتهى حياتهما الفعلية . ولكن فى مقابل هذين المثالين نجد شخصيات أخرى من أمثال ديكارت وطه حسين وأينشتين وقد اكتملت لها الحياة الشخصية المستقرة نفسياً واجتماعيا ، فكان كل منهم جديراً بأن يتلقى الإلهامات المتعلقة بالمجالات التى صب اهتمامه فيها . فتلقى ديكارت الإلهام فى الفلسفة وطه حسين فى الأدب وأينشتين فى الفيزياء . من هنا فحرى بنا أن ندافع عن حياض وحدتنا الداخلية حتى تتيح لأنفسنا فرصة تلقى الالهام .

أول الخيط بين يديك :

قلنا إن الإلهام ليس بيدك ولست مسئولا عن أن تكون شخصية ملهمة. ولكن المسئولية المنوطة بك هى مسئولية إعداد نفسك بالتكامل النفسى وذلك بأن تكون صاحب جهاز عقلى وجهاز وجدانى سليمين وأن تحافظ على جهازك العصبى المركزى الذى يحتل المخ مكان الرئاسة به ما وسعتك المحافظة والرعاية والعناية . فلقد قلنا إن تكامل أضلاع شخصيتك الثلاثة يعد شرطاً أساسياً كنقطة انطلاق نحو المجالات الإلهامية المتباينة . صحيح أنك لا تستطيع أن تكون بالضرورة شخصية ملهمة ، ولكنك تستطيع أن

تعد نفسك لأن تكون كذلك . فالاستعداد للتقبل الإلهامى سابق على تقبل الإلهام نفسه .

وتخشى فى الواقع أن تعد نفسك للإلهام فيواتيك ، ولكنك لا تكون مستعدا الاستعداد الكافى لصياغته واحالته إلى شىء يقع تحت الحواس : ذلك أنك إذا كنت شخصيةملهمة فى الأنغام الموسيقية مثلا ، فان عليك أن تكون قد سلحت نفسك بفنون التعبير الموسيقى حتى تستطيع إحالة ما تتلقاه منإلهامات موسيقية إلى واقع موسيقى يقرأ أو يسمع . وكذا الحال بالنسبة لجميع الإلهامات بكافة أنواعها . فالمتلقى للإلهام يترجم ما يتلقاه إلى واقع محسوس باد للعيان . ولكن إذا لم يكنالمرء مسلحا بالقدرة على الإبانة، فانه يقف عاجزا قبالة ما يتلقاه من إلهام . فثمة إذن جانبان أساسيان يجب ألا يعزبا عن البال : الجانب الأول هو تلقى الإلهام بالفعل . والجانب الثانى — القدرة على الابانة فى المجال الالهامى المعين الذى يختص به الشخص الملهم .

وهناك عامل آخر ضرورى للملهم حتى يتسنى له إحالة الالهام إلى واقع معبراً عنه هو سرعة الالتقاط الالهامى . فالوقت الذى يصرفه المرء بين لحظة تلقى الالهام وبين التعبير عن ذلك الالهام ربما يكون أطول مما يسمح بالقبض على الومضات الالهامية . ذلك أن الالهام يأتى للمرء كومضات سرعان ما تختفى بحيث لا يتسنى للشخص الملهم القبض عليها بعد أن تكون قد تزايلت واختفت . وهناك فى الواقع فرق كبير بين الالهام كما يقدم إلى الشخص الملهم وبين تذكره لذلك الالهام . فالومضات الالهامية إذا ما اختفت فان تذكرها لا يكون تذكر نفس الومضات البراقة المتوهجة ، بل يكون تذكرا لبقايا ذلك التوهج وذلك البريق . إن ما يمكن أن يتذكره الشخص بعد زوال الومضات الالهامية لا يعدو أن يكون شيئا يشبه الضباب القاتم . فالومضات البيضاء اللآمعة سرعان ما تستحيل فى ذهن الشخص الملهم إلى ما يشبه الظلام .

ومن هنا فانك تجد الشخصيات الملهمة تسارع إلى التقاط تلك الومضات الالهامية بسرعة . ولعلنا نحسن صنعا إذا ما اقتبسنا من كتاب الدكتور سويف السابق ذكره اعتراف الشاعر محمد بهجة الأثرى فيما يتعلق بلحظات الالهام الشعرى عنده . يقول الشاعر « إن تطور القصيدة ... كان يجرى بعيدا عن متناول قدرتى فى ناحية بواعثه ودواعيه . أما من ناحية السيطرة فى توجيه هذا التطور فإنى كنت أمارس « عمليته » وفق مشيئتى ورغبتى . ولا عادة لى أمارسها ساعه الكتابة إلا انتحاء المكان الخالى والسكون الشامل حتى لا أحس غير نأمة نفسى ، بل المكان الخالى والسكون الشامل طالما أوحيا إلى فنونا من القول لم يتيسر لى مثلها . وقد تتيقظ الشاعرية عندى فى الأماكن التى تكون فيها حركة وأصوات . لذلك ترانى فى هذه الحالة أسرع فى البحث عن مكان بعيد عن الحركة والجلبة لأنظم قصيدتى تحت تأثير تلك الانطباعات أو الانفعالات قبل أن تفتر النفس وتضيع الفرصة».

ونحن نستطيع أن نميز فى اعتراف هذا الشاعر جانبين أساسين : الجانب الأول — هو التمكن من صناعة الشعر بحيث يكون قادرا على الابانة الشعرية فى القوالب المعروفة فى اللغة العربية . أما الجانب الثانى فهو سرعة الالتقاط الإلهامى . فواضح أنه يشير إلى الومضات الالهامية التى إذا ما أفلتت ، فانه لن يستطيع إذن الامساك بمقاليدها إلى الأبد . وقد وصف دى لاكروا الالهام بأنه صدمة كالانفعال . وقال إن حال الملهم فى لحظة الالهام كحال من يجذب انتباهه فجأة ، عندئذ يختل الاتزان لديه ، ويمضى نحو اتزان جديد ، وينقطع سير العمليات الذهنية ،ويدخل فى الميدان شيء جديد . وطبيعى أن توجد عندئذ حال وجدانية قد تكون عنيفة ، حتى لتبلغ الحماسة ، وينساب فى الذهن سيل فجائى من الأفكار والصور . وقال فليكس كلاى يصف هذه اللحظة أيضا : « إننا نطلق كلمة الالهام على لحظات الابداع الفجائية ، وهى لحظات تنتابنا مصحوبة بأزمات انفعالية ، وتبدو بعيدة عن العمليات العادية للعقل والشعور ، وبعيدة عن حكم الارادة وسيطرتها ، تأتى غير متوقعة ، ومجيئها غير مرهون بدعائنا ، كالنوم

والأحلام . وقال بولدوين معرفا الالهام بانه اشراق الذهن أو تنبه بالذى ينظر إليه كأنما هو آت مما وراء الطبيعة » (الأسس النفسية للابداع الفنى ص ١٧٦) .

والواقع أن انخراط الشخص الملهم فى إلهامه يختلف عن قدرته على التقاط ما يلهم به بسرعة وإثباته واحالته إلى واقع . ولكى يكون الشخص الملهم قادرا على الالتقاط الالهامى وصياغته ، فانه يجب أن يكون قد جهز نفسه بالتمرن على الابانة فى المجال الذى تخصص فيه . وهنا يصح أن نشير إلى عنصرين أساسين حتى يكون التمرين ناجعا . العنصر الأول — الصحة والدقة . والعنصر الثانى — السرعة . فاذا كان الشخص شاعرا مثلا ، فان عليه أن يكون قد تعلم فنون صناعة الشعر إلى درجة الاتقان والتمكن . أما السرعة فانها ضرورية حتى لا تهرب الومضات الالهامية منه. فالواقع أن البطء فى الابانة الشعرية يمكن أن يشكل عائقا أمام الشاعر فى تقبل الالهام . وإنك لتجد بعض الشعراء قد أخذوا ينقحون فى شعرهم الذى سارعوا بكتابته وقت الالهام . ولكن البعض الآخر منهم لا يرضون ذلك ويعتمدون على اللحظة الالهامية وقد اطمأنوا إلى تمكنهم فى فنون الابانة الشعرية . وحجة هذا الفريق الأخير فى هذا هو أن ما يقومون بتدوينه لحظة الالهام يكون صادقا ومعبرا ، وأن أى تعديل يدخله المرء على ما سبق له كتابته إنما يكون من قبيل التشويه وليس من قبيل التحسين . وهنا نذكر ملاحظة ريدلى على كيتس ، إذ يقول إن كيتس قلما كان يعود على قصائده بالتصحيح فى جلسات أخرى غير جلسة الابداع ، ويورد نصا للشاعر يقول فيه « إن قوة النشاط فى لحظة الكتابة تماثل قوة خيالى ، بل إن ملكاتى لتبدو مثارة إلى أقصاها .. فهل لى بعد أن يتعطل خيالى ، وأفقد الحرارة التى كنت أكتبها ، هل لى أن أجلس فى برود وليس معى سوى ملكة واحدة ، لأنقذ ما كتبت وأنا فى حمى الإلهام ؟ » (المرجع السابق ص ٣٤٣) .

وبعد أن عرضنا للمقومين السابقين ، أعني الصنعة من جهة ، والالتقاط الإلهامي السريع من جهة أخرى ، فان علينا أن نعرض للمقوم الثالث الذي ينبغي أن توفره لنفسك باعتبار أن هذه المقومات الثلاثة تشكل أول الخيط الذي يجب أن تمسك به وتحذر من أن يفلت منك . والمقوم الثالث الذي نعنيه هو التخطيط العام للعمل الإلهامي . فالمفهوم أو الانطباع يواتيك فجأة كمسألة عامة غير محددة التفاصيل وغير متعينة القسمات . فما عليك إلا أن تسارع إلى تسجيل ما تلهم به بسرعة حتى لا يضيع منك . ولكن بعد أن تلتقط الومضات العامة ، فان عليك أن تتأملها لكي تضع تخطيطا بعيد المدى أو تخطيطا يحتاج منك إلى نفس طويل وإلى وقت قد يمتد إلى سنوات لكي تضطلع بتنفيذه . وواضح أن هذا التخطيط الذي تضعه لا يتسم بالعفوية بل يكون بالتأمل أو بالدراسة الطويلة أو المكثفة . وهنا نجد أن الصنعة والخبرة والتمرس بالمجال الخبرى تلتحم جميعاً مع الإلهام في إنتاج العمل .

ولا شك أن اعتمادك على الإلهام الطفرى فحسب لا يوفر لك إلا انتاج الأعمال المتقطعة والصغيرة . ولكن إذا ما تأملنا الأعمال العظيمة كوضع سيمفونية أو ككتابة قصيدة طويلة ، أو كنحت تمثال كبير ، فاننا نجد في أي من تلك الأعمال جانبين أساسيين : الجانب الأول — هو الجانب الالهامي ، والجانب الثاني — هو الجانب التخطيطي . على أننا لا نستطيع أن نقول إن جميع الأعمال التي تحتاج إلى تخطيط أو إلى نفس طويل تشتمل في نفس الوقت على الجانب الالهامي . لقد تكون بعض الأعمال استمرارا لأعمال سابقة ، أو قد تكون بمثابة تنفيذ لأوامر أو توجيهات أو بمثابة تحقيق لرغبات أو تحقيق لأهداف اجتماعية . ومن أمثلة الأعمال الالهامية المخططة مسرحية ماالشكسبير فهي تتضمن الجانب الالهامي من جهة ، والجانب التخطيطي من جهة أخرى .

على أننا لا ننكر أن الجانب التخطيطي في الأعمال الابداعية تشتمل في طياتها على بعض الجوانب الالهامية الفرعية . فثمة في مراحل العمل وفي

أثناء انجازه جوانب يمكن أن توصف بالصنعة ، وجوانب أخرى يمكن أن توصف بالالهام . ولا شك أن الجانب الالهامى إذا كان هو السائد فى العمل ككل ، فانه يكون إذن أرقى وأفضل . ولكن ليس هناك تعارض بين أن يكون الشخص المبدع قد ارتكز على أسس موضوعية وخبرية أو على خبرات الآخرين ، وبين أن يكون ملهما ومبدعا . فكثير من الأعمال الابداعية الرائعة تجمع فى طياتها بين الصنعة وبين الأصالة ، ولا تكون الافادة من الخبرات السابقة أو التمسك بأصول الصنعة مدعاة للتقليل من قيمة العمل. المهم أن يكون العمل الذى تقدمه بمثابة كائن حى روحه الالهام وجسمه الصنعة والتزام التقنيات المعترف بها عند أصحاب الفن الذى تعمل فى اطاره.

ولكن ... لتكن لك فلسفة :

صحيح أنك لا تستطيع أن تجعل نفسك شخصية ملهمة ، وصحيح أيضا أن كل ما بيدك هو أول الخيط فحسب ، أعنى أن توفر لنفسك الشروط الأولى لكى تكون مستعداً لتقبل ما قد يوهب لك من إلهام وذلك بأن تكون شخصية متكاملة ، ولكن هذا لا يعفيك من أن تشكل لنفسك فلسفة حياة تعيش وفقها وأن تنهج بمقتضاها فى حياتك وفى جميع تصرفاتك . والواقع أن إعداد نفسك لأن تكون شخصية متكاملة شىء ، وأن تكون لك فلسفة حياتية شىء آخر . وما نعنيه هنا لدى استخدامنا لكلمة فلسفة هو أن تدير حياتك وفق مبدأ واحد كبير يتسع لجميع تصرفاتك ولأنحاء حياتك المتباينة. فأنت عندما تتخذ لنفسك فلسفة فى حياتك ، فانك تكون بذلك قد جعلت هناك دفة لسفينة حياتك . فاذا أنت أعددت نفسك فقط لأن تكون شخصية متكاملة بغير أن تكون لك فلسفة حياة تستهدى بها فى فكرك ووجداناتك وتصرفاتك ، فانك بهذا تكون قد عرضت مستقبل حياتك لكل خطر يمكن أن يتهددك ، وبالتالى فانك يمكن أن تتخبط بغير هاد يهديك ، وبغير أن تكون لك قدرة على توجيه شخصيتك نحو مستقبل واضح . فبغير فلسفة الحياة فانك تكون سائراً فى حياتك خبط عشواء بحيث تصير عرضة للتخبط

والضياع والانتهاء إلى أى اتجاه يقذف بك تيار الحياة نحوه . ولكن إذا ما كونت لنفسك فلسفة ، فانك تكون بذلك قد ضمنت تسيير فكرك وعواطفك وتصرفاتك وفق خطوط محددة ، وقد ضمنت لنفسك عدم العصف بك إذا ما هبت رياح النزوات ، أو إذا ما طرأت ظروف تبعد بك عن جادة الصواب ، أو تشط بك كما تشاء .

ولعلنا فيما يلي نعرض عليك بعض الفلسفات الحياتية التى يمكنك الاختيار من بينها ، فتتخذ لنفسك واحدة منها دون غيرها لتكون نبراسا لك تستضيء به وتلتزم بمقرراته ، ولا تنأى عن أحكامه ، ولا تنحرف عن جادته . على أن اختيارك لواحدة من هذه الفلسفات التى نقدمها إليك إنما يكون اختيارا وفق ما جبلت عليه من جهة ، ووفق ما صرت إليه من مركب خبرى كبير ومتراكب من جهة أخرى .

والفلسفة الأولى المقترحة هي الفلسفة الحدسية . والحدس هو إصدار أحكام قطعية لا تستند إلى مقدمات أو أسانيد . إنها الأحكام التى تصدر بناء على استضاءة داخلية يحس المرء بصدقها وعدم زيغانها على الاطلاق . والواقع أن هناك من الناس من يمكن اعتبارهم شخصيات حدسية . فهم يقدمون أحكاما على الأحداث والأشياء والأشخاص والمواقف لحظة بلحظة وبغير انتظار لمقدمات منطقية أو لشواهد عملية يستندون اليها أو يقيمون أحكامهم بمقتضاها . ولقد يذهب البعض إلى اعتبار الحدس بمثابة خبرة سابقة ومكثفة ، أو هو أحكام على المواقف الحاضرة والمستقبلية فى ضوء مواقف سابقة مشابهة تمام المشابهة لها . فأنت تحكم على الشبيه بنفس الحكم الذى سبق أن أصدرته على شبيهه . ولقد كان حكمك السابق على الشبيه قائما على مقدمات وشواهد واقعية ، ولكنك وجدت نفسك فى الموقف الجديد فى غير حاجة إلى أن تستلهم المقدمات أو أن تقف على شواهد واقعية ، فتكتفى بالمقدمات المنطقية والشواهد العملية السابقة المتعلقة بالموقف السابق . فاستغناؤك عن المقدمات والشواهد فى الموقف الجديد هو

نوع من التكثيف الخبرى ، أو قل إنه تطبيق نتائج خبرة سابقة على خبرة آنية .

ولقد يزعم البعض الآخر من الناس أن الحدس هو فى الواقع حصيلة خبرية جمعية تأتت لنا نتيجة توارث لخبرات بشرية بائدة تمتد إلى أجيال سابقة كثيرة جدا . فنحن البشر لا نرث عن أجدادنا البعيدين جدا عنا — عافيهم أجدادنا بالقبائل البدائية — المقومات البيولوجية فحسب ، بل إننا نرث إيضاً خبراتهم التى لاقوها والتى حصلوها فى مواقف حياتهم المتباينة.. فثمة إذن — بناء على هذا التفسير — وراثتان : وراثة بيولوجية تتعلق بالجسم وتركيبه وكيميائيته ، ووراثة أخرى نفسية أو خبرية تتعلق بالخبرات التى نزلت الينا بحيث نتلبس بها ونتسلح . وهذه الوراثة الأخيرة تساعدنا على إصدار أحكام صحيحة وسريعة على المواقف التى تعتبر جديدة بالنسبة لنا ، ولكنها ليست جديدة فى ضوء ما سبق لنا أن ورثناه عن أسلافنا القريبين والبعيدين على السواء .

وسواء كان الحدس نتيجة خبرات مرت بنا شخصيا فى هذه الحياة ، أم كان نتيجة وراثة عن أسلاف بعيدين ، أم كان منحة روحية يختص بها بعض الناس دون بعضهم الآخر ، فإن الذى لابد من تقريره والاعتراف به هو أن بعض الناس أكثر قدرة على الحدس من سواهم ، وأن أحكام الحدسيين تكون أحكاماً متينة إذا ما كانوا قد استهدوا بالحدس فعلا ، وإذا لم يكونوا قد جانبوا أحكامه وما يوحى به اليهم . ونحن نعتقد أن من يتسلحون بالفلسفة الحدسية فى حياتهم هم أولئك القمينون بأن يكونوا شعراء أو فلاسفة أو روائيين أو فنانين تشكيليين . ولعل السؤال الذى ينبغى أن توجهه إلى نفسك هو ما إذا كنت بالفعل من الشخصيات الحدسية . فإذا كنت كذلك ، فإن عليك أن تخضع حياتك بمقوماتها العقلية والعاطفية والعملية للحدس حتى تستطيع أن تسلك فى الطريق السديد المناسب لطبعك ومزاجك وتكوينك .

أما الفلسفة الثانية التي نقترحها فهي الفلسفة المنطقية . ونحن نعلم أن المنطق له شقان أساسيان . فثمة طريق الاستقراء من جهة ، وثمة طريق الاستدلال من جهة أخرى . والاستقراء كأن تقول إن جميع قطع الحديد التي صادفتها وعرضتها للحرارة تتمدد . إذن فأستطيع أن أخلص إلى قاعدة عامة تقول إن الحديد يتمدد بالحرارة . أما الاستدلال فمن أمثلته أني أقول إن الحديد يتمدد بالحرارة كقاعدة أسلم بها . وهذه القطعة الموجودة أمامي مصنوعة من الحديد . وعلى هذا فاني أصدر حكما بأن هذه القطعة الموجودة أمامي تتمدد بالحرارة إذا أنا قمت بتعريضها للحرارة .

ومعنى هذا أن الاستقراء يبدأ بالجزئيات إلى القاعدة العامة ، بينما يبدأ الاستدلال من القاعدة العامة ويخضع كل الجزئيات أو أي جزئية من تلك الجزئيات لما تقرره تلك القاعدة العامة . وقل نفس الشيء لا في مجال الأشياء المادية فحسب ، بل بإزاء جميع الأشياء والأحياء والأحداث والمواقف . وأنت تكون شخصية منطقية طالما أنك تستعين بالاستقراء والاستدلال . وفي الحالتين فانك تعتمد على شيء تصدر أحكامك في ضوئه. ففي حالات الاستقراء ، فانك تعتمد على الخبرة العملية . أما في حالة الاستد ل فانك تعتمد على القاعدة العامة التي جعلتها نبراسا لك تستهدى به في أحكامك ، وفيما تقرره بإزاء جميع الحالات الفرعية الجزئية التي تصادفك .

فإذا كنت شخصا منطقيا لا حدسيا ، فانك تكون إذن ميالا إلى الاستعانة بالمنطق في حياتك اليومية . إنك لا تصدر إذن أحكامك بغير مقدمات تستند اليها . إنك إما أن ترتبط بالوقائع المحسوسة . وإما أن ترتبط بقاعدة تكون قد صدقتها وآمنت بها ولا تخالف عنها . ولكن لا يكفي أن تقول إنك شخص منطقي بل يجب أن تتسلح بالفاسفة المنطقية ، وذلك بأن تمتد إلى مسافات بعيدة في هذا المضمار ، وألا تخلط بين فلسفتك المنطقية وبين فلسفة غيرك الحدسية . لا يصح مثلا أن تكون منطقيا في

بعض المواقف بينما تكون حدسيا فى مواقف أخرى . إن إيمانك بالفلسفة المنطقية يجب أن يكون إيمانا قاطعا وقويا وثابتا فى أعماق نفسك . والإيمان يتطلب منك التمرس بما تؤمن به . فلا تقف من إيمانك موقف المتفرج ، بل اجعل منه شجرة باسقة يانعة مثمرة فى حياتك . وذلك بأن تدرب نفسك على التفكير المنطقى بأبعاده الكثيرة ومجالات تطبيقه المتباينة فى شتى المواقف والأحداث .

ولا شك أن الشخصيات المنطقية هى أفضل الشخصيات صلاحية لأن تكون شخصيات علمية . فالعلماء والتكنولوجيون والمخترعون هم فى الواقع أناس لديهم استعداد لأن يكونوا شخصيات منطقية . ذلك أنهم يصدرون الأحكام على الموضوعات التى تقابلهم بما لديهم من استعداد وقدرة على التفكير المنطقى العلمى .

أما الفلسفة الثالثة فهى الفلسفة الاجتماعية . فثمة شخصيات لديها قدرة على إنشاء علاقات اجتماعية بين الأفراد بعضهم وبعض ، أو بين الجماعات بعضها وبعض لم تكن قائمة من قبل . والشخصية الاجتماعية لديها قدرة نسميها بالقدرة على التجميع . فالزعيم أيا كان — وفى أى موقع يكون — هو شخصية لديها قدرة تجميعية. فهو يجعل من الأفراد المتفرقين أو من الجماعات المتفرقة تكتلات ، ولكأنه يجعل الكثرة وحدة . وهو يسير فى العمليات التجميعية بموهبة زعامية يصعب تقليدها أو تعلمها . فإذا كنت تستشعر فى نفسك هذه الموهبة أو القدرة ، فأنت إذن زعيم بطبعك ، وتستطيع أن تحيل ما بداخلك من استعداد إلى واقع اجتماعى .

والمهم فى جميع الأحوال أن يعرف المرء نفسه . فعليك بسؤال نفسك : هل أنت شخصية حدسية أم شخصية منطقية ، أم أنك شخصية اجتماعية . إنك إذا ما عرفت نفسك ، فإنك تستطيع بالتالى أن تتسلح بالفلسفة التى تناسبك . ومن المؤكد أن تسلحك بالفلسفة التى تناسبك سوف يساعدك على تقبل ما عسى أن يوجه إليك من إلهام متمش مع طبيعتك وخبرتك ومع ما اخترته لنفسك من نهج فى الحياة .

الفهـرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

للمؤلف بمكتبتنا

رقم الايداع ٢٥٠٣ / ٨٣

الترقيم الدولى ٦ ــ ٠٤٠ ــ ١٧٢ ــ ٩٧٧

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ــ القاهرة)

ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) ــ تليفون : ٢٢٠٧٩

هــذا الكتــاب

موضوعه جديد ، كانت مكتبتنا العربية مفتقرة اليه • قام مؤلفه بمعالجته بجراة وموضوعية وبروح علمية صادقة ، مستفيدا فى دراسته له بخبرته الشخصية وبخبرة الآخرين النفسية •

اما المنهج الذى اتبعه المؤلف والتزم به ، فانه جدير بالملاحظة • انه المنهج الفلسفى التاملى • فهو يستنطق الافكار التى يعرض لها الى أن يسبر أغوارها ويقدم انحـاءها التى كانت مخبوءة عن الأنظار قبل تنـــاولها •

والواقع أن أصحاب هــذا المنهج التاملى هم الذين يقدمون للعلماء الأطر الفلسفية التى عليهم أن يملأوها بالتجريب والقياس والتحقيق • ذلك أن النظر سابق على التطبيق ، كما أن الفكر الفلسـفى سـابق على الفكر العـــلمى •

وعلى علماء النفس اذن أن يتناولوا هــذا الفكر الوارد بهــذا العمل وأن يضــعوه تحت محك التجريب والقياس ، لكى يكملوا مشــوارا بدأه المؤلف وقطع فيه شوطا فلسفيا بعيدا • ولسوف يظل الفكر الفلسـفى السيكلوجى ضوءا يمهد الطريق أمام علماء النفس ، لأن العـلم الذى لا يستهدى بفلسفة ، انما يسير فى طريق مسدود لا يبشر بتقدم •

فهــذا الكتاب اذن جدير بالقراءة المتمعنة والتامل المســتأنى •

عبد الحميد احمد غريب

دار غــريب للطبــــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص • ب ٥٨ (الدواوين) ــ تليفون : ٢٢٠٧٩